275

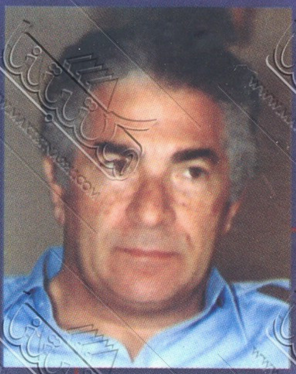
أنيس منصور



غريب فى بلاد غريبة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

Monday
6/8/2012
Riyadh



غريب فى بلاد غريبة

إن أجمل وأصدق وصف قاله الأب الفيلسوف «تايلارى شاردان» فى أحد كتبه الذى سجل به رحلاته إلى بلاد الصين هو: «إننى أولد فى هذه الرحلات ... إننى أنظر فى جشع وشراسة .. هذا هو طعامى .. ثم إننى شربت وارتويت وسكرت، فليس من الناس وتاريخهم، ولا النباتات والحيوانات .. ولكن من الضياء الذى يتدفق إلى أعماقى».

ولهذا .. فأنا إذا سافرت لا أحتاج إلى أى وقت .. ولا لأى استعداد نفسى .. فى أى لحظة أستطيع أن أزرر الجاكتة .. وأقفل باب المكتب وأنطلق إلى المطار .. أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج .. أو يمكن غسلها فى الفندق .. وكل شىء بعد ذلك يهون ..

المهم ـ دائمًا ـ هو السفر .. هو الخروج .

وليس السفر تغيير المكان .. المشى أو النوم أو الأكل .. وإنما تغيير للموقف .. تغيير للسمع .. جلاء للبصر .. تجديد للرؤية.

فحينما سُئل الفيلسوف «تايلارى شاردان» عن سر سعادته قال: «إن الأرض كروية! وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله!».

أنيس منصور



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

6 221133 302647

أنيس منصور

غريب فى بلاد غريبة

(أربعة كتب فى كتاب واحد)

١ـ بلاد الله.. خلق الله

٢ـ أطيب تحياتى من موسكو

٣ـ اليمن.. ذلك المجهول

٤ـ أيام فى الجزائر البيضاء..

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان:

غريب فى بلاد غريبة

تأليف:

أنيس منصـور

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولى: 8-2387-14-977
رقم الإيداع: 15360 / 2003
الطبعة التاسعة: ينايـر 2010

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابى -
المهندسين - الجيزة

إلى أى مكان

فى نهاية الليلة ٤٢٥ من ألف ليلة وليلة تتحدث شهر زاد إلى الملك شهريار عن رجل شيال اسمه السندباد الشيال . . وأنه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملابسه وينتقل إلى أى مكان . .

وانتقل من بيته إلى بيت آخر لا يبعد كثيرا عنه . .

ووضع الشيلة التى يحملها على كتفه فوق مصطبة . . ثم جلس . . وأحس أن نسيما عليلا وشذى جميلا يخرج من فتحة الباب . .

فاتجه إلى الباب بأنفه وشعر بالسعادة . .

وأدرك شهر زاد الصباح!

وشهر زاد لم تكمل القصة لأنها ـ كعادتها ـ تريد أن يظل شهريار ملهوفا على القصة الجديدة . . وبذلك يطيل عمرها ليلة بعد ليلة .

ولو كنت من شهريار لاكتفيت بهذا القدر . .

فهذا الرجل سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة المتواضعة بعض النسيم والعطر .

وهذا يكفى مكافأة على أنه انتقل من مكان إلى مكان .

أو فكر فى أن يترك الأرض التى ضاق بها . . أو البيت الذى مل الإقامة فيه . .

إننى أرى أن هذه الليلة التى لم تكملها شهر زاد قد كملت . . فالرجل انتقل . . وجلس وشم الهواء والرائحة . . وهذا يكفى . . وفى كل مرة ينتقل سندباد من مكان إلى مكان يلقى المكافأة السخية على ذلك . . مهما كانت مخيفة أو متعبة فهى لذيذة . . ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم أنه ممثل فى قصة . . أو بطل مسرحية . . كل ما يعمله هو تمثيل فى تمثيل . . وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقى بكل ماهو جديد . . محروم من الخوف الحقيقى . . والعذاب الحى . . وهو يرى أن كل جديد بلاء . . وأن كل مغامرة كارثة . . وعلى

الرغم من أنه «يمثل» فى ألف ليلة وليلة ، فإنه يريد أن يفرغ منها . . تماما كما لو كان مغامرا حقيقيا تعذب كثيرا وينشد الراحة بعد ذلك!

إننى لا أحسد سندباد . .

فهو لم يستمتع بالتجربة الأولى . . والمفاجأة الأولى . . والفزع الذى لا قرار له . . والحيرة التى لا حدود لها . . ولا أحسده أيضا . . فقد تمنيت أن يطول كل شىء . . فلا شىء يخيف . . ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الكثيرة إلا التعب الذى جعلنى عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة . . ولو كانت لى قوة سندباد وعضلاته وشهيته المفتوحة إلى الطعام وقدرته الفذة على أن ينام فى أى مكان وفى أى وقت لشربت مياه المحيط . . لكى أعبره بعد ذلك ماشيا على قدمى . . ولنقلت الجبال وردمت بها الوديان لكى أتمشى على مهلى من دولة إلى دولة .

إنه لم يتعذب . . ولم يسعد بالراحة بعد العذاب . . إنه لم يعش ، وإنما كان يمثل دورا فى الحياة!

ولم يعجبنى من كل مذكرات «ماركو بولو» التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر إلا هذه العبارة . . «وعندما عاد أبى وعمى من الصين ، كانت أمى قد ماتت . . وكنت وحدى فى البيت وقد بلغت العشرين ، وسألنى أبى : هل تجىء معنا؟ . . وكنت أنتظر هذا السؤال . . وقد أعددت له إجابة مركزة : نعم ـ وأشار أبى وعمى إلى أن أستعد . . وكنت قد أعددت كل شىء ، وفى اليوم التالى اتجهت إلى الصين . ولم أستطع أن أصارح أبى بأنى قد نسيت معظم ملابسى . . من شدة الفرحة . فارتديت ملابس والدى وعمى . . وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به وأروى لنفسى مغامراتهما : لقد عشت حياتهما دون أن يعرفا ذلك . . فلم تبق إلا ملابسهما أيضا . . وارتديتها . .» .

وأنت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى أعجبتنى وأضحكتنى وهزتنى والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى أعجبنى من كل صفات ماركو بولو . . إنه نسى ملابسه . . ولم يحمل معه شيئا منها . . فهذا بالضبط ما أفعله بحكم العادة .

ولا أنسى يوم سافرت لأول مرة إلى إيطاليا . . ووقفت فى المطار أتحدث إلى أحد

موظفى الجمرك وكان من تلامذتى فى الجامعة . . وطال الكلام وطال . . وسألنى واحد منهم .

وأين حقائبك؟

قلت : لماذا؟

قال : لكى نبعث بها إلى الطائرة؟

قلت : هذه؟

وصرخ الرجل : معقول هذه؟!

قلت : فقط هذه الحقيبة .

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه أن حقائبى لم تحضر بعد . . ولم تكن غير حقيبة واحدة بها قميص وبنطلون وماكينة حلاقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب . . لكى أبقى شهرا فى إيطاليا!

ومرة أخرى لكى أؤكد لأصدقائى الذين أحسوا أننى سوف أسافر بعيدا ، حملت حقيبتى الصغيرة معى . . وسألونى : إذن أنت مسافر إلى الإسكندرية .

قلت : نعم . .

قالوا : هذا واضح . .

وهم يقصدون أن الحقيبة صغيرة ، وأن الملابس التى بها قليلة . . ولم أكن مسافرا إلى الإسكندرية وإنما كنت مسافرا إلى الهند ومنها إلى أستراليا . . إلى اليابان وأمريكا . . وأكثر من ٢٣٥ يوما متواصلة!

فأنا أضيق بأن يعرف أحد موعد سفرى فيضطر إلى أن يرهق نفسه بتوديعى . . كما أننى أضيق بالوداع . . وأضيق بالاستقبال أيضا . . ولا أرى لذلك مبررا . . ولا أعرف ما الذى يقال أو ما الذى أقوله ذهابا وإيابا .

أو كأننى لا أصدق أننى سوف أسافر . . فإذا لم أتمكن من السفر ، فلا أحد قد عرف ذلك . . مع أنه لم يحدث مرة أخرى أن اعتزمت السفر ولم أسافر . . ولكنه خوف قديم ثابت ليس له ما يبرره غير أن له تاريخا فى طفولتى . . ولم أفلح فى التخلص من بقايا أوجاع هذه الطفولة بعد . . ولا أظننى قادرا على ذلك!

ومرة ضاعت حقيبتى فى مطار فرانكفورت .

ولا أعرف كيف ضاعت وأعتقد أننى نسيتها فى الطائرة . . فقد كانت حقيبة يد صغيرة . . وكان لابد أن أتخلف ليلة فى ألمانيا قبل سفرى إلى السويد . . وفى هذه الحقيبة كل ملابسى الضرورية . . وهى قليلة جدا .

وذهبت إلى مكتب شركة الطيران ، ووعدنى الموظفون بالعثور على الشنطة فى أسرع وقت . . وأرسلوا برقيات وانتظروا . .

وسألوا عن احتياجاتى الضرورية . . وعن محتويات الشنطة بالضبط . . وقلت ـ وأنا كاذب مع الأسف ـ : بيجاما صوف وملابس داخلية . . ومناديل وجوارب وفوط وصابون وأمواس حلاقة وعطر ومعجون أسنان .

وبسرعة فوجئت بكل هذه الأشياء فى غرفتى فى الفندق ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد للوعد بالعثور على شنطتى الضائعة .

وشعرت بالخجل مرة أخرى لأننى تصورت ما الذى سوف يحدث عندما يجدون شنطتى الصغيرة وليس بها سوى بيجاما واحدة . . وقطعة واحدة من كل شىء ، وتمنيت ألا يعثروا عليها أبدا . .

وسافرت وعدت . . وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشنطة الملعونة فى انتظارى . . وأنا عندما كذبت كنت أتستر على فضيحة أخرى هى أن ملابسى قليلة لا تذكر !

هكذا . . أنا إذا سافرت لا أحتاج إلى أى وقت . . ولا لأى استعداد نفسى . . فى أية لحظة أستطيع أن أزرر الجاكيتة . . وأقفل باب المكتب وانطلق إلى المطار . . أما الملابس فيمكن الحصول عليها من الخارج . . أو يمكن غسلها فى الفندق . . وكل شىء بعد ذلك يهون . . فالمهم ـ دائما ـ هو السفر . . هو الخروج .

وليس السفر تغييرا لمكان المشى أو النوم أو الأكل . . وإنما هو تغيير للموقف . . تغيير للسمع . . جلاء للبصر . . تجديد للرؤية .

وعندما سافرت إلى أوروبا لأول مرة لم يتسع وقتى لكى أخبر أحدا من الناس . . فقد علمت بالسفر فى الصباح . . وفى المساء كنت فى المطار . . فى الجو . . فوق البحر الأبيض المتوسط . ومن الطائرة رأيت مدينة الإسكندرية لأول مرة . . فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل . . وعندما سافرت إلى الكونغو قيل لى فى التليفون : تسافر؟

قلت : طبعا . .

- ودون أن تعرف إلى أين؟

- لا يهم . .

- إذن إلى الكونغو . .

- حالا .

- اتجه إلى المطار .

واتجهت إلى المطار وفى يدى صحيفة «الأخبار» وقد لعقت بها قميصا وجوربا ومنديلا وكتابا . .!

وليس يحدث هذا فقط إذا ما سافرت إلى الخارج وإنما إذا سافرت إلى الإسكندرية . . كل ما أذكره هو هذه السرعة فى السفر . . فى الانطلاق . . الضيق الوحيد الذى أشعر به هو ملابسى التى لايمكن أن تفارقنى . . ثم هذه السيارة أو الطائرة التى ليست لها سرعة الضوء فى الانتقال من شاطئ النيل إلى شاطئ البحر!

وفى إحدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة . . ولما سألنى موظف الاستعلامات عن الشنط . . أدركت أننى نسيت الشنطة فى القاهرة . . أو نسيت أن أعدها . . فقلت له : حالا .

ونزلت إلى الشارع وبحثت عن شنطة وضعت فيها ملابس اشتريتها وعدت إلى الفندق .

ولم أكد أنهى دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لى أمامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه !

وعرف موظف الاستعلامات أننى اشتريت الشنطة وما بها . . ومنذ لحظات . . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقى وراء هذا التصرف . . ولكن المعنى الحقيقى هو أننى إذا قررت السفر فمعنى ذلك أن تسافر نفسى . . روحى . . عقلى . . أما هذه الأشياء الأخرى فتجىء فى الدرجة الثانية ، وفى معظم الأحيان لاتجىء!

وأجمل وأصدق وصف لى هو ما قاله الأب الفيلسوف تايلار دى شاردان الذى كان أستاذا للعلوم فى القاهرة فى كتابه الذى سجل به رحلاته إلى بلاد الصين :

أننى أولد فى هذه الرحــلات . . أننى أنظر وأنظر فى جــشع وشــراســة . . هذا هو طعامى . . ثم أننى إذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات . . ولكن من الضياء التى تتدفق إلى أعماقى؟»

ويقول الأب دى شاردان : «إنها هذه النفس الغامضة . . إنها «أنا» . . هذه «الأنا» المغامرة . . الباحثة . . الأنا التى تريد أن تذهب إلى أبعد مكان فى الدنيا . . إلى أطراف كل شىء . . وكل إنسان . . وكل فكرة . . إنها هذه الأنا التى تريد أن ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . أننى أريد أن أعرف بصراحة وبإيجاز ما الذى يكمن فى أعماق هذا الأنا الإنسانى» .

ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : إن الأرض كروية!

فهى تدور ونحن ندور .

لا هى تهرب من تحت أقدامنا . . ولا نحن نهرب من فوقها . . وحتى عندما ننطلق بعيدا عنها فسنظل مشدودين إليها . . وعلى موعد معها . . لكى نسافر من جديد . . نسافر فى البر أو فى البحر أو فى الهواء . . بلا حقائب . . فالحقائب لا تهتم . . فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا أهم من الحقائب . . نحمل الشوق الذى لا يخمد إلى كل ماهو جديد : فى الأرض . . وفى الناس . . وفيما بين الناس . . فى كل أرض . . وبين أى ناس . . فالأرض لله . . والناس أيضا . . ولا فرق بين الناس هنا والناس فى أى مكان . . فكل الناس ينشدون راحة البال ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة ليهضموا الطعام . . ويعطيهم الطعام لتهضمه المعدة . . ويعطيهم الحرية ليفعلوا بما لديهم ما يريدون . . وأن يعطى الجميع سلاما فى النفس وفى الحب وسلاما بين النفوس والعقول .

فكل أرض لله . . وكل ناس مخلوقات الله .

وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله!

أنيس منصور

بلاد الله.. خلق الله

الكونغو.. بلا لومومبا

.. وقفزت إلى السرير!

اصطدمت بأحد الناس في مطار القاهرة . . وتلهفت على الاعتذار له فاصطدمت بواحد آخر . . وعندما صدمنى شخص ثالث وجدت أن الفرض الذى يريح الإنسان هو أن يقول لنفسه أن كل الناس بهائم . .

ولم يكن هذا الفرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس أشباح . . ونصف هذه الأشباح جنود . . ونصف الكلام باللغة الإنجليزية ذات الخناقة المعروفة . . ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو الألسنة وما أعرف كم من هذه الكلمات التى أسمعها : إنجليزى وكم أمريكانى . .

فالمهم هو أن أجد لى مكانا فى الطائرة التى هناك . . والتى لا أراها بوضوح ولا أعرف أحدا من ركابها . . ولا أعرف إن كانت على استعداد لأن تقبل مسافرا مثلى . . أو شحنة بشرية متجهة إلى الكونغو .

وحاولت أن أتجه إلى مصدر الضوء فى المطار . . وحاولت أن أختار شخصا أصطدم به لعلى أرغمه على أن يقبل اعتذارى . . ومع هذا الاعتذار أسأله : إلى أين نحن مسافرون؟ وفى أية طائرة .

وفجأة أضىء جانب من المطار . .

وظهرت الطائرات ضخمة . . لونها أسمر . . كأنها اشتعلت فى السماء . . وأنقذت فى آخر لحظة . . أو كأنها عندما احترقت سقطت عليها الأمطار بمعجزة . . ولذلك تحتفظ هذه الطائرات بلون السحاب ولون الدخان . . وعلامات بيضاء هى إمضاء البرق على هذه اللوحة القاتمة .

ولاحظت أيضا أن كل الذين التفوا حول هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين إلى الكونغو . . وهم جنود المظلات . . ولاحظت أيضا أن هناك سيارات اتجهت إلى هذه الطائرة . . ثم إلى داخل الطائرة . . وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود والقنابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولا بد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين .

فالمدنيون ـ مثلى ـ لا تقوى أجسادهم التى اعتادت على المقاعد الجلدية والقطنية ، أن يتمددوا على الحديد . . وإلا أن يتراجعوا بمقاعدهم إلى الوراء ويناموا فى هدوء . . أو يصطنعوا النوم . . حتى تجىء المضيفة وتقول لهم : اصبحوا على خير . . وإذا كنتم فى حاجة إلى أى شىء فلا تترددوا!

ومن المألوف أن يتردد الإنسان فى طلب معظم الأشياء . . لأن من حق المضيفة أن تنام هى الأخرى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وفى هذا الظلام لمست يدى يد أخرى . . واستسلمت يدى والتفت بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت أنا إلى صاحبة الذراع وقلت :

- أين طائرتى يا مدموازيل!

فقالت المضيفة الإنجليزية : أنت مطلوب فى الاستعلامات .

قلت : أنا بالذات . .!

قالت : نعم . .

ولم أناقش طويلا ونحن واقفان فى الظلام . . إنما اختصرت الطريق وادخرت الكلام لكى أراها فى النوم أوضح وعلى مهل .

وفى النور قابلنى أحد رجال الجيش وسألنى إن كنت أحد الصحفيين المسافرين إلى الكونغو . . وسألنى عن بقية الزملاء . . وبسرعة ظهر الزملاء . . وبسرعة سألنى أيضا : أين الحكمدار . .

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة «حكمدار» وأرى أن الموقف يقتضى أن أكون هذا الحكمدار . ووجدت الإجماع قد اختارنى حكمدارا .

وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذى يتلقى الأوامر ويبلغها إلى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن عددنا أربعة . فإننا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار . وانتهزت فرصة تعيينى حكمدارا واعتذرت . وغضب الضابط لهذه الفوضى ورفض أن يبلغنا الأوامر التى لديه .

ولم نعرف حتى الآن ما هذه الأوامر . .ومستحيل أن نعرفها مادمت قد رفضت هذه الوظيفة .

وفى آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له : إنه فى استطاعته أن يكون حكمدارا . وفرح الضابط لهذا الضبط والربط . . وجاءت التعليمات صريحة تقول : **إن أحدا ليس مسئولا عن سفرنا إلى الكونغو . . وإنه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون!**

وكان هذا القرار مثل ستين قلة قناوى قد انكسرت وراءنا قبل أن تتحرك الطائرة . . أو بعبارة أخرى : فى ستين داهية . . وألف نهار أبيض أن البلد قد تخلص منا جميعا!!

وابتلعت هذه الأمنية الغالية ونظرت إلى الطائرة وهى تقذف اللهب . . وتعلقت عينى بالمواد المتفجرة التى امتلأت بها الطائرة . . ووجدت أن هذه الطائرة هى «الداهية» التى سوف نذهب بها ونذهب إليها . . وأنه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة فى لحظات إذا ما انفجرت هذه الطائرة فى المطار واستراحت البلاد منا .

وفى هذه اللحظة لم أكن أتصور أننى عبء على البلد لهذه الدرجة . . ولم أكن أتصور أن الخلاص منى يحتاج إلى ثورة فى الكونغو . . وإلى إرسال قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية إلى الكنغو وإلى طائرة ضخمة تسافر فى ساعة متأخرة من الليل ، ولكن يظهر أن الإنسان يعيش ويموت دون أن يعرف قيمته الحقيقية عند غيره من الناس!

ونظرت إلى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتى الحقيقية . وعرفت هذا القبر الطائر . . هذا الجحيم المنطلق .

وبسرعة تخلصت من أهميتى وقيمتى التى احتفظت بهما منذ تركت مكتبى فى «أخبار اليوم» حتى جئت إلى المطار . . وأحسست بشىء من الخفة . . وشىء من الحرية . . فالمطار أصبح بالنسبة لى منطقة انعدام الوزن والقيمة والأهمية . . وفى الظلام وبين الجنود وبين الأشباح اتجهت إلى إحدى الطائرات . . ووجدت الجنود قد حجزوا أماكنهم . . ملابسهم صفراء . . شبان سمر . . . على وجوههم الإرهاق . . وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه . . وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتى فيها إشفاق وفيها زمالة . . وأفسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة . . نعم على أرض الطائرة . . فالطائرة لها أرض . . بل كل جدرانها أرض . . إنها عارية تماما ، جلد على

عضم . . لا توجد بها قطعة خشب واحدة . . إنها طائرة بلا موبيليا . . إنها تذكرنا بأول طائرة ركبتها فى حياتى سنة ١٩٤٩ عندما سافرت إلى أوروبا فقد كانت مثل اللوريات ينقلون فيها الحيوانات من شرق أفريقيا إلى غربها . . وكنا نجلس على أرضها . . ونمسك فى حبل يمتد من مقدمتها إلى ذيلها . . وعندما كانت تهتز . . نهتز أيضا كما يهتز حبل الغسيل فوق السطوح . . ويتساقط منا العرق أيضا . . وعندما حاول بعضنا أن يعترض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه : على قدر فلوسكم!

وعندما حاول بعضنا فى ذلك الوقت أن يكون ظريفا مع قائد الطائرة قائلا له : اسمع يا أسطى . . هذا الأتوبيس نمرة كام . .

كان رد الكابتن : الأتوبيس ليست له نمرة ، ولكن الركاب لهم نمر على قفاهم!

أما هذه الطائرة الحربية فهى مختلفة تماما . . فلا توجد بها حبال . . ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى . . ولا كمسارى . . ولا رقم . . ولا اتجاه .

ولكن أحد الضباط أشار إلى أن أركب السيارة الجيب الموجودة فى داخل الطائرة ، ففى هذه السيارة مقعد من الجلد . . تصور!

مقعد من الجلد فى داخل سيارة فى داخل طائرة . . إنه يشبه كرسيا نزع من صالون حلاقة ووضع على الرصيف . . فهو الكرسى الوحيد . . وهو مطمع كل الجنود الذين تهالكوا على جدران الطائرة .

وبإحساسى بأن هذا المقعد نعمة من عند الله . . اتجهت إليه بشىء من الامتنان . . وهذا الامتنان جعل الصدمة التى هزت رأسى بعنف وأنا أدخل السيارة ، نوعا من اللمس الرقيق . . أو كانت هذه الصدمة بسبب الحسد . . ثم حمدت الله عليها . . فهى أهون بكثير جدا من الأمنيات الرسمية التى تلقيتها فى المطار . . فالمطلوب أن أروح على مسئوليتى وألا أجىء على مسئوليتى . . وأن أمرت على مسئوليتى . . فأنا القاتل والقتيل . . وأنا كالنار يأكل بعضى بعضى!

ولمست بسرعة باب السيارة . . إنه حديد جليد . . ولمست الدريكسيون إنه شديد البرودة . . وكذلك كل أجهزة السيارة . . ثلج فى ثلج .

أما ملابسى فهى نصف ملابسى . . جاكتة من تحتها قميص . . وتحت القميص شبه قميص . . والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرافتة . . وأضيق بالحزام . . وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة . . ولو كان الأمر بيدى لنزعت الزراير . . وتحولت ملابسى كملابس

الإحرام . . ولكن فى تلك اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنود إبرة وفتلة لأسد كل هذه الفتحات . . فقد لاحظت أن هواء باردا يهب من تحت المقعد . . وتلمست بنطلونى فوجدته سليما . .ولسبب لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمى . . ويتجه بإحكام شديد إلى أنفى . . وعطست . . وهذا طبيعى . . فأنا يكفينى جدا أن ألمس شيئا باردا لأصاب بالزكام . . فأنا مزكوم دائما ولكنى أبحث عن فرصة . . وجاءت الفرصة الحديدية . . وعطست . . وانزكمت . . وانسد أنفى . . وانسدت منافذ الطائرة . . وأقفل أحد الأشباح بطن الطائرة . . ودارت المحركات . . واستسلم كل الحاضرين . . فلا شىء يملكه الإنسان فى طائرة إلا أن ينظر إلى السقف .

ونظرنا إلى السقف وتفادينا النظر بعضنا إلى بعض . . فليس هناك ما تراه فى وجوه الآخرين ، إنها صورة لا نحبها من القلق والخوف وشىء من الذل . . ومقاومة خفيفة يمكن أن نسميها : الأمل أو التوكل على الله . . مع شىء تافه اسمه : الثقة بالنفس . .

وبسبب هذا الإفلاس المعنوى لا ينظر أحد إلى أحد . . ونرى فى السقف متسعا للجميع .

ولا أعرف إن كانت محركات الطائرة التى لم أرها قوية جبارة . . أو أن محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدوى لعدم وجود أية طبقة عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر . . إن صوت الطائرة رهيب . . إنها تأكل نفسها . . إنها تزمجر . . إنها تريد أن تتحرر من شىء . . من جاذبية الأرض . . من الليل . . من الظلام . . إن المحركات نفسها تريد أن تنفلت من الطائرة . . ليتها تفعل ذلك . . فرغبتى فى إكمال الرحلة التى لم تبدأ قد ضعفت . . وأية محاولة منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة . . ولا يوجد أى عذر . . فلا أستطيع أن أتظاهر بأننى نسيت شنطتى أو جواز سفرى . . أو أن شخصية هامة كانت تنتظرنى ونسيت أن أودعها . . كل هذه الأعذار والأوهام قد تجمدت فى رأسى بسبب البرد . . وكلها قد طحنتها المحركات وتحولت إلى تراب تطاير والتصق هو أيضا بالسقف .

وتحركت الطائرة كما يتحرك لورى فى طريق زراعى غير مرصوف . . يبدأ من القاهرة وينتهى فى الكونغو فى قلب أفريقيا .

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف إلى أين أنا ذاهب . . ولا كم طول المسافة . . ولا كم ساعة نقطعها . . ولا ماهو أول مطار . . ولا كم يوما سنبقى هناك . . لا شىء . . لا معلومات . . لافلوس . . لا ملابس . . وكل ما عندى من معلومات هو هذا الحوار القصير الذى أعتز به وأردده كلحن جميل . . أما هذا الكنز المعنوى فهو :

- هل تسافر إلى الكونغو ؟
- نعم !
- الآن . .
- فورا . . !
- أنا كنت متأكد من ذلك !
- شكرا !

انتهى الحوار . . ولكنه لم ينته فى أذنى . . إنه يتردد مدويا كالإجماع فى جلسة برلمانية . . لا أقابله إلا بالسعادة لهذه الثقة الغالية .

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر أضعه على قلبى . . تحت جلدى . . آه لو كان يلتف حول جنبى من ناحية اليمين . . ناحية المصران الأعور . . فقد اكتشفت فى هذه اللحظة أن فى الجانب الأيمن من بطنى يوجد كتكوت ينقر . . كأنه فى بيضة . . ومن الغريب أن الكتاكيت لا تخرج من البيض إلا فى الدفء . . ولكن هذا الكتكوت لا يخرج إلا عندما يكون هناك برد شديد كالذى أقرفص فيه الآن .

وارتفعت الطائرة . . وانخفضت زمجرة المحركات قليلا . . ولكن الطائرة ضخمة . . راسية فى الجو . . لا تهتز . . هكذا قلت لنفسى مطمئنا . . ومهدئا .

وكلما ارتفعت فى الجو . . ارتفعت درجة الحرارة . . وارتفعت كأننا كنا تحت خط الاستواء . . ثم اقتربنا . . وكأن خط الاستواء فوق فى السماء .

ثم تحولت الحرارة الشديدة إلى هواء ساخن . . هواء من نار . . لقد تحول خط الاستواء إلى خط نار . . ولاحظت أن الجنود الذين حولى بدأوا يفكون زراير قمصانهم . . وشعرت بالارتياح . . فإن هذا الهواء الساخن قد أنقذنى من زمهرير السيارة .

ولكن رأسى اصطدم بالسيارة عندما خطرت لى فكرة أن هذه الحرارة من الممكن أن تؤدى إلى انفجار الديناميت والبارود والقنابل التى امتلأت بها الصناديق التى أمامى وورائى . . ثم ابتلعت ريقى وسكت . . وكأن رأسى عندما اصطدم فى السيارة قد سحق هذه الفكرة السخيفة التى أفزعتنى .

ولاحظت أن الطائرة تهتز . . وأنها تهبط . . أو هكذا توهمت . . والتفت حولى لأتأكد من شعورى . . ووجدت الوجوه كلها تؤكد أن الذى أحسست به صحيح . . فالطائرة اتجهت إلى الهبوط . . مع أننا لم نترك مطار القاهرة إلا مدة عشر دقائق . .

وقيل فى المطار إن أجهزة التكييف فى الطائرة قد فسدت . . ولابد من إصلاحها .

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا أن هناك حرصا من جانب أحد من الناس على أن نعيش أو على أن يعيش هو . . فقائد الطائرة الذى لم أره لا يريد أن يموت لاهو ولا غيره . . ومن أجل ذلك عاد إلى الأرض ليصلح الجهاز الذى اختل ثم يستأنف رحلته إلى أواسط أفريقيا .

وارتفعت الطائرة . . وكلما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة انخفاضا . . شىء عجيب . . كأن خط الاستواء المرسوم فوق مصر قد تحول سرا إلى منطقة قطبية جليدية . . وبدأت أنطوى على نفسى . . أو على الأصح التوى على نفسى . . وأضع يدى على بطنى . . وعلى جنبى الأيمن . . وأتفادى أن يصطدم رأسى بدريكسيون السيارة التى اتخذت وضعا مخالفا للطائرة . . فالطائرة تتجه مقدمتها إلى الجنوب . . إلى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها إلى الشمال إلى القاهرة . . فأنا أركب سيارة لا تتحرك ومع ذلك تطير بسرعة ٥٠٠ كيلو فى الساعة . . وفى درجة حرارة قريبة من الصفر!

وكانت سعادتى لا حد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز والدوران . . وهبطت الطائرة إلى أرض المطار . . مرة أخرى . . لكى يتم إصلاح أجهزة التكييف . . وهبطت الطائرة ، وهبطت أنا فى مقعدى . وهبط قلبى فى قدمى . . وأصبحت حياتى شيئا عند قدمى لا يساوى أن أحرص عليه . . فقد وجدت إلى جوارى شبانا مواطنين شجعانا ذاهبين إلى أرض مجهولة . . يدافعون عن قضية الحرية . . وقضية الشعوب التى لا يعرفونها والتى لم يروها ولم يعرفوا لغتها . . وأحسست أن مشاعرى هذه نوع من الترف . . وأن سلامتى نوع من التعالى . . وأن مخاوفى طفولية . . ولم أبرح مكانى .

وبعد نصف ساعة استغرقتها فى معاتبة نفسى وعقابها ، قامت الطائرة . . وقد تغير كل شىء فيها . . صوتها . . هواؤها . . جوها . . طعمها . فقد اكتشفت فجأة أن فى فمى لبانة . . وأن هذه اللبانة قد التصقت فى جدار فمى . . كأنها هى أيضا خائفة . . ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتى . . وتغير طعم الدنيا على لسانى . . والآن أخذ يتغير لونها أيضا . . فالآن أرى بوضوح كل هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . . وذخيرتهم تحت أقدامهم .

وخرجت من سيارتى ، كما يفعل رواد الفضاء .

واقتربت من أحد الجنود وسألته إن كانت معه كوتشينة فقال وكأننى أنقذته من بحر من الملل العميق : معى . . تلعب كونكان !

وبسرعة رددته إلى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومى !

ورجعت إلى مكانى من السيارة . . لا أنا أريد أن أعرض عليه أن يعلمنى الكونكان . . ولا هو يريد أن يلعب الكومى . . ولا حتى فى الإمكان أن نشترك جميعا فى لعبة الشايب !

ونظرت إلى ناحية أخرى . . كما تنظر سمكة إلى سنارة مع فارق واحد أننى أبحث عن الذى ينقذنى أيضا من ماء له رائحة كريهة . . ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرحبة . . وخرجت من السيارة وتساندت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له : يبدو أنك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت إلى مكانى فقد كان نائما وهو مفتوح العين !

إذن فالطائرة سجن حقيقى . . المسافات كلها قريبة . . لا ضوء . . لا حركة . . لا حرية . . لا كلام . . مع كل هذا العدد من الناس شعرت بوحدة فظيعة . ومع كل هذه المواد الملتهبة أشعر ببرودة فظيعة . . ومع كل هذا الارتفاع أشعر كأن الطائرة تزحف تحت الأرض . . والليل طويل . . ويبدو أنه ليل دائم . . فالطائرة بلا نوافذ . . أو على الأصح لم أجد لها نافذة ، وحتى إذا وجدتها فلا معنى لها . . وأغلب الظن أننى نمت . .

وفتحت عينى على ضوء قريب الشبه من ضوء النهار . . أو هو ضوء النهار . . وسمعت عبارات قريبة جدا من : صباح الخير . . صباح النور .

طلع النهار . . والشمس بدأت أشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا إننا أمضينا فى الجو ثلاث ساعات . . وقالوا خمس ساعات . . فلا معنى للزمن . . ولا معنى لما نقول . . فنحن شحنة فى لورى جوى . . والسائق هو وحده الذى يعرف مصير هذه الشحنة . . وإن كنا نحتفظ ببعض المعلومات الأولية . . ومن بين هذه المعلومات أننا فى الطريق إلى الكونغو إحدى المستعمرات البلجيكية والتى تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة ، والتى عدد سكانها ١٣ مليونا . . والكونغو فى حجم الهند التى يبلغ عدد سكانها ٥٥٠ مليونا . . ولذلك يمكن أن يقال إن الكونغو «دولة» خالية من الناس . ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى أن نجد أحدا فى أى مكان . . فالرجل الإنجليزى الذى اكتشف الكونغو فى سنة ١٨٧٥ اندهش جدا عندما صادف فى غابة شاسعة أربعة أشخاص . . فقد أعلن أنه قابل مظاهرة من المواطنين!

والكونغو هى أكبر «عزبة» عرفها الإنسان . .

فقد كانت الكونغو من الممتلكات الشخصية لملك بلجيكا . . ومساحة العزبة حوالى مليون ميل ، أى نصف مساحة القمر . . ومن الغريب أن الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكيا . . والذى يملك الكونغو أيضا ليس بلجيكيا . . فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه جورتون ستانلى . . وملك بلجيكا ألمانى لم يرد هذه البلاد . . ولم يفكر فى أن يزورها . . وإنما كان مشغولا بامتصاص أموالها ، وكان هذا الملك نموذجا لدناءة الإنسان ووحشية الرجل الأبيض . . فقد ارتكبت فى الكونغو مذابح ليس لها نظير فى التاريخ . . فقد كان من حق الرجل الأبيض أن يقطع ذراع وساق أى رجل من الكونغو لأى سبب . . وكثيرا ما كدس الرجل الأبيض عددا كبيرا من أطراف المواطنين للإرهاب . . وظل هذا الإرهاب الوحشى زمنا طويلا لا يدرى به أحد . . ولكن عندما بلغت القارة الأوروبية والعالم المتحضر أنباء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى . . ولم يكن هذا الفزع معناه : الدعوة إلى تحرير أفريقيا من الاستعمار . . وإنما كان معناه فقط أن يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن أن يبقوا فى مكانهم . . فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة . . وفرنسا تملك أرضا فى حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك أرضا فى حجم بريطانيا ٣٠ مرة . . والبرتغال تملك أرضا فى حجم البرتغال ٢٠ مرة . . فالمطلوب هو أن يغسل البيض أيديهم من دماء السود فقط .

ولكن أن تظل أقدامهم فى كل مكان . . يستنزفون دماء القارة السوداء التى تتفجر بالنور والنار أيضا ، فأفريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمى و٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و٦٠٪ من الكاكاو و٦٠٪ من زيت النخيل . . وعدد سكان أفريقيا حوالى ٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و٢٢ مليون مسيحى والبقية من الوثنيين . . وكانت أفريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التى ابتدأت فى سنة ١٥٢٠ تعبر المحيط إلى أمريكا .

وألغيت دوليا فى سنة ١٨٠٠ ، ولذلك فحوالى ٢٤٪ من الشعب الأمريكى من الزنوج . . والزنوج قد اختلطوا بالبيض فى أمريكا اللاتينية .

وقد أرغم الملك ليوبولد على أن ينزل عن عزبة المليون ميل إلى الشعب البلجيكى فى سنة ١٩٠٨ ، ومات الملك بعد ذلك بعام واحد . . أما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وماتزال الطائرة معلقة فى الهواء . . ومن الطبيعى أن نبقى كذلك فلا علاقة بين رغبتى فى أن أصل إلى الكونغو وبين الطائرة فهى فى الطريق إلى المكان الذى لا أعرفه . . وأنا أحاول أن أتسلى بشىء . . ولم أجد ما أتسلى به . . لا أحد أتحدث إليه . . ولا كتاب ولا ورق . . ولا قلم . . ولا خريطة . . ولا رغبة فى أن أفكر فى أى شىء . . فأفكارى أكثر انكماشا من جسمى . . وعقلى مشغول بمصرانى الأعور الذى تحول إلى وخز إبرة . . ثم وخز مسمار بارد . . ثم مسمار محترق ، ونظرت إلى أحذية الجنود الضخمة . . ووجدت أن هذا الحذاء هو أعظم مخبأ للأصابع والقدمين من البرودة الموجعة . . أما حذائى فأقرب إلى شبشب الحمام . . وأما جواربى فهى أقرب إلى الجوانتيات . . وأما أنا فأقرب إلى الحفاة العراة . . ولابد أننى سأكون أكثر الجميع خفة عندما نصل إلى الكونغو الحارة . . ولكن متى نصل ؟

وكأن الطائرة استمعت إلى ما يدور فى رأسى . . فاتجهت إلى الأرض . . تحاول الهبوط . وهبطت على أرض الخرطوم . . وفى ساعة مبكرة دافئة .

وفى مطار الخرطوم كانت الوجوه مستريحة مرحبة . . إنهم ناموا وقاموا وشربوا الشاى الذى أحلم به . . وكانت سيقانهم ممدودة طوال الليل . . وأذرعهم مسترخية . وأشعلوا أعواد الكبريت بلا خوف . . وأطفأوها تحت أقدامهم بلا خوف . وأعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة . . وهذه الابتسامة هى ثمرة للنوم والراحة والماء البارد والإفطار وعدة أكواب من الشاى والسجاير والمشاركة العاطفية الوطنية لثورة الشعب فى الكونغو ضد الاستعمار البلجيكى . . ضد الاستعمار . . وكأنهم يكلفوننا فى أول لحظة التقينا بهم فى مطار الخرطوم أن نحمل تحياتهم إلى لومومبا الذى يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبى وغيره من العملاء . . وأنصار لومومبا فى بلاده قليلون ولكنهم فى العالم كله ألوف الملايين .

ولا أزعم أننى تلقيت هذه المهمة بارتياح . . فقد كنت مهموما بساقى وبطنى . . ومتطلعا إلى الدخان الذى يخرج من كوب شاى . . ولكن عندما دخلت إلى المطار وجدت عشرات الأكواب . . وكأن معدتى قفزت بين أصابعى فمددت يدى إلى كوب من الشاى دون أن أستأذن من أحد . . وفوجئت بأن أحد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا فى الصباح المبكر . . فالقانون اسمه : تقسيم العمل . . فأنا عندما مددت يدى . امتدت يد أحد الجرسونات تمنعنى من تقديم فنجان شاى إلى نفسى . . فهذه مهمته هو . . أنا أطلب وهو يقدم . . فإذا قدمت لنفسى فنجانا من

الشاى فقد ألغيت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل . . واحترمت نفسى والقانون . . وجاءنى الشاى البارد وابتلعته وأنا أغلى من الغيظ!

وأحسست أن هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذى لقيته من القاهرة إلى الخرطوم . . وقررت أن أتبنى هذه القضية التى فرضت نفسها فرضا : هل من حقى أن أطلب فنجانا آخر من الشاى الساخن جدا حتى إذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة أننى لا أملك مليما واحدا ، ثم إن هذه التحية التى ترجمتها على أنها تحية إلى لومومبا من شعب السودان ألا أستحق على حملها فنجانا من الشاى الساخن . . ما أعظم الرسالة وما أتفه الأجر ؟!

ونهضت كأى محام فى محكمة النقض وجعلت ذراعى اليسرى ملتصقة بجسمى كأنها تقبض على ملف القضية وذهبت إلى الجرسون وقلت : بل أريد الشاى ساخنا . . أريده يغلى كالثورة فى الكونغو . . وفى كل أفريقيا .

(كأى) محام لا يتكلم فى الموضوع لم يستمع منى الجرسون . . وتركنى أستمر فى الكلام عن نفسى وعن غيرى ، وجاء الشاى الساخن . . واختفيت به فى مكان من مطعم المطار . . وصببته فى أعماقى . . فى أمعائى . . وسكت الكتكوت فى مصرانى الأعور . . وسجلت فى تاريخ حياتى : أن هذا هو أجل وأمتع فنجان شاى شربته فى حياتى .

وبعد هذا الدفء فى جسمى . . وفى الجو . . وبعد أن امتلأت الدنيا بالشمس . . اكتشفت أن فى داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ . . ومن هذه النوافذ رأيت أفريقيا ذات الغابات الكثيفة . . الشاسعة . . وبدأت أرى بوضوح نهر النيل وفروعه . . ومسطحات مائية واسعة . . وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يتبارون فى معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على الأرض . . وتحولت الرحلة إلى مباريات فى دقة النظر . . ومدى القرب أو البعد من الأرض . . وما الذى يحدث لو سقطت بنا الطائرة . . وأصبحنا ضحية لذباب تسى تسى . . والحقيقة أن هذا الذباب ليس فى السودان . . ولكنه فى تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الألوف من الناس . . فهذه الذبابة تنقل النوم إلى الجسم الذى تلسعه . . فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من تشابه الأرض الخضراء تحتنا فإن أحدا لم يمل النظر إليها .

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل ، فقد كان لابد أن أكون على الجانب الآخر من الطائرة ، ولم أستطع أن أتحرك ولا أن أزاحم الجنود . . ولابد أننى سوف أراها عند العودة ، وتمنيت أن تكون عودتنا نهارا !!

وبعد أن اطمأنت نفسى إلى أن الطائرة بخير . . وإلى أننا قريبون من الكونغو . . أسندت رأسى إلى يدى . . واستعرت إحدى البطانيات وتغطيت ونمت فى حراسة ضوء النهار ومرح هؤلاء الجنود .

وصحوت ، وألصقت خدى بالنافذة . . فالطائرة تهبط . . وتقترب من الأرض الخضراء الواسعة الشاسعة . . ولا شىء يدل على أن هناك أحدا من الناس . . لا بيوت . . لا طرقات . . بل المطار نفسه لا ندرى أين هو . . لا مطر . . وهبطت الطائرة على أرض مستوية . . أرض مغطاة بالعشب الأخضر . .

هذه إذن هى الكونغو . . هذا الاخضرار الواسع . . هذه الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة . . والتى تخفى عددا من العيون السوداء التى لا نراها . . والتى تتستر على عدد من الأقزام وعلى عدد لانعرف مداه من أكلة لحوم الإنسان . . وغير ذلك من الأوهام التى تشيعها الغابة فى كل من ينظر إليها .

وأذكر أننى عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت أحد كبار الضباط . . وقد صافحنى بحرارة من يعرفه . . والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر . . ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا . . فنحن ضمن القوات المصرية المسافرة إلى الكونغو . . وهذا يكفى . . وانتهزت هذه الابتسامة لأفتح معه حوارا : كانت الرحلة صعبة .

ولم يرد وإنما ازداد عدد الأسنان البيضاء اللامعة فى فمه .

وعدت أقول له : ولكن ربنا كبير . . فقد عدنا إلى القاهرة مرتين . . فى المرة الأولى .

فقال : بلغنى ذلك . . والحمد لله على السلامة .

وقلت متشجعا وأنا أريد أن أعرف : كم عدد الساعات التى بقيت حتى نصل إلى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف . . فالكونغو واسعة جدا . . ووجهة هذه الطائرة سر عسكرى . . وإذا هبطت الطائرة فى إحدى الغابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الأقزام فمعنى ذلك أنكم فى شمال الكونغو . . أما إذا كانوا عاديين فأنتم فى أى مكان آخر .

ومعنى ذلك أننى يجب أن أنتظر أبناء الغابة ليخرجوا . . وأحسب أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة . . ولم يظهر أحد . . لا أحد . . لا ناس . . لا بيوت . . لا حيوانات . . لا حشرات . . لا فراشات . . فالصمت دافئ . .

والرطوبة كثيفة . . وكل شيء ماض في حياته . . ونحن فقط دخلاء على ملايين من الأعشاب والأشجار .

ولم يكن عند الجنود وقت للتأمل . . فعندهم مهمة عاجلة . . ولذلك تطايرت البطاطين والصناديق . . وأديرت محركات السيارات الجيب وهبطت من الطائرة . . والتف حولها الجنود . . وركبوا السيارات . . واستعدوا واصطفوا . . وصدرت إليهم أوامر وتحركوا واختفوا .

وفى مقدمة الطائرة رأيت قائدها الأمريكى . . وفلتت منى هذه العبارة : يا ابن الإيه؟

فقد كان يمسك سندوتشا ضخما فخما وسيجارا كوبيا محترما وزجاجة بيرة . . وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الأولى فى طائرة مدنية . . فلا أثر للتعب أو الأرق على وجهه . . ولم تطاوعنى نفسى أن أسأله عن موعد العودة . . فقد أحسست أنه استغفلنا : ركب هو فى الجانب المدنى وتركنا نحن فى الجانب العسكرى من الطائرة . . بلا كوب ماء . . ولا كوب شاى . . ولا كلمة . . وظل يفعل بنا ما يشاء .

وجاء أحد ضباط الأمم المتحدة وطلب إلينا أن نركب طائرة عسكرية صغيرة تنقلنا إلى مدينة كوكياتفيل . . وهذه هى أول مدينة فى الكونغو نذهب إليها . . أما هذه الأرض التى هبطنا إليها فليس لها اسم . . وإنما لها رقم فقط .

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة .

وكان قائدها بلجيكيا . . وهذا مجرد استنتاج . . لأنه لا مبرر للغضب الشديد على وجهه ، ولا مبرر للغيظ الذى ينظر به إلينا . . ولا لتجاهله الأسئلة الكثيرة التى نوجهها إليه إلا أن يكون بلجيكيا!

وكأنه اختصر المسافة المطلوبة فأنزلنا بسرعة فى أرض ملساء خضراء . . وتركنا نلقى بأنفسنا من الطائرة ، وظل هو فى مكانه من الطائرة ، لا كلمة ، ولا إشارة ، ولا نظرة ، ونزلنا فى أرض لا نعرف فيها أحدا ، ولا يعرفنا فيها أحد .

وركبنا سيارة من سيارات الأمم المتحدة ومعنا أحد الضباط المصريين الذى سبقنا إلى هذه المنطقة ، ووجدنا أمامنا مطعما . . فدخلنا . . ومقاعد فجلسنا ، وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا . . وفتحنا العلب . . وبدأنا نأكل . .

والمطعم مهجور ، ليس به موظفون ، ويبدو أنه كان مملوكا لأحد البلجيكيين الذين هاجروا ، وواضح جدا أن المكان مهجور . . وكل ضابط أو جندى يمسح بمنديله

مقعده ، ويمد يده إلى أكداس العلب ويأخذ ما يريد ويلقى بالعلب الفارغة فى أى مكان . ولذلك فالمطعم ملىء بالفارغ والمليان .

وكانت العلبة الأولى : تونة . . وكانت العلبة الثانية : فاصوليا . . والعلبة الثالثة : فاصوليا . . والعلبة الرابعة : أناناس . . والعلبة الخامسة : خبزا . . ولا توجد أطباق أو شوك أو سكاكين أو أكواب . . وامتدت أيدينا إلى كل شىء . . وأكلنا كل شىء . . ولا طعم لأى شىء . . فليس هذا وقت تذوق الطعام ، وإنما هو وقت ملء المعدة بالطعام . . وبعد لحظات اكتشفت أن أصعب شىء فى هذه البلاد التى لا تتوقف فيها الأمطار هو الحصول على كوب ماء .

ووجدت أن المواطنين يتكلمون الفرنسية التى تبعث على الضحك . . فهم يغيرون بعض الحروف أثناء النطق . . فحرف «جيم» يصبح حرف ذال . . وحرف الألف يختفى . . أو يصبح حرف باء . . وحرف الميم يصبح حرف نون . . وكل هذه التغييرات مقبولة على العين والرأس بشرط أن تؤدى فى النهاية إلى كوب ماء ، ولم تؤد إلى كوب ماء . . وإنما أسفرت عن وعد بتحقيق هذه الأمنية فى أقرب فرصة !

والذى نتوقعه عادة من هذه اللخبطة فى تناول هذه الأطعمة المحفوظة الباردة قد حدث . . فهذا الذى أشعر به هو من المؤكد نوع من المغص الشديد . . والبحث عن المسكنات أصعب من البحث عن الماء . . والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكى فى الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الأمم المتحدة . . وكلهم من الجزائريين الذين وضعوا علامات الأمم المتحدة . . واقتربت وسلمت . . وطلبت الماء ، وجاء الماء ، وطلبت الدواء ووجدت الطبيب والدواء . ، وكان الطبيب دنمركيا ، وعرفته بنفسى وبزملائى .

وضحك الطبيب وقال : احترسوا من الأمراض الخبيثة!

ولم يضحك عندما قالها ، وإنما كان جادا ، ولذلك استوضحته ، وكان رده : أنه توجد أمراض جلدية مستحيلة العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخبث من الأمراض الخبيثة !

فقد كان يريد منا ألا نصافح أبناء الكونغو أينما وجدناهم . . المواطنين العاديين والموظفين . . فمن عادة أهل الكونغو أن يمدوا أيديهم بالسلام . . فقد كان من المحرم عليهم أن يصافحوا البلجيكى الأبيض . . ثم إن هذا البلجيكى قد عاش عشرات

السنين وهو يقطع أيدى أبناء الكونغو لأتفه الأسباب . . فإذا نحن ترفعنا عن مصافحتهم ، ونحن أفريقيون مثلهم ، كنا أسوأ من البلجيكيين المستعمرين!

ولذلك لم أكد أرى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت إليه . . دون أن أرى الرمح الطويل الذى ألصقه بجسمه ودون أن ألاحظ أنه عريان تماما ، ومددت يدى وقلت له ما معناه : أزيك يا أخ .

ولا أعرف إن كانت هذه العبارة التى قد صدرت منه معناها : العبيط أهوه . . أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصافحنى رجل أبيض !

وإن كنت أشك فى أن لونى كان أبيض فى ذلك اليوم . . فالسهر الطويل والإرهاق الشديد . . والجوع والاضطراب النفسى والمغص قد جعلنى أصفر اللون . . ولابد أن أعصابى كانت مشدودة لدرجة أنها سحبت عينى من وجهى فادخلتهما بضعة ملليمترات إلى الوراء .

ولابد أن شعرى قد ازداد كرمشة . . وأصبح أقرب إلى شعر الزنوج . .

على كل حال هذه صورتى كما أراها أنا . . أما صورتى كما يراها هذا الأخ الزنجى فلا أحد يعرف مداها . . ولكن مهما كانت صورتى فى عينيه ، فإنها لم تمنعه من أن يمد يده . . ويضغط على أصابعى بقوة . . كأنه يؤكد لنفسه أن الذى يمسكه لحم آدمى أبيض حقيقى . وأنه ليس حالما ، وإن كنت أنا على يقين من أنه حالم فعيناه لها بريق غير محدد ، وحدقتا العينين جامدتان إنه يشبهنى عندما ذهبت للقاء ملكة الغجر فى شمال إيطاليا ، وكنت من المعجبين بها ، وأدخلتنى حاشيتها فى غرفة داخل غرفة . . لأجدها أمامى عارية تماما . . وفى دورة المياه !

ويبدو أن مصافحتى لهذا الزنجى قد شجعت زوجته أو ابنته على أن تمد يدها . . ومن وراء الأشجار ظهر كثيرون . . وامتدت أيديهم بالسلام والتحية .

وعندما عدت إلى السيارة قال لى الطبيب الدنمركى : إنك شخصية محبوبة هنا . . وعثرت فى أعماقى على ابتسامة قديمة فأطلقتها . . ثم عاد يقول لى : وأنت محظوظ أيضا!

وعرفت أننى محظوظ حقيقة . . فلو نزلت طائرتنا فى منطقة أخرى إلى الشمال قليلا . . لكنت بطلا لمأساة حقيقية ، فمن عادة القبائل هنا أنهم إذا اطمأنوا إلى شخص أحبوه . . وإذا أحبوه بصقوا على وجهه . . فالحمد لله .

ولا أذكر من الذى سألنى ماهى أحسن أغانى أم كلثوم لديك فقلت : النوم .

فقد كنت أحلم بالنوم . . إذ أحسست أن جسمى أعلن العصيان . . لا شىء يطاوعنى . . أحاول فتح عينى فلا أقوى . . أحاول مد ساقى فلا أستطيع . . أحاول أن أقعد فأتوجع . . أحاول أن أقف فأدوخ . . أحاول أن أفتح فمى فيخرج الكلام طليقا غير معقول ـ ومعنى كلمة «معقول» هو بالضبط المعنى العربى القديم الذى قصده رجال البادية : عقل البعير ، أى ربطه بحبل . . والكلام غير المعقول أى غير المربوط بحبل من المنطق والمفهوم !

ودخلت بنا السيارة الجيب فى أحد القصور . . القصر له حديقة . . والقصر له دور واحد . . وعرفنا بعد لحظات أن المكان مهجور . . والتراب الكثيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد ذلك . . وأوراق الأشجار التى غطت الطرقات لم تمسها يد ولا قدم منذ سنوات طويلة . . ولا أعرف إن كانت هذه الطيور القائمة التى تتكاثر فوق رؤوسنا طيورا حقيقية أو هى أوهامى . . أو هى الطيور التى رآها فرعون مصر وهو يروى أحلامه للنبى يوسف عليه السلام . . هل هى غربان أو صقور . . أو عصافير أو فراشات أو هى نقط حائرة فوق حروف الكلمات التى لا تقوى على الخروج من فمى . . أو التى خرجت بالفعل من أفواه الزملاء ولا أجد لها معنى ولا طعما !

ليس هذا قصرا مهجورا . . إنه أحد الأديرة . . وقد تركه الرهبان . . ووجدت فجأة أننى أستطيع أن أفتح عينى وأن أتحكم فى قدرتى على الفهم والتركيز عندما سمعت من أحد جنود الأمم المتحدة أن فى الدير مكتبة جيدة . . وأنه فى إمكانى أن أراها لو أردت . . والحقيقة أننى أريد ولكننى لا أستطيع . . وإذا لم أستطع اليوم ، فسوف أستطيع ذلك غدا . وعلى مهل . . وتخيلت نفسى بسرعة أننى أحمل معى إلى القاهرة عشرات من هذه الكتب ، ولم أستطع أن أتخيل أننى أحمل المئات . . فقد كان خيالى عاجزا عن حمل المئات فاكتفى بالعشرات . .

وكان لابد أن ننتظر بعض الوقت حتى يعثروا لنا على غرفة نظيفة . . أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة . . وحتى يجدوا الشخص الذى يتطوع لتنظيفها . . لأن أحدا لايمكن أن ينظفها بالأمر . . فلا أحد هنا يأمر ولا أحد هنا يطيع . . لا حكومة . . لا دولة . . لا قانون . فالحكومة منقسمة قسمين . . والقسمان منقسمان قسمين . . ولا أحد يقوى على تنفيذ الأوامر المتضاربة التى يصدرها الرئيس

كازافوبو . . والرئيس لومومبا . . والرئيس تشومبى «وأرجو أن تعفينى من ذكرر اسماء شيوخ القبائل التى يصل عددها إلى ألف قبيلة !» .

وأخيرا قيل لنا أن هناك غرفة .

وعلينا أن نصبر ساعة أخرى .

وعلينا أن نشغل أنفسنا بأى شىء .

وفجأة قال لنا واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذى تطلبه . .

فأجاب أحدنا : كوب ماء!

وقال آخر : دشاً بارداً !

وقال الثالث : سندوتش فول .

وقلت أنا : أطلب إليها أن تظل مفتوحة نصف ساعة . . لأن الذى أحتاجه كثيرًا جدا .

وكأن طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا الغرفة . . وفى الغرفة سرير . . وفيها مصباح .

وكأن طاقة القدر انقفلت : فقد كان من الضرورى أن ننام جميعا فى هذه الغرفة . . نحن الأربعة ننام على السرير . . اثنان يناماان على السرير . . واثنان ينامان على الأرض .

وفى هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هى أحسن الأغانى . . وإنما أغنية : يا ليل نجومك شهود على لوعتى يا ليل .

وكان التعب أقوى من خيالى ومن بقايا الكبرياء . . وارتميت على الأرض . . ولم يكن يفصل بينى وبين الأرض غير الصحف الصباحية التى جئت بها من القاهرة . . وتمددت . وتشجع زميل آخر فنام إلى جوارى . . أما الزميلان الآخران فقد ناما على السرير . . ولم يقو أحد منا على أن يطفئ النور . . إما من التعب . . وإما من الخوف . . وإما من الحرص على اصطياد الحشرات والهوام التى تتساقط من السقف علينا . . أو التى تكون فى طريقها من الأرض إلى السقف فتفضل أن تخترق أجسامنا . . أو تفضل أن تبيت فى ملابسنا على أن تبيت فى العراء . . أو لعلها قد اشتاقت إلى اللحم الأبيض .

وأعتقد أننى نمت بعض الوقت . . كأننى قطعة من الحديد الملتهب أسقطت فى ماء بارد . . فبعد لحظات من النوم المفاجئ العميق صحوت . . لأجد نوعا جديدا

من النار . . فقد تكاثرت الحشرات على عنقى وساقى . . وعرفت أهمية المصباح المضىء . . وفتحت عينى ـ أستطيع أن أقول إننى أنا الذى فتحت عينى ، وهذا اكتشاف عظيم لأنه يدل على أننى قادر على التحكم فى أعضائى ـ ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات عبثا . . فلا يمكن حصر هذه الحشرات . . إنها جيوش . . ولا أعرف بالضبط ما اسمها . . إنها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق . . ولا كالصراصير . . إنها مستديرة وزرقاء وحمراء ولامعة . . وتمشى فى جميع الاتجاهات . . وتوهمت ـ من شدة الخوف ـ أن إحداها هى ذبابة تسى تسى . . وأظن أننى قد رأيت صورة هذه الذبابة فى بعض الكتب ومعنى ذلك أن «النوم» ليس أغنيتى المفضلة . . ولكنه نهايتى المحتومة .

ووجدت زملائى جميعا نائمين . . ومنعنى الحياء أن أوقظ أحدا منهم . . ومنعنى اليأس من أن نشترك جميعا فى مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية . . ولو أيقظتهم فأين نذهب . . إن الليل طويل . . والصمت رهيب . . والأصوات التى تجىء من بعيد لا أول لها ولا آخر . . وربما كان الصوت الوحيد الذى استطعت أن أميزه هو صوت التماسيح . . إنها تبكى كالأطفال . . ونحن على مسافة أمتار من نهر الكونغو الهائل . . الواسع العميق الثائر . . وهو ملىء بالتماسيح ـ أما الصرخات والهمهمات والهمسات والصفير والشخير . . والمواء والعواء . . فلا أعرف لها مصدرا .

إذن لابد أن أسكت .

ولكن لم أستطع . . فأنا ما أزال مرهقا . . والراحة التى حصلت عليها تكفى لأن أفتح عينى . . وتكفى لأن أشعر بهذه الحشرات المروعة . .

وناديت زميلا نائما على السرير وقلت له : اصح . . اصح . . قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شىء . .

قال : يا أخى أسكت . . أنا تعبان . .

قلت : أنا تعبان أكثر منك . . ولكن أريد أن أسألك . .

قال : تسألنى الآن؟

قلت : ضرورى . . المسألة فى غاية الخطورة .

قال : هل أنت جاد . .؟

قلت : جدا . .

واعتدل فى جلسته ليسمع منى هذه القصة التى لا أساس لها من الصحة . . قلت : إن الطعام الذى تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد . . وأنا أعرف هذا اللحم . فلقد أكلت لحم القرد أكثر من مرة . . وأعرف النتيجة . . أعرفها . . بل أشعر بها . . لقد سبق لى أن شعرت بذلك . . ولولا أن طبيبا أنقذنى لكنت الآن فى حديقة الحيوان بهونج كونج . .

ولاحظت أنه فتح عينيه . . وأخذته الدهشة . . وسحبته الدهشة من قلب السرير حتى طرفه . . وسحبت قدميه إلى الأرض . . وسألنى : لا أفهم ماذا حدث بالضبط؟

إذن هو يريد أن يسمعنى من جديد . . إذن هو قد صحا تماما . . وهو خائف جدا . . قلت له : لقد أكلت لحم القرد فى هونج كونج . . ومن خصائص هذا اللحم أن الذى يأكله تظهر عليه أعراض القرد . . فيهرش وتتغير نبرات صوته .

وراح ينظر إلى يدى وهما تهرشان جنبى ، تماما كما يفعل القرد . . وبدا الخوف على وجهه عندما وجدنى جلست مقرفصا . . أعلو وأهبط .

وسألنى : والحل ؟

قلت : لا أعرف . .

قال : ألا يوجد دكتور هنا . . طبعا هنا يعرفون هذه الكارثة التى تصيب الأجانب . . ولابد أن لديهم مناعة ضد لحم القرود .

ولم أزد على قولى وأنا أهرش بشدة عبارة : لا أعرف . . لا أعرف!

أما الاحمرار الذى كان فى عينى ، وأما البريق الذى صاحب هذا الاحمرار فهو بسبب براعتى فى التمثيل . . وإحساسى باقتراب النهاية .

وجاءت النهاية : لقد قفز من السرير . . خائفا وانطلق إلى خارج الغرفة . .

وقفزت فوق السرير بكل قوتى . .

وسقط السرير . .

ولم تتم فرحتى !

أىّ خدمة ياولدى !

والآن فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل .

والجواب المستحيل هو كل شىء . . وأى شىء . . فلا أمل عندى فى كوب ماء . . أو لقمة عيش . . أو صابونة أغسل بها وجهى . . مع أن الماء هنا تحت كل ملليمتر من الأرض أو من قشر الشجر . . والفاكهة هنا فى الغابة فى عدد أوراق الشجر . . ولكنها ممنوعة . ويقال مسمومة . . ولكن أهل الكونغو عندهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف وضد كل عوامل المرض والفناء . . إما لأنهم مرضى بالفعل . . أو موتى حقيقة . . وإما لأن هذه الحشرات قد ملت دماءهم وتتطلع إلى دماء جديدة . . مع أن تركيب الدم واحد عند كل الناس . . وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو فى الغطاء الخارجى . . أى فى البشرة فقط .

ووجدت مواطنا فى الطريق المرصوف . . وكل الطرق هنا مرصوفة وناعمة . . ألوف الكيلومترات . . وقد حرص البلجيكيون على الطرق الكثيرة والمطارات المتعددة . . فالبلاد واسعة ـ وسألته : ألا توجد هنا دار للسينما .

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن مقفلة !

قلت : السينما فقط . . ؟

قال : لم أفهم . .

قلت : أقصد صالة العرض هى المقفلة أما المطعم فلابد أنه مفتوح . .

قال : كل شىء مغلق .

قلت «ضاحكا ومحاولا أن أكون ظريفا» : إذن بلادكم الواسعة تضيق بالأصدقاء .

قال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا أجد كوب ماء . . ولا أقول فنجان قهوة .

قال : بل هنا مطعم قريب . .

قلت : مطعم؟ قريب؟

لم أسمع كلمة مطعم بوضوح رغم أنه قالها . . وأنا رددتها . . وكدت أسحب ذراعه . . وأسحب يده . . وأصبعا من يده وأشير إلى مكان المطعم . . وأشار هو برأسه فى اتجاه المطعم . . ولم أجد وقتا لأشكره . وذهبت وورائى الزملاء .

إنه مطعم جيد . . نظيف . . وعلى شاطئ نهر الكونغو . . ولا أعرف اسمه ، والاسم ـ كما يقول شيكسبير ـ لا يهم .

والمطعم له كل ملامح المطاعم الأوروبية الجيدة . وبه مناضد وترابيزات . . وبه أهم من المناضد أناس . . وأهم من هؤلاء الناس : نساء . . نساء جلسن وحدهن . . وأمامهن زجاجات البيرة الصغيرة والكبيرة . . ومن بين الزجاجات يتعالى دخان السجاير . . أما أصواتهن فأعلى من هذا الدخان .

دعنى أحدثك عن هذا المظهر المفاجئ للحياة .

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء . . الجيب بيضاء والبلوزة ملونة . . وكل واحدة لا تقل سنها عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها عن ٨٠ كيلوجرام . . ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمترا . . أما خط الصدر فمثل خط الأرداف أكثر من ١٢٠ سنتيمتر . . وأما خط الخصر فنصف ذلك .

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع . . وإذا صح فهمى لحركات السيدات فإن هذه الارتعاشة فى العين هى غمزة فى اتجاهنا . . وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت أن أعرف من هو المقصود بهذه الغمزة فأخفيت وجهى وتشاغلت بالكلام . . واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة أخرى . . إذن فلست أنا المقصود . . وإنما المقصود هو كل من يجلس معى . . أو نحن جميعا . . فهى غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل تظن أن الفتيات سوف يدعوننا إلى الغداء . .

قلت : أما الغداء فلا أريده . . إنما أريد فنجان قهوة . . ومتنازل عن الغداء والعشاء . .

وغيرت مقعدى . . وأدرت ظهرى للفتيات . . ولكن أذنى كانت تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات . . وكان الحوار بين الثلاث فتيات تقريبا هكذا :

- أظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا .

- معك حق . . فاليونانيون موجودون فى كل مكان . . ولو غرقت الدنيا لظهر رجل يونانى يبيع أطواق النجاة . .

- ولكن يظهر أنهم جميعا ليسوا تجارا . . فأغلب الظن أن أحدهم طبيب . . فأصابعه رقيقة . . وحركاته بحساب .

- أيهم . . ؟

- ذلك الذى أعطانا ظهره . . وهو أكثرهم حركة وأكثرهم قلقا .

- طبيب ؟ إنه أقرب إلى المرضى منه إلى الأطباء .

- لعله عاشق .

- وجاء يتوب فى الكونغو .

- طبعا على يديك . .

وهنا تقدم جرسون وعلىْ يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة .

وقبل أن أسأله كيف عرف أننى أكاد أموت شوقا وعطشا ومزاجا إلى فنجان واحد أشار بيده إلى حيث جلست الفتيات الثلاث .

وكان من الذوق أن أستدير لأشكر . . وبعد أن أشكر أتساءل كيف عرفن ذلك .

واستدرت لأشكر . . وانفردت صاحبة الغمزات واللمزات بالشكر . . وبحركة من يدها رفضت الشكر . . تماما كأن الشكر كرة تنس ويدها مضرب . . وأصابنى الشكر فى دماغى . . فقررت أن أذهب إليها وأشكرها . . وأعرف منها كيف عرفت . . وهل يمكن أن يذهب بها الكرم لدرجة أن تأمر لنا بفنجان آخر .

ومددت يدى شاكرا لها . . وشاكرا للأخرى . . وللثالثة . . وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسى . . وقدمت كل واحدة نفسها : جورجيت . . سوزى . . نادية . .

قلت : نادية . . اسم عربى . . ويمكن عالمى!

قالت : أنا عربية . . وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى .

قلت : ربنا يديم العروبة . . والأخوة . . والقهوة . . ويعوضك .

قالت : يعوضنى عن ماذا؟

قلت : عن كل ما عندك من بن !

قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !

قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا ؟

قالت : عاطلة . . وزميلتى عاطلة جدا . . والزميلة الثالثة ضائعة .

قلت : الحال من بعضه . . ونحن أيضا نريد أن نعمل ولكننا لا نستطيع . . لا لأنه لا يوجد عمل ولكن لأنه لا يوجد وقود . . لا ماء ولا طعام . . ولا مأوى .

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو أنه موقف تسول . . مع أن هذه هى الحقيقة .

وعندما مددت يدى أعتذر وأكرر الشكر . . بدا الضيق على وجوه الثلاث فتيات . . أما السبب فهو أننى تظاهرت بأننى أفهم بوضوح ما يقلنه . . ولم أفهم معنى أن الثلاث يسكن فى فيلا مهجورة فى آخر المدينة . . وأنهن يفضلن ضوء الشموع على المصباح الكهربائى . . وأنهم يفضلن الطعام الساخن جدا مع المشروبات المثلجة جدا . . وأنهم يتفاءلن برقم سبعة : هن ثلاث ونحن أربعة . . وأن اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع . . مجرد صدفة ذكية !

ولم أفهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة .

وأعتقد أن كلمة : «دوبشة» وهى كلمة بدائية كونغولية معناها : غبى .

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الأقل فى كل مرة أعترف فيها : أننى لا أفهم .

وأنا أقطع بأن هذا معناها . . لأننى لاحظت أن هذه الكلمة تخرج من الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقدم على الأرض . . تماما كما يبصق إنسان على الأرض ثم يخفى معالم هذه الجريمة الصحية بحذائه !

وأفقت من هذه المناقشة على سؤال رن فى أذنى : معقول نصل إلى الكونغو ولا نرى لومومبا ؟

صحيح هل هذا معقول . .؟!

وكان الجواب أن هذا معقول جدا . فنحن لا نعرف أين هو الآن . . ولا أحد يعرف . . فهو قد أخفى مكانه عن رجال القبائل وعن خصومه . . وحتى لو عرف

الناس مكانه فإنهم لا يستطيعون الوصول إليه . . فلا توجد مواصلات . . التليفون وحده لا يكفى . . لأن التليفون يصل بين بعض المدن فقط .

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مغتصبة للفتيات الثلاث . .؟

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنماركى وسألته : هل هناك أمل فى رؤية لومومبا ؟

فأجاب : لا أمل .

قلت : المواصلات . .؟

قال : أنا أعرف مكانه . . ولكنه هو .

قلت : ماله؟

قال : إنه فى حالة نفسية سيئة جدا . . لا يكف عن الصراخ والشراب فى وقت واحد . . وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا ما تحول الشراب إلى صراخ . . إلى مغص وإغماء .

قلت : إذن ما الذى نفعله؟

قال «ضاحكا» : حاولوا إقناعه بأن يكف .

قلت : أسهل أن أكف أنا عن طلب أى شىء منك . .

قال : هل غضبت؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس أمامنا أحد سواك . . نسأله فلا يجيب .

ولكن كان من الصعب أن أقتنع باستحالة لقاء لومومبا . . واتفقنا على أن نبحث عن طريقة لرؤيته . . ولكن اتفاقنا لا يهم ولا قيمة له . . ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق . . أو عن الانتقال من مجرد الكلام إلى العمل .

وعندما عدنا إلى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الأمم المتحدة سألت أحد الضباط السويديين : ألا توجد طريقة لرؤية لومومبا .

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم .

وعرفت أنه اختفى فى مكان . . فى أى مكان . . فليس من الضرورى أن أعرف أين . . لأنه من السهل على هذا الضابط السويدى أن يشير بيده المربوطة

بالشاش الأبيض إلى الغابة . . أو إلى نهر الكونغو . . لأفهم أن لومومبا قد اختفى فى هذه الأماكن .

وسألته إن كانت هناك أية صحف . . أية خرائط . . أى جهاز راديو لنسمع أى شيء . . لنعرف أى شيء . . رفع كتفيه إلى أعلا كأنه يلقى بالمسئولية من فوقهما . . وحمدت الله أن المسئولية قد سقطت على الأرض . . ككل شيء هنا : على الأرض وفى الأرض . . فلا أحد مسئولا عن أى شيء . . ولا حتى قوات الطوارئ الدولية . . إنها قد ارتدت الملابس الأنيقة . . وكدست وراءها العلب الملونة لأنواع الطعام المختلفة . . وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار . . ووجوهها بالابتسامة وبالضحكة مرتباتهم تحول من تلقاء نفسها إلى البنوك .

أما الناس الذين جاءوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا : لا حكومة ولا شعبا . . ولا لومومبا !

وتساءلت فجأة : ما الذى يمنع أن تكون هذه البلاد أى بلاد أخرى . . فلا يوجد أى دليل على أننا فى الكونغو . . فإن أحدا من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لى اسم هذه البلاد . . بل إننى فى مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من أحد رجال المطار . . ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها . . وإنما ذكر كلمة الكونغو مرادفا لكلمة هيصة . . وأتذكر أنه قال بالحرف الواحد : أصلها هيصة . . كونغو !

ولا توجد هنا لافتة واحدة . .

ودفعنى هذا الشك إلى أن أقف هذا الموقف المضحك . . فالتفت إلى موظف ارتدى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا مهموما . . أو هكذا حاول أن يبدو أمامى . . ربما لأنه وجدنى مهموما . . أو ربما وجدنى خاليا عاطلا ، فانتهز هذه الفرصة ليبدو أكثر أهمية . . وأكثر فائدة لبلاده . . اقتربت منه وأطلقت ابتسامة عريضة فى وجهه . . كأنها يد ممدودة لتحيته . . وقلت : قل لى . . أى بلد هذا . . ؟

فأجاب : إنه بلد . .

قلت وأنا أحاول أن أعرف حقيقة : الذى يراه لأول مرة يتصور أنه الكونغو .

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عندما كان مريضا . . ونظر إلى نفسه فى المرآة . . قال : الذى لا يعرفنى يخيل إليه أننى رجل حاقد على فيكتور هيجو !

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل هذه هى الكونغو حقيقة؟

فأجاب : لا أفهم ماذا تقصد . . كيف كنت تتصورها . . تماسيح وأكلة لحوم البشر . . إننا يا سيدى لم نأخذ فرصتنا فقط . . وأنت تعرف مثل هذا المعنى . . أما أنكم فى الشمال قد نسيتم الاستعمار وماذا يعمل فى الشعوب .

لم أنس طبعا . . ولا يمكن أن أنسى . .

وأهم من هذا كله أن هذه هى الكونغو .

ولا أعرف ما الذى استفدته بعد أن تأكدت من أن هذه هى الكونغو . . لم أستفد شيئا . . ولا أعرف كيف أضيف إلى معلوماتى شيئا جديدا . . ولو عدت إلى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد أى دليل مادى على أنى برحت أرض القاهرة . . فلا أنا رأيت الخرطوم ولا أنا رأيت شيئا فى الكونغو .

وكأن أحد الزملاء سمعنى وأنا مشغول بالحديث مع نفسى . . وكأنه رآنى أضرب فكرة بفكرة . . تماما كما أضرب كفا بكف . . وكأننى كنت مسموعا فقال : عندك مانع نقوم بمنامرة .

قلت : أليست هذه مغامرة أيضا .

قال : مغامرة أخرى محددة .

قلت : مثلا . . تقترح ماذا؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار . . وهى سيارة للأمم المتحدة . . ومفروض أننا جئنا مع قوات الأمم المتحدة . . ونعمل فى خدمتها . . ما رأيك بسرعة . . لا تفكر !

ولم يكن عندى مانع . . المهم أن أخرج من هذا الفراغ الذى فى نفسى والذى حولى . . وأن ألمس شيئا أو أحدا . . وأن أسأل وأن أعرف . . وأن أقول وأن يقال لى شىء .

واتجهنا إلى السيارة .

وفى هذه اللحظة وجدنا أربعة من الجنود اتجهوا إليها أيضا . . ولأن أحدا منهم لم يتصور أننا نفكر فى مغامرة : ركبوها دون أن يسألونا شيئا . . لقد كانوا أسبق منا إلى تحقيق رغباتهم .

والذى صنعوه هو رغبة وليس مغامرة . .

واقترحت على زميل لى : ألا توجد عندك رغبة فى ارتكاب جريمة لن يعاقبك عليها القانون . . لأن القانون اختفى هو الآخر فى الغابة أو فى النهر . .

قال : أريد أن أقتل فعلا .

قلت : الجوع . . والعطش . . والأرق . .

قال : وهذا الرجل !

وأشار إلى أحد الموظفين من أبناء الكونغو . . فقد ذهب إليه يسأله عن مكان يغسل فيه يديه . .

ولكن الموظف لم يرد عليه . . فظن أنه لم يفهم لغته الفرنسية فتحدث إليه بالإنجليزية . . ولكن الرجل لم يرد .

وقررت أن أذهب إليه . . لا بد أن هناك شيئا . . إن هناك قصة . . موضوعا . . كلاما . . شيئا مثيرا يهزنى من داخلى . . فأنا نائم فى جلدى . . أو ميت فى جلدى منذ أكثر من ٢٤ ساعة .

وعندما اتجهت إلى الرجل الكونغولى ، لاحظت أن كلمة «تواليت» معلقة على باب مكتبه . . ومعنى ذلك أن هذا المكتب كان قبل ذلك «دورة مياه» ثم تحول بسبب زحف قوات الأمم المتحدة إلى مكتب ملىء بالنشاط والحياة . . أى إلى «دورة حياة» . . ولابد أن هذا المواطن الكونغولى قد توهم أن زميلى إنما أراد أن يسخر منه . . وجاء يطلب منه أن يخلى له المكتب بعض الوقت فيتمكن من أن يفعل شيئا ما فى ركن من أركان الغرفة!

وعذرت صديقى فقد كان مرهقا ، وعذرت الرجل الكونغولى فلم يكن يدرى أن المكتب رغم ما به من أوراق ، مايزال يحتفظ برائحته القديمة الأصيلة!

وعلى الرغم من أن البقعة التى نتحرك فيها ضيقة . . فإنها تدل على كل شىء فى هذه البلاد .

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة . . والمطارات متناثرة فى كل مكان . . والمطار عبارة عن قطعة أرض مغطاة بالأعشاب وموجودة فى قلب غابة . . أو على أطرافها . . والسكك الحديدية أيضا تربط البلاد من كل جوانبها . . والسيارات

التى تراها من حين إلى حين لا بأس بها . . والبلجيكيون قد أعدوا لأنفسهم كل وسائل الراحة . . والمواصلات كانت أهم المشاكل فى الكونغو الواسعة . . فأصبحت مريحة جدا .

كما أنهم تركوا شيئا من التزمت فى البلاد أيضا . فقد لاحظت ونحن نركب سيارة الأمم المتحدة أن بعض المشاة قد احتجوا علينا . . وظننا أنهم يحيوننا فى حماس غاضب . . أو فى غضب من نوع خاص . . ولكن لاحظنا أن الاحتجاج تكرر مرة وراء أخرى . . وكان السبب واضحا : أننا نمشى على الجانب الأيسر من الطريق وأننا لا نستخدم الكلاكس . . أو أننا نسرف فى استخدامه!

وفجأة ـ كأنه هبط من السماء ـ رأيت أحد رجال الدين . . وهو ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل فى جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى ما بعد الحياة . . ولأنه رجل من رجال الدين فهو يمشى فى كل طريق وفى كل وقت آمنا مطمئنا . . وقبل أن أتجه إليه ، كان هو قد اتجه إلى . . إنه طويل القامة . . أبيض اللون . . لامع الجبهة والمنظار ، والأسنان . . والأصابع بها خواتم ذهبية وفضية . . ومددت يدى وهو أيضا . . وكأنه توقع أن أقبلها . . ولم أفعل فليس عندى سبب يدعونى إلى ذلك . . وقال بحكم العادة : ماذا وراءك يا ولدى!

وهزتنى هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . . فلم أسمع من أحد منذ عشرين عاما يقول لى : يا ولدى . . فقد مات أبى ولم أعد أجد معنى لهذه الكلمة بعده أو قبله . . ومن الغريب أنه تصادف أن يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدى . . صدفة . . وفى هذه اللحظة استعرت جو الكونغو . . فالتهبت مشاعرى وتساقطت منى الدموع .

واقترب منى القس . . ولكنه لم يعرف لماذا حدث ما حدث . . فقلت : عندى همومى الخاصة .

فأجاب بحكم العادة : أعانك الله عليها وعلى نفسك يا ولدى .

واستجمعت رجولتى وحاولت أن أكون أكبر من الموقف . . وسألت القس إن كانت هناك أية وسيلة أخرى للحركة ولقاء الناس . . فنحن أقرب ما نكون إلى أسرى الحرب . . أو كجماعة يلعبون لعبة «المساكة» . . فقد سافرنا من القاهرة ولمسنا جدران الكونغو وسوف نعود غدا أو بعد غد .

وهز رأسه يؤكد لنا أنها بالفعل لعبة المساكة ، ولعبة الاستغماية ، وأننى لو أقمت فى الكونغو سنة أخرى فلن تتغير اللعبة أيضا .

وحاولت أن أجعل للكلام معنى فسألته عن المكتبة التى يقال إنها موجودة فى أحد الأديرة .

فأجاب بأنها نقلت من الدير القريب إلى دير آخر يبعد سبعين كيلو مترا ، وهذه المسافة تعتبر فركة كعب فى بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو . .

وسألنى عن أى نوع من الكتب فقلت : أى نوع .

وضحك وهو يقول : أعرف هذا النوع من القراء . .

وسكت . . وهز رأسه فى أسف تقليدى : كنت مثلك!

أى أنه كان مثلى يقرأ أى شىء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا محددا . . أو ليتوقف عن القراءة!

وقاومت رغبتى فى أن أقول له أنى فى حاجة إلى فنجان قهوة .

وأن زملائى المساكين فى حاجة إلى رغيف عيش . . وأننا جميعا ـ مثله ـ على باب الله!

وكأنه على موعد مع أناس آخرين قال : هل تريد منى خدمة يا ولدى!

وفقدت شهيتى إلى سماع كلمة يا ولدى . . وشكرته . . وفى اللحظة التى تلقى منى فيها الشكر ، رفضه بهزة من يده ورأسه . . واستدار بسرعة . . واختفى فى سيارته . . واختفت سيارته الصغيرة فى الطريق الطويل .

أهلا .. أمين باشا !

أما الورقة التى فى جيبى والتى تسلمتها عند نزولنا إلى مطار مدينة كوكياتفيل فهى تذكرنا بأنه من الضرورى أن نلتقى جميعا فى المطار فى مكتب ضابط جزائرى . . وفى الموعد المحدد ذهبنا .

المكتب نظيف . . الأرض كملابس الضابط نظيفة ولامعة . . وكأنها هى أيضا «مكوية» . . والأبواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى .

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة أو الشاى أو يسألنا إن كانت عندنا أية رغبة فى تناول شىء . . لقد نسى الرجل أنه عربى ، ولم يعد يذكر إلا ملابسه والإشارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته . . وإلا العلم الذى يرفرف أزرق فى أبيض على المبنى . . وكانت محاولة خبيثة من جانبى أن أتحدث إليه باللغة العربية . . وكانت محاولة يائسة منه أن يتكلم بالفرنسية . . هو يذكرنى بأنه أمم متحدة . . وأنا أؤكد له أنه عربى . . أو أنه من الواجب أن يكون عنده شىء من كرم العربى . . وانتهت المباراة إلى نجاح الأمم المتحدة!

وتنفيذا لقرار الأمم المتحدة يجب أن نعود إلى القاهرة بعد ساعات . . لأن الطائرة التى حملتنا هى الطائرة الوحيدة التى يمكنها أن تعود بنا وإذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شىء .

وأول ما يخطر على البال طبعا أن يتلمس كل منا جواز السفر الذى فى جيبه ويسأل عن إدارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت أننى خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج . . فلم يسألنى أحد عن جواز السفر . . لا فى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونغو . . ومعنى ذلك أننا ـ رسميا ـ لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونغو .

ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لو ـ بمحض الصدفة ـ ضبطتنا إحدى الهيئات الطبية فى مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرهما من الأمراض المتوطنة والوبائية؟

وسألنا رجال الأمم المتحدة . . واقترحوا أن نأخذ سيارة ونذهب بها إلى إحدى المدن المجاورة . ولم نعرف اسم المدينة . . وإنما قيل لنا أن السائق يعرف وهذا يكفى . . وهناك سوف نجد طبيبا وعنده تعليمات لإجراء اللازم!

أى أننا موضع اهتمام وتعليمات وإجراءات وإنها ستنفذ جميعا .

وفى السيارة لم يتكلم السائق الدولى كلمة واحدة . . لا بالعربية ولا بالفرنسية . . وهو ابتلع لسانه ونحن أيضا .

وحتى عندما نظرت إلى مؤشر السرعة فوجدت أنه تجاوز المائة والعشرين كيلو أبديت إعجابى بالسيارة وبنعومة الشارع المرصوف . . وكانت هذه حقيقة لا مجاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة ، وكأنه توقع منى أن أستمر فى الثناء عليه . . فاقترب منى قليلا لعلى أرفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم أفعل . . وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر إلى الحقول . . وإلى الغابات . . وتوهمت أشكالا لحيوانات غريبة .

وعرفت فيما بعد أن هذه الحيوانات التى رأيتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الأوصاف التى أذكرها ليست صحيحة فهى مختلفة تماما عما رأيتها . واندهشت قائلا : وهل أنا مسطول؟

فأجاب الطبيب الكونغولى : نعم . .

سألته : ماذا تقصد؟

قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك .

قلت : وما هذه البقع؟

قال : إنها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام . . لأنها لم تنضج بعد . . ولابد أن أحدا قد داعبكم بهذه الفاكهة .

وضحك . . ولم أضحك . . وشعرت بدوخة مفاجئة . . إما بسبب الحقنة التى غرسها فى جلدى . . أوبسبب المشرط الذى أسال دمى .

وتذكرت أن فتيات الكونغو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار . . وظننا ـ بحسن نية وغرور أكيد ـ أنه الإعجاب . . أو الحب من أول نظرة . . ولم تكن هذه الثمار فى طبق أو فى ثلاجة . . وإنما كانت تتدلى من شجرة أدخلت فروعها إلى داخل المطعم . . ومن الغريب أن هذه الفاكهة الصفراء لذيذة . . وإن كانت لاسعة

الطعم . . كأنها نوع من الجوافة المطعمة بالمانجو والمرشوش عليها القليل من الموستاردة والشطة . . لذيذة . .

وهى تصيب من يأكل الكثير منها بشىء من الهلوسة .

وبدأنا نراجع تصرفاتنا . . وأخذنا نضحك . . ولم يتسع وقتنا لنسأل إن كان هذا الضحك الشديد الذى أسال عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة . . أو أنه شىء طبيعى .

وحاول بعضنا أن يعثر على هذه الشجرة أو أية شجرة مماثلة لها . . ولكنه لم يجد .

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التى صرفها لنا الطبيب الكونغولى . . وإلا حجزونا فى المحجر الصحى فى مطار القاهرة أسبوعين آخرين . . وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء . . والحقيقة أننى لم أكن فى حاجة إلى هذه الشهادة الدولية فعندى شهادة صالحة للسنوات الخمس القادمة . . ولكن لم يتسع وقتى لإحضارها معى .

وبسرعة عدنا . . وبسرعة نزلنا من السيارة . . ووجدنا الطائرة فى انتظارنا .

ولأول مرة أرى الطائرة بوضوح . . إنها جراج واسع . . أرضها معدنية وجدرانها كذلك . . وقد أصبحت نظيفة وشديدة البرودة . . وأحسست كأننى عريان ملط . . وأن ملابسى لا تحمينى من أى شىء . . المقاعد المعدنية تلسعنى كالجلوس على البلاط . . جدار الطائرة كالمقاعد باردة . . ومن قلب الطائرة يرتفع سلم إلى كابينة القائد . . ومن كابينة القائد أرى بعض الوجوه . . إنهم أكثر من طيار . . وفى الكابينة حركة غير عادية . . لقد تحركت مراوح الطائرة . . واحدة بعد واحدة . . وزمجرت الطائرة وبدون أية تعليمات تحركت الطائرة الكبيرة جدا . . ومشت على الأرض الخضراء وارتفعت فى الهواء ، إلى أين؟ لا أحد يعرف بالضبط . . لم يدر بيننا أى كلام .

ولا تزال الحركة غير عادية فى كابينة القائد .

والآن يمكننى أن أصف هذه الحركة . . إنهم يتناولون طعام الإفطار . . يفتحون علبا كبيرة . . العلب من الصفيح . . ويبدو أنها مثلجة وفى أيديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة . . ومعهم شطائر من التفاح . . وكل شىء عادى جدا . . فهذه الطائرة بيتهم المتحرك . . ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين أو عسكريين . . إنهم جماعة من الأمريكان فى مهمة دولية .

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة أكثر . . وحاولنا أن نغطى هذا الموقف بالكلام . . ولكن من الذى يسمع منا . . أن صوت الطائرة صارخ . . ثم ما هذا الكلام الذى يمكن أن يدور بيننا . . فكنا نضحك بلا سبب . . أو كنا نضحك للسبب الذى عرفناه أخيرا .

ونهضت وتسللت إلى الكابينة : صباح الخير . . ورد الكابتن : صباح الخير . . بيرة . .

قلت : شاى . .

قال : حالا . .

قلت : شكرا . . ولزملائى أيضا . .

قال : حالا .

وفعلا جاء الشاى الساخن . . وبهذه السهولة .

إذن من أين جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها . . الشاى سهل . . والشراب سهل . . والطعام سهل .

ولكن أحدا منا لم يحاول ولم يطلب . . إن كل شىء موجود وراء هذه الأبواب وهذه الستائر . . وفوق هذه السلالم . . ووراء هذه الوجوه . . ولكننا لم نحاول أن ندق بابا وأن نصعد سلما وأن نقول صباح الخير وأن ننتظر الرد . .

وقال : سندوتش . .

قلت : إن كان ممكنا . .

قال : ممكن . .

قلت : ولزملائى أيضا .

قال : ولصديقاتكم . . إن كانت لكم .

وضحكت . . وشجعنى الشاى والسندوتش والدفء الموجود فى الكابينة والألفة الإنسانية التى تتم بسرعة بين الناس دون أن أعرف من هو . . ولا هو يعرف من أنا . . أنا فى مهمة وهو فى مهمة . . ونحن الاثنين فى طائرة واحدة فوق الكونغو . . ونتفاهم بلغة دولية . . لغة الذوق والمجاملة . لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاى والخبز . . وتطرقت فى الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة . . وضحك . . وتمنى لو أنه ذاقها . . وأخرج ورقة وقلما يكتب اسم الفاكهة . . ثم أعاد القلم والورقة إلى

مكانهما عندما عرف أننى لا أعرف . . ولكن الأسف كان واضحا على وجهه . ولكن لحسن الحظ لم يصل إلى درجة أن يسحب منى الشاى والسندوتش .

وأشار من نافذة الطائرة إلى الأرض . . وقال : هذه بحيرة فكتوريا . . طبعا!

من هنا ينبع نهر النيل العظيم . .

ليس شكل البحيرة واضحا . . ولكن الماء لونه أزرق تركوازى . . وتوجد زوارق صغيرة . . أو حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطئ . . هذه الحيوانات هى وحيد القرن . . السيد قشطة . . عددها كثير . . وإن كانت تنقرض هذه الأيام . . وكذلك التماسيح . . فالمفروض أن يضع التمساح بيضه على الشاطئ وقتا طويلا . . ولكن كثرة الحركة السياحية فى جانب من هذه البحيرة يجعل التمساح يهرب إلى الماء ويترك البيض فتجىء بعض الطيور أو الحيوانات المفترسة وتأكل البيض .

وسألنى كابتن الطائرة إن كانت القعدة مريحة . . واشار إلى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب فى الذهاب وعذاب فى الإياب!

ولم يهتم . . فهو كرجل عسكرى . . قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية فى الجسم . . وأشار إلى زميل عجوز وقال : إدوارد . .

وجاء العجوز ادوارد إنه يشبه العمدة فى أفلام رعاة البقر . . طويل القوام . . مقطب الوجه . . إذا تكلم اهتز . . وتمايل . . ولكن يده دائما قريبة من مسدسه . . ولم تكن على صدره النجمة المعروفة . . وجاء إدوارد ونظر إلينا . . كأنه يرانا لأول مرة .

وسأله : التكييف متعطل؟

ورد عليه ادوارد ببرود أشد من أرضية وسقف الطائرة : إنه لا يعمل . . وهنا اعتذر الكابتن وأصلح هو جهاز التكييف .

وفى لحظة تحولت الطائرة إلى غرفة دافئة مريحة للأعصاب . . وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدات والألحفة . . ونامت كل خلية حية فى جسمى . . وهتفنا جميعا لإدوارد : الله يخرب بيت أبوك يا عمدة .

وسألنى : ماذا تقولون .

فقلت : النشيد القومى .

فقد كان فى استطاعة إدوارد هذا أن يشغل التكييف منذ ساعات ويرحمنا من البرد الشديد الذى دغدغ عيوننا ودشدش بقية الأعضاء .

أما أنا فعندى مقياس للبرد لا يخطئ : إننى أشعر به فى الجانب الأيمن من بطنى .

واختفى إحساسى بالجانب الأيمن من بطنى . . وإحساسى ببطنى . . إذن فالجو دافئ والسماء صحو . . والشمس مشرقة . . ومازال بحيرة فكتوريا تحتنا . . ومانزال فى المناطق الشمالية من الكونغو . . والطائرة متجهة إلى السودان .

ولكن الحالة المعنوية أحسن . .

والكلام الذى دار بيننا هو من وحى الدفء . . ومن وحى الشاى والسندوتش . . ودفء العلاقات الإنسانية التى تولدت بسرعة . . حتى إدوارد العجوز مايزال جالسا عند أعلى السلم وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حزينة . . واضح أنها حزينة . . وراح يغرقها فى أكواب البيرة الباردة ، ويرفع صوته بالغناء . . إنه مبسوط .

وعندما اهتزت الطائرة فجأة . . هز رأسه وأشار بيده . . إشارة لم نفهمها . . وبدأت الطائرة تهبط . . ومن النافذة بدأت الأرض الخضراء تقترب . . والغابات الكثيفة فى كل مكان . . وهبطت الطائرة . . ولكن المطار مختلف . . فله ممرات وهناك برج . . ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفى . . ونزلنا من نفس المكان الذى نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية . . وأشار إلينا إدوارد أن ننزل . . وقال لنا : إلا إذا كان أحد منكم يريد أن يبيت هنا .

ولم يكن عندنا كلام نقوله . .

ولكن غلبت علينا الرغبة فى أن نعرف أين نحن . . وأن نتفرج وإذا لم نجد مكانا عدنا إلى الطائرة . . أما هو فبحكم العادة أخرج بطانية . . أو مرتبة . . ودخل فيها . . وشد السوستة . . ونام فى جانب من الطائرة . . ويبدو أنه نام بالفعل . . وفى دقائق . . ونزلنا من الطائرة . . ووجدنا البوفيه . . البوفيه نظيف . . والجو نفسه منعش . . والمكان مرتفع . . والجرسونات يمشون حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقع الاحمرار . . والزر إلى الأمام . . والضحك على وجوههم جاهز . . وأية إشارة إليهم تجعلهم يضحكون أكثر ، إنهم كأبناء الفلبين واندونيسيا يضحكون على الفاضى وعلى المليان . . وليسوا كأبناء اليابان الذين يضحكون بحساب : فهم يضحكون ليعطوا لأنفسهم ولغيرهم فرصة للتفكير فيما بعد ذلك . . أى فيما بعد الضحك .

فالضحك فى اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التى جاءت فى هذا السطر . . إنها مسافة وبعدها يجىء الكلام .

وهذا البوفيه مشجع . . والضحك مشجع أكثر . والحالة المعنوية عالية . . ولا أوجاع في البطن ولا فى الرأس . . وقلت لواحد منهم : هل نحن فى كينيا؟

والآن أريد أن أصور ما الذى حدث فى البوفيه . . أريدك أن تتصور أن قنبلة من قنابل الغاز التى تبعث على الضحك وتسيل الدموع قد انفجرت فى كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين فى البوفيه . . وأن هذه القنبلة متعددة المراحل . . وأن مرحلتها الأولى قد انفجرت فى العينين . . والثانية فى الفم . . والثالثة فى البطن . . والرابعة قد انفجرت فى البنطلون . . وأن هذه القنبلة اسمها : هل نحن فى كينيا؟

لقد تعالت أصوات الجرسونات بالضحك والدموع . . والتساقط على الأرض .

وبدأ الزملاء يسألوننى عن النكتة التى قلتها . . وكررت ما قلت . . واندهشوا هم أيضا . . وبعد أن زال أثر القنابل المضحكة اقترب واحد منهم وقد عاوده العبوس الذى يعقب الانفعال الشديد وقال : نحن فى أوغنده!

ولم أشرح له اختلاط أوغنده وكينيا فى رأسى . . فلا أحد قال لنا أين هبطنا . . وحدود أوغنده وكينيا متجاورة . . ولا أعرف أن وصف أوغندة بأنها كينيا يبعث على الضحك . . ولكن مادامو قد ضحكوا ، فلابد أن هذا مضحك . . تماما كما تذهب إلى سوهاج وتقول لهم : مش دى أسيوط!

ولابد أن أهل أوغندة وجدوا فى جهلى فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالى على رجل أبيض جاهل . . ومن المؤكد أننى أسعدتهم ورددت لهم اعتبارهم ، ولو كنت أعرف أشياء أخرى تسعدهم لفعلت ، فإن الشاى الذى قدموه قد أنعشنى وأسعدنى ، وشربت كوبا وراء كوب . . وفى كل مرة أُمتدح الشاى الإنجليزى . . بل إننى تطوعت ودخلت البوفيه وصنعت الشاى على الطريقة التى تعلمتها فى جزيرة سيلان . . ومن خبراء الشاى . . ومازلت حتى اليوم أسير هذه العادة .

ولما سألونى كيف تعلمت صنع الشاى . .

وجدت الفرصة التى أحولهم فيها إلى تلامذة . . وأسترد فيها مكانتى كواحد لديه الكثير من المعرفة فى هذه الصناعة التى يأكلون منها العيش . . ولكى أؤكد لهم أن الخلط بين كينيا وأوغنده من الجو ممكن جدا . . وكثيرا ما أسقطت الطائرات

فى الحرب قنابل على أهداف خاطئة . . قلت تعلمتها فى شركات الشاى فى مدينة كولمبو بسيلان . . وفى مقاطعة دار جيانج فى الهند .

ورويت لهم كيف أن إحدى شركات الشاى فى سيلان قد طلبت منى أن أعطيها عنوان عشرة من أصدقائى فى جميع أنحاء العالم لكى يبعثوا لهم بهدايا من الشاى الفاخر الذى لا يباع فى الأسواق . . وأننى أعطيتهم عناوين عشرة من الأصدقاء . . وأننى عندما عدت إلى القاهرة وجدت الشركات قد أرسلت لكل واحد منهم كيلوجرامين من الشاى الطويل المعطر . . وقيل لى أنه شراب الملكة اليزابيث المفضل . . وكم كان حزنى عميقا . . وكم كانت فرحة أبناء أوغنده هائلة . . عندما قلت لهم أننى نسيت أن أعطى للشركة عنوانى!

ولكن هذه الشركة عندما علمت بهذا المقلب الذى أوقعت نفسى فيه أرسلت لى كمية أخرى من الشاى المعطر .

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الأوغنديين أن يطلبوا منى أن أعمل معهم فى البوفيه . . ولا داعى للعودة إلى القاهرة .

وسألت جادا : أين نحن؟

قالوا : أنت فى أوغنده . . وهذه مدينة عنتيب .

لا أعرف الكثير عن هذه المدينة ، ولو تركنى وحدى هذا الجرسوم الذى أعجب ببراعتى فى صناعة الشاى لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة هذه المدينة ، الآن فقط أستطيع أن أجد عندى بعض المعلومات . . فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما . . فقد كانت العاصمة القديمة لأوغنده . . أما العاصمة الآن فهى كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم . . فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الأفريقية . . والجيوش المصرية أيام الخديو إسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها ، ويوجد أثر للمصريين فى أماكن مختلفة من البلاد .

ويمكننى أن أفسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمى عندما سألنى أحد الجرسونات عن اسمى ، ونحن منهمكون فى صناعة الشاى ، فقال : آه . . أمين باشا؟!

وسألته : كم عمرك . .

قال : سبعون عاما .

وكـان يبـدو فى الأربعين . . وسـيظل يبـدو كـذلك مـادام يضـحك طوال الوقت ويغسل همومه أولا بأول .

وأمين باشا هذا الذى أضحكه . . هو أمين باشا محمد . . وهو الطبيب الألمانى الذى عينه غوردن باشا حاكما على المحافظة الاستوائية بأمر الخديو إسماعيل يوم كان العلم المصرى يرفرف على هذه البلاد . . وأمين باشا هذا كان طبيبا ممتازا . . وكان يتقن عشر لغات وعشرات من اللهجات الأفريقية . . وقد اشتغل فترة طويلة فى قصر السلطان بتركيا . . ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركى . . وإن كان لم يعتنق الإسلام ، واسمه الحقيقى هو إدوارد اشنتسلر وقد أوفدته الحكومة الألمانية ليوسع حدودها إلى ما وراء تنجانيقا التى كانت مستعمرة ألمانية . . وحاول كثيرا . . ولكنه سقط فى أيدى تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره ، ولم يترك كتبا عن مغامراته ، وإن كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة . . ويقال إنه تزوج فتاة من مدينة عنتيب .

وسألت الجرسون الذى أضحكه اسمى : هل تعرف أمين باشا جيدا؟

أعدت عليه السؤال عندما لم ألحظ ما يدل على معرفته لهذا الرجل فقال : أعرفه . . أنا اسمى أمين باشا محمد .

قلت : مسلم؟

قال : أولادى فقط .

قلت : وأنت؟

قال : مسيحى . .

قلت : وزوجتك .

قال : مسيحية .

قلت : وكيف حدث ذلك؟

قال : يحدث هذا كثير .

ولم أجد عنده تفسيرا . . ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيرا . . أن يكون الأب مسيحيا وأولاده مسلمين ، ويحدث كثيرا أن يحتاج الإنسان إلى من يشرح له ، ثم لا يجده . . ويسكت دون أن يفهم!

الحمد لله . . شربت وأكلت . . وضحكت وأضحكت . . وجاء الليل بسرعة ليصنع لنا مشكلة جديدة . . أين ننام!

وقبل أن نفكر فى النوم يجب أن ندفع ثمن الشاى . . وثمن السندوتش والحلوى التى جاءت فى حماية الشاى وبسببه .

وتكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبى بعض الفرنكات الكونغولية . . وحاولت أن أدفع . . وعرفت بسرعة أن هذه الفرنكات تشبه «بونات» بوفيه محطة مصر . . وأنا أشبه من يأخذ هذه البونات ويعطيها لجرسون فى محطة روما . . مضحكة . . وأنا مضحك!

وكانت فرصة لأمين باشا أن يصر على أن يكون الحساب عليه هو . . وشكرنا أمين باشا وتمنينا له طول العمر والصحة وأن يظل بيته عامرا . . وقبل أن نفكر فى أين نذهب . . هل نتفرج على المدينة . . أو هل ننام مبكرا فى الطائرة . . ومادامت الفلوس الكنغولية لا تنفع فما الذى نفعله . . ظهر لنا رجل إنجليزى . . يبدو أنه من رجال المطار .

وسألنا : من مصر .

قلت : نعم؟

قال : كم يوما تبقون هنا .

قلنا : حتى الصباح .

قال : ما مشروعاتكم؟

قلنا : أولا نبحث عن مكان ننام فيه .

قال : وثانيا؟

قلنا : نتفرج على المدينة .

قال هو فى رقة جادة : إذن نبدأ بثانيا؟

ومشينا معا وراءه دون أن نسأله من هو وما شأنه . . ولكن لم يكن من الصعب أن نعرف أنه أحد رجال السلطة جاء لمراقبتنا بصورة رقيقة ، وأخذنا فى سيارته ، وذهبنا جميعا إلى أحد محلات البقالة . . المحل هندى . . والهنود كثيرون هنا وفى كل المستعمرات البريطانية الأخرى . . وشربنا شايا . . وفى المحل قابلنا عددا من

المواطنين وسألونا عن بلدنا . . وماذا نصنع . . ومن الغريب أنهم سألونا عن بعض الصحف المصرية . . وبعض الكتاب المصريين . . وعن موضوعات محددة نشرتها الصحف المصرية . . فهم من طلبة الجامعة الأزهرية!

وانصرفنا . . فى سيارة الضابط الإنجليزى . . واتجه بنا إلى أحد الفنادق . . وأوصلنا إلى باب الفندق . . وتأكد من دخولنا ومن وقوفنا أمام صاحبة الفندق . . ومن أننا كتبنا استمارات الإقامة وسجلنا أسماءنا وأرقام جوازات السفر . . ودعنا الرجل وشكرناه . . ووعدنا بالعودة فى الصباح ليرافقنا إلى الطائرة .

والفندق من طابقين . . وككل الفنادق الاستوائية . . ملىء بالأشجار . . وعلى النوافذ ستائر من السلك ضد الحشرات والبعوض بصفة خاصة . . وفى كل غرفة جهاز تكييف ، وفى الطريق إلى غرفتنا مررنا بالمطعم . . ثم حبسنا أصواتنا وأنفاسنا عندما وجدنا المطعم مليئا بالناس ولكن أحدا لا يسمع لهم صوتا . . وهم جميعا بالملابس الكاملة . . الرجال بالبدل والكرافتة . . والسيدات بالسواريه ، ونحن قد ارتدينا ما يشبه «العفريتة» . . والهدوء والدفء والأنوار الناعسة والأطعمة الشهية والأكواب الزجاجية الطويلة . . والأوانى على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حراما على كل من عنده إحساس أو ذكريات .

ولكن لا وقت للذكريات .

ويظهر أنه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الأقل . . فعندما تأملت وجه السيدة صاحبة الفندق . . كان الوجه مألوفا . . لا أعرفها . . ولكن أعرف مثل هذه الملامح . . وسألتها : من أين؟

قالت : من القدس . .

قلت : العربية ؟

قالت : لا . .

قلت : وتتكلمين العربية طبعا ؟

قالت : طبعا .

قلت : بايخة !

ولم أقلها بصوت مرتفع . . فقد علق بعض الزملاء على ملامحها وعرفوها . . وعلى أنفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التى تزداد لحظة بعد لحظة . . وعلى أنها نبهت إلى ضرورة إلزام الهدوء . . الذى التزمناه بالفعل!

وفى الغرفة وجد كل منا ما يحتاج إليه .

وجدنا سلالا من الفاكهة . . فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها . . وأهم من هذا كله وجدنا الدش . . وأهم من الدش وجدنا السرير . . وأهم من السرير وجدنا النوم .

وكان الصباح جميلا .

كل شىء هادئ . . الغرفة نظيفة . . الألوان بيضاء . . السرير والغطاء والجدران . . والأكواب كلها خضراء ووردية . . ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة . . الأشجار مليئة غنية بالأوراق والثمار . . والطيور ثرثارة ولكنها متنوعة . . والفندق يشرف على المدينة . . ويتوارى خلف الأشجار حتى لا يبدو مشرفا بالفعل!

ودق جرس التليفون فى الغرفة . . ولم تمتد إليه يد . . فنحن لا نتوقع شيئا ولا أحدا . . ونحن نعرف مقدما ما سوف يحدث . . وإن كنا نتمنى أن يحدث شىء يجعلنا نبقى هنا يوما أو يومين .

وفى التليفون سمعت أن الضابط الإنجليزى فى انتظارنا . . إنه ضابط أمن نشيط . . إنه يريد أن يطمئن على أننا سوف نسافر اليوم ، ولم يقل فى التليفون إنه يتعجل أحدا . . وإنما فقط يريد أن يقول لنا أنه موجود . .

وكان فى نية أحد الحاضرين أن يسأل عن فول مدمس . . ولكنه تراجع عندما تذكر هذه السيدة صاحبة الفندق . . واكتفى بالشاى والبيض والزبدة واللبن .

وفى هذا الجو الاستوائى قررت أن أتناول إفطارا من نوع خاص . . يذكرنى بأيام الهند وسيلان وأندونيسيا . . فطلبت بيضا بالطماطم والفلفل الأخضر والأحمر . . وطلبت كوبا من عصير الطماطم بالشطة . . ثم طلبت شرائح من الأناناس . . وشرائح من البابايا . . وبعض البندق الهندى . . وكوبين من الشاى الإنجليزى «المعنبر» ولابد من إضافة هذه الصفة لأن لونه أحمر ذهبى ورائحته كرائحة العنبر الوردى .

ووجدت فى هذا الإفطار تعويضا سخيا عن كل ما حدث فى الأربع والعشرين ساعة الماضية . . ورضيت عن التعويض ، واسترحت نفسا وجسما . . وكان هذا واضحا تماما فى مصافحتى للضابط الإنجليزى الذى بدأ أكثر انتعاشا منا جميعا . .

وكان من الواجب أن أسأله كيف نام وأين وماذا أفطر صباحا لعلنا نعرف سر هذه الحيوية والشباب واليقظة . . ولم أجد مبررا لذلك فالذى أشعر به أرضانى وأشبعنى وأمدنى بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود إلى القاهرة .

ونقلتنا السيارة إلى المطار . . والسيارة هى التى نقلتنا وليس الضابط . . فلم نشعر به . . لأنه لم ينطق بكلمة واحدة . . كأنه يتوقع أن نقول شيئا . . أو كأنه يدخر قواه لينفقها فى عمله . . وعندما دخلت السيارة أرض المطار رأينا الطائرة . . وقد وقف عند بابها الخلفى ذلك العجوز إدوارد ، وواضح أنه ينتظرنا . . تماما كما يفتح بقال ريفى دكانه وينتظر الزبائن الذين لا يفتحون النفس إلى العمل كأن يشتروا بقرش شاى وبقرشين سكر . . وأشياء تافهة أخرى .

وصافحنى الضابط الإنجليزى وشكرناه وتقبل منا الشكر الذى يتوقعه ويستحقه . . أيا كان السبب . . ودخلنا الطائرة . . وأقفل الباب . . ودارت المحركات . وأسندنا الظهور الدافئة إلى الجدران الدافئة ، ومددنا أقدامنا . . وتعالت أصواتنا بالضحك وبالكلام ، ولم نلتفت إلى الكابتن أو العجوز إدوارد . . ولا نعرف كيف أن المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة إلى هذه الدرجة رغم أنها استغرقت سبع ساعات .

ومن النافذة رأينا القاهرة . . وهبطت الطائرة . . وصافحنا الكابتن وزميله والعجوز إدوارد . . ونزلنا فى مكان بعيد من المطار . . ولم تكن هناك أية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة إلى المطار . . وكانت المسافة طويلة .

وفى وضح النهار ظهر الإعياء علينا . . وعلى ملابسنا المتكسرة المليئة بالبقع . . وعلى أحذيتنا التى تلطخت بالطين . . ودخلنا المطار وسألونا : من أين؟

قلت : من الكونغو .

أما كيف خرجنا . . وكيف نزلنا وكيف صعدنا وكيف عدنا . . فالجواب : أن كل شىء تم بالليل ، وبسرعة هناك . . حيث لا حكومة . . لا جيش ولا بوليس . . وحيث البلاد مفتوحة كالسماء . . لا أحد يعرف الداخل ولا الخارج ولا أحد يهمه أحد .

أما شهادة التطعيم والحقن فهى التى فتحت الباب الخارجى إلى البيت . . بينما ظل بعض الزملاء فى الحجر الصحى أسبوعين آخرين . . فلم يتمكنوا من الحصول

على شهادات دولية . . أى أنهم سافروا إلى الكونغو وعادوا فى ثلاثة أيام . . ولكنهم لن يسافروا من مطار القاهرة إلى القاهرة نفسها إلا بعد ١٤ يوما !

وفى الطريق إلى القاهرة سألنى أحد الزملاء : نفسك فى أيه دلوقت؟

قلت : بصراحة وإخلاص . . نفسى أسافر إلى الكونغو .

وكمن سمع ـ نكتة ـ بايخة قال الزميل : أنا حرمت أسافر معاك . . أنت رحلاتك انتحارية!

ليست انتحارية . . ولكن أريد أن أعرف . . أن أفهم . . ولم يتسع وقتى لكى أفكر وأدبر . . وأتدبر . . فكأننا ذهبنا إلى زيارة أناس قد دخلوا الفراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت عشرات من فناجين القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار . . وكل الذى دار بيننا هو أننا تجاذبنا الغطاء . . أنا أسحبه عنهم وهم يشدونه . . وغلبنى التعب وغلبهم النوم . . ثم غلبنا جميعا!

صنع فى ألمانيا

يفعل أى شىء ، وقد يكون من المعانى التى خطرت على باله أن الأمريكان ـ أى قوة خارجية بفلوسهم وصناعتهم ـ هم الذين انقذوا الشعب الألمانى .

والمعنى الأول لم يخطر لى ببال . . بينما المعنى الثانى وهو ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال . . وإنما الذى أحسست به هو هذا الفارق بين ألمانيا بخرائبها فى سنة ١٩٤٩ وألمانيا التى رأيتها بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ .

وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لفهم أوضح وأسلم للألمان . . فهم جادون . . مكبون . . أو لكى أكون عادلا : أقول أن طريقتهم فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . . وليس من الضرورى أن يتفق العالم كله من أوله لآخره معنا لكى نفهمه ـ أو لكى أفهمه ـ على النحو الذى يريحنى!

وهذا يجعل المسافر إلى ألمانيا أو الذى يعيش فيها يسأل نفسه من هم هؤلاء الناس؟ ما هو تعريف المواطن الألمانى ، ربما كان معناه : النظام والطاعة والهمجية والقسوة والطاقة على العمل والصبر والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والاندفاع والغموض .

وإذا قارنت الألمانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين شعبين تجاورا مئات السنين . . ولكن لاتزال المسافة بينهما أبعد بزمان جدا مما بين باريس وبون . . فالرجل الفرنسى ـ من وجهة نظر الألمان ـ مبهدل فى مظهره ولكنه ذكى . . لا صبر له على العمل ولكن إذا عمل كان فى غاية الكفاءة . . ولديه قدرة عقلية فذة . . وصحيح أن الفرنسى ليس عاطفيا كالألمانى ، ولكنه عاشق من الدرجة الأولى!

أما رأى الفرنسى فى نفسه فهو أنه أسمى وأكثر إنسانية ، ولكنه ينظر بحسرة إلى الإنجازات العظيمة التى حققها الألمان فى كل العصور!

تصادف أن ذهبت إلى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه أول زيارة لألمانيا ، وكانت المدينة لاتزال محطمة ، ولكن ظهرت العمارات الجديدة والشوارع المضيئة . . ثم كانت هناك محطة السكك الحديدية الفخمة . . ووجدت غرفة فى بنسيون اسمه : بنسيون «الشاعر جيته» . . وأعجبنى الاسم . . ولم تكن هناك أية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون . . تماما كما لا توجد أية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان .

والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد أنه نظيف .

وعرفت فى أول ساعة من دخولى البنسيون أنه لا توجد حنفيات للماء . . فالعمارات منهارة . . ولم يتم بعد إصلاح وابور الماء . . إذن لابد أن أغسل وجهى فى الطشت . . فهناك طشت وإبريق . . وصاحبة البنسيون فى انتظار إشارة منى . . وجاءت وغسلت وجهى وغسلت قدمى . . وشكرتها . . ولم تعتذر عن الطشت والإبريق . . فمفروض أن عندى نظرا . . فالبلد مهدمة . . وهذا هو أحسن ما تستطيع .

وكان يسكن فى غرفة مجاورة شاب فرنسى . . وأثناء الإفطار تعارفنا وتحدثنا . . وصارحنى بالسبب الحقيقى الذى جعله يرفض استخدام الطشت والإبريق . . فقال : إننا تجاوزنا هذه المرحلة من مئات السنين . .

ولم أفهم ، وسألته : ماذا تقصد؟

فقال : إن منظر الطشت يجعلنى أعود إلى أيام الإمبراطور نابليون الثالث . . وتلك أيام لا أحبها!

بعبارة أخرى : لا يعجبه الطشت والإبريق .

وأنا لا يعجبنى ولكن ما الذى يمكن أن أصنعه . . إن البنسيون على قدر فلوسى وفلوسه أيضا . . ثم إن الناس هنا معذورون فى ذلك الوقت . . ثم إنهم لا يقلون حضارة عن الفرنسيين . . ولكنه فرنسى يعيش فى ألمانيا!

ولا هو أحب البنسيون ولا صاحبة البنسيون أحبت هذا الشاب . . ولا كل الفرنسيين!

وعندما سقطت ألمانيا سنة ١٩٤٥ فوجئ الماريشال الألمانى كايتل أثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع على التسليم . . فقال الماريشال :

– وفرنسا أيضا؟

يقصد وفرنسا التى هزمها الألمان سنة ١٩٤٠ فانتهت كدولة كبرى . . إن هذا الموقف المهين لألمانيا ، لم ينسه الألمان ، ولم ينسه الفرنسيون أيضاً !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون أن تخفى شعورها . . فأشارت إلى ذلك .

وكان ذلك منذ وقت طويل . . ولكن الألمان الآن قد نسوا . . أو حاولوا نسيان ذلك .

فألمانيا تغيرت معالمها .

نهضت المدن والمصانع والشوارع . . وامتلأت المحلات التجارية وانتقل العمال إلى ألمانيا من كل الدول الأوروبية . . فالألمان عندهم كثير من الرءوس وعندهم قليل من

الأيدى . . فعندهم المهندسون والأسطوات والعمال المهرة ، ولكن ينقصهم العمال فقط . . الأيدى فقط .

ويظهر أن الألمان أحسوا بأن جيل ما بعد الحرب ليس صلبا ولا متماسكا كما يجب ولذلك أضافوا إلى كل مصنع «مدرسة للتأهيل المهنى» واستخدموا فيها أساليب التدريب العنيف . . وبعض المدارس لجأت إلى الضرب .

أذكر أنى حضرت إحدى ولائم الغداء فى مصنع شركة «ديماج» وقد حضر عدد كبير من الخبراء والإداريين . . وعدد من الشبان المصريين يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف حال الشبان المصريين؟

فأشار إلى مهندس ألمانى آخر وطلب إليه أن يجيب . . وهذه الحركة مألوفة فى ألمانيا . . فكل واحد يتحدث فى اختصاصه . . مهما كان هذا الاختصاص تافها . . ونهض المهندس المشار إليه وقال : بصراحة أنا لا أحب هذا النوع من الشبان . .

يقصد الشبان المصريين . . وقال : إنهم أكثر اهتماما بالفتيات الألمان . . إننا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط أن يكون فى أوقات فراغهم . . أنا لا أفهم ما معنى أن يحمل كل واحد منهم صورتها فى جيبه أو يضعها أمامه فى الورشة . .!

واحمرت وجوه الألمان . . وأحسست أن شيئا غريبا قد حدث أو سوف يحدث . . وأن هذا المهندس الألمانى قد أحرجهم . . وأنه ليس من اللائق أن يصارحنى حتى بكل الحقيقة .

ودار همس وتجاورت الرءوس . . وسمعت المهندس الكبير يقول : إننى صريح . . أنا رجل عسكرى . . ولا أحب الميوعة فى الشبان . . من أى بلد!

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شابا يمضغ اللبان فأخرجها من فمه بالقوة وعاقبه .

ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت ألمانيا على قدميها . عملاقا صناعيا غنيا من جديد وطفلا ذليلا فى وزارة الخارجية الأمريكية . . ولابد أن هذه الذلة هى التى جعلت ألمانيا تقف إلى جوار إسرائيل . . فى تسليحها وتمويلها . . وفقدت بذلك أرضا وملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصناعة الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية . . وكان يكفى أن يجد المواطن العربى عبارة : صنع فى ألمانيا . . ليشترى ودون تفكير . .

وعلى الرغم من أن المصانع الألمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب وأرسلت إلى دول الاحتلال الأربع . . ومسحت الأرض قبل ذلك بالقنابل ، وقتل عشرة ملايين شاب ألمانى ، فإن هذه المصانع أعيدت من جديد . . وحولها البيوت . . والمعاهد والمدارس والمتاجر . . وأصبح الألمان مثل أغنياء الحرب . . فهم يقضون الصيف فى إيطاليا وفى أسبانيا وفى اليونان . . ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم فى كل مكان فى العالم . . بل إنهم أقرضوا أمريكا وبريطانيا ملايين الجنيهات الذهبية!

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الألمانية ومن تناقضها ، بل إن هناك أكثر من ألمانيا .

فهناك ألمانيا الشرق . . وألمانيا الغرب .

وهناك النمسا التى تتحدث الألمانية .

وسويسرا التى تتحدث الألمانية .

وكانت هناك دائماً أقليات ألمانية فى معظم الدول الأوروبية . . فى تشيكوسلوفاكيا . . والمجر وبولندا . . وكانت هناك مدينة دانزج الحرة .

وألمانيا نفسها دولة مفتوحة الحدود . . انتصرت وانهزمت . . واحتلت بلادا واحتلتها بلاد . . وحطمت وتحطمت . . فى كل الحروب الأوروبية . . فهى مصدر كل هذه القلاقل .

ولذلك فالألمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا .

والناس ينظرون إلى الألمان فى البلاد المجاورة على أنهم أناس متوحشون .

أذكر أننى كنت فى أحد المحلات التجارية فى مدينة أنسبروك بالنمسا . ولاحظت أن البائعات يتغامزن . وعندما نظرت أستوضح اقتربت منى بائعة وقالت : إنهم ألمان!

قالتها بشىء من الضيق .

ولكن الألمان هم نصف تاريخ الموسيقى فى العالم كله . . فهم أحفاد فاجنر وباخ وبيتهوفن وشوبرت وشومان واشتراوس .

ولكن الألمان لم يتفقوا فى الغناء والأوبرات .

ولم يتفقوا فى الرسم ولا النحت .

وهناك مثل يقول إن الإنسان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقيين فى الغابات والوديان الألمانية .

والفلاسفة الألمان من كل الأنواع : مثاليون جدا مثل : هيجل وفخته . . ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز . . وأنصار حياة مثل : نيتشه . . وأنصار موت مثل : هيدجر .

بل إننى وجدت فى مدينة تبنجن بيتا صغيراً متواضعاً جداً على نهر يتمسح فى الأحجار . . فى هذا البيت أقام ثلاثة من عباقرة ألمانيا هم : هيجل وفويرباخ والشاعر هيلدرلن . . وكان الثلاثة فقراء . . وكانوا يقتسمون هذه الغرفة الصغيرة التى تحولت إلى متحف .

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الألمانى هيلدرلن أربعين سنة . . وبعدها انتقل إلى مستشفى الأمراض العقلية ليعيش أربعين سنة أخرى .

والثلاثة مختلفون فى تفكيرهم . . هيجل رجل مثالى يؤمن بالروح المطلقة وبالإمبراطور والدولة . . وكل ماهو مجرد . . وفويرباخ رجل ملحد مادى عملى . . لا يطيق هذه التجريدات الفارغة . . أما هيلدرلن فهو عميد الشعراء الألمان ونبيهم أيضا .

وهذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية . . ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة إلا بصعوبة . . فقد كان عليه أن يعطى دروسا لإحدى الفتيات لكى يلمس يديها فقط . . ولما أحس أن الفتاة تنظر إليه بشىء من الإشفاق ـ هى غنية وهو مدرس فقير . . ولم يكن أحد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنونا بعد ذلك ـ قرر أن يأوى إلى فراشه وأن يكتفى بهذا الشعور من جانب الفتاة . . هى حسنة النية وهو لا يطيق أن يكون مثيرا للشفقة!

وعندما ذهبت إلى بيت الشاعر هيلدرلن كان الباب مغلقا . . خبطت على الباب . . فتحت سيدة تسألنى ما الذى أريده . . وواضح من شكلى أننى لا أريد شيئا منها . . وإنما أريد أن أرى فقط أين كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم . . وهو مسكين مرة أخرى لأن هذه السيدة قد اشترت البيت الذى كان يسكنه الشاعر . . وفتحت السيدة الباب واقفلته ورائى . . ولم تقل لى كلمة واحدة . . وإنما أشارت بيدها إلى الغرفة الصغيرة النظيفة : وهى غرفة طالب بها سرير ومكتب . . ولا يوجد بها كتاب واحد .

وهذه الغرفة لايمكن مقارنتها بالبيت الذى كان يسكنه الشاعر جيته فى مدينة فرانكفورت . . فهو بيت أمير الشعراء الألمان ووزير المعارف فى حكومة فيمار . . وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم .

وهذا البيت لا يشبه أيضا بيت الموسيقار بيتهوفن فى مدينة بون . . فالبيت كله من أوله لآخره قد خصص للموسيقار . . وكان الموسيقار يقيم فى بعض الغرف الضيقة فى الطابق الثانى . . فما تزال هناك بعض الحلل والأوانى . . وخصلة من شعره . . ومخطوطات بقلمه . . وتوجد هناك «السماعات» النحاسية التى كان يضعها على أذنه عندما أصيب فى أذنه . . وهذه السماعات تسجل تطور الإصابة عنده . . فمازالت هذه السماعات تكبر وتكبر حتى أصبحت فى حجم بوق الفونوغراف القديم . . أو حجم قمع الجاز الذى يستخدم فى دكاكين البقالة فى الريف .

وبيت بيتهوفن أحسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت فى مدينة سالزبورج بالنمسا . . فهذا البيت قائم فى السوق . . والسلم ضيق . . والغرف مظلمة وضيقة أيضا . . وكل شىء فى البيت صغير . . أى على مقاس موتسارت . . فقد ظهرت عبقريته وهو طفل . . وكل شىء فى البيت يؤكد هذا المعنى : الطفولة العبقرية .

صنعت فى أمريكا : الجليطة!

ومن التغيرات التى لم تعجبنى فى ألمانيا ـ هذا مجرد رأى سائح يريد أن يرى ما يعجبه . . وطبعا ليس لدى ألمانيا أى استعداد أن تفعل ما يعجبنى ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيها أنفقها فى ألمانيا كل سنة ـ لقد تحولت مطاعمها وحاناتها ذات الطابع الألمانى القديم إلى قاعات أمريكانية .

وأنا أذكر أننى عندما ذهبت إلى حانة «ميونخ» الشهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازى فيها ، كانت المناضد طويلة كبيرة . . وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين . . متشابكين أيضا رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض فإذا جاءت الجرسونة الضخمة وألقت بالأكواب والأطباق واللحوم على الموائد الطويلة امتدت الأيدى وتشاركت وتشابكت . . واهتز الناس يمينا وشمالا . ومع الاهتزاز تلتقى الأجسام والخدود والشفاه . . شفاه غريبة ، ولكنها تتعارف بلغة عالمية . . وتختفى الوجوه فى عناق كله ابتسامة وسعادة . . والموسيقى تعزف ألحانا لا يعرفها السائح الغريب . . وكما يفعل الألمان كنا نفعل . . يقفون . . على المناضد . . نقف . . يغنون . . نغنى . . يرقصون . . نرقص . . الأذرع ممدودة والشفاه جاهزة . . والابتسامات حاضرة والضحك أعلى من الموسيقى . . ولا أحد يعرف أحدا . .

وعندما جاء قائد الأوركسترا واختارنى من بين كل الواقفين على المنضدة صفق لى كل من فى قاعة ميونخ . . وسرت وراء المايسترو إلى المنصة . . والموسيقى كلها تتقدمنى . . ثم أعطانى عصا القيادة . . وصفق الحاضرون . . وانحنى المايسترو بعد أن ترك لى زمام الموسيقى . . وعلى الرغم من أنها نكتة . . لكن إحساسى بأننى عينت مايسترو وبلا مؤهلات ولا مقدمات وفى بلد الموسيقى . . وكأننى بطة ألقيت فى الماء بدأت أبلبط بيدى . . والفرقة الموسيقية تعزف ألحانا جميلة . . وراحت العصا فى يدى تعلو وتهبط . . وأنا فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الألحان التى لا أعرفها . . وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف . . وتقدم المايسترو وأعطيته العصا . . وشكرته . . وذهبت إلى مكانى فوق المنضدة الطويلة . . ولم ألتفت كثيرا إلى التصفيق على الجانبين فلابد أنه كان للعصا . . أو للشجاعة الغريبة التى اكتشفتها فى نفسى . . ولاحظت أن الجهلاء أشجع من العلماء .

وعندما نزلت من مكانى فوق المنضدة ووجدت المايسترو وقد خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيها . . هه . . فهمت . . ومددت يدى فى جيبى وأخرجت ما به ووضعته فى القبعة . . لا أعرف بالضبط كم دفعت .

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جدا أننى يجب أن أذهب إلى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل ما معى من فلوس . . وليس عندى ما أدفعه للتاكسى أو الفندق . . وأهون على نفسى أن أدخل السجن من أن أذهب إلى المايسترو .

وقبل أن أكمل هذه الجملة سألتنى فتاة ـ الله يخليها ويطول عمرها ـ إن كنت أريد أن أسترد بعض أموالى من المايسترو . . فهززت كل جسمى واهتز رأسى ضمنا بما معناه : نعم . . الله يسترك!

وذهبنا معا إلى المايسترو . . وابتسم وكأنه اعتاد هذا الموقف وأعطانى العشرين جنيها . . وتركت له جنيها وشكرته . . وشكرنى أكثر!

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت . . تبدلت . . فسدت . . أصبحت كأية قاعة فى فندق كبير . المناضد صفت منعزلة . . والناس قد ارتدوا الملابس السوداء المنشاة ـ يخص! والسقف قد امتلأ بالنجف ـ يخص . . والفرقة الموسيقية التى قدتها يوما ما قد وقفت هناك بعيدا وفى غاية الأناقة والشياكة . . والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن . . إنه كالفرق بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة . . بيت العيلة هيصة وكل الناس يعرفون كل الناس . . أو من السهل أن يتعارفوا . . أما هذه الشقق الصغيرة فكل واحد قافل بابه على نفسه . . ولا شأن له بغيره . . المناضد الصغيرة هى جزر معزولة فى بار من النظافة والبرودة . . واختفى الفالس وظهر الروك اندرول والتويست والجرك . . يخص .

ولم تعجبنى أيضا من الألمان هذه الوقاحة الأمريكية . . فأنت تجد الرجل طويلا عريضا يمضغ اللبانة وينقلها من اليمين إلى اليسار . . إنه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمن عندما يمضغون القات ويمتصونه ويتركونه متكوما فى جانب الفم ولا يحركونه يمينا وشمالا بشكل يفزعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك فى وجهك .

وعندما ذهبت إلى صديق صحفى استقبلنى بحرارة . وأجلسنى بالضبط فى مواجهة حذائه الذى وضع على المكتب . . وكان إذا أراد أن يتأكد من شىء قاله أو قلته إنما يفتح ما بين قدميه وينظر إلى من هذا الإطار الجلدى .

وكنت أعرف صورتى فى عينيه لأنى أرى صورته بين الجزمتين . . إنها تتسع وتضيق . . وكان فى نيتى أن أسأله إن كان فى الاستطاعة أن أضع رجلى على المكتب مثله تماما . . ولو وافق لترددت لأنى أريد أن أعرف ما الذى ينصحنى به فى حكاية الإمبراطورة ثريا . . فقد كان يضع فى فمه سيجارا ضخما . . والآن تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أعانيها لكى أفهم منه أى شىء . . صوته هامس . والسيجار يمتص بعض الحروف . . وما تبقى من حروف يتساقط فى المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح الجزمتين . . ثم بين الجزمتين . . ثم فى المرحلة الأخيرة عند أذنى التى لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن .

وكان المفروض أن أشهد طلاق الإمبراطورة ثريا . . فقد تقرر أن يعلن طلاقها من الإمبراطور فى وقت واحد فى طهران وفى كولونيا حيث السفارة الإيرانية . . وكان من رأيه أن أذهب إلى السفارة وليكن ما يكون . وذهبت إلى السفارة وانطلقت خراطيم المياه ومن ورائها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع الشجر . . ورأيت ثريا بفستانها الأسود . . ويبدو أن ثريا قد اختارت لون النهار والليل أيضا . . فقد كان النهار أسود والليل كذلك . . فلم أفلح أن أراها عن قرب أو أتحدث إليها .

ونصحنى الصديق صاحب الجزمة إياها أن أذهب معه إلى صديقة له تعمل فى الصالون الذى تتردد عليه ثريا . . وذهبت . . وتهامسا وتلامسا . . وتعانقا . . ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل عما اتفقا عليه . . وفى اليوم التالى كان معى نسخة مكتوبة من الحديث التليفونى بين ثريا والإمبراطور ـ وعلى جانبى الخط كلمات : يا روحى . . يا حبيب قلبى . . يا حبيبة قلبى ـ الله أمال اتطلقوا ليه؟!

هذه العبارة الأخيرة لم يقلها أحد . . أنا الذى قلتها . . وأظن أن الحق معى . . وتم الطلاق الإمبراطورى .

وبدأت أطارد الإمبراطورة . . هى فى سيارتها وأنا فى القطار وكانت مطاردة مضحكة . . تماما كما أطارد ثعبانا فى أواسط أفريقيا وأنا ما أزال فى القاهرة . . كل ما أعمله هو أن أتجه فقط . . إلى مكان الثعبان . . ولكن من المستحيل أن أصل إليه .

ودعانى الصديق الصحفى أن أمر عليه فى البيت . . وذهبت ووجدته يتناول غداءه . . ولم يقل لى تفضل . . لأقول له : شكرا . . سبقتك . . مع أننى لم أكن قد ذقت أى طعام . . ولكن أمام نذالته لابد أن أتخذ مثل هذا الرفض . . ولم يعجبنى هذا الموقف لأنه لم يمكننى أن أرفضه .

ومثل هذه التصرفات الصغيرة كثيرة وكلها تدل على أن الألمان قد تعبوا من النظام الدقيق فى كل شىء . . وبدأوا يخففون القيود . . أى بدأوا يهونون الأمر على أنفسهم .

وإذا كان فى ألمانيا شىء من الانحلال ، فهذه علامات العصر الحديث ، فى أوروبا كلها . . ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من وجود انحلال . . أو ضعف جسمى أو نفسى . . فالضعف صفة من صفات الكائنات الحية ، والدول كائنات حية . . أو تتكون من ملايين الكائنات الحية التى جعلتها الحرب الأخيرة تكفر بالقيم والمبادئ . . لأنها ضحايا المبادئ العتيقة . . ولابد أن تستسلم لحالة تستريح فيها من المبادئ . . أى تكون فى حالة إجازة طويلة من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية . فى حالة تمرد على الأوضاع . . على المجتمع . . على النفس . . ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف فى الطابور . . والمشى على الخط . . والاتجاه إلى المصانع والمكاتب والآلات والمراسم والمعابد . . ولايمكن أن يكون هذا التطور الهائل فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل فى ألمانيا مجرد صدفة . . أو مجرد أنهم كنسوا الشوارع من أنقاض الحرب فانكشفت هذه المصانع والمعاهد والحدائق والكباريهات . . وأنها «المعجزة» - أى حتى لا أخطئ مرة أخرى - أنه المجهود العبقرى الذى قام به الإنسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال . . والقدرة الإبداعية فى العلوم .

والألمان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم . . يعتزون بذلك . . ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت ألمانيا جناحا . . وأهم معالم الجناح لوحة وضعت إلى جوار المدخل . . دون أن يلفتوا إليها العين . كأنها شىء عادى . . أو كأنها مجرد لوحة عليها أسماء . . هذه اللوحة عليها أسماء الألمان الذين فازوا بجائزة نوبل . . وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الأدب و١٠ فى الطب و١٥ فى الطبيعة و٢٢ فى الكيمياء!

(عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وأفريقيا واستراليا : رجلان أديبان . . أحدهما هندى هو طاغور . . والثانى يابانى اسمه كاوابا وليس هذا كثيرا على الألمان . . ولكنه قليل جدا علينا . أى على حوالى ألفى مليون نسمة)!

ويبدو أن الألمان أيضا يذهبون إلى المعامل والمصانع بنفس الحماس الذى يذهبون به إلى الثكنات . . ربما كانت الثكنات هى التى دفعت الألمان إلى المصانع وإلى إثارة الحروب تماما كإثارة النظريات الجديدة فى كل العلوم .

فالألمانى يحب النظام والطابور وعنده صبر عظيم . . وهذه المزايا تجعله عالما . . وتجعله جنديا . . وتجعله بارزا فى العلوم وصارما فى القتال .

وألمانيا الآن محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش وحتى لا تكتوى أوروبا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة . . ولذلك تسربت قواها الشابة وقدراتها الهائلة إلى الإنتاج . . إلى البناء .

ويتولى «ترويض» الشعب الألمانى : الأمريكان . . ويتولى ترويض الأمريكان على ترويض الألمان أغنياء اليهود .

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا إلى ألمانيا بكل قوة وكل مرارة . وأنهم بدأوا يضغطون على الألمان ليكفروا عن خطيئة طرد هتلر لهم من كل مكان . . وتعذيبهم وإحراقهم بالألوف .

ففى الكتب المدرسية نجد الحياة فى إسرائيل مقررة على الطلبة . . ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضوعات الإنشاء . . كما أن دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت الألمان أمام أنفسهم وحوشا وسفاحين . . إن خطيئة هتلر يجب أن تظل خطيئة إلى الأبد . . وأن الألمان يجب أن يعوضوا كل يهودى عن كل ما فقده . . فهم يطلبون تعويضات عن الأب والابن والبيت والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة . . وكل هذه الأموال ذهبت وتذهب إلى إقامة إسرائيل .

كنت فى ألمانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر أحد المدرسين الألمان مع رجل يهودى فى حانة وقال له : إن غلطة هتلر الوحيدة أنه لم يقتل من اليهود عددا كافيا . .!

وقامت الصحف وقعدت . . وأثيرت هذه القضية فى البرلمان . . ولعبت أجهزة الإعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الألمان . وادعت الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبدالناصر بأن يعينه مدرسا للغة الألمانية فى مصر ـ يعنى هذا الرجل على اتصال بأعداء إسرائيل أى بمصر ـ ومعنى ذلك أنه اضطر إلى هذا الموقف . . أى أن الألمان لا يفعلون ذلك عادة ، إلا بتحريض أجنبى .

وحوكم المدرس وسجن!

وأرشيف وزارة الخارجية الألمانية ينفتح وينقفل حسب الطلب . . واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية لألمانيا الغربية لأنها دولة محتلة من الأمريكان . . وبين الحين والحين تظهر علامات النازية على الجدران

والمعابد . . والحزب النازى الجديد عندما انتصر فى بعض الولايات الألمانية انزعج الألمان . والصحف الأمريكية ، ورأوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية ـ أى ضد اليهود .

واليهود ـ كما هى العادة ـ يتولون مهمة إفساد الشباب فى العالم ، وفى ألمانيا يديرون بيوت الدعارة والكباريهات ونشر الإباحية الجنسية والمخدرات ، ومعظم الكباريهات فى ألمانيا يديرها يهود . وفى برلين وحدها يملك شاب يهودى أربعة كباريهات . . منها «عدن» . . . و«جنة عدن» . وهى أماكن لتجارة النساء من كل لون . .!

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاو . . المعسكر واسع محاط بالأسلاك العالية . . وحول المعسكر توجد قنوات المياه التى تفصل الأسلاك العالية عن داخل المعسكر . . وفى داخله غرف الغاز التى كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الألمان المسيحيين . . ويوجد معرض للصور . . صور المعتقلين وهم متجهون إلى المحارق . . وصور الخطابات والمنشورات وأوامر الاعتقال . . والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر .

والأرض فى المعسكر مفروشة بالفحم الأسود . . ليشعر الزائر أن كل شىء نار ورماد . . وهنا معبد يهودى . . ويقابله كنيسة .

وكل يوم يضاف إلى هذا المعسكر جناح جديد . . وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الأخرى . . والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان . . وزيارته واجبة على كل طلبة المدارس ورياض الأطفال . . حتى يشعر كل ألمانى أن أجداده مجرمون . وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين .

وإذا حاولت أن تستوضح أحدا من الألمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة . . والأمر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا . . وغيرهم هم الأمريكان . . واليهود!

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع . .!

إيطاليا للمرة العشرين..!

صوفيا وأخواتها!

من عشرين عاما نشرت الصحف أننى مسافر على «ظهر» الباخرة أسبيريا إلى أوروبا .

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر . . فهو خبر عادى . . فمن الممكن أن أسافر أنا أو غيرى إلى أوروبا وعلى ظهور البواخر أو الطائرات . ولكنى ضحكت لأننى سافرت على ظهر الباخرة فعلا وليس مجازا . . وتحولت الباخرة إلى حصان أو حمارة أو عربة كارو تحمل جوالات من الشعير وأنا أركب فوقها . . فلم يكن سفرى بالباخرة على أية درجة : لا أولى ولا ثانية ولا ثالثة . . وإنما على ظهرها . . فمنذ صعدت إلى الباخرة من ميناء الإسكندرية وأنا على ظهر الباخرة . . ولم يكن الليل قد جاء لأفكر فى مسألة النوم وكيف وأين . . ولكن انحصر تفكيرى فى أين أضع حقيبتى دون أن أفقدها . . وعندما فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه . . ولا حتى كان المسافرون كلهم من المصريين . . ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر الباخرة من المصريين . . ووجدت الكثير من الحقائب والصناديق والناس قد تكدسوا فى كل مكان .

وسمعت من يقول إن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق . . فكرة وسمعت من يقول إن البحارة يؤجرون المقاعد . . وأنهم ينصبون خيمة فى مهب الريح . . وأنه من الممكن أن ننام تحت هذه الخيمة . . ومعنى ذلك أن النوم ممكن . . ليلة وراء ليلة .

أما الشنطة ففى استطاعتى أن أربطها فى رجلى . . أو أضعها تحت رأسى . . هكذا قيل لى . . ولكن عندما أعدت النظرة إلى الشنطة ندمت على أننى أتيت بها . . فلا هى مليئة بالملابس . . ولا أنا سوف أملؤها بالملابس . . ولا ضرورة لها . . وكان فى إمكانى أن أشترى كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسى . . وإذا اتسخت أو تمزقت ألقيها فى البحر . . فالشنطة خشبية . . وجوانبها محددة . . ولم يصنعها أحد لأن ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف . . وتصورت نفسى وقد ربطت هذه الحقيبة فى رجلى . . ولسبب من الأسباب نهضت من نومى والحقيبة فى رجلى . وتخيلت الجنود الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية . . عندما كان ماسحو الأحذية يربطون

أحذيتهم فى صندوق البوية ، فإذا حاول الجندى أن يطارد ماسحى الأحذية ، فإنه يتعثر ويتشقلب . . وتتاح فرصة لماسح الأحذية أن يهرب .

وقد حاولت فى إحدى المرات أن أهرب من مثل هذا الموقف فلم أفلح . . فقد حدث أننى داعبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عندما كانت الباخرة تمر فى مضيق مسينا بين إيطاليا وصقلية . . وكان الليل دافئا . . وكنت متعبا فقررت أن أنام فى ساعة مبكرة . . وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة . . واحتضنت حقيبتى . . وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة فى يدى . . وفى ساقى . . وفجأة أحسست بمطر ساخن . . يغلى . . غريبة . . فالخيمة يتساقط منها المطر الساخن . . وحاولت أن أبتعد عن مكان المطر العجيب . . وقد حاصرنى المطر من اليمين والشمال . . وعند ساقى وعند رأسى . . وقفزت والحقيبة قد ارتطمت بى . . وتشنكلت فيها . . ولم تكن هذه أمطاراً ساخنة وإنما كان أحد البحارة يلقى بالماء الساخن من ثقوب الخيمة . .!

ولم يعجبنى هذا الهزار الملتهب فلم أنم تحت الخيمة . . وقررت أن أظل طول الليل أتفرج فى الدرجة الأولى على الراحة التى ينعم بها بعض الناس . أو بعض الحيوانات . . فلم تبعد عينى كثيرا عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى فى الدرجة الأولى . . وهو مثل سيده قد أدار هذا الكرسى وأدار ظهره للناس وللبحر . . أما سيده فهو الأمير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنا إلى أوروبا . . ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد .

وفى العام التالى سافرت إلى إيطاليا فى جوف طائرة كانت مخصصة لنقل الماشية من الحبشة إلى السودان . . ولكن الطائرة جيدة . . ولم تترك هذه الحيوانات أى أثر فى داخل الطائرة . . ولا حتى أية رائحة . . وإنما ماتزال فيها بعض الحبال . . التى تطورت فى الطائرات الأخرى إلى الأحزمة المعروفة والتى يربطها المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة . ولأن الحيوانات كانت تقف بالعرض فى الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد . . لأن هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات . . ولذلك عندما قررت شركة هذه الطائرات أن تجعلها طائرة ركاب ونقل الآدميين جعلت المقاعد بالطول . . فكنا نجلس متجاورين ، كما يجلس الناس فى زورق أو سفينة شراعية . . وكانت الحبال مشدودة على بطوننا . . وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث أى اهتزاز ،

وكان عددنا كبيرا . . وقيل فى ذلك الوقت أن عددنا هو بالضبط العدد الذى يناسب الغرض المطلوب . . خصوصا إذا كان هذا الغرض هو الغرق فى البحر . . فإذا اضفنا إلى عددنا الكبير حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التى تحركت بها الطائرة من الأرض إلى الجو ومن الجو إلى طبقات عليا أخرى من الجو . . أما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال إنه بفضل دعاء الوالدين . . ولأن عدد اليتامى بين المسافرين كان أغلبية ساحقة!

وكنت أحدث اليتامى ، فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام . .!

ولم يكن غريبا أن نضيق بهذه «الدكك» الملتصقة بجدران الطائرة . . ونجلس على أرضية الطائرة . . وبسرعة ظهرت أوراق اللعب والطاولة والشطرنج . . ولست متأكدا من أن أرضية الطائرة قد تغطت بقشر الموز والبرتقال أو البيض . . ولكن من الواضح أنها تغطت بورق الصحف . . وعلب السجائر .

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية إلى خطوط دائرية . . ثم إلى دائرة واحدة . . واهتزت الطائرة بالتصفيق . . فقد تحزمت المضيفة الأمريكية وراحت ترقص على وحدة ونص . . ويشاركها ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الأشقياء . . وكانت المضيفة تضحك وتترنح من الرقص والانبساط . . ولايمكن أن يتصور أحد أننا فى طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتتجه إلى اليونان بسرعة ٤٠٠ كيلو متر فى الساعة .

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونطر ووزع اللعنات على الجميع بالعدل ، أما المضيفة فإنه سحبها من ذراعها وشد الستارة على كابينة القيادة . . وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا أن نجلس فى أماكننا وأن نربط الحزام ـ الحبل ـ وألا نتحرك حتى تهبط الطائرة فى مطار أثينا .

وبدأت الطائرة تعلو وتهبط . . وتميل يمينا وشمالا وتنكفئ على وجهها . . وتقف على ذيلها . . ونحن نهتز ونرتجف ونتساقط تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح فى يوم شديد الريح . . وكانت النتيجة الطبيعية هى أن يصاب بعضنا بحالة من الدوخة والقيء والإغماء .

وطالت الدوخة . . ومضت الطائرة فى حالة من «المرمطة» . . الهواء أو الضغط هو الذى مرمطها ومسح بها السماء ثم غسلها بعد ذلك بالمطر .

وعندما هبطت الطائرة فى مطار أثينا . . ومشت على الأرض . . واقترب منها السلم . . وانفتح الباب لم ينزل منا أحد . . فقد كنا جميعا فى حالة من الدوخة المؤلمة .

ومن وجوه الكابتن ومساعده والمضيفة التى تغيرت ملامحها تماما ، تساءلنا عن سبب غضب الكابتن . . وعرفنا أن السبب كان أبعد مما تصورنا . . أو مما تصورت أنا . . لقد كان السبب مخجلا حقيقة . . يبدو أن أحدا من المسافرين قد أعطاها شيئا مخدراً فى سيجارة أو فى كوب شاى . . أو بلا سيجارة أو شاى . . قد جعلها لا تستجيب لإشارات الكابتن ومساعديه . . وهذا ولا شك نوع من التخريب .

* * *

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطئ البحر الأبيض المتوسط ذهابا وإيابا . . وعلى الرغم من أنه لا توجد إلا طريقتان هما ، بالبحر وبالهواء فإن اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر مختلفا تماما . . فالسفر على ظهر السفينة غير السفر فى الدرجة الأولى . . والسفر فى الدرجة السياحية فى الطائرة غير السفر معززا مكرما فى الدرجة الأولى ومجانا مثلا!

ولكثرة السفر . . عشرات المرات ، لم أعد أهتم كثيراً بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا أين أضع رأسى ولا أين أضع رجلى . . ولو وضعت رأسى ورجلى فى مكان واحد ـ كالجنين مثلا ـ فإننى لا أتردد فى السفر فهو المتعة الكبرى التى تساوى كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب!

* * *

ولا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بأول وجه إيطالى . . فى مصر أو خارجها . . فالإيطاليون موجودون فى كل مكان . . أو أستطيع أن أقول بشكل آخر : إنه من الصعب ألا تسمع أذنى كلمة واحدة إيطالية كل يوم .

ففى المنصورة منذ أن كنت طفلا وأنا أسمع على الأقل كلمة واحدة إيطالية يوميا . . فقد كان فى بيتنا أسرة إيطالية . . وفى نهاية الشارع بقال إيطالى . . وفى الطريق إلى المدرسة كنت أخوض طريقى بين عدد من التلامذة يتكلمون الإيطالية .

وفى سن مبكرة جداً اعتدت على اللغة الإيطالية . . وعلى لهجتها وعلى طريقة النطق بها . . ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة إيطالية يصفها الإيطاليون بأنها لهجة جنوبية . . لهجة نابلى وصقلية . . مع أننى لم أكن رأيت لا نابلى ولا صقلية . .

وهى لهجة أقرب ما تكون إلى اللهجة الصعيدية عندنا . . وعلى الرغم من أننى وجدت فى هذا الرأى حفلة تكريم لمجهودى الخاص فى تكوين لهجة صحيحة ، فإننى أحسست بشىء من الضيق . . وهذا الضيق قد اضطرنى فى كثير من الأحيان إلى أن أجعل صوتى رفيعا وأتلاعب به موسيقيا . . ولكن كان رأى الإيطاليين أننى لم أغير لهجتى وإنما غيرت فقط من حجم الصوت . . برضه صعيدى إيطالى!

وأنا لا أحب الذى يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وإن كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الإيطاليين ، وكل سكان البحر الأبيض لا يتكلمون وإنما يرقصون .

والإيطاليون يتكلمون بصوت مرتفع . . ويخيل إليك إذا لم تكن تعرف اللغة الإيطالية إنهم يتشاجرون . . وأذكر أنى كنت مسافرا من روما إلى فيينا فى القطار . . ولم أجد مكانا ، فظللت واقفا فى الممر . . وأخيرا عندما وصل بنا القطار إلى ممر برنر وجدت مكانا . ودخلت وهززت رأسى تحية للجالسين . . وتلمست طريقى بين السيقان الممدودة . . وفى الركن جلست ، وارتفع صوت غليظ واعتدلت لأعرف ما هى الحكاية . . ومضى الرجل يتكلم عالى الصوت ولكن أحداً من النائمين لم يتحرك . . لا صحا ولا استنكر . . وجاء صوت ناعم يرد . . كانت زوجته . . ومضى الرجل بصوت مرتفع . . أما هو فكان كالذى يجلس على كرسى فى صالون حلاق . . يلف ويدور ويتقدم ويتراجع وأحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلل من قفاه إلى ظهره . . والذى يسمعه يوقن تماما أنها خناقة . . مع أنه كان يروى قصة كيف سافر من القرية إلى مدينة روما وهو صغير . . وعلى قدر فهمى فإننى أعتقد أن هذا الرجل فشار ـ وكل الإيطاليين كذلك ـ لأنه ينسب لنفسه مغامرات غير معقولة .

وفجأة تعالت أصوات النائمين بالضحك . . وكانت أصواتهم أعلى من صوته . . إنهم جماعة من الصعايدة الإيطاليين . . ولكن حتى الذين ليسوا من صعيد إيطاليا فإنهم لا يختلفون عن هؤلاء إلا فى درجة ارتفاع الصوت . . ولكن الطريقة واحدة .

فالإيطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا . . وهم يؤمنون بتشغيل كل الحواس . . إنهم أبناء هذه الدنيا . . هذه الأرض . . وهم يضحكون . . كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال فى أوروبا ، فهم ينظرون إلى كل شىء

ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون . . أى شىء . . ومن النادر ألا يجد الإيطالى نكتة أو قفشة فى أى شىء ينظر إليه أو يجعله يتذكره أو يعلق عليه . . على عكس سكان أوروبا الشمالية . . ويبدو أن الإيطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الأوروبيين الآخرين : هم يضحكون وغيرهم يفكرون ويحزنون!

ولا يوجد إيطالى واحد لا يغنى . . ولا يرتفع صوته فى أى وقت وفى أى مكان بعبارة من عبارات الأوبرات المعروفة . . فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من أوبرات : توسكا . . والشهامة الريفية . . ولاترفياتا . . وعايدة . . وفرانشسكادا ريمينى . . وفى الليل وأنت نائم تجد صوتا يجلجل فى الشارع : إنه أحد المارة يغنى . . إنه ليس مخمورا . . ولكن المخمور هو وحده الذى يرفض أن يغنى لأنه يخشى أن يطلب إليه أحد أن يسكت لا لأنه مخمور فلا عقوبة على الخمر . . ولكن بتهمة أن صوته قبيح . . وهذه تهمة كبيرة . . كما نتهم أى مصرى بأنه لا يفهم النكتة . . أو دمه تقيل . . أو لا يحب الفول بالزيت أو الملوخية بالأرانب!

والإيطاليون خبراء فى الأكل وفى الحب . . فهم يأكلون كميات كبيرة من الطعام . . لابد من المكرونة والجبنة والنبيذ والفاكهة . . والفقير جداً هو الذى لا يجد النبيذ . . والنبيذ كثير ورخيص . . والرجل الإيطالى لا يشرب النبيذ لأنه «شريب» ولكن لأنه يريد أن يفرفش . . ويضحك أكثر . . وعلى الرغم من الكميات الكبيرة من المكرونة التى يلتهمها الإيطالى فإن الأجسام الإيطالية ممتلئة قليلا . . وقد وجد الإيطاليون فى ذلك مبررا لسلوك آخر . . فالإيطالى يطارد الفتيات فى الشوارع . . يطاردهن بلا تعب من شارع إلى أتوبيس إلى شارع إلى أتوبيس . . فإذا لم يفز بشىء فى النهاية عاد يغنى . . ثم يستمر فى المطاردة . . وإذا سألته عن السبب قال لك : لابد أن أمشى . . إنها المكرونة . . فأنا لا أريد أن أكون بدينا . . ثم كيف لا أغنى!

أى أنه يطارد الفتيات لأنه يريد أن يمشى وهو يريد أن يمشى لأنه يريد أن يفشل فى المطاردة ليغنى على خيبته بعد ذلك !

والحقيقة أن معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال . . ولا تضيق بها الفتيات . . فقد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد الرجل . . وفى إيطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال إنه بغبغان ـ بباجالو ـ لأنه يغنى وراء الفتيات . وإن كان صوت البغبغان قبيحا . . فالبغبغان شتيمة فظيعة لأى رجل إيطالى!

ولكن الإيطالى يتمتع بحياته . . وبعواطفه أيضا .

والمرأة الإيطالية تشجع على ذلك . . فهى واضحة المعالم . . وبارزة الأنوثة . . الصدر بارز . . والأرداف ممتلئة . . والخصر هزيل . . والعينان واسعتان . . والشفتان ممتلئتان . . إلى آخر هذه الملامح الرومانية التى أضافت لها الحرية العاطفية أن تستمع إلى معان أخرى كثيرة مشجعة للإيطاليين ولغيرهم على أن يمدوا أيديهم وشفاههم ويتذوقوا معانى الحياة . . كما يفعلون على شواطئ الأنهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى أطراف الغابات . . فالمرأة حملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبللى . . وفى عينيها صفاء البحيرات وعلى رأسها أوراق وظلام الغابات . . وسيقانها وذراعها وبشرتها . مستعارة من نعومة الفواكه والحرير والبلاستيك والطرق المرصوفة ، والأغنية الإيطالية تقول : المسينى بيدك . . قطعينى بفمك . . واخنقينى بشعرك . . وادفنينى فى صدرك . . واتركينى أتمدد إلى الأبد .

وهذه الأغنية ينفذها الإيطاليون منذ وقت طويل .

والأفلام الإيطالية تلتفت إلى هذه المعانى التى تهم المتفرج .

فمنذ ظهر فيلم «مرارة الأرز» بطولة سليفانا مانجانو . . وأصبح التعرى على الشاشة شعاراً للواقعية الجديدة . . ففى هذا الفيلم سقطت سيلفانا فى الوحل . . وارتفعت من الوحل لتسقط فى كل مكان آخر . . والعيون تأكلها . . والفتيان يقلدونها والفتيات أيضا . . ونسى المتفرج أن الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل فى إيطاليا . . ولكن المهم هو أن يرى اللحم الإنسانى عاريا ليلتهمه ساخنا . . ولينسى المشكلة الأساسية بعد ذلك . . لأن المشكلة الأساسية هى أن يحب ويأكل من يحب .

وقد انطلقت كل الأفلام الأمريكية والفرنسية تعرى الفتيات وتغطيهن بالوحل . . ليجىء رجل يتظاهر بالشهامة ليغسل الوحل بالحب . . لأن هذه هى القضية!

وفى فيلم اسمه «الخائنة» بطولة جينا لولو بريجيدا أعلنت البطلة فى أول الفيلم : أن الجسم كنز الرجل الإيطالى ومملكة المرأة الإيطالية . . والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة!

وهذه عبارة صحيحة .

والأفلام الإيطالية ـ أو على الأصح الجمال الإيطالى ـ هو الذى أطلق صدر جينا لولو بريجيدا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى . . وساقى سيلفانا مانجانو .

وشفتى اليانورة روسى دراجو . . والصوت المبحوح النائم لسيلفانا بمبانينى . . وأصابع قدمى سكافينو . . وغيرهن من صواريخ الشاشة الإيطالية . . وليس النساء فقط . . وإنما الرجال أيضا . . فالرجل الإيطالى فيه رجولة ويكفى أن نذكر فيتوريو جاسمان . . وماستوريانى . . وغيرهما كثيرون .

إنه الجسم . . وسحر الجسم . . ذلك الكنز والمملكة الذى حول الشاشة من تصوير الأعماق . . إلى تصوير الغلاف الخارجى الجميل والاتجاه إلى الأعماق . . فكل الأعماق تبدأ من قشرة التفاحة وبشرة المرأة .

وإذا كانت المرأة الإيطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فإن المرأة فى الجنوب سمراء وأكثر نعومة . . وإذا كانت المرأة الإيطالية فى الشمال أوروبية إيطالية ، فإنها فى الجنوب إيطالية فقط . . غنائية أنثى . . محافظة . . والرجل هو السيد . . هو السيد للرجل وللمرأة أيضا . . ومن المناظر الغريبة أن نجد الصغير يقبل يدى الكبير . . أو نجد الجندى يقبل يدى الضابط . . أو يدى العمدة . . كما يحدث فى الريف عندنا وفى أسبانيا .

ولكن الشعر الغنائى والرقة كلها فى الجنوب فأجمل الأصوات وأحسن مؤلفى الأغانى يعيشون فى الجنوب . . ففى نابلى توجد أرق الأغانى الإيطالية وأكثرها أسى وعذوبة . . وفى صقلية توجد أروع أغانى الفلكلور . . وأعمق قصص الحب كلها فى الجنوب . . بل وأعظم أدباء إيطاليا من الجنوب . . من مثل : الأديب بيراندللو من صقلية . . والفيلسوف كروتشه من نابلى ـ صوفيا لورين أيضا ـ وكذلك فيرجا وبورجيزه وفورتنانو وسالفا مينى وبرنكاتى . . وغيرهم كثيرون .

والفارق كبير بين أهل الشمال وأهل الجنوب .

ومن العجيب أن إحدى الصحف قد نشرت مرة هذا الإعلان : لا شىء يضيع عندنا . . فإذا انكسرت العلب بعثنا بها إلى الجنوب . . وإذا تحطمت الزجاجات صدرناها إلى الجنوب . . وإذا اختلف موظف مع رئيسه نقله إلى فرع الشركة فى الجنوب . . إننا نجد لكل سلعة من يشتريها فى الشمال ، فإذا رفضها الشمال اتجهنا بها إلى الجنوب!

فإيطاليا دولتان وشعبان : أناس فى الشمال . . وفقراء فى الجنوب!

ولكنهم فقراء ظرفاء . . وأجمل مافى هؤلاء الفقراء نساؤهم وحناجرهم!

أذكر أننى أقمت فى مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت . . وفى أحد الأيام ذهبت إلى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو . . وخطر لى أن أرتدى الملابس الوطنية . . البنطلون الضيق . . المفتوح تحت الركبة . . والقميص المفتوح عند الصدر . . والبرنيطة الكبيرة المصنوعة من سعف النخل . . وعلقت سلسلة فى عنقى . . والسلسلة مكتوب عليها اسم فتاة . . لا أعرف من هى الفتاة . . ولكن السلاسل تباع فى الشارع جاهزة : باسم الفتاة وعنوان وهمى واسم أغنية معروفة فى ذلك الوقت . . ومررت أمام الفندق واشتريت سلة التفاح الجميل . . ورأيت سيدة عجوزا تبيع النبيذ . . ومددت يدى واشتريت وصادفنى طفل غلبان يبيع الكعك والجبنة . . فاشتريت . . وقابلتنى سيدة فيها شبه كبير جدا منى إذا بلغت الثمانين فيما عدا أن لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورد . . ومددت وأخذت . . وشكرتها . . وشكرتنى .

والصورة التى أمامك الآن : هى صورة لسائح يشبه السياح الخواجات الذين يجيئون إلى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر إلى الأمام . . ويمسكون الطبلة ويشترون الشباشب الزنوبة ويعلقونها فى رقابهم . . ثم يلفون منديلا حول العنق وشالا حول الخصر . ويستعدون لأى نقر على أية طبلة ليرقصوا ويهزوا بطونهم . . ثم يضعوا فى جيوبهم سندوتشات الفول . . أى أنهم يحاولون أن يكونوا قريبى الشبه جدا لهؤلاء المصريين الذين صورتهم الكتب السياحية فى أوروبا وأمريكا . . ودخلت أحد المطاعم ونهض صاحب المطعم وقال : بون جورنو . . ورددت عليه . . وقال لى أتفضل . . وساعدنى على نقل ما معى ووضعه على كرسى آخر . وساعدنى على وضع الورد فى إناء جميل . . ووضع الورد أمامى . . وجاءت زوجته بمفرش رائع ووضعته على المنضدة . . وجاءت ابنته . . وأخذت النبيذ والكعك . . وجاءت ابنته الصغيرة وراحت تمشط شعرى . . وتختار لى وردة وتضعها حول أذنى . . وجاء شاب ظريف وسيم . . ومد يده إلى السلسلة التى فى عنقى . . ورأى اسم الأغنية . . وقال سعيدا : إن ذوقنا واحد .

ومن المؤكد أننى كنت سعيدا . . ولكن لا أعرف مناسبة لذلك كله . لقد كنت سعيداً والسلام والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا لا يهم أبدا .

وأعتقد أن هذا الموقف السعيد قد أثر فى نفسى زمنا طويلا . . فقد قررت بلا وعى منى أن أكون سعيدا والسلام . . وأجمل ما فى هذا القرار أنه قرار جسمى . . أى أن جسمى هو الذى اتخذه مستقلا عن عقلى . . وهذه نعمة من نعم الله . . أن يكون للجسم قرار وأحكام لا يستأنفها العقل!

والتف هؤلاء الناس حولى . . وجاءوا بمقاعدهم . . وكل واحد جاء بطعامه وشرابه . . وجعلنا نأكل ونضحك . . ويتبادل الرجل وأولاده الرقص . . والغناء . . ونشترك معا فى هذه الهيصة . . ومن حين إلى آخر أنظر إلى الوجوه أبحث عن مجنون . . لابد أن يكون هناك واحد مجنون ـ يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح . . لم أجد أحدا مجنونا فالضحك صادق . . والسعادة مؤكدة .

ولابد أن يسألنى أحد : ماذا حدث بعد ذلك؟

لم يحدث أى شىء بعد ذلك .

فقد كنت أول زائر لهذا المطعم فى أحد الأعياد المقدسة . . وقد تفاعل الناس بزيارتى . . وغمرونى بالرقة والكرم والقبلات على الوجه وعلى الأكتاف . . وعلى اليدين . . والشىء الذى ضايقنى عندما عدت إلى الفندق هو كيف أننى لم أرد على هذه القبلات بأحسن منها . . وكيف أننى كنت متفرجا ولم أكن ممثلا مندمجا فى الدور . . أو حتى متفرجا متحمسا . . والمصيبة أننى لم أكن أعرف المناسبة . . وإنما هى مجرد الصدفة . . فقد تصادف أننى قررت أن أكون إيطاليا في نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد أحد القديسين . . وما أكثر القديسين فى إيطاليا!

ومثل هذا المشهد فى الجنوب لايمكن أن نجده فى الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولايمكن أن يحس الإنسان إلا نادراً فى حياته أنه يخفى تحت جلده أجمل ما فى الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وأبدية اللحظة التى يعيشها!

والرجل الإيطالى الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب . . وهو أيضا الذى يذهب إلى الكنيسة ويصلى . . بنفس الحماس والحرارة والصدق!

وإيطاليا هى بلد : ماركونى مخترع الراديو . . وبلد آل كابونى المجرم الأنيق . . وبلد كازانوفا العاشق الولهان . . وبلد الفاتيكان . . ومهرجانات السينما ومهرجانات الأغانى . . وسباق السيارات . . ومعرض «البينالى» فى البندقية .

وإيطاليا تشعل من الشموع فى كنائسها أضعاف ما تفعله أية دولة أوروبية . . لكثرة الكنائس والقديسين . . ولكثرة المترددين على بيوت العبادة!

ومن الحوادث المشهورة أنه فى سنة ١٩٥٣ هزم حزب ديجاسبرى فى الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من أحد التماثيل فى مدينة سيراكوزة فى صقلية . . واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن إلى حيث يبكى القديس ـ ملايين الناس وملايين الصور . . وأقيمت المطاعم والفنادق . . وطبعت ملايين الصور والتماثيل

وطوابع البريد من أجل دموع القديس . . وبعد ذلك بشهور سالت دموع أخرى لقديسين آخرين فى مدن مختلفة . . وتحولت السيارات والطائرات والبركات إلى حيث الدموع الطاهرة اللامعة فى ضوء ما لا نهاية له من الشموع!

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فإن الإيطاليين أيضاً ليسوا متمسكين بالدين . . ففى إيطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان . . وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شيوعى فى أوروبا . . وفيها جمعيات أدبية متحررة . . وفيها هيئات فوضوية .

وفى إيطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية .

وقد ضحكت إيطاليا كلها مع فيلم «دون كاميللو» الذى قام ببطولته الممثل الفرنسى فرناندل . . والفيلم من تأليف الكاتب الإيطالى جوارسكى الذى دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة . . ولكن إيطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذى يسخر من نصف المتفرجين عليه . . أى من القساوسة!

ولم يكتف المؤلف جوارسكى بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه «عودة دون كاميللو» .

وظهر فيلم ثالث اسمه «ببينو وفيوليتا» . . أما ببينو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية . . وفيوليتا فهى اسم «الحمارة» التى اشترتها القرية لهذا الطفل . . وقصة الفيلم الذى شاهدناه هنا فى القاهرة أن الحمارة مريضة . . والطفل يريد أن يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشسكو . . وهو الرجل الذى أحب الطيور والحيوانات وكان يمشى حافى القدمين . . هو الذى تنسب إليه جماعة الفرانشسكان الذين يحلقون شعورهم ويمشون حفاة . . أو يرتدون الصنادل التى تعرى القدمين كما كان يفعل القديس فرانشسكو ، ورغب الطفل أن يدخل الكنيسة بحمارته . . وأمام رغبة الطفل رفض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس فرانشسكو قد رسمت عليها صور للطيور والحيوانات . . ويلجأ الطفل إلى البابا . . ويناقش البابا والكرادلة فى هذا الطلب الغريب للطفل . . ويرون أنه لا مانع من دخوله هو وحمارته إلى الكنيسة . . ويدخل الطفل مع حمارته وتتعثر قدم الحمارة فى كنز داخل الكنيسة وهذه النهاية للفيلم هى التى تجعل المعنى الأخلاقى واضحا وهو أن الكنوز تتفتح للمتواضعين والمؤمنين البسطاء . . إيمان الأطفال!

تم هجوم سينمائى على هذا الفيلم ، . . ومناقشة فيها كثير من الاستخفاف للقصص الدينية .

وكل هذه المتناقضات الحيوية الحارة موجودة فى إيطاليا وفى الشعب الإيطالى .

طلياني من الصعايدة

والإيطاليون أولاد شوارع . . بكل معنى الكلمة فى كل اللغات . . فبلادهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافئ إلى الشمال الجليدى . . جعلتهم يعيشون بالساعات فى القطارات والسيارات . . وفى الشوارع المرصوفة الناعمة . . وجعلتهم أصحاب أكبر عدد من المقاهى والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة والضخمة فى أوروبا كلها .

وكلمة «شارع» تتردد كثيرا فى أسماء القصص والأفلام لأن الشارع ملتقى حيوى لكل الناس .

والشارع تتغير معالمه فى كل ساعات الليل والنهار .

ففى الصباح المبكر تجد الشارع عبارة عن ميدان لإطلاق النار والدخان . . فالسيارات كثيرة وسريعة ومدوية . . وكذلك الفسبا الصاخبة .

وبعد ساعة تمتلئ الأرصفة بالمشاة المسرعين . . كل واحدة وواحد إلى عمله ويقفون بالعشرات أمام محطات الأتوبيس .

وبعد ساعة أخرى يجيء دور الأرصفة . . وعلى الأرصفة تجتمع المقاعد الملونة والمفارش النظيفة . . وأكواب الماء . . والشاى والقهوة . . ويجلس الناس على المقاهى ويبحلقون بعضهم لبعض .

وعند الظهر تتحول الشوارع إلى سوق ومهرجان وترسانة للسيارات والأتوبيسات والناس والسياح والضوضاء . . والصراخ والاصطدام والمعاكسات .

أما عند الغروب فالشارع والأرصفة مهرجان . . وعرض للأزياء والجمال الإيطالى . . لا أول له ولا آخر . . ودوخة مؤكدة إذا قررت ـ بسبب قلة العقل والجشع ـ أن تتابع كل الفساتين وكل الأحذية وكل الأذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو تتلقى أثرا . . أو تطلق إشارة أو تتوقع إشارة . . وأحسن نصيحة لك هى أن تفعل بالضبط ما يفعله رواد الفضاء أن تستلقى على ظهرك وتترك نفسك فى حالة انعدام الوزن . . وتعود إلى الفندق بعد ذلك تبتلع ما تستطيع

من الحبوب المنومة . . وإذا كنت سعيدا رأيت شيئا ما فى أحلامك يعوضك عن الحرمان بكل ألوانه الطبيعية!

وفى ساعة متأخرة من الليل . . يصبح الشارع أسود لامعا مغسولا باردا . . ويقذف إليك الهواء بالموسيقى والروائح الغريبة من كل جانب . . وينتهى بك الشارع عادة إلى نافورة . . لا يوجد شارع لا يصل إلى نافورة . . وهذه النافورة هى دش رقيق جميل لتخفيف حرارة الجو . . أو حرارة الجوف . . وأنت حر بعد ذلك أن تدير ظهرك للنافورة وتتفرج على جمال الليل . . الذى يلقى ضياءه الحالمة الرقيقة على الوجوه الجميلة . . أو على حركة الجمال الرقيق فى الشارع من رصيف إلى رصيف . . أو من الرصيف فجأة إلى سيارة ذات فرامل صارخة ـ وما أكثر السيارات التى تتوقف فجأة وتلتقط بنات الشوارع . . وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع إلى الشوارع .

وأنت ماتزال حرا فى أن تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل إلى ملابسك . . فللماء فى هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك اليأس .

وهذا الليل فى إيطاليا هو أبو المساكين والمحرومين والمفكرين . . ولأنه أب للجميع فهو قادر على أن يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين . . وفى الميادين وعلى المقاهى . . وفى الأركان المظلمة وفى مداخل البيوت . . وفى المصاعد التى تقف فى الظلام عند الطابق الأخير وتنفتح الأبواب دقائق . . ثم يعود الهاربون فيها إلى الشارع مرة أخرى .

وبعد منتصف الليل . . تتعالى أصوات العائدين إلى بيوتهم ـ ويدور بينهم وبين رجال البوليس أحاديث وابتسامات وغمزات ولمزات . . يقول عسكرى البوليس :

– إلى أين؟

– وأنت إلى أين؟

– عندى موعد غرامى .

– يابختك .

– سمعت هذه العبارة من أمى ومن أحد اللصوص .

– لقد كانت أمك على حق .

- وأنت ما الذى تعرفه عن أمى .

- أن واحدة تأتى إلى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم .

- أشكرك .

- ولكن الأم التى تأتى بواحد مثلك يجب أن تندم مدى حياتها الثانية بعد الموت!

- وكيف ذلك؟

- أنت تجمع بين ما تقوله أمك وبين ما يقوله لص . . دون أن تفرق بين الجرم وبين التى أجرمت أنت فى حقها .

- ومن الذى قال إننى أتحدث عن اللصوص .

- أنت الآن .

- آه . . أنت فهمت أن هذه الكلمة معناها لص . . إن معناها السيدة المحترمة . . فهذه الكلمة عامية عندنا فى الجنوب . . فكيف لا تعرف ذلك وأنت من الجنوب أيضا!

وكنت قد نسيت أننى من الجنوب . . ففى الليل يصبح أهل الجنوب مثل أهل الشمال . . مجرد أشباح جائعة تروح وتجىء . . أذكر أننى عندما قرأت قصة «فتاة روما» لصديقى الأديب الإيطالى البرتو مورافيا . . هزتنى هذه القصة . . وطلبت منه أن يرينى هذه الفتاة التى استوحى منها القصة . . أو أية فتاة شبيهة بها .

وضحك الأديب الإيطالى .

وضحكت أنا أيضا لسذاجتى المفاجئة . . فأنا أيضا أكتب مثله . . وأتخيل . . وليس من الضرورى أن تكون للصور التى أرسمها أى وجود فى الواقع . . بل إن الأدب الواقعى ليس هو الأدب الذى ينقل الواقع نقل مسطرة . . ولكنه الأدب الذى ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن . . ونحذف منه ونضيف إليه ما يعجبنا .

ولكن على الرغم من ذلك كنت أقف فى ميدان ايسديرا القريب من محطة روما . . وأقول كانت المسكينة ادريانا بطلة قصة «فتاة روما» تقف هنا . . وعند كشك بيع الصحف . . وكانت تتوارى من البوليس . . مسكينة كانت جميلة . . رقيقة فقيرة . . ولم يكن عندها ما تبيعه غير هذا الجسم . . وعندما قررت أن تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية . . نهايتها ونهايته .

وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياه من كل شيء . . الناس يختفون في بيوتهم . . وتختفي النساء تماما . . ويتأهب رجال البوليس إلى العودة إلى بيوتهم . . وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة . . ويظهر الكناسون بالمئات . . ويدفعون أمامهم أكداسا من مخلفات معركة الأمس . . وهي معركة كل يوم ، اللعب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف والفواكه ويغسلون الأرض . . أو يغسلون الأرض التي تلمع كأنها سقف أو كأنها جدران . . أو كأنها أطباق تأكل عليها مدينة روما . . تأكل أهلها من الرجال والنساء . . كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتسحقهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد . . ويذوب الناس . . وتبقى الشوارع حية حارة . . شديدة النهم . . تأكل ولا تشبع ، تشرب ولا ترتوي . . تفضح وتستر . . ولكنها تتستر أكثر وأكثر .

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود . . جاهز . . الحب جاهز . . العشق جاهز . . والشجار جاهز . . الموسيقى هي الهواء والغناء هو الماء . . والرقص هو المد والجزر . . والمرأة هي القمر الذي يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب . . كل ليلة . . على كل شارع . . على كل رصيف . . في كل ساعة .

في أحد الأيام كنت في مدينة بيروجه . . واخترت مقهى في ميدان الكاتدرائية . . المقهى واسع عريض . . أنيق جميل . . فخم . . وأخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى . . قريبا من السور الحديدي الذي يضعونه حتى لا يهرب الزبائن . . أو حتى لا يهرب إلى الزبائن أناس من الشارع . . واخترت هذا المكان لكي تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء . . فأسمعها إذا أردت وأتجاهلها إذا أردت . . على عكس الذين يجلسون إلى الداخل فيشعرون أن الموسيقى مقررة عليهم . . وأنهم كأفراد الأوركسترا . . ولكني قررت أن أكون متفرجا ومستمعا . . واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا .

ولما سألني الجرسون : سيدي؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا .

ولما لاحظت أنه يسألني ويرد عليّ بصورة آلية . . تضايقت . . فهو لا يعرف أن المال الذي معي قليل . . وأنني قررت أن أجلس هنا وأن أستمتع لأقصى درجة . .

ومهما كان المبلغ الذى أدفعه تافها ، والبقشيش الذى سيتقاضاه أتفه ، فإن هذا المبلغ كبير بالنسبة لأموالى . . وأنه ليس من حقه أبدا أن يقف إلى جوارى ولا يرانى . . وأن يستمع إلىّ دون أن يتفضل مشكورا فينظر إلى ذقنى الذى حلقته بعناية . . وملابسى النظيفة الأنيقة والتى تدل على أننى أجنبى على درجة من الثراء . . أى أننى قادر على أن أعطيه بقشيشا أكبر . . ولكن ماهو هذا البقشيش الذى سوف أدفعه . . إنه لا يزيد على عشرة قروش . . ولتكن عشرة قروش فما الذى أريده أن يفعل بهذه العشرة أو هذه العشرين؟ أريد أن يعبرنى ، أن يحترمنى . . فقلت له : لا أريد شيكولاته .

- حاضر .
- وأن تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو .
- هى الوحيدة التى عندنا .
- أما البسكويت فهو الذى أريده بالشيكولاته .
- هو الوحيد الذى عندنا .
- وهل من الممكن أن أدعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .
- ممنوع .
- إنها طفلة صغيرة متسولة .
- لأنها كذلك يا سيدى .
- فإذا أصررت .
- أنا متأسف . . ممنوع .
- ولكنى مصر على أنى أدعو إلى مائدتى المتواضعة مواطنة إيطالية .
- مواطنة إيطالية؟!

وتركنى . . واتجه إلى داخل المقهى .

ولا أعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت أمامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصور الدينية وتماثيل لطيور وحيوانات . . وربما كان السبب الحقيقى هو أننى لا أريد أن أكون مجرد «كتلة» تشغل أحد المقاعد . . فالجرسون لا يرى إلا كتلة من اللحم والشحم على أى مقعد . . ثم يسألها دون أن

ينظر إليها . . ثم يختفى ويعود بالطلبات . . فهو عمل آلى . . وهو آلة . . والزبون شىء . . أى شىء .

وتضايقت من أن أظل «شيئا» مدة طويلة .

فأنا شىء فى كل مكان أذهب إليه . . لا ألفت النظر ولا الأذن ولا العقل . . يرانى صاحب البنسيون فيخفى رأسه فى الورق يبحث لى عن جواب أو عن رسالة أو يعطينى مفتاح الغرفة . . وبحركة آلية يقول : صباح الخير . . أو أصبح على خير . . أو يقول تعليقا مضحكا . . وعندما يطلبنى التليفون فإنه لا ينطق اسمى وإنما يقول : نمرة ٢٠ هنا . . أو ليس هنا . . أو يقول : آه الفيلسوف هنا . . آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفنا ولا أعرف كيف عاد الآن . . لعله شاعر الآن . . أو يقول : آه . . كتب أخرى . . لا أعرف هل مايزال صاحبنا يأكل الكتب . . أو يبيعها . . آه . . من نمرة عشرين آه . .

ولذلك قررت ألا أكون شيئا فى هذا المقهى . . وأن يدور بينى وبين الجرسون كلام . . وأن أثير قضية . . وأن تكون هذه القضية مخجلة لأحد منا نحن الاثنين . . فلا يزال الخجل أحد ينابيع الوجود الأخلاقى . . والاجتماعى . . وهذا الموقف اجتماعى وأخلاقى .

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل . . وفى عينى المدير رجاء بألا أفعل ذلك . . وأنه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أى طعام على حساب المحل . . ولم أكن أريد أن أدخل فى مناقشة . . وإنما فقط أن ينظر لى أحد فى عينى . . وأن ينتظر ما أقول . . ولذلك لم أتمسك بموقفى .

ومددت يدى خلال السور الحديدى أعطيها شيئا .

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها أى شىء . . فهى بائعة صغيرة جميلة . . ويجب أن تكون بائعة . . وإذا تعلمت وكبرت فأنا أعدها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا فى داخل المطعم .

ولم تصدق الفتاة ما سمعت .

وامتدت يدى تشترى وتدفع أكثر . . وامتدت يد المدير . . وشكرنى المدير . . واعتذر الجرسون . . واستعجلت الآيس كريم فإننى أستحق التكريم . . وكرمت نفسى وانتقمت من الإيطاليين الذين جعلونى «شيئا» سياحيا متواضعا!

ولكنى قبلت أن أكون شيئا وأقل من شىء عندما ذهبت إلى جزيرة كابرى وفاتتنى الباخرة العائدة من كابرى إلى نابلى . . ولم يكن معى جواز السفر . . فقد تركته فى الفندق فى نابلى . . ومعنى ذلك أننى لا أستطيع أن أبيت فى أى فندق . . ولا فى أى بنسيون . . ولا أستطيع أن أتمشى فى الشوارع حتى الصباح . . فكابرى ليست بها شوارع . . فالشوارع قصيرة جدا . . أو هى طرق تعلو وتهبط بعنف . . ولا أستطيع أن أركب حنطورا يطلع وينزل طول الليل . . ربما كان هذا ممكنا فى فرنسا . . أو فى اليابان أو فى هونج كونج . ولكنه ليس ممكنا فى كابرى . . ولم أعرف كيف أتصرف بسرعة . . ولكنى قررت أن أتخلص من الموقف الصعب . . فعند الثانية عشرة مساء بدأت المطاعم تقفل أبوابها . . ولكن الكباريهات ماتزال مفتوحة . . وبعد الكباريه ما الذى أستطيع أن أفعله حتى الصباح . . أو حتى الحادية عشرة عندما تعود أول باخرة إلى نابلى . . إنها ساعات طويلة جدا على الذى لم ينم منذ يومين .

وبعد سهرة سخيفة جدا فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت إلى الشارع . . الجو بارد . . الريح شديد . . الموج مرتفع . . وليس فى الإمكان أن أتحدث إلى أى أحد . . وأحاول أن أكون ظريفا . . وقد أنجح فى المحاولة . . ولكن لايمكن أن يكون أى أحد ظريفا معى ومتسامحا لدرجة أن يقول : ياه . . بس كده . . يا راجل اعتبر البيت بيتك . . أنا سأترك لك سريرى وأنام فى المطبخ . . خذ راحتك!

أو يقول : آه . . طيب ممكن تنام فى الصالون .

أو يقول : أعطيك مقعداً وتجلس عليه أمام الدكان . . وقبل أن تشرق الشمس يكون الشاى والسندوتش تحت قدميك!

أو يقول : ألا تزعم أنك قرأت كثيرا فى كتب الشطرنج . . ما رأيك فى أن نلعب دورا حتى الصباح؟!

أو يقول : ضع يدك فى جيبى وأنا أصرخ . . وأقول : حرامى . . وإذا لم أجد أحدا يمسكك . . فأنا أمسكك وأتركك فى القسم حتى الصباح . . وفى الصباح أعتذر لك عما حدث وأقول إننى كنت مخمورا !

وطردت هذه الأوهام . . وبشعور غريب دفعت الباب . . وانفتح الباب . . ولم أر أحدا . . وفتحت عينى جيدا . . ولم أر أحدا . . وقلت للظلام الذى انفجر فى وجهى من داخل الباب الصغير : مساء الخير .

وسمعت صوتا يرد التحية . . وفاض النور . . وظهرت مقشة كهربية . . وعلى المقشة سيدة عجوز .

– هه . . وأنت كمان عاوز إيه؟!

– نسيت جواز السفر . . وأريد .

– ادخل . . واقفل الباب وراءك .

ودخلت وأقفلت الباب ورائى . . وأغرقنى النور . . أكثر . . وانفتح باب . . ووراء الباب وجدت شابا أعتقد أنه هندى . . قد نام على الأرض بعد أن خلع معظم ملابسه .

وقالت العجوز : تنام هنا؟

قلت : لا . . أساعدك .

وضحكت وهى سعيدة : أنت ولد طيب!

وكانت هى أطيب منى عندما قدمت لى كوبا من القهوة السادة . . ثم كوبا آخر . وأثناء وقوفى فى المطبخ وراء طابور طويل من الأطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك . . وحنفيات الماء تغلى من ورائى . . وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة يا ولدى!

وتوقفت أسمع شيئا جادا . .

فقالت : إذا قلت لسيدة شيئا فلا تتراجع عنه . . وكل كلمة تقولها للمرأة هى حق مكتسب لها . . فالمرأة قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد إلا أفعالا قليلة جدا . . لذلك فهى لا تكاد تسمع الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة فى الدنيا .

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح أكثر . .

فقالت وهى ضاحكة : أنت الآن طبعا نادم على أنك أعلنت عن رغبتك فى مساعدتى هنا . . اذهب إلى هذه الغرفة وحاول أن تنام ثلاث ساعات . . سأوقظك فى السابعة .

وتركتنى نائما حتى التاسعة .

وعندما صحوت من نومى لم أجد أحدا فى البيت ولا حتى الشاب الهندى . وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت . . مناديلى وجواربى وقميصى .

ما اسمها؟ من هى؟ أين هى؟ لا أعرف الآن . . ولم أعرف حتى فى ذلك الوقت . . إنها إيطالية طيبة . . إنها أم طيبة . . بل إنها الطيبة كلها!

وكان لابد أن أنتظرها حتى تعود . . لكى أشكرها بكل ما تجدد فى جسمى ونفسى من حيوية!

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد أن تعلق على ما حدث أو على وجودى وإنما قالت كأننى أحد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيداً ؟

قلت : شكرا لك!

وضحكت : سوف تنسى .

وقلت : أنا سوف أنسى . . أنت ليس عندك ما تذكرينه؟

قالت : هذا . .

أى هذا الذى صنعته لى . . أو هذا الشخص الذى هو أنا .

وعادت تقول : إنك لم تكلفنى شيئا . . أنا أعيش وحدى . . والبيت خال . . والسرير خال . . ومنذ مات ابنى في حرب الحبشة وأنا اتخذت هذا القرار . . وهو ألا أقفل بابى فى وجه أحد . . وهذا هو السبب فى أننى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما . . والناس هنا يضحكون ويقولون : إن الباب مفتوح دائما . . وأنا غير موجودة دائما . . لأننى أذهب إلى السوق وأشترى كل شيء لنفسى . . ولذلك أترك المحل معظم الوقت . . ولم يختف من بيتى عود كبريت واحد . . منذ عشرين عاما !

واتجهت العجوز إلى صندوق فى الحائط وفتحته وأعطتنى طاقية من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى . . ضعها على رأسك . . الله يحميك . . ويرحم روحه فى السماء!

* * *

ولا أعرف كم من المرات ذهبت فيها إلى إيطاليا . . ربما عشرين . . ربما ثلاثين مرة . . فهى فى طريق الذهاب إلى دول الشمال . . وفى طريق العودة أيضا .

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم إيطاليا كالخبز . . ولا مذاقها كالماء . . إنها دائما جديدة . . إنها بلاد سياحية . . اعتادت أن تكون عروسا لكل سائح . . سواء أقام ليلة . . فهى عروس ليلة . أو أقام شهرا . . فهى عروس شهر . . والدولة

الإيطالية تعلم أنها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل سائح أوروبى أو أمريكى أو أفريقى أو أسيوى . . ولذلك فهذه العروس قد اتخذت أسلوب شهر زاد فهى تحكى كل ليلة قصة . . ملايين القصص لمليون شهريار .

وأفلحت شهرزاد الإيطالية أن تؤكد لشهريار الأجنبى أنه الوحيد الذى فى قلبها وعلى ذراعها وعلى صدرها . . وأنه فتى أحلامها وكنز مستقبلها . . وأنه أيضا فريسة شباكها وضحية غرامها . . وأنه تفاحة وأنه بذرة فى تفاحة وأنه قشرة تفاحة . . وأنه فى صناديق الزبالة بعد ذلك . . وكلما اغتسلت صناديق الزبالة . . وامتلأت الصناديق بالتفاح . . ووقفت السفن والطائرات تلقى ما فى بطونها من السياح . . أقيمت الشوارع . نصبت كأنها مسارح فخمة . . وانتظرت الوافدين الجدد . بالقصص الجديدة . . بمليون . . بعشرين مليون شهر زاد . . هن أخوات وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى .

النمسا.. الموسيقى ناعمة والناس أيضا !

فى الغابة حتى الصّباح

معلومات عامة : أنت تعرف الكثير عن النمسا ولكنك لا تدرى ، فأنت تأكل البطيخ النمساوى . . أو البطيخ النمس . . وهذا البطيخ يسمونه النمس لأنه فى شكل النمس ، وهو الحيوان المعروف الذى يعيش فى الريف وله جسم مستطيل . . أو ـ إذا أردت أن تكون مثقفا ثقافة عالية ـ فالبطيخ فى شكل النمسا نفسها ، وهى دولة مستطيلة الحدود . . وقد قامت بدور النمس المتربص الخبيث مئات السنين فى تاريخ أوروبا .

والجنيه المصرى به مائة قرش . . والقرش كلمة نمساوية أيضا . .

وعندما ذهبنا إلى اليمن وجدناهم يستخدمون الريال . . وعلى الريال صورة للإمبراطورة ماريا تريزة ـ وهى إمبراطورة نمساوية . . ومن الغريب أنهم فى بلاد النمسا لا يستخدمون هذا الريال ـ والريال اليمنى به نسبة عالية من الفضة تصل إلى ٢٨ قمحة . . وبعد الثورة غيروا هذه النسبة العالية ووضعوا بدلا منها نسبة من النحاس أكبر ومن الفضة أقل . . ولا أعرف إن كانوا فى اليمن قد استخدموا العملات الورقية!

والذين يعرفون اسم محمد نسيم باشا . . أحد رؤساء الوزارات المصرية يعرفون صلته بالنمسا ، فهو أول مسئول مصرى يتزوج فتاة من النمسا ، والفتاة كانت جميلة جدا . . وأبوها صاحب فندق مشهور فى العاصمة النمساوية اسمه «ساخر» . . وهذا الأب قد صنع نوعا من الحلويات على اسمه . . وهذه الحلوى مشهورة باسم «تورتة سخر» . . وإذا ذهبت إلى النمسا ففى استطاعتك أن تجلس فى فندق سخر . . وأن تضع ساقا على ساق وتطلب ما تريد وأنت مطمئن . . ولكن لا داعى لأن تذكر أو تتذكر هذه المسألة العائلية ، فهم ليسوا سعداء بسيرة نسيم باشا هذا ، ولا نحن أيضا!

وأجدادنا يعرفون أن أحسن أنواع الطرابيش هى التى كانت تصنع فى النمسا وتباع فى تركيا ، ومنها تشحن إلى مصر ، وفى مصر توضع الطرابيش النمساوية على رءوس الأغنياء والكبراء فقط ، لأنها غالية الثمن .

والنمسا هى التى نكبتنا بالزعيم الصهيونى هرتسل .

والنمسا أيضا هى التى نكبت اليهود بالزعيم الديكتاتورى هتلر . . فهو الذى قضى على ملايين اليهود ، وليته عاش أطول ليقضى على البقية الباقية منهم .

وكلنا يعرف أغنية : ليالى الأنس فى فيينا . . التى تغنيها المطربة اسمهان وقد ارتبط فى أذهاننا الأنس مع فيينا عاصمة النمسا . . وإذا ذهبنا إلى فيينا فسنجد أنها كانت ومازال مدينة الأنس والجنس أيضا . . ولكن على طريقتها هى ، وهى طريقة مختلفة عن طريقة إيطاليا وألمانيا ، وهما الدولتان المجاورتان لها .

وعندما قتل ولى عهد النمسا فى يوغوسلافيا ، اشتعلت الحرب العالمية الأولى!

* * *

معلومات خاصة : كان ذلك فى مدينة بولدانو فى شمال إيطاليا . . هذه المدينة أكثر أهلها يتكلمون اللغة الألمانية لأنهم جميعا من أصل نمساوى . . وكانت هذه المنطقة جزءا من النمسا . . ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ضموها لإيطاليا . . وبعد دخول هتلر وبعد إنشاء محور روما برلين أضافها هتلر إلى النمسا أو إلى ألمانيا . . وبعد سقوط هتلر وموسولينى أعيدت هذه المنطقة إلى النمسا . . وما يزال أهلها يتكلمون الألمانية ويرتدون ملابس أهل الجبال النمساوية . . البدل الرمادية أو الزرقاء ويضعون البرانيط الجبلية التى عليها ريشة . . وأسماء الشوارع والمحطات كلها بالألمانية والإيطالية . . وعندما حاول شعب هذه المنطقة ـ وهى جنوب التيرول ـ إجراء استفتاء حر ليحققوا عودتهم إلى النمسا . . رفضت الحكومة الإيطالية . . وطالبت بالالتجاء إلى محكمة العدل الدولية . . وحتى لا يغضب الإيطاليون . . وحتى لا يتماسك النمساويون والألمان وكل العناصر الجرمانية التى هى الدم والبارود فى كل حروب أوروبية ، تركوا هذه المنطقة جزءاً من إيطاليا .

استمعت إلى هذه المعلومات على مقهى فى محطة بولدانو ـ وهم يسمونها بالألمانية بوزن ـ وكانت الجالسة إلى جوارى نمساوية الملامح . . شبيهة تماما بزوجة نسيم باشا . . وعندها فكرة عن قصة نسيم باشا . . وإذا صحت ترجمتها بعباراتها ونظراتها ، أقول إنها تريد أن تقنعنى بتكرار قصة نسيم باشا وعروسه . . واصطدمنا بصعوبة وحيدة . . وهى كيف أكون رئيسا للوزارة . . وأمام هذه الصعوبة عدلنا عن أية مشروعات عائلية . . واكتفيت بأن أخذت منها عنوان إحدى قريباتها فى مدينة انسبروك النمساوية . . خالتها : هيلجا!

وكانت معلوماتى عن أنسبروك أكثر من معلوماتى عن خالتها «هيلجا» . . وهيلجا هذه تعمل فى محل جزارة . . ولا داعى لأن تفزع من هذه المهنة ومن صورة خالتها الجزارة ، ومن الإقامة عندها فى بيتها . . الحقيقة أننى انزعجت بعض الشىء . . ولكن بعد ذلك ترددت كثيرا على بيت خالتها . . وكنت أقوم بدور العطر القديم الذى هو من طرف الحبايب . . فهذه الفتاة قد توفيت . . وكنت أنا الذى أحيى ذكراها فى كل مرة ذهبت فيها إلى مدينة انسبروك . . وقد جئت أو حججت إليها كثيرا .

وبعد أن عبر القطار تلك الأنفاق الطويلة من إيطاليا والنمسا ، وكان يصرخ ويلهث ، وتتطاير النار من عجلاته ، ويخرج من الانفاق ليتعرض للمطر . . ونخرج نحن رءوسنا من النوافذ من أجل البرودة المنعشة ، وقف أمام محطة أنسبروك . . رأيت اللافتة على المحطة . . وجدت المحطة صغيرة فى مثل محطة بنها . . ولكن طبعا لا وجه للشبه بين النظافة هناك وهنا . . ولا وجه للشبه بين الناس الحلوين الواقفين ، الذين لا يضحكون هناك ، والناس الذين ليسوا حلوين بالمرة ولا حتى ضحكاتهم حلوة فى محطة بنها ، وفى أيديهم أو وراءهم كيزان العسل ـ وهى نوع من الخضراوات اللذيذة فى مصر ، وعيبها أنها ليست موجودة فى النمسا ، ووسط هؤلاء الناس حملت حقيبتى . . وتوقفت لأخرج عنوان طانط هيلجا من جيبى . . وأمام باب المحطة سألت سائق التاكسى : طانط هيلجا؟

وهز رأسه بما معناه : ياه . . أعرفها وأعرفها .

وعندما جلست فى التاكسى استبعدت أن تكون هيلجا هذه رئيسة عصابة . . فهم هنا لا يعرفون هذا النوع من العصابات . . ولايمكن أن يكون هيلجا هذا هو اسم إحدى المؤسسات . . ولكن مدينة النمسا صغيرة . . ومن السهل أن يهتدى الناس بعضهم إلى بعض . . التاكسى قديم . . ولكنه نظيف . . وهو قديم لأن أول زيارة لهذه البلاد كانت من عشرين سنة . . وكانت النمسا كلها محتلة بدول الحلفاء الأربع . . وهذه المنطقة بالذات كانت تحتلها القوات الفرنسية . . . والشعب مطحون . . ولم يبق إلا بعض الكبرياء . . وإلا العطف عليه من كل الدول الأوروبية والأمريكية . فألمانيا قد ابتلعت النمسا فى لحظات . . أو على الأصح لم تجد النمسا أمامها إلا حلا واحداً : أن تستسلم لألمانيا بلا مقاومة . . لأنه لا داعى لأن يقاوم العصفور الصغير ذلك النسر الوحشى .

وقلت للسائق : طيبة جدا طانط هيلجا؟!

وقال السائق : يا . . يا . .

ومعناها بالعربية : صحيح . . صحيح .

والألمان والنمساويون ينطقون كلمة «يا . . يا» بألف معنى . . فتارة يكون معناها : صحيح! . . وتارة يكون معناها : صحيح؟ ومعظم الأحيان يكون معناها : صحيح؟!

وعليك أن تختار المعنى الذى يريحك . . ومن الضرورى أن تستريح . . لأنه لا معنى مطلقا لأن توجع قلبك فى البحث عن حقيقة طانط هيلجا . .

وأما باب بيت بالقرب من الجبل المشهور باسم «جبل الجياع» وقفت السيارة . . ونزل السائق . . وفتح الباب وسحب حقيبتى . . ووضعها أمام باب البيت . . ودق الجرس . . ووقف ينتظر أن أدفع الحساب . . ودفعت أول مبلغ بالعملة النمساوية ومعه البقشيش وتلقيت كلمات : ألف شكر . . شكرا .

وعرفت فيما بعد أن «الألف شكر وشكرا» وهذه لا تدل على أن المبلغ الذى تقاضها كان كبيرا . . وإنما هى عادة النمساويين . . وهم أناس مهذبون جدا . . ولا فرق بين الألمان والنمساويين كالفرق بين الأمريكان والإنجليز . . والإنجليز مهذبون . . وقد نبهتنى إلى هذا المعنى طانطا هيلجا فى أول لقاء لنا فى بيتها . . وتضايقت من هذه التفرقة عندما جاءت بعد أن قال لى ابنها مدرس الجغرافيا فى الجامعة بأننى أتكلم الإنجليزية بلهجة أمريكية!

وجاءت عبارة ابنها هذه بعد أن وقعت عينا طنط هيلجا على سيجارة قد وقعت من يدى على الأرض دون أن أتنبه لذلك!

ولكن أعجبتنى طانط هيلجا . . ملامحها حلوة . . الوجه مستدير جرمانى . . والعينان زرقاوان . . وقد ضبطت فى عينيها شقاوة . . ولكن الشيخوخة هى التى اعتقلت هذه الشقاوة وراء أسلاك رموشها الذهبية ، وتحت شعرها الجليدى الأبيض الأزرق . . ولكن شفتيها إيطاليتان . . وعندما قلت لها ذلك غضبت أول الأمر . . ثم ضربتها وحسبتها فى دماغها ، فوجدت أن فى هذه الملحوظة بعض التحية . . وردت لى التحية بأحسن منها عندما سألتنى : وأين تعلمت كل هذه اللغات . . فقلت : فى القاهرة . . وكانت تحيتها موجهة لكل الشعب المصرى من أوله لآخره . . ثم

قالت لى : إن أصابعك أجمل من أصابعى . . يداك كيدى فتاة . . أما يداى فهما لرجل يعمل فى قطع الصخور!

ونظرت إلى يديها باحترام . . فهى سيدة تدير محلا للجزارة . . ومنظرها فى الصباح المبكر متعة . . فقد طلبت إليها أن توقظنى معها كل يوم لأننى أريد أن أرى النمسا وهى تصحو . . وهى تعمل . . وهى تبيع وتشترى وتأكل .

وترددت هى أول الأمر . . ولكن أمام رغبتى القوية قالت : أنا يعجبنى الذى يريد أن يعرف .

وفى الصباح دقت باب غرفتى . . ونهضت بسرعة ، ولم يكن نومى مريحا . . فالسرير صغير . . واللحاف من ريش الأوز الصغير أيضا . . وبسرعة نزعت البيجامة ودخلت فى البنطلون والبلوفر . . وتسللت قدماى فى الحذاء . . وأمام المرآة غسلت وجهى وأسنانى . . ولم أكن فى حاجة إلى مشط . . فشعرى فى أحسن حالاته منكوش . . وقد بالغت فى تركه منكوشا . . وخصوصا بعد أن امتدت إلى شعرى يد النمساوية الرقيقة لتتأكد إن كان شعرى منكوشا من عند الله أو من عند الحلاق . . وهم يحبون الشعر المنكوش لأن شعورهم هنا حرير ناعم سايب . . الحمد لله لقد أعطانى شيئا نادرا فى هذا البيت أو هذا الشارع!

وكان الجو باردا . . ووجدت طعام الإفطار . . الشاى . . ومعه كوب من الروم . . والروم يضعونه فى الشاى لكى يشعر الإنسان بالدفء . . والخبز . . والزبدة والمربى . . وصحف الصباح . . وهى صحف لا تغرى بالقراءة . . فهم أناس حياتهم هادئة . . وأعمالهم منظمة جدا . . وهادئة جدا . . وأعمالهم تستغرقهم جدا . . وهذا يغيظ الفتاة النمساوية . . فالشاب النمساوى يعيش ويموت فى عمله . . أما الفتاة فتريد أن تتفسح وترقص وتلعب . . وهذه مهمة يقوم بها السياح من كل أنحاء العالم .

وبسرعة خرجت من البيت . . وركبت السيارة إلى جوارها . . وفتحت النافذة . . وراح الهواء يصفعنى بأصابعه الباردة . . الهواء هابط من قمم الجبال حالا . . وصحوت على صفعاته ولمساته . . وتمنيت لو كان الهواء مخدة أو خدا ونمت عليه . . إلى نهاية عمرى . . وضحكت طانط هيلجا كأنما عرفت ما يدور فى رأسى وقالت : وكيف حالها؟ قلت : جميلة . . وسألتنى : وماذا تعمل الآن؟

قلت : من؟

قالت : أنت سرحت . . أنا أسألك عن الزه .

قلت : آه . . ظننتك تسألينني عن النمسا . . إن إلزه فى صحة جيدة . . وقد قابلتها منذ أيام وهى تعمل فى أحد المكاتب السياحية وينتظر أن تتزوج بعد أيام .

- شابا إيطاليا .

- بل شابا نمساويا . . ومن هنا .

- هى التى قالت لك ذلك .

وأدركت أننى دخلت أو أدخلت فى مشكلة عائلية أو قومية فقلت : هذا ما فهمته منها . . وربما كنت خاطئا .

فضحكت طانط هيلجا وقالت : فى يوم أدعوك أنت وابنى إلى الغداء هنا . . فوق .

وأشارت إلى قمة «جبل الجياع» .

ثم ضحكت . . ورأيت الشباب والشقاوة فى عينيها . . وقالت : هذا إذا لم تتول هذه المهمة سيدة أصغر سنا . .!

وضحكت وأنا لا أدرك بوضوح المعنى الذى تقصده . . وكان الطريق ضيقا . ولكن الأشجار رأسية تتنفس هواء أبيض . . والسيارات تروح وتجىء فى هدوء وفى صمت . . لا أحد ينظر لأحد . . لا أحد يدرى بأحد . . كل واحد فى طريقه . . الوجوه حمراء . . العيون لامعة . . كل شىء منتعش . . صحى . .

وأمام محلها وقفنا . . لقد سبقنا إلى المحل عمال وعاملات . . وعربات . . إذن هذا هو محل الجزارة . . وإلى جواره محل فاكهانى . . وإلى جواره حلوانى . . وفى المحل تحولت طانط هيلجا إلى المعلمة هيلجا . . وبسرعة مذهلة . . اندمجت . . دخلت بين اللحوم . . وارتدت المريلة البيضاء . . وظهرت على وجهها ملامح حادة . . قاسية . . وسرعة اصبحت صقراً يمسك القلم والورق . . وينتقل بين لحوم الأبقار والخنازير واللحوم الملفوفة واللحوم الكروية والاسطوانية . . وأصبحت هى نوعا من اللحم يقلب فى اللحم وانشغلت عنى تماماً . . وتسللت من محل الجزارة النظيف جدا . . وتستطيع أن تضع الف «جدا» إذا كنت تريد أن تتحدث عن أرض المحل وجدرانه وسقفه وسكاكينه . . وموازينه . . ولم أر زبونا واحدا . . فالمحلات

تبعث بالبضاعة إلى محلات أخرى عن طريق السيارات والدراجات الواقفة أمام المحل . . وكل شيء يتم بهدوء وبلاكلام .

ولما زرت طانط هيلجا بعد ذلك بعشر سنوات لم أجد سوى تغيير واحد هو أن السيارات قد تغيرت ماركاتها ، وزاد عددها . . ولكن النظام هو هو . . وطانط هيلجا ازدادت وقارا واحتفظت بحيويتها وزاد يقينى من الرغبة فى الابتعاد عن هذا المحل والانشغال بالمحلات المجاورة ، ولأسباب كثيرة . . ليس من الضرورى أن تعرفها طانط هيلجا . . خصوصا أنها ليست طانط بحق وحقيق . . وإنما طانط مجاملة للصديقة إلزه التى تزوجت الآن داج وعندها ثلاثة من الخنازير - أقصد من الأطفال السمان والذين يغضبون كلما قلت لهم : إنهم إيطاليون وليسوا نمساويين!

وفى يوم سألتنى طانط هيلجا : إن كنت قد مللت . . فقلت : ليس بعد . . وسألتها : وكيف لاحظت ذلك؟ قالت : أنت غيرت ملابسك فى اليوم الواحد مرتين . . وهذه علامة سيئة . . فأنت غير اقتصادى . . وغير عملى . . ومن رأيك أن التغيير الذى يريده الإنسان هو فى ملابسه . . فى حين أنك تجد فى هذه البلاد أناسا يرتدون البنطلون والجاكيتة طول العمر . . ولكنهم يعودون إلى بيوتهم كل يوم من طريق مختلف!

وقلت : ابتداء من الغد سوف أكون نمساويا!

وفى الصباح اشتريت البنطلون من جلد الغزال . . والجاكيتة من جلد البقر . . ولم أستطع أن أضع البرنيطة أم ريشة على رأسى . . لا داعى ولا معنى . . وحملت معى سلة من الفاكهة وبعض السندوتشات . . وقررت أن أتناول غذائى فوق . . جبل الجياع . . وصعدت الجبل . . وشددت حيلى . . وتحت شجرة جلست . . وأسندت ظهرى . . ونمت من التعب ومن الهواء المنعش . . وصحوت على هيصة إلى جوارى . . وضحك . . وتلفت أرى ما حولى . . لم أجد أحدا . . ولكن الضحك واللعب يملآن كل مكان . . فالجو هادئ . . والأصوات تجىء من كل مكان . . وأى صوت مهما كان ضعيفا أو بعيدا فإنه لا يجد أدنى مقاومة فى الغابة . . وحملت سلتى واتجهت إلى مصدر الصوت . . ووجدت نفسى أمام عشرة من الشبان . . وقالوا : من أين؟ قلت : من مصر . . قالوا : ونحن من النمسا وإيطاليا وألمانيا . . وسألونى : طالب؟ قلت : مدرس . . وصرخوا : أعوذ بالله . . وسألونى : ما الذى تدرسه؟ قلت : أدرس الفلسفة فى الجامعة .

وكـان من بينهم واحـد يدرس الفلسـفـة فى المدارس الثـانوية . . وقـام وصافحنى . . وانتقلنا معا كأننا أصدقاء إلى مكان آخر .

وكانت أجمل ليلة فى العمر كله .

لقد جلسنا جميعا نتحدث . . وجاء الليل . . وكل واحد يمد يده إلى طعامه ويأكل . . وكـان تفـاحا ونبـيذا وسندوتشا . . وموسيقى . . وكـان رقص . . وعلى ضوء النجوم وعلى صدى أمواج نهر صغير له دوى بين الصخور . . أما النصيحة الغالية : لا تتحرك . . فنحن لا نعرف بالضبط أين هذا النهر . . إن صوته يملأ الغابة كلها . . ولذلك يجب أن نبقى حتى الصباح!

وفى هذه المنطقة التى نمت فيها كانت إحدى المعارك بين النمساويين ونابليون . . وقد انتصر فيها النمساويون . . وتماثيل النصر بارزة على جوانب الجبل .

وبالقرب من هذا التمثال كان الشاعر الألمانى جيته يجىء إلى هذه المنطقة ويستريح ويتأمل . . وفى الشارع المواجه لهذا المكان فى نفس المدينة توجد حانة صغيرة اسمها «حانة جيته» كان يتردد عليها . . وقد قال فيها عبارة مشهورة . . والعبارة محفورة على مدخل المحل . . وهى التى تجذب السياح . . وتحت هذه العبارة يتصور كل إنسان أنه هو الشاعر العظيم ، أو يشم نفس الهواء ويشرب فى نفس الكأس ، وإن كان لا يدفع نفس الحساب . . فمن المؤكد أن الشاعر لم يكن يدفع قرشا واحدا . . إنه أمير الشعراء وزيارته شرف رفيع!

وعندما لاحظت طانط هيلجا أننى أصافحها بحرارة وأقبلها من هنا ومن هنا أدركت أننى قررت السفر . . وسألتنى : إلى أين؟

قلت : إلى سالزبورج!

قالت : ليس عندى وقت لأشاهد ولو حفلة واحدة من المهرجان العظيم!

وفعلا ليس عندها وقت . . فهذه أول سنة يقام فيها المهرجان الموسيقى للموسيقار العبقرى النمساوى موتسارت ، بعد الحرب العالمية . . لقد تعطلت هذه المهرجانات ، وأفسحت المجال للطائرات والدبابات .

كل الحروف الهجائية موتسارت !

وإذا كان النمساويون يتحدثون عن الموسيقى دائما ، والألمان أيضا ، فإنهم يتحدثون عن موسيقار واحد هو ابنهم العبقرى : موتسارت . . الذى ولد فى مدينة سالزبورج . . وبيته موجود فى سوق الخضار . . البيت مدخله ضيق . وسلالمه عالية رأسية . . وغرف البيت خانقة . . ولأن موتسارت كان قصير القامة وكان أبوه كذلك ، فإنك سوف تحس بذلك فى أول وهلة . . وعندما تحاول أن تصلب عودك فلا تستطيع لأن السقف قريب وأنت تتفرج على خصلة الشعر الموجودة فى بيته . . أو على الحلل والطشوت النحاسية التى كانت تستخدمها أسرة الموسيقار .

الشوارع على اسم موتسارت . . والمتاحف . . والصالونات والمقاهى . . تماما كما نجد فى مدينة طنطا اسم : السيد . . والعربى . . والبدوى . .

فى صالون الحلاقة قالت لى الأسطى وهى تمر بأصابعها حول أذنى : أول مرة .

قلت : نعم .

قالت : طبعا عندك فكرة عن أوبرات موتسارت كلها . . أو بعضها . . الليلة أوبرا «الناى السحرى» .

قلت : أعرف ذلك .

قالت : إنها آخر أوبرا ألفها . . لقد استمع إليها وهو يموت . . ولم يستطع أن يحضرها . . ولذلك كانت الساعة فى يده . . وكان يقول : الآن يرتفع الستار . . الآن تدخل الموسيقى . . الآن . . الناس سعداء . . وأنا أيضا . . ومات !

وفى أحد المطاعم قال لى الجرسون : عندك كم سنة؟

قلت : ٣٦ سنة!

فانزعج . . وعرفت لماذا انزعج عندما وقف الماء فى حلقى . . ففى هذه السن مات موتسارت . . ويقال مات مسموما . . والذى وضع له السم موسيقار آخر اسمه

سالبيرى . . وساليرى عندما مات موتسارت قال : لقد مات عبقرى . . فلنفرح لذلك . . ولنشرب فى صحته . . وغدا لن يدفع لنا أحد قرشا واحدا ثمنا لموسيقانا!

والشاعر الروسى بوشكين قد ألف مسرحية عن الموسيقار الذى وضع السم لموسيقار آخر . . وجاء الموسيقار الروسى رمسكى كورساكوف وحولها إلى أوبرا موسيقية .

وفى مطعم بسوق الخضار فى مدينة سالزبورج جلست فى مواجهة صورة مضحكة . . الصورة للأسرة المالكة النمساوية . . وفى مقدمة الصورة طفل صغير قد تزحلق على الأرض . . وينظر للواقفين ولكن أحدا لا يهتم به . . وكنت فى حاجة إلى تفسير . . وجاءت صاحبة المطعم . . وعرفت أن هذا الطفل هو موتسارت . . فقد تزحلق فى قصر «شيبرون» بعد أن قام بالعزف على البيانو وهو فى الخامسة من عمره فأذهل الحاضرين . . وهنا تقدمت منه الأميرة مارى أنطوانيت . . وأنهضته . . فقبلها الطفل العبقرى وقال لها : سوف أتزوجك عندما أكبر!

ليته فعل ذلك . . فمارى أنطوانيت هذه هى التى تزوجت الملك لويس السادس عشر . . وقد أعدمتهما الثورة الفرنسية معا!

وكان من عادة الموسيقار العظيم ، وهو طفل ، أن يقبل النساء ، إنها الغريزة . . فبعد أن عزف على البيانو وصفق له القصر الإمبراطورى تقدم من الإمبراطورة ماريا تريزا ولف ذراعيه حولها وقبلها . . هنا . . وهنا . . «وهنا» الثالثة أى فى شفتيها!

وعندما ذهب إلى باريس وحاول أن يقبل مدام دى بومبادور رفضت . . فقال لها الطفل الصغير : ولماذا ترفضين إن الإمبراطورة ماريا تريزا قد جعلتنى أقبلها .

وانسحبت مدام دى بومبادور . . وتضايق الطفل . . وقال بصوت مرتفع وأبوه يسحبه إلى خارج القاعة : وأنا لا أحب أن أقبل سيدة رائحة عرقها تدوخ ألف طفل!

لابد أن طفولة موتسارت المؤلمة هى التى جعلت النساء تستشعر الألم والندم أمام كل طفل . . فكل أب يحلم بأن يكون ابنه مثل موتسارت . . وما المانع؟ لا مانع . . بشرط ألا يتعذب مثله!

ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى مدينة بروكسل عرضت كل دولة أروع ما عندها . . عرضت روسيا القمر الصناعى الذى أطلقته لأول مرة فى التاريخ . . وعرضت أمريكا : الإنسان الآلى . . وعرضت السينما المجسمة . . وعرضت مصر

نموذجا للمرور فى قناة السويس . . وعرضت إسرائيل لفائف البحر الميت التى سرقوها من التاجر الأردنى والتى عثروا عليها فى شمال البحر الميت أثناء حرب ١٩٤٨ . . وعرضت إنجلترا أجهزة تحويل ماء البحر إلى طاقة . . وعرضت ألمانيا لوحة شرف للذين فازوا من أبنائها بجائزة نوبل فى العلوم والآداب وعرضت بلجيكا جناحا لمستعمرتها : الكونغو التى تحررت!

أما النمسا فقد عرضت نموذجا لمدارس الأطفال . . كيف يتعلم الطفل . . وكيف يلعب . . وكيف ينام . . أى أنها عرضت أروع ما عندها : أطفالها . . وقد رأينا مدرسة جدرانها من الزجاج . . والأطفال يتعلمون كما لم يتعلم موتسارت : بهدوء وراحة وسعادة .

ويلعبون فى نفس السن التى كان فيها موتسارت يعزف . . فهو قد تعلم الموسيقى فى الرابعة . . وبدأ يعزف فى الخامسة ، وبدأ يؤلف فى السادسة . . وعندما بلغ السادسة عشرة كان قد ألف أكثر من عشر سيمفونيات وست أوبرات . . وكان الناس لا يصدقون ذلك . . وكانوا يتصورون أن والده هو الذى يؤلف له . . ولذلك كانوا يحبسونه فى غرفة ويتركونه وحده . . ثم يفتحون عليه الباب فجأة ليروا العفاريت . . وكان الطفل ينزعج . . وفى إحدى المرات اجتمع رجال الدين فى مدينة نابلى بإيطاليا . . وطلبوا إلى الطفل الصغير أن ينزع الخاتم السحرى من يده . . وأن يكتب موسيقاه أمامهم . . وكتب وأذهلهم!

إن النمسا تريد أن تكفر عن العذاب والهوان الذى لقيه الطفل الصغير وهو يتنقل بين العواصم مع والده وأخته الصغيرة . . لقد أدهش العالم كله . . وأدهشنا أيضا لأنه لم يكسب إلا القليل . . وعندما مات موتسارت لم يمش فى جنازته أحد . . فقد كان الجو باردا عاصفا . . حتى زوجته لم تمش فى جنازته . . ودفن موتسارت فى مقابر الفقراء فى فيينا . . ولا يعرف أحد حتى الآن أين دفن!

والمثل الشعبى المصرى يقول : عندما مات كلب المدير ، سار الناس فى جنازته ، عندما مات المدير لم يمش كلب فى جنازته!

* * *

فى مدينة سالزبورج ، وفى مقهى «فنكلر» العالمى الشهير ، ترى المدينة ، وتشم هواء العبقرية ، وتسمع كل مؤلفات موتسارت فى كل مكان ، فالناس لا حديث لهم

إلا عن موسيقاه . . كل الناس . . وكلهم يقارنون بين قيادة المايسترو فورتفنجلر والمايسترو كراوس والمايسترو فون كرايان . . الناس جميعا . . ويتفقون ويختلفون . . وهى فرصة سعيدة جدا لأن تشعر أنك أطرش فى زفة!

والمايسترو فور تفنجلر جاء إلى مصر . . وفوجئ بأن المصريين يصفقون بين الحركة والحركة فى السيمفونية . . وهذا لا يحدث فى أى مكان فى العالم كله! . . واستنكر ذلك . . وانزعج ولم يكن مجاملا .

أما المايسترو كراوس فقد جاء أيضا إلى مصر . . ونبهوه إلى أن المصريين ـ وهذه تقليعة جاهلة ـ يصفقون بين الحركات . . أى عندما تهدأ الموسيقى ويسود صمت لبضع لحظات وبعدها ينتقل السياق الموسيقى إلى معنى آخر . . ولكن كراوس كان مجاملا . . فكان يلتفت إلى الجمهور فى ضيق مهذب ويستمر فى قيادته للفرقة الموسيقية .

والناس يحدثونك متى انكسرت العصا فى يدى فون كرايان . . وكم فتاة أغمى عليها من شدة التأثر!

وإذا كانت النمسا بها ثمانية ملايين نسمة فمن المؤكد أن الثمانية يستمعون إلى الموسيقى الكلاسيكية . . ومن المؤكد أنهم جميعا يحفظون موسيقى موتسارت!

ومن أجل موتسارت يحتمل الناس أى شىء . . فالسائح لا يكون عادة موسيقارا ، ولا من أسرة موسيقية ، ولا هو مضطر إلى أن يبلع ويشرب ويتمدد على أنغام موتسارت . . ولكن ليس أمامك أى مجال للاختيار . . إن الموسيقى هى الماء والهواء هنا . . ولا تستطيع أن تحمل معك أكياسا من الأوكسجين وأن تضع على أنفك وأذنك كمامة رواد الفضاء . . وبذلك تنعزل تماما عن هذه البيئة الموسيقية الفاسدة . . مستحيل! إنها فرصة لكى تذوب . . فرصة لكى تحس أنك مثل «قطر الندى» التى كانت تجلس على سرير من ذهب فى بحيرة من الزئبق . . ثم تعود إلى غرفتك . . وتحس أنها مصنوعة من طوب نادر : طوبة فضة وطوبة ذهب!

وقد حاولت فى أول ليلة أن أكون «قطر الندى» هذه ولكن لم أستطع . . وإنما كنت مثل شجرة الدر فى آخر أيامها . . فقد ضربوها بنفس القباقيب التى قتلت بها زوجها! فقد ذهبت إلى مكتب السياحة وسألت عن غرفة متواضعة . . ولم أكن أتصور أن التواضع باللغة الألمانية معناه حرفى إلى هذه الدرجة . . فقد أعطونى عنوانا . . وذهبت إلى العنوان . . فوجدت البيت على يمينه بيت متهدم . . وعلى

يساره بيت متهدم . . وأمامه بقايا كنيسة . . ووراءه بقايا كل شيء : بيوت وعربات وأشجار ودكاكين .

العنوان الذى فى يدى يقول : السيدة ماريا اشبرانجر . . دور ثان . . شقة ٦ . . ولكن البيت الذى أقف أمامه ليس إلا طابقا واحدا . . إذن ، هذا عنوان قديم . . أيام كان البيت من طابقين . . ووضعت يدى على الجرس . . وانفتح الباب بسرعة كأنهم كانوا يتوقعون سائحا . . الله . . كانت طفلة صغيرة جميلة . . وتعجبت الطفلة وقالت : أونكل . . واحتضنتنى وانحنيت أقبلها . . وسبقتنى إلى ذلك وقبلتنى . . وأخذت حقيبتى . . وبسرعة اتجهت إلى الداخل . . الله . . وجاءت فتاة أخرى . . واقتربت منى برفق . . وأعطتنى خدها . . وقبلتها . . وجاء طفل صغير . . واقترب منى . . واعتاد أن يحمله كل من يراه . . ورفعته وقبلته . . وسألنى الطفل . . أنت أونكل مانفريد . . قلت : لا . . وسألنى : أنت مين . . قلت : أنا أخو أونكل مانفريد .

إذن كانوا يتوقعون سائحا آخر .

وجاءت سيدة تضع المريلة البيضاء . . وقلت لها على الطريقة النمساوية : التحيات لله . . فقالت : التحيات لله . .! وأعطيتها الورقة التى تسلمتها من مكتب السياحة . . وفى حياء شديد طلبت منى أن أدخل . . وسألتنى إن كان معى حقائب . . وقال لها الأطفال الصغار ماذا حدث لحقيبتى . . وضحكت الأم . . وضحكت . . وقالت : إن هذه الغرفة مؤقتة . . وأنها سوف تنقلنى إلى غرفة أخرى بعد ثلاثة أيام .

وكان فى نيتى أن أبقى يومين فقط . . ولكن أمام هؤلاء الأطفال الصغار قررت أن أبقى ثلاثة أيام أخرى . . إن هذه السيدة قد مات زوجها فى الحرب . . وتزوجت رجلا آخر . . توفى منذ شهور . . وهى قد حولت بيتها إلى بنسيون من ست غرف . . وهى وحدها التى تتولى تنظيفه وترتيبه . . وهى التى تطبخ وهى التى تغسل .

وكانت غرفتى مطلة على بيت قديم متهدم . . ولكن البيت قد نبت عليه العشب . . وأظن قد سمعت مواء قطة . . لابد أنها تطارد فأرا . . وكانت غرفتى صغيرة جدا . . وكان السرير مزنوقا فى أحد الأركان . . وبها منضدة . . مقعد . . وبها كوب . . وطفاية سجائر . . ونسخة من الكتاب المقدس . . ولوحة للموسيقار موتسارت . . وسجادة عجمى على الحائط . . وستارة على النافذة . . أما حقيبتى

فهى تحت السرير . . وهو المكان الوحيد الذى يمكن أن توضع فيه . . هذه الغرفة يمكن وضعها فى حقيبة ـ إذا قرر أحد اللصوص سرقتها ـ أو قررت صاحبة البيت أن تنتقل إلى أى مكان آخر .

وكنت متعبا جدا . . وتمددت على السرير . . وتركت النافذة مفتوحة . . وجاء الهواء البارد منعشا . . وأحسست بشىء من الأكلان فى وجهى . . وقلت : ربما بداية حساسية .

وحاولت أن أتذكر الأطعمة التى أكلتها . . لا شىء منها يؤدى إلى التهاب البشرة أو إلى الهرش . . فقد أكلت اللحم المشوى . . وبعض السلطة التى يصبون عليها السكر . . وكوبا من اللبن . . وفنجانا من القهوة . . وهى أجمل ما يقدمون للسياح . . لايمكن ـ طبعا ـ أن تكون الموسيقى هى التى أحدثت هذا الهرش المستمر . . فأنا الآن أهرش فى وجهى وفى عنقى . وفى كل جسمى .

وقفزت من السرير . . وعلى ضوء المصباح أستطيع أن أؤكد أن الغرفة تسكنها البراغيث . . يا خبر : براغيث فى سالزبورج . . براغيث تقفز على أنغام الموسيقى . . وليس من المعقول طبعا أن أقضى عليها كلها . . فمن الذى يستطيع أن يمسك برغوثا واحدا . . فما بالك بالعشرات أو المئات . . ونظرت إلى السجادة العجمية الموجودة على الحائط . . فوجدت بيتا من الشعر لعمر الخيام يقول :

فــمــا أطال النوم عــمــرا

ولا قــصــر فى الأعــمــار طول الســهــر

معك حق . . فلا النوم يطيل العمر . . ولا السهر يقصف العمر . . يعنى مطلوب منى أن أحرس هذه الغرفة كل ليلة . . ولا داعى للنوم!

إن الذى يرى هؤلاء الأطفال الصغار الذين يرحبون بك كأب أو كعم . .والذين حرموا من الأب ، لا يشعر بالبراغيث . . وحتى لو أحس بهذه البراغيث فإن هذه البراغيث هى سلالة البراغيث التى شربت من دم الموسيقار موتسارت . . إننى سعيد بها . . فالموسيقى أصبحت تجرى فى دمى!

جميلة: وأى شىء آخر؟!

كان لى صديق نمساوى يدرس اللغة الألمانية فى جامعة عين شمس . . وهو أول من قال لى : إن المصريين وهم الوحيدون الذين يمسكون سلسلة مفاتيح فى أيديهم ويطوحونها يمينا وشمالا . . لا أفهم لماذا؟!

وأنا لم أفهم لماذا . . ربما كان نوعا من التعبير عن الحيرة والدوخة . . دون أن يفكر الواحد منا فى طريقة للخروج من هذا المأزق . . ربما .

ولم أكد أنزل فى محطة فيينا حتى نظرت إلى الطفلة الصغيرة التى إلى جوارى وأيقظتها وقلت لها : اصحى يا ماما . . هنا فيينا!

الطفلة كانت «عهدة» لقد سلمتها لنا أمها فى روما . . وقالت : إنها هادئة . . مطيعة . . ومعها طعامها وملابسها . . فأرجو مراعاة ساعات تناول الأدوية!

وكنت سعيدا بها . . وتناوبنا السهر عليها وعلى راحتها . . ولم تطلب منا شيئا صعبا . . تناولت طعامها . . ومسحت شفتيها . . وأصرت بعض السيدات على أن تأخذها إلى دورة المياه لتغسل أسنانها . . ثم جاءت ونامت . . وراعينا ألا نوقظها . . فكنا نتحدث بعيدا عنها . . وكان القطار عندما يقف فى المحطات نسارع لنؤكد لها أن محطة فيينا ما تزال بعيدة . . ولكن الطفلة كانت مشغولة ببعض اللعب والحديث إليها . . وفى غاية الاطمئنان . . وأمام محطة فيينا . . جاءت سيدة معها باقة ورد صغيرة وصندوق شيكولاته . . ومعها لافتة مكتوب عليها : الآنسة الصغيرة باولينا فرانشيسكو . . وكان هذا هو اسم هذه الطفلة الإيطالية . . ورافقناها إلى السيدة التى تنتظرها . . وعانقتها . . وطلبت إلى الطفلة أن تشكر كل الذين ساعدوها من روما إلى فيينا . . وتوجهت إلينا . . وشكرناها نحن على أنها أسعدتنا طول هذه الرحلة . . وأعجبنا بشجاعتها وتحسرنا فى صمت على أمهاتنا اللاتى لا يستطعن أن يتركننا نسافر من القاهرة إلى الإسكندرية دون أن نرى الدموع فى العيون . . ودون أن نسمع : ربنا يكرمك فى غربتك!

والغربة هى أن يكون الإنسان من القاهرة ويعيش فى الإسكندرية أو أسوان!

وفى محطة فيينا . . وفى هذا الوداع الرقيق الصافى الحار ، لمحت من بعيد شابا يلعب بالسلسلة فى يده . . وأيقنت أنه مصرى ، ملامحه . . حركاته . . ثم حركة السلسلة فى يده . . واتجهت إليه : حضرتك مصرى؟ قال : نعم .

وخرجنا من المحطة معا . . واتجهنا إلى فندق فى شارع «هرنا لسرجرتل» . . الاسم سخيف . . والفندق أسخف . . وقد عرفت ذلك بعد يومين . . عندما وجدت لافتة على أول الشارع مكتوبا عليها : خارج الحدود . . وهذه اللافتة قد عرفناها فى القاهرة أيام الحرب العالمية الثانية . . كان الإنجليز يضعونها لجنودهم . . ويطلبون إليهم ألا يدخلوها لأسباب كثيرة . من بينها أنهم لايستطيعون أن يدافعوا عنهم فيها . . فهى مناطق غير مأمونة لهم . . ولكن ليس معنى ذلك أنها غير مأمونة لغيرهم . . ولم أفهم لماذا هى «خارج الحدود» . . ربما لأنها متواضعة جدا . . وربما لأنها مخصصة للأجانب . . وأنه لا داعى لأن ترتكب قوات الاحتلال أية حماقات . . والحلفاء قد احتلوا النمسا سنة ١٩٤٥ . . وقسموها إلى أربع مناطق : روسية وأمريكية وبريطانية وفرنسية . . وقسموا فيينا أيضا إلى أربع مناطق . . أما المنطقة الخامسة فهى دولية . . وانسحبوا منها سنة ١٩٥٥ ، ومنذ ذلك الحين والنمسا دولة محايدة تماما كسويسرا التى سبقتها إلى الحياد منذ سنة ١٨١٥ . . وقد احترمت الدول الكبرى حياد النمسا . . حتى أن الأمريكان أثناء أزمة لبنان فى يوليو سنة ١٩٥٨ قد اعتذروا للحكومة النمساوية عندما انطلقت الطائرات الأمريكية فى الأجواء النمساوية دون إذن سابق!

وبسرعة سألت المواطن المصرى عن الأماكن الرخيصة . . وعرفتها وعرفت أماكن أحسن منها عندما زرت النمسا بعد ذلك كثيرا . . ولكن فى مدينة فيينا توجد أحسن مقاهى الدنيا . . إنها تختلف عن مقاهى باريس . . مقاهى باريس وسط بين البارات والمطاعم . . ولكن مقاهى فيينا وسط بين النوادى والمقاهى . . وهم يقدمون هنا قهوة فيينا المشهورة . . وأجمل ما فى هذه المقاهى : الهدوء والقهوة والفتيات الجميلات . . وأجمل ما فى الفتيات هذه الالتفاتات غير المقصودة . . فمثلا : تقدم لنا الفتاة فنجان القهوة . . وتتمنى لك الصحة والعافية . . وتشكرها . . وتذهب لتتمنى نفس الشىء لزبون آخر . . وفى اللحظة التى تضبطك فيها وأنت تنظر إليها من بعيد . . تكافئك على ذلك بابتسامة . . هذه الابتسامة تكسفك أول الأمر ، ولكنها تشجعك وتجرجرك وراء هذه الفتاة من زبون إلى زبون . . ومن المقهى إلى الترام إلى الحديقة . . وإلى مقهى آخر تتناول معها العشاء دون أن تنظر إلى فتاة أخرى!

وفى الليل التقيت مع المواطن المصرى . . وكنا أربعة . . تعشينا . . وتحدثنا عن ماضى النمسا وماضى مصر . . وعن مستقبل مصر ومستقبل الفتاة النمساوية الجميلة التى قررت أن تجىء إلى مصر لتفتح أحد المقاهى هناك . . أى مادام المصريون معجبين بهذه المقاهى إلى هذه الدرجة ، فسوف يكون هناك كثيرون يعجبون بها . . أى أنها فكرة ناجحة . . وأمام الدخول فى هذه المشروعات العملية . . استأذن المواطن المصرى ليذهب إلى دورة المياه . . ودفعت أنا الحساب ، ولم يعد المواطن المصرى من دورة المياه . . حتى الآن!

فعلا . . المصريون هم الوحيدون الذين يلعبون بالسلاسل فى أيديهم ، ومن الواجب أن شنقوا بها بعد ذلك!

هذه إذن مدينة فيينا . . التى كانت عاصمة الدنيا أربعة قرون على الأقل . . عاصمة أقوى الإمبراطوريات . . هنا يسكن ربع الشعب النمساوى . . فالعاصمة أضخم من النمسا . . إنها رأس كبير لجسم نحيل . . وهى أيضا العاصمة اليهودية العتيدة . . فقد كانت فيها جالية يهودية قوية . . وفيها كان يعيش عدد من المفكرين والأدباء والعلماء اليهود : فرويد وأدلر . . والأدباء : كافكا وقرفل وتسفايج ومولنار والموسيقار شينبرج .

وهنا كان هتلر يحرم على اليهود أن يسكنوا فى شقق تطل على الشارع العمومى . . وكان يتقاضى منهم ضرائب على كل من يولد ومن يموت ومن يتزوج . . وكان يتقاضى ضرائب على الشموع التى يستخدمونها فى أعيادهم .

وهنا كانت أول صدمة لقيها هتلر عندما ذهبت أخته واشتغلت طاهية فى أحد المطاعم اليهودية . . وهنا أصدر قرارا على كل طفل يهودى يولد : إذا كان ذكرا يجب أن يكون اسمه : إسرائيل ، وإذا كانت أنثى أن يكون اسمها سارة . . وبذلك يميز اليهود عن غيرهم من المواطنين . . وقد هرب ٩٠٪ من اليهود إلى خارج النمسا .

ولكن ما تزال فيينا هى العاصمة بكل معانى الكلمة ، فهنا دار الأوبرا العريقة . . ميزانيتها مليون ونصف مليون جنيه فى السنة . . ولا يعيب هذه الأوبرا إلا الترام الذى يدور حولها . . وإلى جوارها قهوة موتسارت التى يجلس عليها معظم المصريين . . وهنا أيضا الحانات الصغيرة الجميلة . . وخارج فيينا عشرات من الحانات الشهيرة . . وبعيدا عنها يوجد نهر الدانوب وهو ليس أزرق كما تقول موسيقى اشتراوس . . وإنما لون ماء الدانوب بنى اللون . . وهو لا يكون أزرق

إلا عندما ينظر إليه المحبون . . ولذلك فمن المألوف أن يذهب الشبان إلى نهر الدانوب : ولا يزال الشاب يقبل فتاته ويعانقها حتى يصبح الدانوب أزرق فى عيونهما .

وكلما سألها : ألم يصبح الماء أزرق بعد؟!

فتقول له : ليس بعد!

وليس من الصعب عليه أن يدرك أنها فى حاجة إلى مزيد من القبلات . . ومن عجائب علم الكيمياء فى هذه البلاد أنك إذا قبلت فتاة ألف مرة يتحول ماء النهر البنى اللون إلى أزرق فاتح . . كم من القبلات تحتاجها مصر لكى يتغير لون نهر النيل!

وفى الفندق يسألنى البواب بخبث : هل رأيت الدانوب؟

فأقول له : نعم .

وواضح أن البواب يريد أن يدخل فى حديث طويل : هو . . وكيف وجدته!

فأقول : وجدته أزرق اللون!

ويكون رد الرجل معناه : هل وجدت نهر الدانوب أزرق . .!

وأهز رأسى بما يؤيد وجهة نظره .

ويعود هو يقول : تحب أقول لك على مكان آخر لون الماء فيه أسود!

وقبل أن أسأل عن هذا المكان يقدم لى زجاجة حبر . . ومعها خطاب : لقد جاءت إلى هنا وتركت لك هذه الهدية!

آه . . لقد جئت إلى فيينا ونسيت زجاجة الحبر . . وطلبت إلى إحدى الجرسونات أن تبحث لى عن حبر قاتم . . اشكرها . . وحتى لا يسألنى البواب عن هذه الفتاة وصلتها بى . . افتعلت الاهتمام ورحت أقرأ الخطاب . . ثم سألته عن مكان ورد اسمه فى الخطاب . . وهنا ضحك الرجل وأشار بيده عبر الشارع وقال : هناك . . ألف شقراء مثل التى أتت لك بهذا الحبر!

● هنا مدينة الوزير مترنيخ أول من استخدم النساء فى التجسس . . فقد كان عدد بنات الليل فى أوائل القرن التاسع ، عشرة آلاف فتاة . . وكان الوزير مترنيخ ينصب الشقراوات عيونا على كل الأجانب والخصوم السياسيين . . وكان هو يؤمن بأن النساء أداة للحكم والتحكم . . وكان يمضى ليله كله يركع عند الجميلات . . وكان مترنيخ هذا

أصغر من نابليون بأربع سنوات . . وكان عشيقا لأخت نابليون : كارولين . . وعندما كان سفيرا للنمسا فى باريس كان عشيقا لزوجة الجنرال التى كانت زوجة عشيق لنابليون أيضاً . . وكان عشيقاً أيضا للأميرة اليهودية ليفين زوجة السفير الروسى . . وهى التى كانت تأتى له بكل أخبار السفارة البريطانية . . وقد نقلت إليه الكثير من المعلومات والوثائق . . وفى سنة ١٩٣٦ نشرت الرسائل المتبادلة بينها وبين الوزير مترنيخ .

ومنذ القرن التاسع عشر ، تتولى مدينة فيينا تصدير الشقراوات إلى كل مكان فى أوروبا ، وهى تجارة رابحة . . وربما كانت فيينا هى العاصمة الوحيدة التى تجد فيها هذا العدد الكبير من الفتيات اللاتى يمشين فى الشارع بهدوء وبكثير من الاحتشام . . ويصعب على الأجنبى أن يعرف إن كن سيدات محترمات أو فتيات يعملن . . وقد أدركت الفتاة النمساوية ذلك ، وحتى لا يحتار السائح كثيرا فإنها هى التى تتقدم له . . وتذيب الجليد والحديد أيضا!

فى إحدى المرات كنت أزور بيت الموسيقار بيتهوفن . . البيت ريفى صغير . . ولكن من هذا البيت الصغير خرجت أروع الأنغام . . وخرجت روح أتعس الناس . . ذلك الموسيقار العظيم الذى كان يمزق حياته ويلعنها . . فهو يبصق على الأرض دائما وأمام أى أحد . . وهو لا يغسل ملابسه . . وعلى سريره تلتقى الجزمة والملعقة والنوتة الموسيقية . . وقد حاول بعض الفنانين أن يقفل أبواب ونوافذ هذا البيت لكى تكون له رائحة كريهة تذكرنا برائحة البيت أيام كان يعيش فيه بيتهوفن . . ولم تعجبنى الفكرة . . وقلت : إذن أحسن مكان لإقامة متحف بيتهوفن هو قبر بيتهوفن . . فهو خانق كريه ومخيف!

وانضمت إلى رأيى سيدة تعرف عدة لغات . . وفى يدها بعض الكتب . . وقال صديق : أنت سعيد لأنها من رأيك . . أو لأنك من رأيها !

ولم أفهم . . ولكن عندما غمز بعينه . . ثم غمز للجهة الأخرى . . عدت أنظر إلى السيدة من جديد . . لا شىء فيها يعيبها أو يعيبنى إذا كانت هناك أية صلة .

وذهبنا معا إلى القصر الإمبراطورى «شينبرون» . . ونافوراته الجميلة . . وطرقاته الواسعة . . ولوحاته اللذيذة للاسرة الإمبراطورية كلها . وبنابليون والموسيقار موتسارت .

واختلفنا أمام هذه الإمبراطورة التى أنجبت عشرين طفلا . . ولا تزال ملامحها حلوة . . وقوامها مشدودا . . وقالت السيدة : منتهى الكذب . . إذ كيف تحمل وتلد سيدة أيا كانت ويكون لها هذا الخصر الدقيق . . إن هذا ضد الطبيعة!

وهو فعلا ضد الطبيعة . . ولكن الفنان هو الذى شد جلدها على لحمها وصلب عودها . . وأعطاها من الجمال والحيوية ما يجعل شبابها دائما!

وقال صديقى : لا تزال من رأيها؟!

قلت : ولكنه منطقى . . أو كلامها هى منطقى! . . ولا يهم من التى تقول! واقتربت منه لأسأله : لا أفهم . . ماذا تريد أن تقول .

وقال : أنت لا تعرف من هى؟

- لا أعرف .

- حاول أن تتذكر!

- حاولت . . ولكن لم أعرف!

إنها صاحبة مطعم وبار وإمبراطورة على مئات الفتيات الشقراوات فى شوارع فيينا . . وإيه يعنى؟ . . ولكنها رغم ذلك مثقفة . . ولابد أنها ترى أيضا أن عملها هذا تجارة . . والتاجر والفاجر أولاد عم . . إن لم يكن التاجر هو الفاجر أيضا . . وهذه السيدة هى الصورة الحية لمدينة فيينا الجميلة الرقيقة الممزقة . . وأى شىء آخر بعد ذلك!

من الكافيار إلى الأناناس وبالعكس

كش الملك.. دائما!

كـان الليل من نوع غـريب . . بارد جـدا ولكـن ليس مظلمـا تمامـا . . ولا هواء ولا مطر . . ولكـن برودة مـن طين . . أو طين بـارد . . والنـاس أشـبـاح . . أجـسـام سـوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد . . وطبعا دون أن يتساند أحد على أحد . . أو يسقط أحد على الأرض كما حدث لى مرتين وأنا أتجه إلى لوكاندة أوكرانيا إلى الميـدان الأحـمر الشـهيـر . . ومن المؤكـد أننى فى هذه الساعة من الليل وفى هذه الدورة والظلام والسرعة ، لن أرى الميدان أحـمر . . ولن أرى الميـدان . . ولكنهـا فكرة خطرت لى قـبل أن أتأكـد من غـرفـتى أن أذهب إلى الميـدان الأحـمـر . . لأشـاهد الكرملين الذى رأيت صوره وقرأت عنه . . ولم أره ليلا ولن أراه نهارا . . فهنا أحداث التاريخ الحديث كلها . . فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الإنسان فى القرن العشرين .

الفندق دافئ . . والناس كـثيرون ومن هيئـات مـختلفـة أو من كل الـهيـئـات . . والمشـرفـات على الفندق سـيـدات كـبيـرات فى السن . . وشـىء من الصـمـت يربط الناس ببعضهم البعض . . ربما كان سبب الصمت أن أحدا لا يعـرف لغـة أحـد . . أو لا داعى للكلام . . كأن الناس قالوا كل ما عندهم وجاءوا هنا ليبتلعـوا ألسنتهـم أو ليغسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها . . صمت . . حاولت أنا شخصيا أن أقول . . ولكـن لم أجـد مـا أقـوله . . مـا الذى أريده؟ لا شـىء . . مـا الذى أحـتـاجـه؟ لا شىء . . ولمن أقول؟ لا أحد . . إذن فالصمت سلوك طبيعى .

الباب ضخم . . المدخل ضخم . . كل شىء كبير وغليظ وعريض وطويل . . واتجهت إلى اليسار . . إلى يسار الفندق . . وليس كل شىء هنا يتجه إلى اليسار فقط . . طبعا لا . . فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضا يمين ويسار . . ولكن اليسار فى الفكر .

والناس يروحون بخفة . . غريبة . . واتزان غريب . . وقد ارتدوا شيـئا من الفراء على الرأس . . وأحذية غليظة وتغطوا ببالطو . . احتاطوا تماما للشتاء . . ولكنه ليس شـتـاء عندهـم . . إنه يوم من أيام السنة الدائمـة الشـتـاء . . والأرض من الطين . . ولابد أن الضحكات التى تتعالى ورائى وأمامى بسبب أناس سقطوا على الأرض . .

مثلى . . إنهم لم يعتادوا على المشى فى شوارع موسكو المطينة . . لا هم اعتادوا . . ولا حتى هذه الاحذية التى يلبسونها أحذية . . إنها مثل الجوارب . . رقيقة . . ولا تمنع تسرب الماء . . أما البرودة فقد تسللت واستقرت فى العظام . . وأفقدتنى الإحساس بالبرد . . ولو أمسك إنسان سكينا وقطع أنفى فلن أشعر . . ولو قطع أذنى فلن أشعر . . ولكن من المؤكد أنه لو قطع لسانى فسوف أصرخ . . لأن لسانى فى فمى . . وفمى دافىء . . أى أن أعصابى متنبهة .

ولا أعرف إن كان الروس يضحكون لهذه الألعاب البهلوانية التى نقوم بها فى الشوارع . . أو أنهم اعتادوا عليها . . أو أنهم مجاملون يضحكون فى سرهم . . أو أنهم بدأوا يضيقون بها ويفضلون عليها الشقلبة المدروسة .

ووصلت إلى الميدان الأحمر . . من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع . . ولكنه ليس أحمر . . وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذى يبدو مثل شبح هائل توجد نجمة حمراء . . واقتربنا من الميدان . . ومشينا فى الميدان . . وأشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين . . وهذا المبنى إلى اليسار هو محل «الدوم» أكبر المحلات الاستهلاكية فى موسكو يبيع كل ما يحتاجه المواطن . . وأن هنا قبر لينين . . وأنه لابد أن نجىء فى ساعة مبكرة من الصباح لنقف فى الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوفيتية لينين الذى ولد من مائة عام . . والذى عندما بلغه أن أخاه قد أعدم لأنه تآمر على القيصر أقسم أن ينتقم . . وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الألوف من القياصرة والحاشية فى روسيا وفى كل العالم!

بعد ذلك كان لابد أن أعود إلى الفندق . . لأنه لا شىء يمكن عمله عند منتصف الليل فى موسكو . . لا شىء . . لا المشى فى الشوارع نزهة . . ولا الذهاب إلى المساح ممكن . . ولا دار الأوبرا . . فهذه أماكن مكدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما . . ولابد من تدبير وترتيب . . ولايمكن الذهاب إلى أى مكان آخر . . ما دام الإنسان غير قادر على الرؤية . . فلا معنى لشىء . . إذن لابد من العودة إلى الفندق . . ولابد من النوم .

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة . . إنه فندق أوروبى . . فيه تدفئة واضحة ، وفى الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى . . وربما نشرات الأخبار . . لا تعرف . . فكل شىء بالروسى . . ومن نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع أوضح . . هناك أضواء . .

وهنـاك كناسون ـ أو على الأصح كناسات ـ وهنـاك جـهـود عضلية لتكديس الثلج أو الطين على جانب من الشارع . . وتجيء عربات تحمل الطين أو الثلج وتنقله إلى مكان لا نعرفه . . وهذه العملية لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا . . والروس يفضلون الجليد على هذا الوحل . . فالجليد أنظف . . ومعهم حق .

وفى الصباح بدا كل شيء واضحا .

الشوارع واسعة جدا . . والطين الجاف أو الجليد المتسخ على جانب الشارع . . والملابس القاتمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه شقراء متوردة . . والعربات تروح وتجيء . . والسيارات والناس . . أو الناس كالسيارات . . أو السيارات كالناس . . كل شيء يتحرك لهدف . . متجه . . منطلق . . فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الأوروبية الأخرى .

والإفطار يجب أن نتناوله فى المطعم .

ويجب أن نخلع البالطو وأن نقدم لحارس البلاطى سيجارا أو سيجارة يشكرك عليها بحماس ولهفة واضحة . . وفى المطعم يجب أن تقدم البونات . . فكل واحد معه عدد من البونات للإفطار والغداء والعشاء . . وأجمل ما يمكنك أن تتناوله فى الصباح هو كوب اللبن . . إنه لبن دسم . . أما القهوة أو الشاى أو البيض والزبدة فهى كلها أطعمة عادية . . والخبز هنا أبيض وأسود . . الأسود ألذ .

وأمام الفندق تجمعنا . . وفى أتوبيس ركبنا . . وإلى مترجمة تتحدث العربية ـ أو نوعا منها ـ اعطينا آذاننا لنسمع منها القليل جدا عن العاصمة موسكو . . فلسنا فى حاجة إلى أن نعرف منها الكثير ، لأننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب السوفييتى . . وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة . . مثل تمثال من هذا . . إنه تمثال الشاعر الإفريقى الأصل بوشكين أو شارع جورجى . . وجوركى اسم قد أطلق على كثير من الشوارع والمتاحف والمكتبات .

وأروع ما رأيناه فى موسكو هو متحف الرحلات الفضائية . . إن هناك تماثيل لتخليد يوم إطلاق أول سفينة فضاء إلى العالم الخارجى . . يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان أول قمر صناعى روسى اسمه «اسبوتنك» . . وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢ بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الأرض فى ٩٦ دقيقة وأقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا ، وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ .

وفى الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت الذى كان يبعث به إلى الأرض من الفضاء الخارجى . . ورأيت له نموذجا فى المعرض الدولى ببروكسل . . وفى متحف الرحلات الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر . . وللقمر الذى انطلق به جاجارين . . وسفن أخرى كثيرة .

ومن الواضح أن هذه السفن ليست كبيرة . . إنه سجن علمى ضيق . . ولكن المشكلة والصعوبة هى أن هذه السفينة كلما زاد حجمها ووزنها احتاجت إلى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية الأرض . . ثم اعتادتها إلى الأرض سالمة . . والنظريات العلمية لارسالها واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والأمريكان . . ولكن الروس تقدموا على الأمريكان فى صناعة الصواريخ وفى مادة الوقود . . ولذلك فالروس يطلقون أحجاما أكبر وأوزانا أثقل .

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك . . لأن الإنسان لا يفهم شيئا من هذا الذى أمامه . . فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض الأسلاك . . ومن المؤكد أن الروس - وهذا طبيعى - قد جردوا هذه السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقدة التى بها . . فهى سر . . ولا أعرف إن كانوا فى أمريكا يعرضون سفن فضائهم فى أى معرض . . ولكنها أسرار . . وحرب معلومات . . ولابد أن هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلما . . وواضح أن التراجمة الذين يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها شيئا . . وهذا هو سر عدم الحماس فى الشرح . . فلايمكن أن يقال إنهم تعبوا من الكلام فنحن ما نزال فى ساعة مبكرة . . ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فنحن لا نفهم من هذه العمليات العلمية الباهرة .

وفى الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له . . ولكن ضحك بحساب وبرفق . فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقى فى صحن الدار فى الساعة التاسعة!

قالتها باللغة العربية طبعا . . ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقى فى بهو الفندق فى الساعة التاسعة . . وحاولت أن أفهمها أن «صحن» هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها . . وأن الدار أفضل منها كلمة الفندق . . ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن .

وعرفت بعد ذلك أن لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شىء : فمثلا : النافذة . . عندها هذه الكلمة فقط . . فإذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة .

وفى صحن الدار فى اليوم التالى التقينا . . وركبنا الأتوبيس الساخن ودار بنا فى شوارع موسكو . . وأهم ما رأينا هو محطة المترو . . إنها أجمل وأعظم محطة مترو فى العالم كله . . فى غاية الفخامة . . ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها . . ومن النادر أن يصور فيلم فى موسكو لا تظهر فيه هذه المحطة . . جميلة وأنيقة وضخمة وتكاليفها لا يمكن حصرها . . الرخام والنجف وكريستال . . وعربات المترو . . والمصاعد والسجاجيد تحفة معمارية هندسية لا نظير لها .

وفى الليل ذهبت إلى السيرك .

واكتشفت أننى وقعت فى خطأ فظيع . . فقد ارتديت جاكتة فوق بلوفر فوق بلوفر . . وفوق الجميع بالطو . . وعلى الرغم من أن الناس حولى قد خلعوا البلاطى وتركوها فى أماكنها الخاصة قبل الجلوس فى أماكنهم ، فإنه من الضرورى أن احتفظ بالبالطو لأننى من غير كرافتة . . ولابد من البدلة والكرافتة فى المسرح والسينما والأوبرا وأى مكان يذهب إليه الإنسان ، ولذلك تسترت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة .

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس فى القاهرة . . فيذهبون إلى حفلات السفارة السوفييتية والدول الاشتراكية بالقميص والبنطلون أو ببدل من غير كرافتة . . ولكنهم يجدون الدبلوماسيين ، يين الاشتراكيين فى غاية الأناقة . . وبالكرافتة . . لأنه لا علاقة للبدلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن . . الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط . . للمجتمع العلمى . . وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم!

والروس قد برعوا فى كل فنون الرقص الاستعراضى . . وفى رقص الباليه . . والباليه الروسى هو سيد الباليه فى العالم . . وقد رأيت فى القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانوفا . . وأولاتوفا . . وليبشنسكايا . . وغيرهن .

وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس فى الشوارع ـ أنا لم أرهم إلا فى الشوارع ـ إنهم فى الملاهى يضحكون من كل قلوبهم . . ككل الناس .

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحبحت عن نفسها قليلا . . وقد ذابت هذه الجهامة ومعها الجليد . . ومعها ذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس أو الذى التصق فى أذهاننا عن الروس إلى حد ما!

وفى المطار استمعت إلى الموسيقى الأمريكية الحديثة : روك أند رول . . تشاتشا . . والتويست . . أيضا . . وقد أدهشنا ذلك .

وأدهشنا أكثر أن معظم البائعات فى المطار يحرصن على البيع ويتنافسن . . وفهمنا أن كل واحدة لها عمولة على البيع .

وقد حاول أحد الأصدقاء أن يشترى بشرط . . وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوما ما وفى مكان ما . . وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدأ الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان اسوأ استغلال . . بدولار واحد . . ومن أول فتاة ومن أول لحظة .

وكانت نكتة الرحلة كلها .

وفى الفندق تعشينا ورأينا شباب موسكو يرقصون التويست . . وصفقنا طويلا للشبان . . ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له . . هل لأنهم يرقصون رقصا أمريكيا . . ومعنى ذلك أن الفن للجميع . . وأنه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى . . هل أريد أن أشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص . . أى رقص . . هل المفاجأة أدهشتنى . . وأنا أصفق لمن أذاب الجليد بين الأعداء . . الأمريكان والروس . . هل أصفق لخيبتى لأننى نسيت أن ألبس الكرافتة وظللت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقتها إلى أعلى حول العنق . . هل لأنهم فعلا فى حاجة إلى تشجيع لأن الرقص الذى أراه ليس انسيابيا . . إنه عنيف . . إنه عملية اقتلاع فتاة والقاؤها على الأرض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة . . ربما كان ذلك . . أو كان أى شىء . . أو كان الطعام اللذيذ الذى تناولناه على مائدة فخمة ضخمة . . أريقت فيها ألوف الأكواب من الفودكا ومئات العلب من الكافيار . . وكان ذلك أول الاحساس الحقيقى بأن هذه هى موسكو . .

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى واضح . . وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد .

ولم يكن أمامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكو أو فى نهارها . . فلابد أن نعود إلى المطار . . ومن المطار نستقل الطائرة الضخمة إلى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث . . ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة .

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا . . وذات ثمانية محركات . . المحركات مزدوجة . . اثنين . . اثنين . . ويتحركان فى اتجاهين متعاكسين . . لماذا؟ نظرية علمية تقول بأن هذا يضاعف قوة الاندفاع . . لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم أفكر فى كيفية تطبيقها .

الطائرة من الداخل كالسفينة . . مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة . . وعلى الجوانب من الأمام غرف طاقم الطائرة . . وفى كل مكان لوحة شطرنج . . إنها لعبة الروس . . ولماذا اختاروها لا أعرف . . هل لأنها نوع من التكتيك الصامت المتجهم . . هل لأنها لعبة تنتهى عادة بمقتل الملك . . يجوز وهم متفوقون فيها أيضا .

وفى جو ملبد بالسحاب . . وفيه عواصف باردة . . أو برد عاصف اتجهنا إلى الطائرة . . أما حقائبنا فمن المألوف أننا لا نعرف عنها أى شىء . . إنها تدخل وتخرج وتنتقل إلى الفندق دون أن نعرف عنها شيئا . . وليس من الضرورى أن نعرف . . لأنه لا خوف على ذلك . . فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة . . وليس من شأنك أن تعرف ماذا جرى لها . . فصيانة البلاد من شأن أناس آخرين مدربين وعارفين وفى غاية اليقظة . . «بس اركب أنت . . اركب!»

سمعتها من ورائى . . وركبت . . وجلست إلى جوار النافذة . . ولم أعرف من أحد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة إلى . . إلى لا أعرف إلى أين؟

اركب! ركبت . . أقعد . . قعدت . . أسكت! سكت . . «نم» . . لا أستطيع . . كل . . أشرب! . . لا مانع! ألعب شطرنج . . ممكن .

وبعد ساعة أو ساعتين . . أضيئت أنوار الطائرة . . وجاءت صوانى الأكل . . لحم وكافيار . . وخبز وسلطة وزبدة . . ولست متأكدا فى هذه اللحظة إن كان الذى قدم لنا الأكل رجالا أو نساء . . فالطائرة ضخمة ولا تهتز . . ولا أحد يرى شيئا من النافذة . . ولا يسمع أى شىء . . ولا أحد يقول لك أى كلام . . والحقيقة أنه لا ضرورة لأى كلام . . فما الذى يمكن أن يقال لك . . نحن متجهون إلى القطب الشمالى . . وليلا . . فلا شىء يمكن أن يقال .

وأحسسنا بأن الطائرة تهبط . . هكذا دون أن يلفت نظرك أحد . . ويبدو أن صناعة الطائرات متقدمة فى روسيا جدا . . فهى وسيلتها الوحيدة إلى الانتقال فى أراضيها الشاسعة .

ومن النافذة تنظر إلى لاشىء . . لا شىء يمكن رؤيته . . إنه سواد . . أو بياض . . أو ألوان رمادية شاسعة واسعة لا أول لها ولا آخر وهبطت الطائرة . . ومن النافذة لا ترى أى شىء . . وإن كانت الأرض بيضاء ثلجية . . وهناك مصابيح تعكس صورة لبيت صغير . . أو مطار صغير . . أو أى شىء صغير .

وانفتح باب الطائرة . . ونزلنا . . وكانت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر . . وهذا الرقم لايمكن أن يكون له أى معنى أو دلالة عندك إلا إذا ذهبت إلى هذه المناطق من العالم . . وخرجت برأسى وفقدت الإحساس فوراً برأسى . . إن شيئا أبيض قاطعاً قد فصله عنى فى نفس اللحظة التى أخرجته من باب الطائرة . . ونزلت أترنح بلا رأس . . فلم أعتد بعد أن أكون مقطوع الرقبة . . ولمحت عند نهاية السلم رجلا روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا . . والغريب أنه يضحك . . يا خبر . . هى أول ضحكة فى منتصف الليل وفى القطب الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة . . وقد ذكرتنى بضحكة أخرى تشرفت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو . . وهى قطعة من الثلج المخلوط بالنبيذ وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر إلا دقيقة لتقول لى : أزيك يا أنت . . وهنا انخفضت درجة حرارتى إلى عشرين تحت الصفر!

وفى داخل المطار الصغير كان كل شىء دافئا جدا . . من أين أتوا بهذا الدفء . . وفى كل مكان لوحات للشطرنج . . ويبدو أنها اللعبة الوحيدة التى يعصر فيها الإنسان نفسه . . ويتآمر على الملك بصورة عسكرية صامتة .

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا الشاى . . وكان الشاى خفيفا . . وحاولنا أن نشترى منها شيئا ولكنها أصرت على أن البيع بالعملات الصعبة . . وحاولنا عن طريق مترجم أن نقول لها : إننا ضيوف . . وعابرو سبيل ـ على الرغم من أنه لم يكن هناك سبيل ـ ولكنها أصرت وبشدة ونهائيا : بالعملات الصعبة فقط!

وهذا معناه أن هذا المطار مكان سياحى!

سياحى وفى القطب الشمالى؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب الشمالى . . ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا . . فكوبا معزولة تماما عن أمريكا اللاتينية . . ولا سبيل إلى الوصول إليها من أمريكا التى تبعد عنها ٢٥٠ ميلا إلا عن طريق أوروبا . . أى إلا عن طريق ألوف الأميال . . فلا بد أن يكون هذا المطار الصغير الدافئ الذى أقيم حديثا مكانا سياحيا مهما؟

وقد تصورت أن الحصول على كوب من الشاى بعد ذلك أمر صعب فشربت كوبا آخر . . وقد أعدت هذه السيدة كل شيء لاستقبالنا . . الشاى . . والشاى . . وابتسامة لقاء . . وابتسامة وداع . . وعدنا إلى الطائرة . . وحدث بالضبط ما حدث لى قبل ذلك . . عندما أخرجت رأسى من باب المطار . . طارت رأسى . . ومشيت هذه المسافة القصيرة على أرض جليدية نظيفة . . وبعد أن دخلت الطائرة . . تلمست رأسى فوجدته فى مكانه . . وظل كذلك إلى أن وصلت كوبا . . وأعتقد أنه بقى فى مكانه . . وإن كانت تصرفاتى تدل على أن خللا حدث فيه!

فى الطائرة وجدنا شيئا نتسلى به .

ففى أوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من الطعام . . وكنا نوقظ زملاءنا النائمين . . لكى . . يفطروا أو يتغدوا . . أو يتعشوا . . نحن لا نعرف فالدنيا ليل دائم .

وفى اللحظة التى نجد أمامنا الطعام ننظر من النافذة ، لا نجد شيئا قد تغير . . فنحن فوق السحاب . . ولا نرى لا شمسا ولا قمرا . . ولكن لابد أن هناك أشياء كثيرة تجرى تحت السحاب لا نعرفها . . ربما طلعت الشمس . . وتغطت بهذه البطاطين القاتمة من السحب . . لا أحد يعرف . .

وعندما أشرقت الشمس أضيئت الأنوار وقيل لنا : طعام العشاء .

وسألت مستخدما بعض الكلمات الروسية القليلة التى عرفتها من القاهرة ودرستها فى الطائرة فقيل إنه العشاء . . نعم العشاء كما سمعتها . . وأمسح عينى وأنظر من النافذة وأشير إلى قرص الشمس .

ويكون الجواب : نعم . . ولكنه موعد العشاء فى موسكو الآن .

العشاء فى موسكو . . وبعد ساعة نتناول الإفطار فى كوبا . . جميلة جدا هذه اللعبة بعقارب الساعة!

رقص.. وبن.. وثورة!

وبالاقتراب من أمريكا اللاتينية نقترب من الدفء والضوء والألوان والأشجار والحلاوة والمرارة . . وكل الألوان الصارخة فى كل شىء .

والأرض كما تبدو من الطائرة لونها أحمر . . وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك فى آسيا . . فى الهند وفى أندونيسيا والفلبين . . وفى أستراليا أيضا . . وهذه الأشجار الاستوائية أعرفها . . وطعمها على لسانى . . وذكرياتها حية فى رأسى . . ومجرد رؤية أشجار جوز الهند يحررنى من ملابسى . . ويردنى إلى أصلى . . إنسان بدائى عريان . . أو إنسان قريب الشبه من القرود . . أو قرد . . فقد تسلقت هذه الأشجار فى جزر هاواى . . ونمت عليها . . وكدت أغرق عندما كبس علىّ النوم . . وتوهمت أننى على سرير ففردت ذراعى ومددت ساقى . . وغريزة البقاء وحدها هى التى جعلت يدى على النخلة المنحنية على سطح ماء المحيط الهادى . . ولو سقطت فى الماء لغرقت . . لأننى لا أعرف السباحة . . وقيل لى بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين . . وأنه لولا ستر ربنا . . لكنت وكنت . . فالحمد لله على الستر!

وهذه الرطوبة الشديدة فى مطار كوبا أعرفها . . أحسستها على قفاى فى جاكرتا . . حيث الرطوبة تصل إلى ٨٠٪ وأحيانا إلى ١٠٠٪ . . وقد التصقت ملابسى من الرطوبة . . ولكن هنا يوجد دفء . . وتوجد حرارة وحياة . . وهنا ناس . . سمر . . بيض . . رجال ونساء . . وينظرون ويتفرجون . . وهنا أعلام . . ونحن هنا عرسان . . وهذه زفة سياسية . . هنا ينعقد مؤتمر «القارات الثلاث» لإدانة الاستعمار الأمريكى الذى يريد أن يخنق كوبا ، وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلها . . وفيتنام ، وغيرها وغيرها . . وكوبا هى هذه الدولة الصغيرة التى تتحدى أكبر دولة فى العالم وفى قلب أمريكا وعلى مدى دقائق من طائراتها . . وثوان من صواريخا . . ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضى على حرية الإنسان الصغير فى أن يقول : لا . . وأن يجعل كلمة «لا» أكبر من أى كبير . . واستطاعت كوبا أن تقول لأمريكا : لا . . ولا تزال تقولها!

وأحسست أنى قريب من الأرض . . فعلا . . هذه أرض . . وليست سحابا ولا ضبابا . . وهذه سيارة واسعة تنفلت . . وهذه أعلام . . وبيوت جميلة . . وشوارع واسعة . . وهذه هى أول أرض رآها كولمبوس فى سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند . . وصف هذه الأرض فى مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه فى حياته .

وكوبا جزيرة لها شكل تمساح . . وحول هذا التمساح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة . . مساحتها مائة ألف كيلو متر مربع . . أى أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدانمارك وسويسرا وبلجيكا . . وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير .

وأقرب الدول إليها هى هايتى ـ على مدى ٧٧ كيلو متر ـ وجامايكا على مدى ١٤٠ كيلو متر .

وفلوريدا الأمريكية على مدى ١٨٠ كيلو متر . . ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط فى كوبا تحت تهديد مسدس صغير . . وهذه هى أشهر اللعب التى يتسلى بها أهل كوبا هذه الأيام!

وهناك لعبة أخرى هى أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف فى مواجهة العاصمة هافانا . . خارج المياه الإقليمية . . منذ سنوات . . تلتقط الإشارات الداخلة والخارجة من كوبا . . والرجعيون الكوبيون يفقدون أعصابهم إذا اختفت هذه السفينة . . وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنها اختفت فأطل الناس من النوافذ ليتأكدوا . . وليتأكد الواقفون فى الشارع أن هؤلاء رجعيون!

لم أشعر بغرابة فى هافانا . .

هذه الأرض كأنى رأيتها . . هؤلاء الناس كأنى أعرفهم . . هذه الأشجار . . هذا الزحام . . تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع .

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذى تغير اسمه واصبح «هابانا ليبرى» ـ أى هافانا الحرة . . والفاء ينطقونها هنا باء .

وهذه أول مرة أنزل فى فندق هيلتون فى أى مكان فى العالم ، والفندق كان مقفلا وفتحه الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . . وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية أعضاء الوفود .

ومن أول لحظة تحس أن كل شىء فى هافانا قد أعد للحفاوة السخية بأعضاء الوفود . . ففى استطاعتك أن تدخل أى مكان . . أى محل . . أى مسرح . . أى

سـينمـا . . كل شيء قـد أعـد لك ويعـرفك وينتظرك . . وكل الناس الذين حـولك شبان . . لأن كوبا شابة . . ورئيسها كاسترو شاب أيضا . . وأخوه شاب . . وجيفارا زميله فى الكفاح شاب . . كان شابا . . والذين تراهم من الشبان والشابات تلاميذ فى مـدارس أو جـامـعـات . . أو مـوظفـون صـغـار . . كلهم جـاءوا لـيـخـدمـوك . . كل مـا تريد . .حتى الفندق تستطيع أن تمسح فيه بحذائك وتحلق شعرك على حساب الدولة .

وكل شيء منظم ودقيق . . المطبوعات والمنشورات والصور .

حتى عندما جلست مع الأديب الإيطالى البرتو مورافيا وزوجته الأدبية داتشيا مـاريانى وطلبت التـقـاط عـدد من الصـور لنا . . أخـذت الصـور وطبـعت وأرسلت وبسـرعـة ومع الشكر الجـزيل لك . وعندمـا ذهبت إلى البـيت الذى كـان يسكنه الأديب الأمريكى همنجواى رافقنى أحد المصورين . . والتقطت ما أردت من الصور وطبعها وقدمها لى . . فى غاية الدقة والرقة والسرعة .

وإذا كـانت هناك مـلاحظات سـريعـة على مـدينة هافـانا فـهى أن المدينة نظيـفـة جدا . . والمحلات نظيفة . . والبيوت والفلل والقصور والمرافق فى غاية الجمال . . كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكان . . إن هافانا كانت مدينة الملذات . . فكل أمريكى غنى له شـقـة . . أو قصر . . وليس أسـهل من أن يركـب طائرته ومـعـه صديقة . . ويختفى ساعتين أو ثلاثا فى هافانا ثم يعود إلى مكتبه فى أمريكا .

هكذا عاشت هافانا «جرسونيرة» لأمريكا . . ويمكن أن يقال كل كوبا .

فكوبا التى تبيع السكر كأنها مـصابة بمرض السـكر . . فهى لا تذوقه . . محـرم عليها . . فالأمريكان يزرعونه ويقلعونه ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالأسعار التى تعجبهم والشعب الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب إلى سكر يذوقه كل الناس إلا الذين زرعوه!

والدخان يصنعه الأمريكان ويبـيعـونه فى كل عـواصم الدنيا . . والبن . . والأناناس . . وجوز الهند . . كل شيء تحتكره أمريكا والشعب متـهدم مـتململ . . والخونة على رءوس الحكومات يساومون ويبيعون البلاد كل هذه الملايين السبعة لا تمتلك من أمر بلادها شيئا .

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية .

أما ثورة كاسـترو فـهى التى أطاحت بالرجـعـية والإقطاع وبالنـفـوذ الأمـريكى فى كوبا . . لا يزال يهددها . . وبعد ذلك مؤتمر القارات الثلاث ليس إلا اتفاقا دوليا على

تصدير الثورات إلى الخارج . . وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليس إلا محاولة لتشجيع الثورات الداخلية على أن يكون لها دور . . وإذا كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تغتال كاسترو ، فإن كوبا ما تزال نموذجا رائعا لصلابة الضعيف صاحب المبدأ فى مواجهة القوى الغاشم!

وكل شىء حلو فى كوبا . . فهى بلاد السكر . . حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية . . إنهم يخلطون البن بالسكر . . ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن أطلب فنجان قهوة سادة . . هذا غير ممكن!

وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة . . والأناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البلاد الأسيوية . . وهنا البابايا التى تشبه الشمام وهى لذيذة الطعم . . والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو السلال الأنيقة التى يضعونها كل يوم فى الغرفة . . وهنا يشربون نوعا من «الروم» اسمه الباركاردى . . ويقال إنه أحسن أنواع الخمور فى العالم .

والذى عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التى بذلها الشعب الكوبى من أجل نجاح هذا المؤتمر . . فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذى نجده . . إنه يضحى به من أجلنا ، ولا كل هذا الأرز ، إنه يعطينا ما زاد عن حاجته . . ولا كل هذه السجائر . . والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة فى المكسيك . . ولا زجاجات الكوكا المصنوعة فى أسبانيا . . ولا الولاعات الصغيرة المصنوعة فى اليابان . . ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة فى أوروبا . . إن الشعب الكوبى شعب مثالى . . أراد أن يضرب أحسن الأمثلة لأسمى المبادئ : مبادئ حق تقرير الشعوب لمصيرها!

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . . فقد قرأت أن ولايات كوبية تعلن ـ بكل سعادة ـ تنازلها عن نصيبها من الأرز لأعضاء الوفود ـ منتهى الإيثار والتضحية!

وفى مايو سنة ١٩٦١ أعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة وبصورة قاطعة : إنه ماركسى لنينى . . وإنه وشعبه سيتحملان نتيجة هذا القرار . . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع . . التى فرضتها أمريكا عليه . . والحصار الاقتصادى والسياسى والعسكرى على الجزيرة الكوبية .

وفى أكتوبر من العام التالى التقطت الطائرات الأمريكية صورا لصواريخ سوفيتية فى كوبا . . وأعلن الرئيس جون كيندى فرض الحصار على كوبا والتفتيش الجوى لكل السفن الداخلة والخارجة منها . . ومع دخول أى سلاح إلى كوبا . . وكانت أزمة عالمية

أدت إلى أن يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا . . وكانت شجاعة من كيندى أن يهدد . . وكانت حكمة من خروتشيف أن ينسحب . . ولم تقع حرب عالمية ثالثة .

ولا داع لأن يكون هناك كل هذه الأسلحة فى كوبا . . فأمريكا لا تستطيع أن تهاجمها وأن تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فأمريكا لها مواقع حساسة . . أو أكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة السوفييت فى أوروبا . . وفى آسيا . . وفى البحر الأبيض . . ولا يمكن أن تغامر أمريكا بغزو كوبا دون أن تتعرض لمواقف أكثر حرجا فى أماكن أخرى من العالم .

وإحساس الكوبيين بأنهم أمريكان لاتين يجعلهم يكرهون أنهم أمريكان ، وكلمة أمريكى إهانة لا تغتفر . . وأغانيهم الصغيرة الحماسية تردد ذلك . . وتتوعد بذلك . . فهناك أغنية تقول : فيديل . . فيديل . . أكيد سوف يعطيهم علقة .

فيديل - أى فيديل كاسترو - وأى مواطن ينادى كاسترو باسمه الصغير - أى سوف يعطى الأمريكان علقة . . وقد أعطاهم علقة لا نظير لها فى التاريخ . . إنه الصغير الذى وضع أنف الكبير فى الطين . . وجعله عاجزا عن الانتقام . . وكوبا فى أمريكا تشبه ألبانيا فى أوروبا . . وإسرائيل فى الشرق الأوسط إنها جميعا ركائز قوية لروسيا والصين وأمريكا .

وإذا كان الروس يرقصون التويست ، ويجدون فى ذلك نوعا من المرونة وتوسيع الأفق أو نوعا من الاعتراف بعالمية الفن ، فإن الكوبيين لا يرقصون التويست . . وإنما يرقصون رقصة مشابهة لها تماما اسمها «الموزمبيق» وهذه الرقصة قد ابتدع خطواتها كوبى زنجى اسمه بابيلو الإفريقى . . والكوبيون من أقدر الشعوب الأمريكية على الرقص . . ومن أجمل المتع فى الدنيا أن تتفرج عليهم وهم يرقصون رجالا ونساء . . إن الموسيقى هى دمهم . . والرقص هو نشاطهم اليومى . . حتى كاسترو . . فنحن عندما ذهبنا نوقد شعلة التضامن الآسيوى الإفريقى . . وكان ذلك ليلا . . وكان الجو باردا فى قمة أحد الجبال . . وكان المطر ينزل علينا . . تماسكت الأيدى ورحنا نغنى الأناشيد الكوبية الحماسية البسيطة . . ونرقص رقصة الموزمبيق . . كل الشبان والرجال . . وكاسترو . . مشدود من ذراعيه الاثنتين . . يرقص . . يغنى . . ويظل فى نفس الوقت زعيما وشابا ثائرا . . إذا خطب اهتزت له الملايين . . وهو لا يخطب إلا أربع ساعات وأحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق وقوفا . . وكنا نستمع إلى خطبه من راديوهات تترجم كلماته إلى ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاسترو رجل بسيط . . فى مظهره . . إنه يرتدى الملابس العسكرية الخشنة . . والحذاء الخشن . . ويحمل سلاحه . . ولا يكف عن تدخين السيجار الكبير . . وهو ككل لاتينى يحب الخمر . . ويدعو إليها كل صديق . . وأى إنسان هو صديق له وبسرعة . . ومن الطبيعى أن يكون معبودا للشباب . . وهو أيضا يحب الشباب أن يلتف حوله . . ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتى يدرن فى فلك كاسترو . . وهو رجل أعزب بعد أن هجرته زوجته إلى أمريكا مع عشيق أمريكى . . ومن المؤكد أن هذه الإهانة التى لحقته شخصيا أعمق أثرا من انتصاره الهائل على أمريكا . . إنه انتصر على أمريكا هذا واضح ، ولكن انتصار شخص أمريكى واحد عليه قد أوجعه أكثر!

وقد هربت أخته أيضا إلى أمريكا . . إنها لا تريد ما يريد . . ولا يهمها ما يهمه . . إنه قائد وهى فتاة عادية . . هو رجل غير عادى . . رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية . . وهى فتاة تريد أن تعيش بلا تاريخ ولا لقب . . ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها إلا لأنها أخت كاسترو!

والكوبيون هنا خليط من الأسبان ومن الزنوج الأفريقيين الذين أتى بهم الأسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الأرض . . واختلط البيض بالسود . . ولذلك نجد فى كوبا أناسا بيضا وسمرا وزنوجا . . ولا توجد أية تفرقة لونية عندهم . . والتزاوج ممكن بين هذه الألوان . . أو يحاولون أن يجعلوه ممكنا إلى أقصى حد .

وعندما كنا نذهب إلى بيوت الزنوج . . ونناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن أفريقيون .

كانت ملامحهم ترفض ذلك . . فهم سود ونحن بيض . . فالأفريقى عندهم هو الزنجى . . هو سجين اللون . . أما نحن فافريقيون جغرافيا فقط . . وكنا نقدرهم . . فلا تزال حجتهم أقوى . . هم أفريقيون حقيقة ، ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الأفريقية . . ولا يمكن أن يشعر الأبيض بعذاب الأسود الذى يرزح تحت فك بارز وشعر مجعد وبشرة فى لون الظلام وقضبان السجون!

ولا أعتقد أنى رأيت فى حياتى يوما أجمل ولا أروع ولا أبسط من يوم عيد الثورة الكوبية . . كان ذلك يوم رأس السنة . . ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية فى ميدان كبير . . الأنوار والموسيقى . والموائد ممدودة . . وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل أنواع السجائر وعلى مدى منضدتين منا يجلس كاسترو . . وبعينه

الضيقة ذات الاحمرار الحقيقى لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تغييرها إلى شمبانيا . . وشرب فى صحة كل الشعوب . . والتضامن والشعب الكوبى . . أما الشعب الكوبى فقد افترش الميدان . . ففى الميدان موائد ومقاعد . . وطعام وزجاجات البيرة لا عدد لها . . وسندوتشات اللحوم . . والفاكهة . . مئات الألوف من الناس . . يأكلون ويضحكون . . وأهم من ذلك يرقصون .

لقد رأيت عيد الثورة الفرنسية فى باريس مرتين . . ومشيت فى الشوارع أزاحم الناس . . ودخلت إلى المقاهى أزاحم الناس . . واتجهت إلى الميادين أفسح لى مكانا . . وضحكت . . ورقصت . . وملأت نفسى بسعادة الفرحة بالحرية . . وتفاديت أن أدوس السكارى على الأرض . . وحرصت على ألا ألقى بنفسى بين اثنين يتعانقان . . وألا أدق بابًا غير بابى وأن أضع المخدات فوق رأسى عندما أعود إلى فراشى حتى أخطف ساعة من النوم وسط الصرخات والقبلات والعبارات المخمورة فى الغرف المجاورة وعلى السلالم وفى الأسانسير . . وتصورت يوم كنت فى باريس أنه ليس أروع من ١٤ يوليو فى باريس . . ولكن فى هافانا كان أروع وأبسط وأجمل . . أنت مع كل الناس . . لا أحد يعرفك ولا أنت تعرف أحدا . . ولكن مد يدك إلى أى إنسان تعود يده معك . . مد ذراعيك ويمتلئ حضنك . . بلل شفتيك والقبلات تطير من كل مكان . . أنت واحد من مليون . . والفرحة تتوزع بالعدل بين الناس .

وليلة أخرى فى مدينة سان فوبيجو فى مقاطعة أورينت فى كوبا أيضاً . . فى تلك الليلة أقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية . . يمكنك أن تقول إن الكوبيين ولدوا ليرقصوا . . أو يرقصون منذ ولدوا . . إنهم فى غاية الرشاقة والسيولة والليونة . . هذه هى رقصة الموزمبيق . . لم أتعلمها من أحد . . ولكن المترجم الذى اسمه : هورهه - أى جورج فهم ينطقون الجيم هاء - يهتز فى مكانه وبسهولة وفى جمال . . سحبنى . . انسحبت . . هزنى اهتززت . . تركنى كلعبة لها زمبلك وظللت أرقص حتى نبهنى إلى أن الرقصة تغيرت وأنه من الضرورى أن أغير . . تماما كأنى أسطوانة انتهت ويجب إدارتها على الوجه الآخر . . واهتز أمامى واهتززت أمامه . . وتدخل بيننا عدد من الفتيات . . وليس من الضرورى أن ترقص إذا كانت التى تقف أمامك أو وراءك فتاة . . دعها هى ترقص وتظاهر أنت بالإعجاب بها والفرجة عليها . . وسوف يعذرك الناس لأن هذه أعظم تحية وأكبر عذر يقبله اللاتين هنا . . أن تعجب بفتاة . . وأن تذهب فى إعجابك بها إلى الخروج على التقاليد والذوق!

فمن مئات السنين فعل أمير العشاق ذلك . . فدون جوان ألقى على نفسه جردلا من الماء القذر لكى يضحك معشوقته . . ولما ضحكت . . رفض أن يغسل وجهه . . ولم يعتذر عن هذا الماء الذى أصاب فى نفس الوقت والديها . . إنه مشغول بها فقط . . وهذه أعظم تحية!

والأديب العاشق كازانوفا عندما ذهب إلى لقاء محبوبته فى بيتها وجدها مرضية . . ولما سألها عن السبب قالت : أكلت طعاماً فاسداً . .

فانطلق إلى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد . . ليذوقه ويمرض إلى جوارها . . ولم يجد الطعام . . فامتنع عن الطعام حتى مرض . . وجاءت لزيارته . . ولم يكد يراها حتى قفز من سريره دفعة واحدة وكأنه عفريت خرج من قمقم . . وانهال على يديها يقبلهما . . وعندما نظر إلى الأرض ليعرف ما هذا الشىء الذى يلمع . . لم ينتبه إلى أن هذا الذى سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذى سقط على الأرض وزجاجات الدواء فى يديه والمنظار تحت أقدام الجميع . . ولم يعتذر كازانوفا . . أمام المعشوقة لا عذر ولا اعتذار . . ويكفى أن تكون هناك ليصبح كل شىء جائزا . .

وتصورت فى لحظة أننى أتفلسف وأن الأفكار التى تتوارد على رأسى هى انطلاقات شاعرية . . ولكن عندما نظرت إلى جوارى وجدت عجوزا بساق واحدة . . وقد أصرت على أن ترقص . . واختارت شابا صغيرا . . وكانت أروع وأسرع منه فى الرقص . ولما اندهشنا لذلك . . قالت العجوز : إننى قد تصلبت ويبست فى أماكن كثيرة من نفسى وجسمى . . ولم يبق لى إلا الرقص!

وسألتنى : هل ترقص؟

قلت : ليتنى أستطيع . . إن الرقص معك يؤكد عجزى الذى لا حدود له .

قالت : الشاب هو الذى يرقص . . عندما كنت شابة كنت أرقص طول الليل . . وقد استطعت فى ليلة أن أدوخ عشرة من الشبان . . هم تعبوا وأنا لم أتعب .

قلت : وتستطيعين الليلة أيضا!

وضحكت . . وكانت ضحكتها سعيدة . . وسعادتها تدل على أن المرأة لا تشبع من المديح .

وقال لى أحد خبراء الرقص الكوبيين . . إنه ليس من الضرورى أن تكون أستاذا فى الرقص . . المهم أن تتحرك فقط . . أعط أذنك للموسيقى . . والصوت يقوم بكل العمل فى جسمك .

وأدرت هذه العبارة فى أذنى على كل الأشكال الأدبية والسياسية والموسيقية : أعط أذنك . . واترك الصوت يقوم بكل العمل!

وأعطيت أذنى للموسيقى الصارخة . . والطبول المدوية . . وأعطيت عينى للألوان . . أمواج من الألوان . . وأعطيت أنفى . . لا أظن أننى أعطيت أنفى . . فقد فقدته تماما . . فأنا مصاب بزكام شديد . . وأعطيت ذراعى وأصابعى لكل من حولى . . فأنا أحرك المقاعد وأتساند على الحواجز الخشبية . . وأعطيت فمى لكل الفواكه . . فأنا مبذول لكل هذه الفيضانات من المشاعر . . إنها تهزنى . . وتهدئنى . . وتغسلنى وتعصرنى وتنشرنى وتجففنى لتكون نفسى أكثر بياضا .

لقد تركت الأصوات والألوان تقوم بكل العمل .

وعرفت النوم العميق . . واليقظة النظيفة .

وسألت إحدى المرافقات لنا : أنت مخطوبة؟

فقالت : نعم .

قلت : لمن؟

قالت : لموظف فى وزارة الداخلية .

قلت : ومتى تتزوجين؟

قالت : قريبا .

قلت : هل هناك صعوبات؟

قالت : يعنى .

قلت : أفهم معنى كلمة يعنى هذه . . لأنها من الكلمات القليلة التى تضايقنى . . لأن معناها أن هناك صعوبات ولا داعى لذكرها . . أو لا داعى لأن تعرفها . . أو ما شأنك أنت يا بارد .

قالت : كل هذا الذى قلت .

قلت : تقصدين أنه لا داعى لأن أسألك .

قالت : لا . . اسأل . . وأنا من الواجب أن أجيب .

ولم أسأل طبعا . . فقد سدت فمى عبارة «من الواجب أن أجيب» .

أحسست فجأة أنها موظفة تقوم بمهمة . . وأنها مطالبة بأن تكون لطيفة وظريفة . . وألا تدلى بكثير من المعلومات . . أو بعض المعلومات فكوبا دولة حساسة . . وتتوقع أن يكون أى إنسان عدوا لها . . مع أن الذى كنت أريد أن أعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية وكيف تغيرت . . وكيف أقابل بعض المسئولين عن تطوير الأسرة . . وكيف انتقلت كوبا من الانحلال إلى التحرر . . أو كيف انتقلت من التحلل الأمريكى إلى التحرر الكوبى أيضا . . وأين ذهبت هذه الألوف من بنات الليل . . وما الذى يفعله الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريهات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا . . وأريد أن أعرف منها متى بدأت تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فى الشوارع . . إنها كانت واحدة منهن . . ولكن لما سمعتها تقول : «إنه من الواجب أن أجيب» . . أحسست أن هذه الأسئلة الشخصية فوق الواجب ، وأنها إذا كانت قد راعت الذوق فى كل تصرفاتها ، فلماذا لا أفعل ذلك؟

وفعلت ذلك وسكت .

واتجهت إلى بائعة سجائر . . وما أكثر السجائر وعلب الكبريت هنا . . إن أكثر أعضاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى السوق السوداء قد عادوا بألوف من علب السجائر الفخمة وعلب كبريت الشمع . . وسألتها :

– طبعا من أصل أسبانى؟

فقالت : هه ـ أى نعم ـ وأنت؟

قلت : مصرى . . أفريقى .

قالت : هه ـ ومعناها : ياه .

قلت : لا تصدقين؟

قالت : هه ـ ومعناها : ألعب غيرها!

قلت : أحلف لك .

قالت : هه . . ومعناها : على ماما؟

قلت : أريد كتابا فى اللغة الأسبانية .

قالت : هه «مع هزة من كتفها ناحية اليسار . . الذى تصادف أنه ناحية الباب الخارجى ولم يكن قصدها أن أخرج بسرعة» ومعناها : لا يوجد .

وذهبت إلى المترجمة ورويت لها ماحدث . . وسألتنى عن الفتاة وعن أوصافها . . ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : إنها ملكة جمال هافانا . . وهى تتصور أنها أجمل واحدة فى كوبا وفى أمريكا . . وأن أى إنسان يتحدث إليها فهو يعاكسها فقط . . وأن كلمة «هه» من أهم الكلمات التى تستخدمها وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينيوريتا «هه»؟!

وسألتنى : ما الذى كنت تريده منها؟

قلت : كتاب فى تعلم الأسبانية .

قالت : هه . . ولم أعرف معنى هذه الكلمة .

قلت : ماذا تقصدين؟

قالت : هه ـ أى هذه حيلة .

قلت : والله أبدا حتى اسألى فلانا وأشرت إلى أحد الزملاء .

وضحكنا . . واندهشت جدا كيف أننى وحدى الذى كنت أبحث عن كتاب وكل هؤلاء الخبثاء قد عرفوا بسرعة أنها ملكة جمال وذهبوا يداعبونها .

وقلت للمترجمة : ولكنى لا أراها جميلة .

قالت : هه ـ ومعناها اطلع من دول .

قلت : أقسم لك أنها ليست جميلة .

قالت : اسمع!

وسمعت منها ما ليس غريبا على عقلى . . فمن المألوف أن يذهب الناس فى معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيظونها ويؤكد لها أنها لا جميلة ولا حاجة . . وهى محاولة لهز ثمار الشجرة . . أو لزعزعة إيمانها بنفسها . . فقد تحب المرأة من يكرهها . . أو من يعذبها أو من يحتقرها أو من يزهد فيها . . أو تطارد من يهرب منها . . تماما كما تهرب ممن يطاردها .

ولم يكن هناك مجال لكلام . . فأنا زائر عابر وأنا عندى ما يشغلنى وهو كثير . . وأنا عضو فى أكثر من لجنة . . وعندنا تقارير وكتب . . وعندنا لقاءات مع أدباء . . وأساتذة جامعة . . وأعضاء الوفود . . وعندى موعد مع ألبرتو مورافيا . . الذى تتأكد صداقتى له فى كل مرة ألتقى به . . فى إيطاليا وفى القاهرة وفى ألمانيا . .

وهنا فى كوبا .

سألته : ما رأيك فى كوبا؟

قال : تجربة رائعة .

قلت : هل تكتب عنها؟

قال : أعتقد ذلك .

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون بوفوار؟

قال : إنه يكتب كثيرا .

قلت : وفرانسواز ساجان أيضا؟

قال : وأعجبك ما كتبته .

قلت له : يعجبنى من كل ما كتبته غير كتابها الأول : مرحبا أيها الحزن .

قال : وأنت أيضا رأيك فيها هكذا . . إن زوجتى من رأيك . . اسألها .

قلت : لم يعجبنى من كل ما كتبته غير كتابها الأول : مرحبا أيها الحزن .

قالت : نصف هذه القصة . وهى لم تضف جديدا لا فى النصف الثانى ولا فى بقية القصص الأخرى .

ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذى كان مرهقا للأعصاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحارة حول الزعامة وعلى مكان مركزه الدائم . . وموقف الوفد الصينى . . والوفد السوفييتى . . والوفود الأفريقية . . ففى داخل اللجان كانت الترجمة فورية وإلى لغات أوروبية متعددة . . وإلى اللغة العربية أيضا . . فمثلا أصر مندوب اليمن أن يلقى قصيدة طويلة . . وهذا الشاعر أبيض الوجه أخضر العينين قصير القامة . . وذهب إلى المنصة وأخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقى قصيدته . . وأمسك الحاضرون السماعات التى يستمعون منها إلى الترجمة . . وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم . . واشتركوا فى ابتسامة غامضة . . ثم فى ضحكة عالية . . وراحوا يسألوننا عن هذا الذى يجرى أمامهم ولا يفهمونه . . ونحن لا نجد ما نقوله؟ إنه يلقى قصيدة . . ولايمكن ترجمتها إلى أية لغة . . لأنها كلام فارغ أولا . . ولأنها تتلاعب بالألفاظ . . ومن أهم ألعابها اللفظية كلمة : كوبا . . فالقصيدة تقول : جئنا إلى كوبا . . ولم نشرب كوبا من الماء ، وإنما شربنا أكوابا من الكرم والضيافة . . إلى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذى لايمكن ترجمته ولا داعى لذلك!

ولكن الناس يريدون أن يعرفوا . . ولم يعرفوا لأن أحدا لم يقل لهم شيئا . . وكل ما قيل لهم : إنه من اليمن .

آه من اليمن . . آه كده . . وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا أو مبرراً لعدم الرد!

وكان الوفد الصينى عصبيا جدا . . وكان عدده كبيرا . . ولم أفهم فى كل ما قرأت أو سمعت سببا لهذه العصبية . . ربما كان السبب هو أن الصينيين إذا رأوا الروس احترقت أعصابهم . . وكان الروس هناك دائما وفى منتهى النشاط .

وأذكر ـ مرة واحدة ـ أننى لقيت أحد أعضاء الوفد الصينى وحييته أو حياتى ولم نقل شيئا . . وضحك هو ولم يقل شيئا . . وعاتبنى أحد الزملاء : كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت . . هه؟

قال : ألم تسمع ما الذى قاله هذا الرجل فى جلسة الصباح .

قلت : لم أسمع . .

قال : لقد لعلن المؤتمر من أوله لآخره .

قلت : إننى لا أراه قد لعننى بصفة خاصة . . ومع ذلك فما الذى قلته له . . أو قاله لى . . لقد حيانى فى صمت . . وحييته فى صمت أكثر . . هو ضحك وهز رأسه . . وأنا لا ضحكت ولا هززت رأسى .

قال : لكن كان عندك استعداد أنك تكلمه .

قلت : ولا يزال عندى استعداد لأن أتكلم مع أى أحد من كل الذين تراهم أمامك .

قال : يا عم أنا ماليش دعوة .

قلت : هه ـ محاولا أن أقلد الفتاة الكوبية بائعة السجائر .

هه . . وانصرفنا . . كل إلى حال سبيله . . ولم يكن لنا سبيل إلا حول الفندق وفى المحلات الصينية التى تبيع الأحجار الكريمة وبأسعار معتدلة . . خصوصا حجر التراكوز وحجر الجاد الغالى الثمن .

وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة إلى كوبا . . من الغرب إلى الشرق . . وفى النفس تلك الصورة الجميلة العميقة . . وفى الفم طعم جوز الهند الذى شربناه . . والأناناس الذى التهمناه . . والسجائر التى تعلمت من كاسترو أن أضعها فى فنجان القهوة إلى أن يلين أحد طرفيها ثم نكسره بأسناننا . . وقد امتلأت الحقائب بالكتب والمجلات وعلب الكبريت وعلب السجائر وبالعقود والخواتم الصينية والأقمشة

الحريرية . . ولا أظن أننى رأيت القباقيب فى كوبا . . ولكن وجدت ستة أزواج منها فى حقيبة صديق سعودى كان ضمن المؤتمر . . ربما كانت هذه أول صورة للأحذية التى لبسها الإنسان عندما اكتشفوا كوبا . . بعد أن أهتدى إليها البحار الإيطالى كولمبوس . . ولم أسترح لوجود هذه القباقيب فى الطائرة إلا عندما تركها الزميل السعودى فى غرفته فى فندق أوكوانيا بموسكو ونحن فى طريق العودة إلى القاهرة .

وفى غرفتى فى أوكرانيا أمسكت قلما وورقة وكتبت : «عزيزى الرئيس كاسترو» . . إنها بداية سخيفة . . أفكل منها : عزيزى فيديل كاسترو .

أو لا داعى لكلمة كاسترو هذه . . إنهم ينادونه بكلمة فيديل .

إذن أقول : عزيزى فيديل . . تذكر يوم رأس السنة يوم عيد ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا . . ونستعير الكثير من سعادتك ونحن نتحدث عن كوبا . . هل تذكر أنك قدمت لى سيجاراً كبيراً جدا . . أكبر من سيجار تشرشل . . إنه سيجار كاسترو . . وألقيت بما معى من سيجار فى الأرض ـ احتقاراً لشأنها ـ وقلت لى بالحرف الواحد : ما دمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار .

وأعطيتنى سيجاراً ضخما .

وقلت لك : وإذا لم أكن مع كاسترو .

فقلت أنت : يبعث لك كاسترو بالسجائر .

وقلت أنا : وإذا لم يبعث كاسترو .

وقلت أنت : يبعث لك كاسترو بأن تجىء لتدخن هذا السيجار معه .

قلت أنا : هذا أفضل .

ومددت يدك وصافحتنى . . وكانت هذه المصافحة تعاقدا واتفاقا بيننا .

والآن يا أيها العزيز فيديل : أنا فى شوق إلى سيجارك . . فما رأيك؟

ومزقت الخطاب لأن المعنى لا يعجبنى . . ولا يريحنى . . ويكفى أننى رأيت وسمعت وقرأت واستمعت واحتفظت بذكريات جميلة حارة . . لبلاد جميلة وشعب حار . . وليس السيجار وقصب السكر والأناناس إلا أهون ما فيها .

أكثر من سويسرا..

يعنى إيه خوف؟!

أول مرة ألمس فيها الأرض السويسرية والجبال السويسرية واللحم ، والدم السويسرى عندما ذهبت إلى محل البن البرازيلى فى القاهرة ورأيته . . رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشى على الأرض ويدب . . ويحاول أن يؤكد لأحد من الناس أن الأسفلت يمكن أن تغوص فيه الأقدام . . وعلى الرغم من أن قدمه لم تترك أى أثر على أسفلت شارع سليمان باشا . . فإن هذا الرجل لم ييأس . . إنه يحاول . . إنه يمشى بسرعة ويدب . . ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثوانى وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق . . وأحيانا عقارب الساعات والسنوات . . ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه . . هذا المخطط جعله سليم الجسم . . متين البنيان . . فى الثمانين ويبدو كأنه فى الأربعين . . إنها صحة . . إنها سويسرا .

وفى البن البرازيلى عندما رأيته فرحت . . وبلا تفكير مددت يدى أصافحه . . وبلا تفكير فرحت . . فقد رأيت هذا الرجل من قبل إنه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الألمانية فى الجامعة .

وظلت يدى ممدودة . . وهو يسألنى : من أنت؟

وظلت يدى ممدودة . . فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه . . ووضح من ابتسامتى التى تقلصت . . كانت ابتسامة تلميذ لأستاذه . . فتحولت إلى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا . . ثم تحولت إلى غضب مهذب من خواجة قليل الذوق . . ثم بسرعة تحولت إلى اعتراف بالفارق بينى وبينه . . بين الشرق والغرب . . ثم إلى تقرير فارق ثابت . . وبناء حائط جامد بارد بينى وبينه . . وعبر هذا الحائط البارد تشعبطت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان .

ولم أحفل بعد ذلك بيده العنيفة التى امتدت لتصافحنى ولتعتذر لى . . ولم أهتم كثيرا بأنه يقرأ لى مقالاتى . . وأنه أعجب بقضايا أثرتها . . وأنه تمنى لو يلقانى ليناقشنى .

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من زجاج يصد الرصاص . . فتحولت إلى مجرد طرقعة . . صوت وصدى . .ثم جاءت تحيته وهزته لرأسه كمساحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج .

وفى البن الأسود ابتلعت هذا الموقف البايخ .

إنه موقف سويسرى .

وهذا الرجل قطعة من أرض وشوارع ووديان وجبال وغرابة وصلابة وصحة وميكانيكية البلد التى اسمها سويسرا!

* * *

ولم تتغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت إلى سويسرا نفسها . . ففى بنسيون «الزيتون» بمدينة جنيف ، أعجبتنى صاحبة البنسيون . . فهى وحدها التى تطبخ وتنظف . . وتزرع الحديقة وتقلعها . . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسوية الغرف . . وعندها بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجامل .

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعة فضية نظيفة . . ولا علاقة لها بشىء آخر فى هذا العالم . . إنها ست بيت . . أو صاحبة بيت . . وهذا يكفيها .

فهى فى حالها . . وكل الناس كذلك!

سألتها : ألم تعرفى الحب؟

قالت : وأنا صغيرة . . وانتهى كل شىء .

- ما هذا الذى انتهى؟

- الحب!

- وكيف بدأ .

- أنت تعرف .

- ولكن الذى لا أعرفه هو كيف انتهى؟

- هو مات . . وأنا ما أزال حية!

- اختصرت الموقف جدا؟!

- أنا لم أختصره!

- ولكن الحب ليس حكماً نهائياً . . إنه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب الذى أحبه مرة . . يمكنه أن يحب مرة أخرى وبشكل آخر . . فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة . . ولا يمتلىء مرة واحدة . . إنه يدق دائما . . ويظل يمتلئ بأيدينا . . ويمتلئ بنفسه .

- أنا ساعة تذكارية . . لا تدق ولا تمتلئ!

- ولكنك ما تزالين جميلة . .

- إذن . . ساعة تذكارية جميلة .

- وتذكارية لماذا؟

- فليس عندى وقت للحب!

- ليس عندك وقت . . من الذى عنده وقت .

- أنت . . أنتم . .

والحقيقة أن المشكلة ليست الوقت . . ولكن هى طبيعة السويسريين رجالا ونساء . . ليسوا خياليين ولا شعراء . . وإنما هم أناس عمليون جدا . . وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة . . لأن القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة . . وهم يفضلون النظافة على أى شىء آخر!

وليس من الصدق أن تتفوق سويسرا فى صناعات الساعات . . إنها صناعة الدقة . . صناعة الزمن . . صناعة الأرقام والتروس والعقارب . . صناعة قطع الغيار الدقيقة . . صناعة الرقيب الحسيب الذى يعد عليك أنفاسك . . ودقاتك . . وتربطه فى يدك . . أو يرتبط بك من يدك . .

إن حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة .

فمن المألوف جداً أن تجد فى البيت السويسرى جدولا على الحائط . . هذا إذا انطبعت أفكاره على الحائط فى ساعة ندم أو قرف ، وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية . . الثلاثاء إصلاح الزحافات . . الأربعاء : كوتشينة . . الخميس : جمعية خيرية . . الجمعة : لجنة الحزب . . السبت : السينما مع المدام . . الأحد : الذهاب إلى الجبال .

ولو حدث أن زرت أحد أصدقائك ـ إن كان فى الإمكان أن يكون لك أصدقاء سويسريون لأى سبب ـ فى يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و١٤ دقيقة ، وذهبت إلى نفس الموعد بعد عشر سنوات فستجد صديقك فى نفس المكان . . من البيت . . على الكرسى المجاور للنافذة متمددا بينما زوجته تروح وتجىء فى البيت . . وكل السويسريين يتمددون فى بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور أو أى وزن فى بيته . . فهو عندما يدخل من الباب الخارجى

ينتقل إلى دولة أخرى ذات سيادة عليه . . الرجل وزوجته فى تكشيرة واحدة . . وارتدى كل منهما ملامح الجد والوقار . . مع أنه لا يوجد ما يبرر ذلك . . فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة . . لا يكف عن الانتقال من مكان إلى مكان فى نظام ميكانيكى دقيق . . وهى أيضا لم تكف عن الحركة من البيت إلى الدكان . . ومن الدكان إلى السوق ومن السوق إلى البيت وفى كل غرف البيت . . تضع طبقا هنا . . وزهرة فى النافذة هناك . . وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب . . وتنفخ وتنفض . . والذى يرى الزوجة السويسرية وهى تنفض التراب يخيل إليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الأطباق وأنهم سوف يأكلون على الأرض . . فالأرض كالصينى النظيف . . وكل شىء فى البيت يدل على اهتمام غير عادى . . مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم .

إذن هذه الزوجة فى نشاطها ساعة محددة ودقيقة . . والزوج يتطلع هو أيضا إلى هذا الموعد . . إنه موعد الغداء . . للاثنين طبعا وجاء موعد الغداء ودخل الزوج وفى نفس اللحظة التى يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ . . كل شىء يتم بهدوء . . هو يدخل وهى تخرج . . هو يقعد وهى تقدم الطعام . . هو يقترب من المائدة وهى أيضا . . هو يأكل وهى تأكل . . هو يمضغ وهى تمضغ . . كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على نوتة موسيقية . . أو لعل الرجل ـ خصوصا الرجل ـ عندما ينظر إلى السقف من حين إلى حين يبحث عن المايسترو الذى يضبط حركة الطعام من الطبق إلى الفم . . ومن الفم إلى المعدة . . أما الزوجة فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعى طبعًا لأن تنظر إلى رجلين فى وقت واحد . . فرجل مكشر أثناء الأكل يكفى جدا!

أما لماذا هو مكشر . . وهى أيضاً ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى . . وهى أيضا؟ فالسويسرى ليس باسم الوجه . . إنه متجهم . . جاد . . ناشف . . ضخم . . ولكنه منظم فى جميع الحالات . . أنا لم أر سويسريا يبكى . . لأنى لم أجد هذه الفرصة السعيدة . . ولأنه من الصعب على السويسريين أن ينفعلوا . . ولأن يديه مشغولتان فإن نزلت دموعه اضطر أن ينزع إحدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل . . وكل هذا يؤدى إلى ارتباك عام . . ولأن الدموع إذا نزلت من عينه يجب أن تنزل بترتيب . . ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا فى ترتيب دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء . . لأنه إما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، أو . . لا بكاء . . فلا بكاء!

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حاله .

فالدنيا كلما تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهار . . وإذا حاول إنسان أن يهرب فإلى سويسرا . . إذا حاول أن يتجسس فإلى سويسرا . . إذا حاول أن يودع أمواله بعيدا عن الأيدى والعيون ففى سويسرا .

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف . . تصور شعبا لا يعرف الخوف . . أناس لا يخافون من اليوم ولا من الغد . . لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة . . ولا من الحرب!

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف .

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب . . لا تعرف الخط التليفونى الذى ينقطع لأن أحدا يستمع إلى التفاهات التى تقولها لأى إنسان .

أناس لا يعرفون الشارع لأنهم طردوا من أعمالهم . . لا يعرفون الإحالة على المعاش إلا فى الثمانين . . لا يهتدى إليهم الموت إلا فى التسعين . . يظل الموت يطاردهم فى الجليد وفى الوديان . . ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم إلا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهم فى نفس اليوم قد مات من عشرين عاما!

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية .

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية . . فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى . . فى سويسرا أربع لغات : الألمانية والفرنسية والإيطالية والرومانش ـ وهى اللغة السويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس ـ ولكن الدستور صريح فى أن يحتفظ كل إنسان بلونه ودينه ولغته . . وهذه قضايا لا يناقشها أحد من الناس!

هذا قرار اتخذه الشعب السويسرى سنة ١٩٣٨ : أن نبقى على وفاق مع خلافاتنا!

وبعض المفكرين ثائرون على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا . . فهى ليست عضوا فى الأمم المتحدة . . فكأنها بذلك ليست عضوا فى أسرة . . ليس لها دور . . ليس لها وزن . . ولا موقف . . ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن . . وهذا رأى!

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد .

وإنما اتفقوا على أن يقول كل إنسان رأيه . . ويتمسك به . . أما الاتفاق على رأى واحد فى هذه الخلافات ، فليس ضروريا . . والضرورى أن يختلفوا . . والذى ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد .

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت إمبراطوراً للصين؟

فقال : أحدد معانى الكلمات!

ولذلك فمن المستحيل أن يكون كونفوشيوس إمبراطوراً لسويسرا . .!

هذا إذا كان من الممكن أن يكون هناك إمبراطور على الإطلاق ، لأن السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى . . وحرية اختيار الحاكم . . ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير . . وإذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده . . فلا حاشية ولا أمراء ولا خلفاء . . بل إن زوجة الحاكم نفسه . . أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهى مجرد «مدام» ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت فى الانتخابات . . فالمرأة لا تعطى صوتها . . والمرأة تتقاضى أجرا أقل من أجر الرجل . . إذا اتفقا فى كل شىء : المؤهل . . والوظيفة . . وساعات العمل!

والسبب هو : أيهما ينتج أكثر .

فى سويسرا يقولون : الرجل .

ونحن لم نتفق على رأى فى هذه القضية . . لأننا لسنا سويسرا . . ولايمكن أن نكون!

ولكن لا شىء يتم فى البيت أو فى الغيط أو فى الشارع دون سؤال الناس عن رأيهم .

مثلا : إذا فرضنا أنك صاحب بيت فى سويسرا . . ولسبب ما . . قررت أن تهدم هذا البيت . . وبفلوسك تقيم بيتا آخر . . لا تنس أنك سويسرى وطنى مخلص . . وفلوسك موجودة فى البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال . . بهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر .

وسوف تلجأ إلى المهندسين والخبراء لهدم البيت . . وستلجأ إلى المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر .

ومع حسن نيتك فإنك لا تستطيع أن تهدم بيتك . . وأن تبنى بيتك فهناك شروط كثيرة .

أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى فى هذه المدينة أن بيتك يجب أن يهدم . . وأنك لست صاحب نزوة .

وإذا فرضنا أنك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد أموالك ، فما دخل الناس؟

الناس فى سويسرا لهم دخل : فليس من حقك أن تزعجهم من غير مناسبة . . تهدم وتبنى . . وليس من حقك أيضا أن تطرد السكان بذوق لأنك صاحب ثروة مالية .

وإذا فرضنا أن بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه . . لابد أن يتأكد للشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لأنه قديم أو منهار . . ولأن الخبراء أكدوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن يهدم . . فإذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة . . وعملية جس التربة تتم بآلات حديثة . . ويتولاها مهندس أو عامل ماهر .

ولابد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبنى من دور أو دورين أو ثلاثة أو أربعة . . وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا يعترض لأن إقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات . . أو أن هذا البيت إذا ارتفع سوف يحجب الشمس . . أو يمنع الهواء . . ولابد أن تلقى هذه الاعتراضات اهتماما عاما . . ولم يحدث كثيرا أن أردت هذه الاعتراضات إلى تعطيل بناء عمارة من العمارات . . لا لأن هذه الاعتراضات لا قيمة لها . . ولكن لأنه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر فى مكانه دون أن تكون هناك أسباب وجيهة جداً لهذه العملية المعمارية .

وقد سمعت من سفيرنا فى سويسرا محمد توفيق عبدالفتاح أن السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة . . وبعد أن تم بناء الجناح فوجئت السفارة بأن أحد الجيران السويسريين يشكو السفارة إلى القضاء لا لأن السفارة أقامت جناحا . . فهذا من حقها ما دام الجناح قد استوفى كل الشروط الفنية . . ولكن لأن لون هذا الجناح يؤذى العين . . يؤذى عينيه .

وقد رأيت هذا الجناح . . وفتحت عينى فيه وفى ألوانه ولم أشعر بأى أذى .

ولكن الذى ضايق هذا الجار السويسرى هو أن الجناح قد طلى باللون الأبيض الرمادى . . وهو لون غريب عن ألوان كل البيوت المجاورة . . فهذا اللون صارخ . . تماما كالصوت الصارخ الذى يوجع الأذن . . فهذا اللون يؤذى العين . . فهو جزء من الضوضاء اللونية .

وما دام الناس يريدون الهدوء الصوتى فى بيوتهم ، فهم أيضاً يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم!

وأنا أحيى هذا السويسرى عشرين مرة . . مرة واحدة لأن له رأيا . . ومرات لأنه مصرٌّ على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات!

هذه القطة الجاهلة!

ومن المشاهد الغريبة فى سويسرا أن تجد أحدا كريما متحمسا شهما . . وتحس لأول وهلة أنه ليس من أصل سويسرى ، وأنه لابد أن يكون أجنبيا . . مع أنه لا يوجد شيء اسمه «الأصل السويسرى» . . فالسويسريون يتكلمون الفرنسية ولا يشعرون أن فرنسا هى وطنهم الأم . . ويتكلمون الألمانية ، وألمانيا ليست وطنهم . . والإيطالية . . وإيطاليا ليست وطنهم الأول . . إنهم خليط . . أو هم سلطة : طماطم وخس وخيار . . فى إناء من الكريستال النظيف الأنيق . . ولكن عناصر السلطة تعيش معا ، ويتكون منها هذا الطعام الشهى ، ولكنها لا تختلط تماما . . وإنما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح .

ولذلك اندهشت عندما دعانى مسيو أحمد هوبر الصحفى السويسرى الذى أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة . . إنه شاب فى غاية الحيوية والحماس والدقة . . فى غاية السويسرية . . وهو واسع الأفق . . وعلى إلمام دقيق بقضايا العالم السياسية . . وبقضايا الشرق . . وعلى فهم كاف بتاريخ الإسلام والمسلمين . . وهو رجل كريم خدوم . أو أصبح كريما . . وهو على خلاف السويسريين تجده هو رب البيت . . هو الذى يدعوك إلى الطعام . . و«يعزم» عليك . . ويكاد من شدة حفاوته بك أن يأكل لك أيضا .

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن ننهض بعد الأكل مباشرة . . هذا مؤكد . . ولكن نظراته طاردة . . إنها تكاد تسحب الطبق من يدك وتلقى بك على الباب الذى ينفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه . . وعندما تسقط على السلالم النظيفة . . وتتماسك وتخرج من الباب النظيف إلى الشارع النظيف وتتطلع إلى شقته تجده أنه قد أطفأ النور . . ودخل فى الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و١٢ دقيقة .

لم يحدث شيء من ذلك . . هذا أكيد . . ولكن ترجمتى الدقيقة لنظرات السويسريين تقول ذلك .

وإذا تحدث إليك فى موضوع أدبى أو فلسفى أو تاريخى . . بالفرنسية أو بالإنجليزية أو بالألمانية فهو رجل شاعرى . . وهو مفكر واضح . . وهذا الحماس والوضوح يجعلك

تنسى أنه سويسرى . . ولكن عينه التى لا تبعد كثيرا عن النظر إلى الباب تؤكد لك أنه من الضرورى أن تنهض . . لأنك سائح ولأنه موظف . . ولأنك مصرى ولأنه سويسرى . . ولأنه سويسرى غير عادى . . ولأنه من الضرورى أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر عنده حتى الصباح . . مثلا!

وهذا الرجل أحمد هوبر مختلف عن السويسريين فى شىء جوهرى جدا : إنه يقنعك . . ولا يحاول أن يعلمك!

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرًا أن تقتنع . . إنهم مثل المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته ثم يمضى . . أو مثل رجال الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه إلى السماء لتنتهز أنت فرصة اتصاله بالسماء وتمضى لحالك . . على الأرض!

وهذا سر المتعة التى لا تنتهى فى الحديث إلى المواطن السويسرى أحمد هوبر!

* * *

وعندما ذهبت إلى أحد الساعاتية فى سويسرا . . وما أكثرهم . . إنهم يشبهون مطاعم الفول فى القاهرة . . ومحلات الحلويات فى دمشق . . وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة . . وأخذ الرجل الساعة ووضعها فى درج . . وأعطانى وصلا . . وقال : ليست عندى هذه الماركة!

قلت : لم أفهم .

قال : إننى لا أصلح كل أنواع الساعات ، ولذلك يجب أن أبعث بها إلى المحل الخاص بهذه الماركة .

ومد يده إلى التليفون وسأل أحد المحلات . . أو هكذا فهمت لأنه يتكلم باللغة السويسرية التى هى خليط من الألمانية واللغة الرومانشية . .

وأعطانى عنوان محل آخر .

وذهبت . . والمحل الآخر أعطانى ورقة على أن أعود فى اليوم التالى . . لأن زجاجة هذه الساعة يجب أن تستحضر من المصنع .

والمصنع خارج مدينة برن . . ثم إن ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها . . ثم أن من حق أى إنسان أن يصنع ساعة وأن يضع عليها الماركة التى تعجبه . . أما الماركات المشهورة فهى لا تصنع كل هذه الساعات التى تحمل ماركتها . . وإنما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تتفق عليها .

وفى اليوم الثانى عدت .

وجدت الزجاجة ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجة وتركيب زجاجة أخرى .

ورأيت كيف . . وهنا أدركت أن الساعاتية عندنا هم أناس يصلحون بوابير الجاز . . أو البلاعات . . فلا توجد عند الساعاتية فى سويسرا : لا سكاكين ولا كماشات . . ولا أحد يستخدم أسنانه فى فتح الساعة . . لا لأن صناعة أطقم الأسنان لم تتطور إلى هذه الدرجة ، ولكن لأن هناك آلات دقيقة رقيقة . . تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين . . بنعومة وبلا ضوضاء .

ولأن كل إنسان قد تخصص فى شىء .

ثم إن كل شىء يتم فى هدوء الساعة وبرودة عقاربها .

وأهم من ذلك أن للسويسريين طريقتهم الخاصة فى الاهتمام بك والترحيب بخدمتك . . فهم لا يصافحونك بحرارة . . ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه أو فى الأيدى التى تضغط . . وأنت كسائح لا تطمع فى أكثر من الخدمات المجانية . . ويكفى جدا أن تطلب من الناس أن يخدموك مجانا . . وأن يكونوا سعداء أيضا لذلك!

* * *

وإذا كانت سويسرا بلدا لا يعرف الخوف . . فهى أيضا بلد لا يعرف التوسع .

فالأرض محدودة من مئات السنين .

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغله السويسريون . . ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة رأسيا . . بعد أن ضاقت بهم أفقيا .

وهم لا يريدون أى توسع سياسى أيضا .

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع فى الخدمات وفى استثمار أموالهم فى الخارج . . ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة . . التصدير إلى الخارج والاستيراد والخدمات .

وسويسرا قد تطورت فى صناعات كثيرة ، كما أنها أول دولة فى العالم استخدمت الكهرباء فى إدارة كل أجهزتها تماما ، وكان ذلك فى سنة ١٩٤٢ . . وهناك تواريخ مشهورة فى سويسرا .

ففى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج .

وفى عام ١٨٢٦ أصدرت أولى عملاتها المصرفية .

وفى عام ١٨٥٠ أنتجت أول ساعة لا تمتلىء بالمفتاح .

وفى عام ١٨٦٧ كانت أول من أنتج البن المسحوق ويحمل اسم نستلة .

وفى عام ١٨٧٧ أنتجت الساعة ذات الزنبرك .

وفى عام ١٨٩٧ أنتجت الحرير الصناعى .

وفى عام ١٩٢٢ كانت شركة ساندوس الطبية أول من توسع فى استخدام الأعشاب الطبية .

وفى عام ١٩٢٥ عرف العالم أو إنتاج للفيتامينات يحمل اسم شركة لاروش العالمية .

وإذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة . . فعندهم أيضا جنون الخوف من المرض . . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى . . على عكس الأمريكان الذين يعرفون أن هناك مرضا . . أى مرض . . ويواجهون احتمال المرض بتعاطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية . . ولا يفكر الأمريكى فى المرض الذى يتقيه . . وإنما هو يتقى كل الأمراض الممكنة . . فمن المألوف أن تجد الأمريكى يبتلع حبوبا وأقراصا فى الصباح وفى المساء . . ويترك لهذه الأقراص أن تتولى حراسته ضد الميكروبات . . أية ميكروبات . . أما السويسرى فهو يعرف الأمراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لأنه بخيل فقط . . ولكن لأنه دقيق جدا .

ليست صحته هو فقط . . ولكن صحة الحيوانات الموجودة فى البيت . . الكلاب والقطط والأبقار وغيرها . . خصوصا أن هناك بعض الأمراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات . . وهذه الأمراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة أيضا . . ومرض قطة أو كلب مثل مرض أى طفل يلقى نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأى كائن حى . . وفاة قطة كوفاة إنسان ، أما إذا حدث أن داست إحدى السيارات قطة . . فهذه كارثة للشارع كله . . وأحيانا للمدينة من أولها لآخرها . . ويتوقع الناس أن يروا صورة للحادث فى التليفزيون وقد أمسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث . . أو على التليفزيون أو على طلب للبرلمان للتحقيق فى هذا الأمر الخطير!

أعرف صديقا مصريا جاء إلى سويسرا من ألمانيا وتعلق أطفاله بإحدى القطط ، فاشترى القطة ، وبعد أسبوع واحد من إقامته فى سويسرا استدعاه البوليس لأمر مهم . . التليفون يقول : لأمر مهم . . والإشارة من البوليس تقول : لأمر مهم . . ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس إلى شقة الصديق يؤكد : أنه مهم وكارثة وطنية!

وذهب الصديق المصرى . . وفوجئ بأن كل الاحتمالات التى دارت فى رأسه لا علاقة لها بأسباب الاستدعاء إلى البوليس ، فضابط البوليس يشير إليه أن يجلس لكى يشرح له : ما الذى فعلته القطة فى الحديقة؟

- ما الذى فعلته؟

- إنها حفرت فى الحديقة . . ثم تركت بعض مخلفاتها . . وأنت تعرف .

- أعرف . . ماذا فى هذا؟

- فى هذا كل شىء . . إن القطة مريضة يا سيدى . . عندها إسهال . . تصور!

- أستطيع أن أتصور . . فما الذى أفعله أنا . . أنا شخصيا عندى إسهال .

- أفهم ذلك . . ولكنك لا تستطيع أن تفعل ما فعلته القطة .

- طبعا . . لا أفعل .

- لماذا؟ لأن هناك مكانا مخصصا لذلك فى شقتك . . فأين إذن المكان المخصص للقطة .

- هناك مكان . . ولكن القطة لم تفعل .

- ولماذا لم تفعل . . لأنها قطة غير متعلمة .

- غير متعلمة؟

- طبعا . . القطط يجب أن تتعلم أين تأكل وأين تشرب . . وأين تتخلص من كل شىء بعد ذلك .

- إن هذه القطة قد اشتريتها .

- كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف . . إلخ .

باختصار : هذه القطة عندها إسهال اضطرها إلى أن تذهب إلى الحديقة . . ولسوء الحظ رآها البواب . . وذهب البواب وأخبر الشرطة . . لأن القطة مريضة . .

ومرض القطة مسألة صحية ، ولا بد أن تعلم السلطات الصحية بذلك . . حتى لا تنقل العدوى إلى بقية الحيوانات والأطفال . . والبواب يؤدى بذلك واجبا وطنيا ، ويراه كل الناس موقفا طبيعيا . . وهو لم يضع وقته فى الكلام مع صاحب القطة . . فصاحب القطة ليس البوليس وليس الإدارة الصحية . . ثم إن صاحب القطة متهم .

وانصرف الصديق المصرى .

وفى البيت جاء الطبيب ، وأخذ عينات من مخلفات القطة ، وطلب التحفظ على القطة ، وأخذ القطة فى صندوق ، وبعد التحاليل ثبت أن القطة عندها إسهال حاد . . . لأنها قطة قد اعتادت على الطعام المسلوق . . فلما أكلت الأرز بالسمن واللحم بالسمن . . ذابت أحشاؤها فى الحديقة .

ولابد من علاج للقطة .

ولابد قبل العلاج أن تتعلم القطة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب أن تذهب القطة إلى المدرسة ، وعلى حساب صاحبها . . وذهبت القطة إلى المدرسة . . وقررت المدرسة أن القطة فى حاجة إلى شهر .

وهنا قال صاحب القطة : أنا لا أريدها .

فكان رد ناظرة المدرسة : إذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك . . وتتعلم أيضا إلى أن نجد لها أحدا يؤويها فى بيته .

وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض أننى أخذت القطة وأطلقتها فى الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : فى هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف . . وربما أدى ذلك .

ولم تقل إلى طرده من سويسرا ـ وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالرحمة!

ولم تعد القطة إلى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها . . فليس من السهل أن تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق فى بيت يأكل فيه الأطفال الأرز المفلفل وطواجن اللحم بالسمن . . ومن الصعب تربية قطة فى بيت به أطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى فى سويسرا الذى قد يؤدى إلى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى!

* * *

وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدبة . . فلا أحد يعرف اسم فنان كبير فى أى نوع من فروع الفن .

ربما كان المهندس العالمى لوركوربوزييه هو أشهر سويسرى فى دنيا المعمار ـ وهو يأسف لذلك أشد الأسف ، لا على أنه مشهور ، ولكن على أنه سويسرى . . هكذا جاء فى مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الأسف .

وربما كان المثال بول كلى من أعظم صانعى التماثيل فى العالم ، وهو سويسرى .

وقد حدث أثناء تصوير فيلم «الرجل الثالث» فى سويسرا من إخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز أن خطرت للبطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم ، أما العبارة الصادقة فتقول : إن عصر النهضة الإيطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت فى التاريخ . . ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام فى سويسرا قد أسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت!

ولكن سويسرا فى عالم الأدب أحسن حالا .

فقد ظهر فى سويسرا أديبان عظيمان بعد الحرب .

وهذان الأديبان من الألمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الألمانية ، وهما لذلك يحركان الأدب الألمانى والأوروبى وهما قابعان فى الجبال العالية .

وقد قابلت هذين الأديبين .

وترجمت لكل منهما . . أيضا .

الأديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات : رومولوس العظيم ، وقد ظهرت على المسرح وقام ببطولتها صلاح منصور وزوزو نبيل وأخرجها سمير العصفورى . . وترجمت له مسرحية «هبط الملاك فى بابل» ، ثم مسرحية «الشهاب» التى ظهرت على مسرح الجيب ، أى فى المكان الذى لا يناسبها . . وبالإخراج الذى لا يتفق مع طبيعتها؟!

وقد لقيت ديرنمات فى بيته . . والتقيت بزوجته .

وتحدثت إليه طويلا فى الأدب العالمى وفى أدبه . . وهو رجل رقيق . . يبدو سمينا قصيرا . . ولكن بعد لحظات من الجلوس إليه تجد السخرية فى عينيه وفى عبارته . . وإذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه . . وهو رسام وموسيقى وشاعر ومهندس معمارى . . وابن قسيس . . وهو من أحس أدباء اللغة الألمانية .

أما ماكس فريش . . فهو أهدأ وأعمق . . وسخريته فلسفية . . وقد ترجمت له مسرحية «أمير الأراضى البور» .

ومن الغريب أننى عندما ذهبت إلى فريدريش ديرنمات قدم لى عشرات من فناجين القهوة . . ولم أتنبه إلى هذا الإسراف ، وظننت أنه هو الذى يحب القهوة كثيرا . . ولما سألته عن السبب قال لى : ألستم تحبون القهوة هكذا . . فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره؟

ولما سألته عن الكتب العربية التى قرأها . . اعترف لى هو أيضا ـ كما اعترف لى قبل ذلك فى القاهرة ألبرتو مورافيا وسومرست موم ـ أنه لم يقرأ غير ألف ليلة وكتاب للأمير أرسلان . . وأن معلوماته عن العالم العربى مع الأسف قليلة . .!

أما ماكس ريش فقد زرته مع سفيرنا محمد توفيق عبدالفتاح . . وكان الرجل فى انتظارنا . . فى غاية الصحة والحيوية . . وهو يؤكد لك أنه فى صحة جيدة ولا يشكو من أى مرض . . وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع مدروس . . لأنه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا . . وأنسب ارتفاع لنشاط العقل الإنسانى . . وكان قد أعد لنا زجاجة من الويسكى . . واعتذرنا . . واعتذر هو أيضا لنفسه لأنه لا يشرب نهارا .

وظهرت فتاة تروح وتجىء . . ليست جميلة . . فقال ماكس فريش : إنها خطيبتى .

وفهمت . . إن كلمة «خطيبة» هى لقب قد أعطى لهذه الفتاة بمناسبة تشريفنا .

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا أديبا واحدا له قيمة عالمية . . ، ولا مفكرا واحدا بعد جان جاك روسو له أى وزن دولى .

إن سويسرا أرادت أن تكون منطوية على ساعاتها وعلى أرضها وعلى مقشاتها . . وعلى خلافاتها الثابتة . . وأن تغلق عينها عن العالم . . وإن كان العالم لا يغلق عينه عنها . . ضيقا وحسدا . . وأن تنطوى على هدوئها وطمأنينتها . . وألا تمد يدها لتصافح إلا من تعرفه . . وحتى لا تمد يديها فإنها حريصة على ألا تعرف أحدا . . ويكفى أن يعرفها الناس . . وهى تريد أن يعرفها الناس عاصمة النظافة : نظافة الأرض والبيت واليد وهى البيئة التى لا ينشأ فيها فن ولا أدب . . فالأدب كالنبات ينمو فى الطين .

ويبدو أن بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى لأن ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات . . وفريش!

أطيب تحياتي من موسكو

عادة سيئة أن نرمى البحار بالأحجار!

أول شىء تشعر به إذا سافرت إلى أمريكا أو إلى روسيا أن هناك جرحا خفيفا لكبريائك . . وأن هذا الجرح قد حدث بمجرد ملامستك للأرض . . مع أن أحدا لم يقصد ذلك . . وليس فى نية أحد أن يفعل ذلك . . أولا لأنه لا يوجد مبرر . وثانيا لأن أحدا لا يدرى بك . . فأنت ضمن مئات الملايين من الناس من لونك ومن حجمك ومن بلدك ومن البلاد المجاورة لك .

فأول ما تشعر به أنك صغير جدا . . وقد يشمل هذا الشعور بلدك أيضا . . فأنت وبلدك صغيران أمام هذا المحيط الهائل من الناس والأشياء والمعانى .

كل شىء ضخم . . وهذه الضخامة موجودة قبل تشريفك لهذه البلاد . . وستبقى بعد سفرك . . وكل المطلوب منك هو أن تتوافق مع الجو وأن تعرف رأسك من رجليك .

أما رجلاك فدعهما الآن . . وعليك أن تهتم برأسك . . فالذى تراه قد صنعه الناس من العدم . . ففى روسيا هذه الأرض كانت خرابا . . أحرقها وهدمها على رؤوسهم وأولادهم ونسائهم وآمالهم الألمان . . وقبل الألمان جيوش الحرب العالمية الأولى . . وقبلها نابليون . . واثناء ذلك كله الحروب الأهلية . . وحركات الاستقلال . . فتحت هذا الجليد الذى يغطى الشوارع والسقوف والأشجار والذى استعاره الناس لملامح وجوههم توجد نيران حقيقية ونيران ثورية .

وجوه الناس مثلا . . هؤلاء الروس لايمكن أن تحدد ملامحهم . . ففيهم الأبيض والأصفر والأسمر والأحمر . . وكلهم أبناء دولة واحدة . . ففى بلادهم ١٨ جمهورية وعشرات اللغات والقوميات . . ولكنهم جميعا سوفيت . . ووجوه الناس جامدة . . أو رخامية أو زجاجية . . ولنفرض أن هذه هى صفاتهم التى بدت لك من أول لحظة . . فما الذى يمكن أن تستنتجه من مجرد النظر إلى وجوه الناس . . ما الذى يمكن أن تقوله عن الروس إذا وقفت فى المطار وضربت بعينك سهما إلى فتاة جميلة ، وكأن السهم لا خرج من عينك ولا دخل فيها . . إذا ابتسمت لأى شاب أو رجل فكأنك ما فعلت شيئا!

ما الذى يمكن أن تصف به الروس على أثر هذه المحاولة التى تبدو بريئة؟

تقول فعلا : ما هذا البرود؟ ما هذا الجمود؟ الشعب كله لا يفهم النكتة ولا يحب المرح ولا يرحب بالأجانب!

فى استطاعتك أن تقول ما تشاء .

ولكن ما الذى يمكن أن يفعله إنسان لا يعرفك . . ولا يدرى بك طبعا . . ولا يعرف ما يدور حائرا فى نفسك ، ثم إنه مشغول عنك . وهذا طبيعى . وأنت لا تعرف كلمة روسية واحدة وهو لا يعرف كلمة عربية . . ولو عرفت كلمة . . مائة كلمة فما الذى تستطيع أن يؤديه لك وليس من اختصاصه أن يستقبلك أو يرحب بك . لابد أن هناك أناسا آخرين . . أنت جزء من أعمالهم وأعبائهم .

ولكن الذى يجعل هذه المعانى تدور فى رأسى فى روسيا وأمريكا هو شعورى بالضآلة والضياع وأن أحدا لا يدرى بى . وهذا طبيعى . لم تنقذنى معرفتى بالإنجليزية فى أمريكا ، ولم يغرقنى جهلى بالروسية فى موسكو .

ولكن لا تكاد تجد الشخص المناسب أو يجدك الشخص المناسب حتى تتغير الدنيا أمام عينيك . وسوف تجد أن الذين يمرون بسرعة كأنهم آلات . . هم بالفعل يعملون ضمن جهاز كبير دقيق . . ولولا هذا العمل الذى لا ينقطع ما وجدت طائرة ولا مطارا ولا فندقا فخما . . ولا وجدت طعاما ولا شرابا . ولا وجدت صداقة فى انتظارك أنت وشعبك وعشرات الشعوب الأخرى . ومع الدفء والكلام والحوار تجد أنك دخلت دون أن تدرى عضوا فى أسرة ضخمة طويلة عريضة عميقة شديدة التعقيد بالعلم والخرافات والفلسفات والأحداث والمعارك والأغانى والتماثيل ومتاحف الملوك وتماثيل الجنود وتشعر بالضياع مرة أخرى . . ولكنه ضياع إنسان فى بنك مليء بالأوراق النقدية والذهب . . لا تستطيع أن تأخذ ولا تستطيع أن تترك . . ومهما أخذت فسوف يبقى الكثير ، وإذا لم تأخذ فسيبقى فى نفسك الكثير من الحسرة والندم!

وإذا كان الناس فى مواجهة الجليد الذى اعتادوا عليه ، يرتدون الثقيل من أغطية الرأس والأحذية والبلاطى ، فإنهم فى بيوتهم الدافئة يتخففون من كل شيء . . ومن النظرة الجامدة ، والوجه الرخامى . . فإذا أنت أمام أناس ظرفاء محبين للنكتة ومخترعين لها أيضا . وفى نفس الوقت لا يرفعون عيونهم عن النظر إلى الماضى

والمستقبل فهم يعرفون جيدا ماضيهم ، ومؤمنون تماما بمستقبلهم ، ويؤمنون بأن المستقبل للأغلبية من الناس . الذين يعملون . . ولهم الحق فى الحياة . . ولم تكن الحياة حقا لهم قبل ذلك . . تسمع ذلك وتراه بألف لغة وشكل وحجم ومناسبة . . وفى كل كتاب وكل مسرحية وكل لوحة وكل أغنية .

ومهما ذهبت شرقا وغربا فى روسيا ، فأنت لا ترى إلا القليل . . إن الروس أنفسهم لا يعرفون بلادهم ، فلا يتسع عمر الواحد منهم لزيارة معالم بلاده . . فالبلاد واسعة . والروس يقرأون عنها كما نقرأ نحن تماما . . والاتساع والضخامة يجعلان الروسى يشعر بالمناعة والقوة . . فأين ذهب نابليون وأين ذهب جنكيز خان؟ وأين راح هتلر . . كل هؤلاء ابتلعتهم الأرض الواسعة ، ودفنهم الإصرار على النصر . . وقد أصروا وانتصروا . . وتعبوا وجنوا ثمرات تعبهم . . وسوف يحققون ماهو أكثر . فالشعب كله يعمل . . هذه حقيقة . . على كل المستويات . . هذه بديهية . . وكل ما هو ضرورى لكل إنسان متوافر وكل ما هو ترف ليس متيسرا . . وهذا حقيقى . . ولكن عندهم أمل بأن تكون الكماليات متوافرة كالضروريات . . والروس متخمون بكؤوس الإيمان بالمستقبل ، كالأمريكان تماما !

والروسى فخور ببلاده . . والشاعر الروسى أرمنتوف عندما قارنوه بالشاعر الإنجليزى بيرون قال : لست كالشاعر بيرون . . أنا مختلف عنه . . ومازلت مجهولا ، إننى مثله منبوذ فقط . . ولكن أهم من ذلك أن لى قلبا روسيا!

وهذا يكفيه . .

والشعراء الروس كثيرا ما بكوا على بلادهم وما أصابها ، وأثاروا الشعب على الظلام . . من أجل ذلك ارتفعت تماثيلهم فى كل مكان ، امتنانا من الشعب لهم ، وعرفانا بفضلهم . . وتقديسا لكل من قال أو فعل شيئا لكل الناس .

والشاعر تودجست فى القرن التاسع عشر قد وصف روسيا بلهجته الحزينة فقال :

«الفلاحون نيام كالموتى ، يزرعون ويحصدون وهم نيام ، ثم ينامون بعد ذلك . . والذى يضرب الفلاح على رأسه نائم أيضا ، والذى يتلقى الضربات أكثر نوما . . الغربان هى التى لم تعرف النوم فى خرائب روسيا . . إن روسيا تمسك زجاجة الخمر وتتجه برأسها إلى القطب الشمالى ، وتمدد ساقيها فى القوقاز ، وتنام نوما لا نهاية له . . هذه هى أرضنا المقدسة روسيا» .

ونامت روسيا كثيرا على صدور الشعراء وفى قصائدهم . . وكأنها ادخرت النوم الطويل للسهر الطويل بعد ذلك . . فصحت فى كل مكان . . وكل موقع . . وارتفعت وعلت . . ودارت حول الأرض وحول الكواكب . . وأصبحت دولة عظمى .

وأنت لايمكن أن تعرف من بلادها إلا القليل . . فأنت تلمس روسيا فقط . . مهما طالت صلتك بها ، أو إقامتك فيها . . فأهلها أنفسهم يلمسونها ولا يعرفون عنها إلا القليل ، فلا أحد استطاع أن يعرف الكثير عن هذا الكثير جدا فى كل شىء . . وفى كل ميدان ، ولكنها رغم ذلك تبهرك وتثيرك وتذهلك .

وكل ما تستطيع أن تقوله : إنها مختلفة!

وتسأل نفسك : مختلفة عن ماذا؟

ويكون جوابك : مختلفة عن كل البلاد التى رأيتها أو سمعت عنها .

وهذا طبيعى . فليس من الضرورى أن يتشابه كل الناس وكل البلاد ، مهما اختلفت الظروف . . أو مهما اختلفت أحداث التاريخ ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون اختلافها خصما من رصيدها لديك . . وإنما هى مختلفة . . اختلاف شجرة عن شجرة أو ماركة سيارة عن ماركة سيارة أخرى . أو اختلافك عن واحد مثلك فى مركزك وفى مستقبلك .

وكأى إنسان غربب عن روسيا تصطدم بأشياء غريبة . . وقد وقفت طويلا عند الأشياء الغريبة . . إننى أردت أن أدور حولها ، وأهزها لعلى أنا أتحرك . . وحاولت أن أضحك . . ولا يزال الضحك نوعا من السمو الروحى ، فالذى يضحك على شىء يشعر أنه أحسن منه ، وأنه لايمكن أن يرتكب حماقة أن يفعل نفس الشىء . . والضحك كالشمس . . والبيت الذى تدخله الشمس لا يدخله الطبيب . . فقد أردت أن أكون طبيب نفسى . . وطبيبك أحيانا!

وهذه هى المرة الثالثة التى أرى فيها روسيا ـ هذه العبارة ليست دقيقة ، فإن أحدا لا يستطيع ، ولم يستطع أحد ـ أن يرى روسيا ، ولكن لا أجد كلمة أخرى بدلا من كلمة «يرى» هذه . . وإنما الأصح أن أقول : هذه هى المرة التى فتحت فيها عينى على روسيا . . أو على جزء من روسيا . . أو على بعض من روسيا . . فالذى رأيته قليل . . ولكنه مثير . . والذى لم أره كثير جدا .

ولكن كما يحدث أن يختار الإنسان بعض قطرات المحيط ليحللها فيعرف بعض خصائص المحيط ، فإننى فعلت ذلك . . اخترت القليل جدا وحاولت أن أعرف عن طريقه الكثير جدا .

وفى كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» لم أستطع أن أكتب الكثير عن أمريكا ، لنفس السبب . . فالبلاد واسعة باهرة . . شديدة الحركة غالية التكاليف . . والإنسان يشعر بالضآلة والفقر والذنب . . ويحس لأول مرة أنه إذا كان أبونا آدم قد أخطأ فنزل من الجنة إلى الأرض ، فأنا قد أخطأت لأننى نزلت إلى أرض أمريكا . . وقد كانت عقوبة آدم أن يترك الجنة ويجىء إلى الأرض ، وكانت عقوبتى أن أجىء إلى هذه الجنة المجنونة . . وأقوم فيها بدور «الحية» العريانة التى تزحف على بطنها بينما يركب الناس السيارات والطيارات التى تزحف على الأرض أو على السحاب .

ولذلك أمسكت قلمى عن الكتابة عن أمريكا .

ولم أستطع أن أمسك نفسى عن الكتابة عن روسيا التى استطاعت عمل الكثير لشعبها ، وللشعوب الأخرى ، وأقامت أعظم تجربة فى تاريخ الإنسان فأذابت القوميات واللغات والأديان والنظريات فى صيغة عمل واحد من أجل هدف واحد . . الأسلوب شاق والهدف بعيد . . والتعب كثير والعرق أكثر . . ومن الصعب أن يعرف أكثر الناس علما بوظائف الأعضاء الفرق بين العرق والدموع . . ولكن كل ذلك هان ويهون من أجل رفع الظلم والجوع والمرض والجهل عن مئات الملايين فى روسيا وفى غيرها .

وفى نفس الوقت أحسست مرة أخرى كما يحس أى إنسان يمشى على البلاج إلى جوار البحر . . إنه ينحنى بين حين وآخر ويلتقط حجرا . . ثم يرميه فى البحر . . أو يرمى البحر بحجر . . وفى هذا الكتاب الكثير من الأحجار ، إنها عادة الذين يمشون على شواطئ البحار!

الذى أكثر برودة من الجليد

طبعا لن يذوب الجليد فى يوم وليلة وترتفع الحرارة من تحت الصفر واحدة أو اثنتين وثلاثا وعشرا لكى يصبح الجو مناسبا لزيارتى لموسكو . . لو كانوا يعرفون لفعلوا . . ولذلك كان لابد من الملابس الثقيلة والحذاء الذى أدوس به على الجليد دون أن أشعر به ، ذهبت إلى دكان فى شارع قصر النيل .

سألنى : إلى أين؟ قلت : إلى موسكو .

ومع اهتزاز رأس البائع عرفت أنه يعرف الحذاء المناسب للمكان المناسب ، ولابد أن هناك أحذية خاصة بروسيا وأحذية خاصة بالبلاد الباردة الأخرى .

ووضعت رجلى فى الحذاء ، وتفاهمنا على أنه مناسب ، ودفعت وخرجت لأسمعه يودعنى قائلا : مع السلامة يا كابتن!

إذن أكثر زبائنه من الرياضيين فهل أنا رياضى ، يبدو ذلك .

ودارت الفكرة فى رأسى وبرأسى : إننى أبدو رياضيا . . ياريت . . فأنا لا أمارس أية رياضة ، ولكن أى نوع من الرياضيين ، فالفكرة ما تزال تلعب برأسى ، هل أنا لاعب كرة ، ملاكم ، مصارع ، هل أنا من حاملى الأثقال . أسئلة لم تعجبنى لأن الإجابة لا تعجبنى أيضا . . فأسقطتها من رأسى ودست عليها بالحذاء الجديد ، دون أن أشعر بها .

ولم يبق أمامى غير السفر إلى موسكو .

وسألت العارفين بضرورة السفر ، ولماذا أسافر قبل الكريسماس ورأس السنة؟

وجاءت الإجابة تؤكد تفاهة السؤال : كيف تقول ذلك . أنت لا تعرف ما الذى يعمله الروس فى الكريسماس ورأس السنة ، طبعا هذه أول مرة تسافر إلى موسكو؟

قلت : ليست أول مرة ، فقد رأيت الكريسماس فى موسكو ، وكان عاديا ككل الأعياد ، وككل بلاد الله وكل خلق الله .

ولكن رأس السنة شىء آخر . . ثم جاءت غمزة بالعين وقرصة باليد إن المعنى جديد . وأن الذى سوف يكون فى رأس السنة لم يخطر على بال . وأن رأس السنة هو «رقص» السنة . . وإذا أحببت فهو «رجس السنة» وكل سنوات العمر .

ولكن لماذا هذه السنة بالذات؟

لقد كانت السنة الماضية : هى سنة لينين ـ مرور مائة عام على مولده ـ كما كانت سنة ١٩٦٧ ذكرى مرور خمسين عاما على الثورة السوفيتية أيضا . . ولكن لابد أن هناك أسبابا خاصة لا أعرفها ، سوف تجعل رأس السنة مهرجانا عالميا ، ولا يبقى إلا أن تذهب وترى وتذوق جمال الدنيا ، وحلاوة الأعياد الاشتراكية الكبرى .

إذن لا داعى لأن تمضى الكريسماس فى موسكو .

وكان الجواب : لا داعى .

وقلت : ولا داعى لأن أكون هناك فى رأس السنة .

وقيل : مستحيل .

وجاءنى مدير وكالة نوفوستى السوفيتية للأنباء وهو رجل رقيق مرح . . أو على الأقل ضاحك الوجه . . وحديثه مشجع ويجعلك تتمنى : لو كان الروس كلهم كذلك .

وحاولت أن أعرف منه إن كانت هناك أية مناسبة كبرى للسفر فى رأس السنة . وكان جوابه : لابد أن لديهم أسبابا قوية لدعوتك فى هذا الوقت . . إذن . . فهو لا يعرف مثلنا . ولكنه لا يستبعد أن تكون هناك أسباب خاصة .

ووجدت فى داخلى رغبة قوية لمقاومة هذه الرحلة كلها . ولكن ليست عندى أسباب واضحة . وأخيرا عرفت أننى أحاول أن أخرج على الخط الحديدى الذى سارت عليه نظرية غريبة : ففى سنة ١٩٣٠ أمضيت رأس السنة بين المنصورة وأسيوط . . وفى سنة ١٩٤٠ كنت فى سيارة بين المنصورة والزقازيق . . وفى رأس سنة ١٩٥٠ كنت فى لندن وفى رأس سنة ١٩٦٠ كنت فى نيويورك . . ومطلوب أن أكون فى رأس سنة ١٩٧٠ فى موسكو .

وحاولت . . فلم أفلح .

وبدأت الرحلة من البيت . . وقبل أن أنزل إلى الشارع ارتديت ملابس مضاعفة . . وجوارب مزدوجة . . وحذاء مبطنا بالصوف . . وبدلة ـ فأنا لا ألبس

البدلة عادة إلا مرغما ـ والبالطو والكوفية والطاقية المصنوعة من الفرو وبدأت أشعر بالبرد . . مع أن هذه ليست الرحلة الأولى فى حياتى إلى الخارج . . ربما كانت الأربعين . . ولكنى أنسى فى كل مرة أننى سافرت . . وأننى حزمت أمتعتى . . وأننى مرضت أو أصابنى البرد . . والحمد لله أننى أنسى . ولو تذكرت كل ما أصابنى ما لبست ولا تحركت . . فحمدا لله على نعمة النسيان .

وتأخرت الطائرة السوفيتية عن موعد قيامها! عجيبة؟!

قال بعض الناس : لابد أن شيئا خارقا للعادة قد حدث كأن يكون مطار موسكو قد غطاه الجليد . . أو أن موسكو كلها قد اختفت .

قال آخرون : إن الروس مجاملون إلى أبعد حد . . لابد أن شركة ايروفلوت السوفيتية تجامل شركة الطيران العربية وهى لذلك تتأخر مثلها .

قال أناس أكثر واقعية : إن الروس «حنبليون» ، ينشدون الكمال فى كل شىء . . فلو أحس الطيار أن فى طيارته خللا ، فلن يبرح أرض المطار . وسوف ترون عندما تقف الطائرة على الممر . . سيجرب الطيار محركات الطائرة ويهزها ويثيرها كأنه يريد أن يخرجها عن عقلها . . وبعد ذلك ينطلق ويرتفع بها .

وعرفنا فيما بعد أن السبب خلل فى جهاز الراديو . . وتم إصلاحه وجاء الأمر من موسكو بضرورة السفر . . وارتفعت الطائرة بستين روسيا وخمسة أو ستة من المصريين . وجاء الصوت المألوف للمضيفة . . لابد أنه يعلن أن الكابتن فلاديمير يرحب بنا على متن الطائرة الأليوشن ٦٢ وأن الطائرة سوف ترتفع إلى عشرين ألف قدم وأنها ستنطلق بسرعة ٨٥٠ كيلو متر فى الساعة . . وأن درجة الحرارة فى موسكو الآن هى عشر درجات ولكنها غدا سوف تكون ثمانى درجات تحت الصفر ، وأن المشروبات سوف تقدم لنا حالا .

وجاءت المشروبات مياها معدنية وعصير فواكه .

وتهامس بعض الناس : لا فودكا .

وقالت المضيفة : لا .

وقال غيرهم : لا كافيار .

وجاء رد المضيفة : لا .

وأحسست أننا دخلنا الحدود السوفيتية بسرعة غريبة . . وكانت المضيفة متجهمة الوجه . . هذا طبيعى . ولكن المسافرين السوفييت لم يتوقفوا عن الضحك . . وعن الحكايات والنكت . . بل إن بعضهم ذهب إلى درجة التمثيل . . وكانت النساء أكثرهم ضحكا وصراخا . . ونحن ـ طبعا ـ كالأطرش فى الزفة . . فلا أعرف ولا كلمة سوفيتية . . وازداد سخطى على مدير المكتب الثقافى السوفيتى الذى وعدنى منذ ثلاث سنوات بمدرس خاص ، ولم يف بهذا الوعد!

ولو شاءت هذه المضيفة أن تضحك لعرضت عليها موضوعات مضحكة ، ولكن يبدو أن التكشيرة جزء من الملابس الرسمية ، أو من المسئولية . ولو نظرت المضيفة إلى وجوه المسافرين لضحكت ولكنها لا تفعل ذلك . . بيننا من ارتدى طرطورا أحمر . . إنه لم يرد أن يكون مضحكا . . وإنما لم يجد أمامه شيئا يدفئ رأسه غير هذا الطرطور . . ولو ضربت برجلها فى إحدى الحقائب لتكسر عدد من البيض . . ولتناثر البرتقال . . ولو مدت يدها لتفك الكوفية من عنق أحد المسافرين لسقطت من الرعب ، فقد علق فى عنقه حجابا من جلد الماعز!

حاول بعضنا أن يكون لطيفا مع المضيفة ، لعلها أن تكون كذلك فقال : الدنيا برد . . فأين الفودكا؟ وكان ردها : بعدّ لحظات ستكون الطائرة دافئة!

ومعنى ذلك أنه لا داعى للفودكا . ولا شىء بعد ذلك غير الشعور بالاطمئنان إلى قوة الطائرة وسلامة السفر . . وإلى أنه بعد ساعتين أو ثلاث سنكون فى موسكو . وهذا هو الذى يهم ، وفى مطار موسكو سوف ينتظرنى ـ طبعا ـ مندوب من اتحاد الكتاب ، سيقول لى : حمد لله على السلامة . فأقول : الله يسلمك .

– وهل كانت الرحلة مريحة؟

– للغاية .

– لم تشعر بأى تعب؟

– ولا بأى ارتياح .

– كيف؟

استطاعت الطائرة أن تضعنى بالضبط فى منطقة انعدام الوزن . . فى حالة نشوى بلا خمر . . مثل جاجارين .

– أوه . . جاجارين . . إذن كانت رحلة مريحة .

– جدا .

– إذن اسمح لى باسم اتحاد الكتاب السوفييتى أن أضع هذا الإكليل من الورد حول عنقك .

– أشكرك . . وأشكر الاتحاد . . ويؤسفنى أننى لم أحضر معى وردا من مصر . . فالورد عندنا أكثر وأجمل .

– إننا نعرف ذلك .

ومن المؤكد أنه سوف يقول : وتحب تناول عشاءك أين؟ الآن؟ فى المطار؟ أو فى الفندق .

فأقول : فى الفندق بعد أن أكون قد غيرت .

– أعرف . . تفضل . . إلخ .

ووصلت الطائرة إلى مطار موسكو .

وخرجت من الباب إلى السلم وفقدت الإحساس بكل ما ظهر من وجهى . البرودة شديدة جدا . . الظلام تام . . الهواء . . لا هواء . . إنه حائط أصم من الجليد . . اصطدمت به والتصقت به شفتاى وجفناى . . وتسللت من باب إلى باب أكثر دفئا . . إلى طابور . . ومن طابور إلى طابور . . إلى صالة الجمرك . . كل شىء يتم فيها فى هدوء وبنظام . . لا أحد يتكلم كل واحد قدم أوراقه وكل مسئول ـ أو مسئولة ـ يقلب فى الأوراق ويرفع رأسه ويتفرس الوجوه ويختم .

وانفتحت حقائب المواطنين السوفييت وامتدت الأيدى تقلب فى كل شىء . فى كل الأدوات والثمار . . فروسيا تنتج كل الأدوات ولابد من حماية منتجاتها . . وحماية مزروعاتها أيضا وجاء دورى ورفعت حقائبى ، ولكن موظف الجمرك أمسك جواز السفر ونظر فى تصريح الدخول . . وأشار بيده وقال بالإنجليزية : لا . . لا!

واسترحت إلى هذا الاستنكار . فليس من الضرورى أن أقدم حقائبى ولا أن أفتحها ، إنها معاملة خاصة ولابد أننا نعامل ضيوفنا السوفيت كذلك . . شكرا .

ولاحظت أن رجل الجمرك ظريف أو حريص على أن يكون كذلك . . فليس من السهل على النفس أن يقبل الإنسان مثل هذا العمل السخيف دون أن يؤكد للناس أنه

مرغم عليه . . تصور أنك تقف أمام كل إنسان وتطلب إليه أن يفتح حقائبه . . وأن تقلب فى ملابسه . . وأن تخرج المقص والسكين والعروسة . . والبرتقال والورد . . وأن تسأله لماذا اشترى ذلك ولابد أن يدفع جمركا على ذلك . . من الصعب أن تلخبط حقائب الناس ومشاعرهم وتكسفهم دون أن تنكسف أنت أيضا .

وقد رأيت احترام السلطات لشخصى عندما رأيت الخجل والحرج على وجه موظف الجمرك وأنا أقدم له حقائبى .

أما الآن وبعد أن تمت الإجراءات كلها ، فقد انفتح الباب . . وأصبحت خارج القيود الجمركية . . فى صالة طويلة عريضة . . باردة بعض الشىء . . وكل إنسان له وجهة محددة : الباب الخارجى . . الأتوبيس . . أو التاكسى ثم إلى البيت .

والشوارع مظلمة باردة . . والثلج يتساقط فى كل مكان . . وأكثر برودة من الجو : إننى لم أجد أحدا فى استقبالى . . لا من اتحاد الكتاب السوفييت . . ولا من السفارة . . وبسرعة قلت لنفسى : ولماذا السفارة فعلا لماذا السفارة . . فلا شأن لها بى ولا بغيرى . . فأنا لا أعرف أحدا . . ولو عرفت فأنا لم أخبره بسفرى . إذن أين مندوب اتحاد الكتاب؟

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . . أى فى الساعات الأولى من يوم ٣٠ ديسمبر . . وهو اليوم السابق على رأس السنة . . ولابد أنه إجازة . . وهو بالفعل كذلك وفى كل الدنيا . . وفى روسيا طبعا . . ما العمل؟

هذا السؤال وجهه بعض الشبان إلى الكاتب الكبير جوركى فكان جوابه : أن تعملوا!

الجواب مقنع . . ولكن أن أعمل لابد أن يكون العمل معناه أن أظل أمشى فى هذا المدخل الواسع ذهابا وإيابا حتى الصباح . . وأن أجلس من حين إلى آخر . . وأن أنام على أحد المقاعد حتى الصباح . . أو أن أذهب إلى واحدة من عشرات المضيفات وأسأل : أنا مدعو من اتحاد الكتاب السوفييت : ولم أجد أحدا فى انتظارى فما رأيك؟

وكان رأيها أنه لايمكن الاتصال بأحد . . ولا بالسفارة وأنه من الأفضل أن أبيت فى فندق المطار . . انتهى الكلام . . وانشغلت هى بأشياء أخرى . . وهذا طبيعى .

هذا ما فهمته . . ولا أعرف إن كان هذا هو الذى تقصده هى أيضا فالمسافة بيننا واسعة جدا ولا نقطعها إلا على أكتاف عدد قليل من الكلمات الإنجليزية من جانبى والروسية من جانبها .

وجاء الأتوبيس وبدون كلام ، واقترب السائق وحمل الحقائب . . وبعد عشرين كيلو متر ، وقف أمام أحد الفنادق ، وأشار بالنزول ، واختفى ، وظهرت وجوه مشابهة . . واقتربت وسألت : ما العمل؟

وكان الرد عمليا : إن كانت معك فلوسك ففى استطاعتك أن تبيت حتى الصباح . . عملات روسية؟

- لا عملات روسية .

- إذن . . اذهب وغيرها فى فندق يبعد عنا كيلو متر .

- كيف؟

- بالتاكسى .

- وما الذى أدفعه للتاكسى؟

- تصرف؟

وبدا كل شىء غير معقول ولا منطقى . فلا توجد عملات روسية . ولا يمكن تغييرها ، إلا إذا وجدت التاكسى ، ولو وجدته فلا أجد ما أدفعه له . . ولابد أن أجد مكانا أبيت فيه حتى الصباح . . وأصبح الموقف مضحكا . . وأمام قوة الضحك الذى يهزنا جميعا ويجعلنا سخفاء . . اقترحت إحدى المضيفات أن نبيت حتى الصباح . . وأن تقرضنا بعض المال على أن ندفعه عندما نصحو . . أى بعد أن نكون قد غيرنا العملات الصعبة التى معنا إلى روبلات . . أو بعد أن نكون قد اتصلنا بأحد المصريين فى موسكو . . أو حتى باتحاد الكتاب .

وقالت الفتاة : هذه الروبلات لكى تتناولوا بها طعام الإفطار ـ وكنا ثلاثة!

وفى الصباح المبكر ارتديت ملابسى . . ولم أجد مكانا أشرب فيه كوبا من الشاى . . فالمطعم لن يفتح بابه إلا فى الثامنة . . والساعة ما تزال السادسة .

وعدت إلى الغرفة . . وقال واحد : كانت زوجتى عاقلة . . إنها بإحساسها الفطرى أدركت أننى سأحتاج إلى طعام . . حاولت أن أقنعها ألا تجعلنى نكتة موسكو . . ولكنها أصرت . . وتلهفت على معرفة قرار الزوجة ، لقد أعطته أكثر من خمسين بيضة بمنتهى العقل ، وأعظم انتصار على الجوع وعلى مواعيد العمل فى مطاعم موسكو .

وجاء البيض . . كأنه حبات اللؤلؤ .

وعاد البيض كأنه قطع من الحجارة . . لقد نسيت الزوجة أن تسلقه!

أشياء كثيرة حمراء.. إلا الشاى

كان لابد أن نتصل بالسفارة .

وأنا أعرف أن أبغض الحلال إلى المواطنين هو الاتصال بأية سفارة وإلى رجال السفارة أن يتصل بهم أحد المواطنين أيضا . . فهناك عشرات القصص والنوادر والفواجع .

من عشرين سنة سافرت إلى فيينا واضطررت إلى أن أدق أبواب السفارة وكانت الساعة مبكرة ، فالجائع لا ينام وكانت المشكلة أن أستاذا جامعيا سرقت أمواله ، ورفض أية مساعدة منا ، حاولنا ولكنه رفض ، ولم نفهم منه ما الذى يريده بالضبط من السفارة . . أو من «الجماعة دول» . . وجلسنا فى السفارة بعض الوقت ، وجاء أحد أعضاء السفارة ، وقدمنا أنفسنا ، وكان أسبقنا الأستاذ الجامعى ، وقال إنه يريد أن يبيع البالطو ويرده أو يحصل على سلفة بضمان!

وكل التفاصيل بعد ذلك كانت محزنة لنا جميعا!

وفى مرسيليا ذهبت مع أحد ركاب الباخرة الفرنسية «الماريشال جوفر» إلى القنصل ، وكان الراكب مصريا قد جاء من القاهرة ومعه حقيبة ليس فيها إلا قميص وماكينة حلاقة . . ويريد السفر إلى باريس فقط . . وكان حزننا على بلدنا عميقا!

والمواطن ـ عادة ـ لا يسأل إن كان القنصل عاجزا عن مساعدته . . أو إن كانت لديه أموال من الدولة لمساعدة المواطنين . . وما الذى يفعله القنصل إذا جاءه كل يوم مواطن نصاب يروى قصصا أغرب وأعجب . . ولكن الذى حدث فى القنصلية مهين للإنسانية نفسها!

أما فى لندن فهناك عشرات بل مئات من المرضى دخلوا المستشفيات ولم يدفعوا الحساب . . وعلى السفارة أن تدفع مئات الألوف من الجنيهات!

وفى طوكيو رأيت مواطنا مصريا قد هاجر إلى اليابان وكان اللقاء صدفة سألته : وما الذى تعمله هنا؟ قال : كنت أعمل ولكن السفارة أوقفت حالى وبددت مالى .

وسألته ، وعندى استعداد لأن أقبل وجهة نظره ، فالناس فى الخارج يشعرون أن السفارة يجب أن تكون فى خدمتهم لأن أعمال السفارات تبدأ عندما يهبط أى مواطن إلى دولة أجنبية . . هكذا يتصور الناس فقلت له : وماذا صنع بك «الناس دول» . .؟

وعندما ذهبت إلى السفارة عرفت أن هذا الرجل قد نصب على عدد من الشركات اليابانية ، وعرفت أن التاجر اليابانى قد يبدو ساذجا طيبا لكنه ليس كذلك ، وإنما هذه السذاجة تبدو عادة فى أدبه ورقته وفى أن عينيه تبدوان سارحتين ، ولكن الحقيقة أن عينيه اتجهت إحداهما إلى الباب والأخرى إلى يد المشترى . . والأدب لايدل على عبط وإنما يدل على أن التاجر اليابانى بعد أن رأى وجه الزبون قد تأمل بنطلونه وحذاءه وأصابع يديه . . ومن العجب أن البوليس اليابانى قد اهتدى إلى معرفة هذا النصاب المصرى عن طريق خاتم عليه تمثال لأبى الهول من قطعتين .

والمصرى الوحيد الذى قابلته فى أستراليا روى لى قصة عن السفير المصرى الذى ضربه بالجزمة ، وتضايقت جدا ، وقررت أن . . وقبل أن أكمل هذه العبارة وهذا القرار تنبهت إلى أنه لم تكن لنا سفارة فى أستراليا!

كانت هذه الحوادث فى رأسى وأنا أدير قرص التليفون أطلب السفارة وأطلب الوزير وفاء حجازى ، لا أعرفه ولكنى سمعت ما شجعنى على الاتصال به ، وجاءت عبارته دافئة ، وجاءت السيارة ومعها مبلغ اثنى عشر روبلا تكاليف الإفطار والإقامة فى فندق المطار وهذا إقرار منى بذلك!

وبسرعة انتقلنا من المطار إلى السفارة لنواجه أول سوء فهم يجب أن نزيله ، فاتحاد الكتاب السوفييت لم يتلق من القاهرة برقية تقول إننا فى طريقنا إلى موسكو . . وإننا أجلنا موعد سفرنا أسبوعا وجاء مندوب من الاتحاد وجاء مترجم ، واعتذر لنا الرجلان عن غلطة لم يرتكبها أحد وإنما ارتكبتها القاهرة ، وليس المعقول أن تقوم موسكو بالتخمين .

وارتفعت الحرارة فى كل مكان ، وأصبحت للشوارع ألوان غير اللون الأبيض الذى كان كالحا موجعا للعين ، أصبح هذا البياض جميلا ، وأصبح الجليد ، كما يقول الشاعر بوشكين ، هو الضوء السحرى الذى يذكرنا بالشباب ، وظهرت البيوت ، والناس ، كل شىء قد دبت فيه الحياة ، ونحن أيضا ، وأصبح الطريق إلى الفندق قصيرا ، ودخلت فى الفندق ، فى قلب الدنيا ، ففى داخل الفندق ناس من

كل لون ودين وقارة ، وليس فى إمكانك أن تعرف ما هى بالضبط معالم المواطن السوفييتى؟ صعب . . لأن الاتحاد السوفييتى يضم خمس عشرة جمهورية ومئات القوميات واللغات . . ومن الممكن ـ وقد حدث ـ أن يجىء أى إنسان ويتحدث إليك بالروسية وتندهش ، ولكن لو فكرت قليلا تجد أنه لا داعى للدهشة ففى روسيا أناس فى لونك ولون شعرك وطولك ولون بشرتك ويحملقون فى الداخلين والداخلات والداخلات أكثر . .!

الفندق اسمه «روسيا» . . والروس ينطقون هذه الكلمة بحذف الواو . . وهو أجمل وأكبر فنادق الاتحاد السوفييتى ، أكثر من أربعة آلاف غرفة ومائة مصعد . . وعشرات من المطاعم ، وكل شىء هنا كبير واسع ضخم . . الشوارع والعمارات وأرقام السيارات ، واللون الأحمر غالب على كل شىء . . المبانى والملابس والأعلام واللافتات . . ومن النافذة أرى الكرملين . . وأرى الكنائس الذهبية القباب . . وأول ما يخطر على بالك : ولماذا الكنائس؟ والجواب : والمساجد أيضا لقد أبقى الروس على كل شىء ، على ما كان عليه ، وأجمل وإلى جوار الماضى أقاموا المستقبل : لامعا رائعا . . إن السفر إلى روسيا هو سفر إلى المستقبل ، إلى مستقبل الإنسانية كلها . وتسأل ولماذا كل هذه المبانى القديمة؟

ويكون الجواب : لأنها جزء من تاريخ الشعب ودمعه ودمه ، ولأنه يجب أن يعرف كيف كان ثم كيف أصبح . . وكيف من الممكن أن يكون أحسن!

فإلى جوار هذه التحف القديمة توجد تحف حديثة : توجد مسارح ومتاحف ومطارات ومصانع وجامعات أما مسارح موسكو ولننجراد فلايمكن مقارنتها بأية مسارح فى أوروبا كلها أو فى أمريكا ولكن يمكن مقارنة مسارح المدن الأخرى بالمسارح الأوروبية ولا يغيب عن عينى ، وعن دمع عينى مسرح الأوبرا فى القاهرة الذى ما نزال نقرأ عليه حرفى : خ .ت ـ أى الخديو توفيق ـ أى أنه قديم جدا أو مسرح الجمهورية ، بصراحة أيها السادة : إنها تصلح لأشياء أخرى يعز على أن أسميها ، فلا إضاءة ، ولا مقاعد ، ولا مداخل ، ولا مخارج ، ولا مطاعم ولا دورات مياه ، ولا مسارح أيضا . . إننى أظلم مسرح مركز بخارى الصغير إذا قارنته بمسرح الأوبرا . . ولا كيف هزتنى قائدة الأوركسترا وهى سيدة عندما رأيتها أحسست اقتدارها على التوجيه .

وهذه المسارح العجيبة تجعلك تحس أن هناك خمسة أشياء فى كل مدينة روسية تبدأ بحرف الميم ـ فى لغتنا طبعا : مدرسة ومسرح ومتحف لينين ومصنع ومطار . . بل عشرات المدارس والمصانع وأكثر من مسرح وأكثر من متحف ، بل فى بعض الأحيان جامعة .

ما نزال فى فندق روسيا : زحام فى كل مكان . . والمصاعد هى لعبة النزلاء والأجانب ، فالمصعد يتسع لأحد عشر شخصا ، ولكن فى بعض الأحيان تكون الحمولة أكبر من ذلك ، فأكثرنا لا يعرف اللغة الروسية المكتوبة على المصاعد ، وهنا ينطلق جرس ينبهنا إلى ذلك ، وقد عرف الناس هذه اللعبة . . فيخرج اثنان لمدة ثانية واحدة ثم يعودان . . وهنا يرتفع المصعد ـ هناك أيضا من لا يقدر خطورة هذه اللعبة . . وهذا النوع من الذكاء الضار ويوجد مطعم عند طرفى كل طابق ، والفندق نفسه جزيرة مليئة بالناس من القارات الخمس ، نحن على مدى يوم واحد من رأس السنة ، إننا فى موسم الإجازات ، ولا نزال فى داخل الفندق لم نخرج بعد ، وإن كنا من النافذة نرى الناس كالنحل وكالنمل ، يروحون ويجيئون فى حيوية وقوة ، صحة . . منتهى الصحة ، ولا يسقط أحد على الثلج ، كما فعلت أكثر من مرة .

والفنادق الروسية كلها لا تعرف نظام تقديم الأكل فى الغرف ، وإنما عليك أن تذهب إلى المطعم الكبير . . أو إلى أحد المطعمين على جانبى الفندق وأهم من ذلك أن تقف فى الطابور ، فإذا ذهبت إلى المطعم ، فمن الطبيعى أن يكون قد سبقك إليه آخرون . . ولابد أن يقفوا فى طابور فتتمكن سيدة واحدة من خدمة الجميع ، وسيدة واحدة هى التى تعد لك الشاى أو القهوة أو اللحم وهى التى تحاسبك أنت والذى يليك ، سوف تتضايق أول الأمر ، أنا فعلت ذلك ، وستهرب من الطابور لأنك لم تعتد أن تقف فى الطابور ، وستذهب إلى مطعم آخر ستجد طابورا أقصر ، لابد أن تقف . . لابد من الطابور ، حتى لو احتج كل النزلاء على نظام الطابور فلابد أن يقفوا فى طابور مرة أخرى ، وإذا قررت ألا تقف فى أى طابور فأنت حر ، هذه هى طريقة الشعب الروسى فى الحياة وقد استراح إليها قبل تشريفك ، ولا يذهب به الكرم إلى درجة أن «يلخبط» نظام حياته من أجلك . . بعض الروس يقرأون فى الصحف أثناء الوقوف فى الطابور . . ولكن لن تجد أحدا يشكو أو يتململ لأنه لا توجد أية طريقة أخرى للحصول على أى شىء . . لكى تعملى يجب أن تقف فى الطابور! هذه هى القاعدة!

وفى فندق روسيا أكثر من صالون حلاقة . . صالون السيدات عليه زحام شديد السيدات يجلسن متجاورات ، السيدات خارج الصالون وداخل الصالون يصبغن

شعرهن بالحناء ـ موضة سخيفة! والأسطوات من السيدات ، وعملية تصفيف الشعر وتجفيفه لا تستغرق وقتا طويلا ومن الممكن أن يطول الوقت إذا دفعت بقشيشا ، إن أحدا لا يطلب البقشيش ولكنه لا يرفضه إذا أعطيته ، وليست الأسطوات فقط من السيدات ولكن المهن الطبية والتدريس وكنس الشوارع . . وفى شوارع موسكو ، ومعظم المدن نجد النساء هن اللاتى ينقلن الجليد والرمال ويجعلنه على شكل أكوام حتى تجىء سيارات لا تهدأ ليلا ولا نهارا لحمل آثار الجليد . . ممكن جدا أن تجد فتاة كالقمر . . ولها شعر جميل وعينان رائعتان .

ولا تكاد تنسحب بعينيك إلى أسفل حتى تصطدم بالجاروف الذى فى يديها وتقف وتتفرج عليها وتقول كلاما معناه : يا خبر لو جاءت هذه الفتاة إلى مطار القاهرة لسقط عند قدميها كل المخرجين . . والفتاة تسمعك ولا تعرف ما الذى أدهشك . . فهى لا تقوم بعمل يستنكره أحد ، ولكن الذى فى رأسك وقلبك شىء آخر . . والمرأة هنا هى نصف المجتمع . . أو وسط المجتمع الذى انكسر من التعب ، أيها السادة : إن المرأة هنا تساوى الرجل فى حمل أعباء الحياة وتبقى الأعمال الشاقة للرجل فى المصانع والقتال والأعمال الفنية جدا!

وقد تغامز كل الروس ونحن فى الطائرة ت .ى .١١١ فى طريقنا من طشقند إلى موسكو ، فقد جاءت ثلاث سيدات ورحن يحصين عدد الركاب وأخطأن أربع مرات . . وقال رجل مبسوط شوية : إن الذين اخترعوا الطائرة من الرجال . . ولكن أحدا لم يضحك لهذه النكتة . . فهذه التفرقة بين الرجال والنساء ليست موضوعا للمناقشة . . ولا تفوق الرجال عن النساء حقيقة مطلقة . . وكدت أقول لهذا الرجل : أنت أيضا شرقى ولكن لم أستطع ، فليس عنده استعداد لأن يخرج عن شعوره بأنه سخيف وأن الناس قد أدركوا فى صمت أنه مخمور! ولابد أن يكون حديثى معه نوعا من المواساة له ، وهو يرفض هذه التعزية من جانبى!

مازلنا فى فندق روسيا .

لا توجد فى الفندق مكتبة لبيع الكتب ، أما الصحف الأجنبية فهى ليست «طازة» والصور التذكارية مطبوعة بألوان رديئة وعلى ورق أكثر رداءة وبائعة الصحف تبيع طوابع البريد وعندها زجاجة صمغ أيضا ، إنها طريقة عملية لتغطية أى نقص فى جمع طوابع البريد نفسها ، وفى موسكو صحيفة عربية اسمها «أخبار موسكو» أما تزال تتحدث عن زيارة الوفد المصرى وعن السد العالى وعن سفينة القمر .

ولو حاولت أن تحدد معالم الرجل أو المرأة الروسية فإنك ستجد صعوبة فأنت لا تعرف أى هؤلاء جميعا هو الروسى : هل الأبيض الأشقر أزرق العينين . . متوسط الطول والسمنة . . ربما ، ربما ، ولكن هذه الصفات يشترك فيها كثيرون من أبناء أوروبا أيضا ، إذن لا داعى لتحديد صفاته الجسمية . . العقلية أهم!

ولكن الشىء الذى يوجع العيون هو : عيون الروس . . واسعة لامعة جميلة . . واسعة وقوية عند الرجال وفاتنة عند النساء ، النظرة ثابتة والعين قادرة على مواجهة الريح وبياض الجليد ، ولا تملك أنت وكل الذين يلبسون النظارات ويعيشون يتزحلقون على مثل هذه الحروف الصغيرة فى ساعات الليل الصغيرة إلا أن تقول وأنت حزين على عينيك : يا خسارة هذه العيون الحلوة علشان كنس الشوارع . . إنه عدل من نوع آخر ، أو ظلم من نوع آخر!

وفى داخل الفندق تجد أناسا يحملون الفاكهة والزجاجات والخبز . . ما الحكاية؟ إنهم أناس قرروا أن يأكلوا فى غرفهم ، والسبب طبعا أن المطاعم الصغيرة فى الفندق تقفل أبوابها عند العاشرة والنصف ، وكثيرا ما تحايلنا على العاملات فى المطاعم ولكن الحيل لم تنفع عادة فنذهب بعد خروجنا من الأوبرا إلى المطاعم الصغيرة ، وتقول للعاملة : شاى . . وترد عليك وهى شديدة الإرهاق : قهوة فقط . . وتقول لها : بيض . . وترد عليك : تفاح فقط . . وتقول لها : أبوس رجلك!

وتعطيك يدها فقط!

ومن الممكن بعد ذلك أن تنفلق إلى نصفين ، أحدهما يضحك على الآخر!

ويحدث كثيرا من يقول لك : حضرتك من مصر؟

وتقول له : وحضرتك؟

- من اليمن الشعبية .

- أهلا وسهلا . . طالب؟

- أدرس الطب العسكرى .

- وهذه مرافقة لك .

- لا . . صديقة .

- آه . . إذن أنت تجاوزت مشكلة اللغة .

- الفضل لها!

أذكر أننى قابلت ابن الممثل الكوميدى كامل أنور . . وهو طالب مجتهد جدا . . متدين . . لا يشرب . . ويصلى . . ومصر على ذلك .

قال لى : أنه وجد نفسه أمام معادلة صعبة . . فلكى يتعلم اللغة الروسية عليه أن يختار بين الكتاب وبين فتاة روسية . . فأختار الأصعب : الكتاب!

وتفوق على الذين لا يعرفون إلا المجاملات أو المعاكسات . . وإلا الأشياء الصغيرة . . أى كل ما يدور بين رجل وامرأة!

وشبان آخرون من كل البلاد العربية . . ومن الأراضى المحتلة . . هذا يدرس . . هذا صدر ضده حكم . . هذا صحفى . . هذا مدرس . . وذاك فى طريقه إلى بلاد أخرى . . وشاعر من الهند . . وآخر من باكستان . . وتسأل الناس : الواحد يشوف ماذا هنا؟

ويكون الرد : كل ما تريد .

- مثلا .

- أنت ماذا تريد أن ترى؟

- أشوف البولشوى .

- ممكن . . قل للمرافقة تحجز لك .

- أشوف الكرملين . . أشوف قبر لينين .

- اتفق معها وهى تدبر ذلك . . لكم هنا معاملة خاصة!

وفى استطاعة المرافقة أن تدوس القانون لأنك ضيف . . ففى بعض الأحيان تقول : أننا وفد . . وفى هذه الحالة فى استطاعتك أن تتقدم الصفوف . . وهناك أيام خاصة للأجانب فى زيارات لبعض الأماكن الأثرية .

كنا نقف أمام سلم طائرة ضخمة . . الدنيا برد جدا . . تحت الصفر بثمانى درجات . . أنت لا يمكن أن تعرف معنى الصفر إلا إذا وضعت رأسك فى ثلاجة . . أو تمددت على مجموعة من ألواح الثلج عاريا . . والطابور طويل . . ويزداد طولا والطائرات حولنا تصرخ وتنفخ والهواء يهرب منها ويصفعنا ويلسعنا . . والروس حولنا . . لا حاجة . . لا شكوى . . لا ضيق . . لا برد . . وأنا أرفع قدما وأضع قدما وأتلمس أحشائى ، إلى اليسار : المصران الغليظ ، إلى اليمين ، لا أعرف ما الذى إلى

اليـمين سـوف أبحث فى دائرة المعارف عن هذا الذى يتقلب فى الجانب الأيمن ويتكور فى الظهـر والروس حـولنا كـأنهم قطع غيـار لهذه الطائرات . . واتجـهت إلى المرافقة . . فى عرضك . . سأموت من البرد .

وصعدت إلى الطائرة . . وعرفت فيما بعد أنها قالت للكابتن : إنه أجنبى . . وعضو فى وفد رسـمى ويكاد يسـقط من الجليد فوق الجليد ويبـدو أن بعض الروس لم يعجبـه هذا الاستثناء . . فسرت همهمة . . ولكن حدث صمت عندما عرفوا أننى ضيف على بلادهم .

وفى الليل خـرجت وفى يدى براد شـاى . . أبحث عن المطعم لأحصل على ماء سـاخن . . أمـا الشـاى فكان عندى والسكر أيضـا . . ومنظرك وأنت تحـمل البـراد والأكواب لا يصدم أحدا ، ولا يضيق به أحد . . لأنه ما الذى يمكن أن يفعله أى إنسان إذا صحا من نومه قبل أن يفتح المطعم فى الثامنة صباحا ـ فأنا من الطيور المبكرة ، أصحـو فى الخامسـة ولا أجد مكانا أذهب إليه . . لا مكان . . كل شىء مـغلق حـتى الثـامنة . . وإذا أدت أن تتحـقق بنفسـك فـاخـرج من الفندق . . وإذا استطعت فـامش على قدميك . . وإذا كانت لك سيارة فاركبـها ولكن إلى أين . . لابد أن تعـود إلى الفندق وتبـقى فى غرفـتك حتى الثامنة . . ومن حقك طبعـا أن تقلق عـباد الله النائمـين من المصريين وتتصل بهم تليـفونيـا وتسـألهم عن أخبـار مصر . . وهو عذر وجيه . . ولكن ما الذى يمكن أن تقوله فى ثلاث سـاعات لأناس كلهم كانوا نياما ، ثم نسيت أن تعتذر لهم!

أمـا مـا الـذى يأكله الروس فى الصـبـاح : إلى جـانب الشـاى الأخـضـر الذى لا يعجبك فإنهم يأكلون اللحوم : السمك أو الكبدة أو الدجاج والخبز والزبدة . . وهناك شىء لذيذ جدا وهو اللبن الزبادى . . إنهم يشربونه كثيرا . .

أما الشاى الأخضر فقد كان إحدى مشكلاتى . . فلم أفلح فى خلال إقامتى فى روسيا أن أعلم الاتحاد السوفييتى كيف يصنع الشاى لا أنا فلحت ، ولا هم عندهم أى استعداد!!

واشتريت علبة شاى ، وفى كل مرة يقدمون لى الشاى أضع القليل من العلبة . . وكـان هذا هو أحد الحلول الأخيرة التى اهتـديت إليـها . . ولكن فى كل مكان يدور هذا الحوار الذى لا معنى له لأنه بلا نتيجة عادة .

– أريد شايا ثقيلا .

– الشاى .

- ويكون الشاى أخضر .
- أريده ثقيلا!
- لا أفهم !
وتجىء المرافقة وتشرح معنى الشاى الثقيل ، ويكون الرد عادة . . هذا هو الشاى!
يعنى لا يوجد عندنا غير هذا . . لأننا نشربه هكذا!
فى القطار السريع الناعم الدافئ إلى ليننجراد ، كانت الساعة السابعة ذهبت إلى الكمسارية وهى سيدة جميلة : أريد الشاى من فضلك .
- دقيقة واحدة .
وبعد دقيقة كان الشاى ساخنا أخضر ، وقلت : ألا يمكن أن يكون أثقل .
- لا أفهم .
هنا فقط لا أعرف ما الذى أضيفه . . ذهبت إلى المرافقة : أرجوك فهميها حكاية الشاى الأسود؟
حاولت الكمسارية أن تجعل الشاى أقرب إلى الاحمرار . . ولكن الشاى جاء مكسوفا أصفر اللون!
أما فى مطعم فندق لننجراد ، فقد قالت إحدى المضيفات وباللغة الإنجليزية : اسمع . . اذهب وتكلم مع السيدة المسئولة عن الشاى وكانت فرصة لأرى السيدة مديرة شئون الشاى ، وقالت لى : إن الشاى هنا مضغوط فى أوزان خاصة وأنت تأخذ نصيبك ، فإذا أردت مزيدا فادفع الثمن مضاعفا .
- لا مانع طبعا .
وجاء الشاى ثقيلا جدا ، ولم أستطع أن أشربه ، وطلبت أن يكون أخف وقالت لى المضيفة : اذهب إلى المديرة .
وكانت فرصة لأرى السيدة المديرة وكيف تدير . . ودخلت مكتبها ووجدت أمامها عددا من الموظفات والأطباق والشوك والسكاكين والفواتير ، فقلت لها : صباح الخير . . وخرجت ولكنها لم تشأ أن ترد .
وكان فى نيتى أن أسألها : لماذا تحبون اللون الأحمر فى كل شىء . . إلا فى الشاى .
وما نزال فى فندق روسيا . . أياما أخرى مع الشاى الأخضر !

الصديق الروسى.. ذلك المجهول

صورة الرجل الروسى : ضخم الجثة . . حاد صارم . . دائم التكشير . . لا يفهم النكتة . . لا يعرف الحب . . آلة تدير ما لا نهاية له من الآلات . . كل شىء فى فمه : جماهير . . شعب . . عمال . . فلاحون . . حرب . . وحرب . . ثم حرب!

هذه الصورة ظالمة . . ونحن فى حاجة إلى وقت لكى نضع الصورة الحقيقية لهذا الشعب العظيم الصديق .

إما أن الروسى ضخم الجثة فهو أقرب إلى الأمريكى ويحب الأكل والشرب مثله تماما!

وإما أنه جاد . . فهو فعلا جاد . . يأخذ الحياة بفهم وعلم ونظام . . ولا يمكن أن يتطور شعب إلا إذا سار على قواعد من العلم . . وارتفع على سلالم من التجربة . . نحو مستقبل من العدل والأمان للأغلبية الساحقة . . وروسيا كانت خرابا بعد الحرب العالمية الثانية . . عرف أهلها الجوع . . ولم يعرفوا الهوان . . عرفوا العراء المميت ، ولم تمت إرادتهم ، وإصرارهم على النصر .

إما أن الروس دائمو التكشير ، فنحن أيضا دائمو الحزن . . انظر إلى أى واحد منا وقد جلس وحده . . انظر إلى أية مصرية وقد جلست بمفردها أو وقفت وحدها ، ستجدها فى غاية الحزن والأسى ونقول فى تفسير ذلك : إنه التاريخ الذى كان ثقيلا على وجداننا منذ أقدم العصور . . فالحزن تاريخى ونحن نحمل بكاء أحزاننا فى عيوننا ولا يزال هذا الحزن حيا فى أغانينا وفى حفاوتنا بالموت والموتى . . والبكاء على الماضى . . والذى يقول بعد ذلك : إننا شعب حزين يظلمنا . . فنحن نتذوق النكتة ونصنعها . . ونصدرها . . وكذلك الروس يضحكون بصورة مدوية . . صورة تدهشك . . ففى الطائرة العائدة من موسكو كان بها وفد سياحى من أوكرانيا لم يتوقف رجاله ونساؤه عن الضحك . . والنساء يضحكن أكثر وبصورة صارخة!

وفى روسيا ينسبون النكت إلى إذاعة وهمية اسمها : راديو أرمينيا فيقول الواحد منهم : سمعت آخر نكتة . . لقد أذاعها راديو أرمنيا . . وراديو أرمنيا هو الاسم الجديد لجحا السوفييتى .

وهذه النكت تقال على المسرح الرسمى فى موسكو .

ومن النكت : إن نجارا راح يدق المسامير فى لوح خشبى . . ولم يكد يصل إلى نهاية اللوح حتى جاء نجار آخر يخلع نفس المسامير . . ووقف الرجلان يتساءلان .

قال الأول : لماذا خلعت هذه المسامير؟

قال الثانى : عندى أمر من اللجنة الثقافية بخلعها!

ثم اخرج ورقة من جيبه .

وقال الأول : وأنا عندى أمر من اللجنة الثقافية بدقها!

وأخرج ورقة أخرى!

نكتة ثانية : يقال إن اللجنة الثقافية قررت تنشيط السياحة . . فأمرت مدير أحد الكباريهات أن يقدم الرقص العريان مادام هو الذى يعجب الشباب والسياح . . وفى ليلة الافتتاح ملأ الناس كل المقاعد . . وفى الليلة الثانية اختفى نصف الناس وفى الليلة الثالثة لم يذهب أحد . . واستدعت اللجنة الثقافية مدير الكباريه ، وسألته : فأجاب : إنه أتى بأقدم سيدتين من أعضاء الحزب وطلب إليهما أن ترقصا فى الكباريه!

نكتة ثالثة : لاحظ أحد الجنود أن طفلا صغيرا يبكى كل ليلة عند النصب التذكارى للجندى المجهول . . وسأله الجندى : لماذا تبكى؟ فقال الطفل : على أبى! وسأله : ومن قال لك أنه مدفون هنا؟ وأجاب الطفل : أمى . . لقد قالت لى أن أبى جندى مجهول!

نكتة رابعة : واحد يهودى فلاح ـ انتهت النكتة!

لأن اليهود لا يعملون فى فلاحة الأرض!

وعندما طلبت من السائق أن يذهب بنا إلى أى «كواخور» ـ أى إحدى المزارع الجماعية ـ ضحك وقال : حدث أن ركب ستالين سيارته فى أحد شوارع موسكو فاعترضه أحد الخيول . . ولم يفلح ستالين فى زحزحة هذا الحصان ، وأخيرا نزل ستالين من سيارته واقترب من الحصان وهمس فى أذنه قائلا : إذا لم تفسح لى الطريق فسوف أبعث بك إلى الكواخور!

فهرب الحصان ـ لأن الحياة شاقة فى هذه المزارع الجماعية!

وعشرات . . ومئات من النكت الاجتماعية والسياسية يطلقها الروس على أنفسهم . . من المؤكد أنهم قادرون على الضحك والمرح الرقص والحديث . . وهم

أولاد حظ . . ولكن المشكلة أننا لا نعرفهم عن قرب ولا نعرف لغتهم وهى هذا الحاجز الهائل بيننا وبينهم . . وهم من المؤكد أناس ككل الناس . . ولكننا ضحايا هذا الوهم : إن الغريب عنا . . غريب الأطوار أيضا . . شاذ . . ولكن الروس أناس عمليون علميون . . وعلى طريقتهم الخاصة . . والسباق فى الفضاء هو أوضح دليل على ذلك : فالروس والأمريكان لديهم نفس المبادئ العلمية فى الوصول إلى الكواكب التى حولنا وأبعد من الكواكب ولكن كل شعب له طريقته الخاصة . . وليس من الضرورى أن يكون العالم الروسى كالعالم الأمريكى . . فإذا اختلف الروسى عن الأمريكى فليس من المعقول أن يكون الخلاف لصالح الأمريكى دائما أو الأوروبى أو العربى . . إن الروس مختلفون . . ولكنهم متحضرون . . ومتقدمون وجادون فى تحقيق كل ماهو ضرورى للإنسان .

والروس لم يخترعوا كلمات : الشعب . . والجماهير . . والعمال . . والفلاحين . . والمثقفين . . والكادحين . . وإنما هذه الكلمات موجودة فى الكتب وعلى ألسنة الناس وفى صرخاتهم . . ولكن الروس كشفوا عنها الغطاء . . جعلوها موتورات قوية دافعة تجتاز الحواجز . . وتدك القلاع . . وتغرس البذور ، وتجنى الثمار وتبنى المصانع ، تكتب التاريخ!

وكراهية الروس للحرب لايمكن أن توصف . . ولا يزال الأدب السوفييتى المعاصر يختار مادته وألوانه وموسيقاه من الحرب . . إنهم لم يملوا الكلام عن الدمار والخراب . . ولذلك فلن يحاربوا . . لأنهم يعرفون معنى الحرب . . معناها أن يموت منهم ٢٠ مليونا آخرين . . وأن تنهار المصانع والمتاحف والعمارات . . وأن يعيش الروس من جديد فى الخرائب . . ولكن الحرب هذه المرة ستكون فناء للعالم كله . . لأنها بين أكبر قوتين عرفهما الإنسان : روسيا وأمريكا . . أما الشعوب الأخرى فهى وقود للنيران!

سألت الأدباء السوفييت : ألم تزهقوا من الكلام عن الحرب . . وقصص الحرب وأفلام الحرب .

وكان ردهم : يجب أن تصبح كراهية الحرب حقيقة عميقة مروعة حتى يعمل الناس من أجل السلام .

ما أزال فى فندق «روسيا» فنحن فى إجازة رأس السنة . . ولا يوجد مكان نذهب إليه . . ولكن هذا المكان الذى أنا فيه يجىء إليه الناس من أركان العالم . . فأنا لا أذهب إلى العالم ، ولكنه يجىء إلىّ!

وكلما نظرت إلى الروس ولاحظت ملامحهم المكشرة ، وجدت أن هذا طبيعى . . فالجو يجعلك تنطوى بعضك على بعض تشد ملابسك عليك . . وتذم شفتيك . . وتعقد ما بين العينين والشفتين . . كأنك تريد أن تعرض أقل مساحة ممكنة من جسمك إلى البرودة . . فى روسيا أكذوبة أخرى . . ففى الشارع نجد الناس يعملون . . والنساء يعملن والسائق يجلس فى سيارته والسيارة دافئة كالفرن . . وهو يقرأ فى كتاب والكتب أرخص شىء فى روسيا وهى فى متناول كل الناس . . وفى معظم الأحيان معروضة مجانا لأى أحد . . مئات الكتب . . وفى إحدى المرات قلت للسائق : الدنيا برد . . والحياة مستحيلة! وكان رد الفعل عنده كموقفك أنت عندما تسمع مثل هذه العبارة التى تقول :

٢ + ٢ = ٤ . . والحساب صعب!

فالبرد حقيقة مؤلمة . . ولكن الحياة ممكنة والسيطرة على الطبيعة أمل يمكن تحقيقه!

وفى الفندق نجد أناسا يضعون نياشين على صدورهم ونجوما . . ولابد أن تسأل . . وكان الجواب : أن هؤلاء عمالا متفوقون .

لايهم نوع العمل الذى يؤدونه لكن العمل حياة . . ضرورة . . مقدس . . وقد يكون هذا العامل متفوق فى اللحام . . أو فى الطلاء . . أو هو بطل رياضى . . لقد رأيت صورة لسيدة من سيدات أوزبكستان قد حصلت على نيشان لأنها كانت أبرع سيدة فى حلب اللبن ، فقد قدمت أكبر كمية من أية امرأة أخرى . . لايهم ما الذى يفعله . . ولكن كل شىء يفعله هو شىء مهم ، له وللشعب كله .

وروسيا واسعة جدا . . طولها خمسة آلاف كيلو متر وعرضها ثلاثة آلاف . . وهى فى حاجة إلى من يملأ هذا الفراغ الهائل . . ولذلك تشجع على زيادة النسل . وتمنح النياشين لأكثر الأمهات أطفالا!

والملابس التى يرتديها الروس كثيرة وكثيفة . . كوم من الملابس البالطو . وتحت البالطو الجاكتة والبلوفر . . والقميص والفانيلا والكالسون والجورب والحذاء المبطن بالصوف . . وفوق الرأس الطاقية من الفرو ويسمونها الشبكة . . وهذه «الشيلة» هى التى تجعل الروسى يمشى يدك الأرض بخطوة واسعة . وهو فى نفس الوقت حريص على ألا يتزحلق . ومن النادر أن يحدث له ذلك . فالانزلاق رياضة . ولاشك أننى أدخلت السرور على كثير من الأطفال عندما كنت أهتز ثم أقع على الأرض كأى لوح خشبى . . بينما يتزحلق الأطفال الصغار كأنهم فرسان البحر!

وفى روسيا يسمحون لك أن تدخل مسرح البولشوى من غير كرافتة . . ممكن . وهذا ما أسعدنى بصفة خاصة ، لأننى أضيق بالكرافتة والبدلة . ولا أرتديها إلا مرة أو مرتين فى العام . . ولكن يستحيل أن تدخل أى مكان بالبالطو . . إذا فعلت امتدت الأيدى إليك . . وقد يدهشك هذا . . ولكن معهم حق فالذى يدخل بالبالطو المبلل بالجليد . . سوف يضع البالطو على مقعد . . وسوف يتساقط الجليد ويتحول إلى ماء بعد لحظات . . ومعنى ذلك أن الواحد سوف يحتل مقعدين بدلا من مقعد واحد . . وإذا تكدست البلاطى والطواقى فى أى مكان عطلت الناس . . وعوقت حركتهم . . ولذلك يجب أن يوضع البالطو فى المكان المخصص له . . كنت أزور متحف بوشكين فى موسكو ودخلت المطعم بالبالطو . . مع أنه بالطو خفيف . . وكانت الشبكة فى يدى . . واندفعت السيدة كالصاروخ وبصوت لفت كل العيون المستنكرة لموقفى . . وخرجت أتخبط فى الناس ولم أعد . . وعرفت الخطيئة التى اقترفتها بحسن نية . .!

والمرأة الروسية تذهب إلى المسرح ومعها شنطة بها حذاء عادى ولا تكاد تدخل حتى تخلع حذاء الجليد الضخم وترتدى الحذاء الأنيق . . إنها تريد أن تكون أنثى . . أنيقة . . وأخف حركة . . حتى لو لم ير الحذاء أحد . . ولكنها تلفت إليه العيون بعد الفصل الأول عندما يصعد الناس إلى الطابق العلوى يتناولون الساندوتشات والعصير!

والروس يشربون الفودكا بإسراف .

ولا نكاد نتذكر الرجل الروسى حتى يتبادر إلى أذهاننا أنه يشرب كميات كبيرة من الفودكا . . وهذا صحيح . ولكن الفودكا ضرورة ـ إذا لم يشربها مات من البرد ـ فالروسى اجتماعى جدا . يجب أن يأكل ويشرب ويتحدث ويضحك . ولكن الفودكا لها مراسم غريبة . . فلابد من التحيات والسلامات فيقف الواحد منهم جادا ويقول مثلا : فى صحة الصداقة العربية ـ السوفييتية التى قامت على محبة السلام ومكافحة الاستعمار والرجعية ومن أجل مزيد من الصداقة والتفاهم المشترك القائم على الاحترام المتبادل بين الشعب المصرى والشعوب السوفييتية ـ وما يزال الرجل واقفا وفى يده كأس الفودكا ـ وفى صحة زميلنا ورفيقنا فلان الفلانى الذى نتمنى له أن يتمكن من أن يجلو حقيقة هذه الصداقة بين شعبينا العظيمين . . «ثم يرفع الكأس إلى فمه والجميع يفعلون ذلك فى ثانية واحدة» .

ويجلس . . ويقف غيره يقول كلاما مشابها أو مخالفا . ولكن كل هذه الأنخاب تجىء الواحدة بعد الأخرى . . ويجب أن تنهض أنت أيضا . . وترفع كأسك . . وتقول كلاما جادا . . وربما يكون هذا الكلام الجاد الوحيد فى جلسة تستغرق ثلاث ساعات وثلاثمائة كأس . . ويحدث كثيرا أن يتوقف إنسان عن النكت والفرفشة ليقول : فى صحة العمال والمهندسين والشعب الذى أقام فى صلابة وبصلابة : السد العالى رمزا للصداقة بين الاتحاد السوفييتى ومصر .

ولكنها هى التقاليد .

وقد استطاع الروس أن يصنعوا الفودكا كيميائيا . . واستطاع الروس أن يصنعوا الكافيار ـ وهو بطارخ الأسماك ـ من المركبات البترولية ويستحيل على أى إنسان أن يفرق بين الكافيار الصناعى والكافيار الطبيعى . . ومن العجيب أن الروس «لا يشربون» الفودكا . وإنما هم يبلعونها .

وقد زارنى فى أوائل هذا العام اثنان من الأدباء السوفييت وقلت لهما مداعبا : أنتم لا تشربون . . أنتم تبلعون الفودكا . . كأنكم تخافون أن تترك أى أثر على اللسان .

ولم تعجبهما هذه الملحوظة . أو لم يفهماها بوضوح . . أو فهماها ولم يتصورا أن هذا شىء جديد . . ثم قلت : لقد لاحظت أن الكثيرين يشربون الفودكا . . ووراءها بسرعة يشربون المياه المعدنية . . أو عصير الفاكهة .

وذكرت لهما أننى عندما رافقت الشاعر يفتشنكو إلى أسوان كان يحرص على أن يشرب وراء كل كأس فودكا كأسا من عصير الطماطم . . وكان يقول إن الطماطم تزيل مفعول الفودكا .

وأذكر أيضا أننى عندما دعانى الممثل الكبير ركس هاريسون إلى بيته فى لندن لاحظت أنه يضع الفودكا وعصير الطماطم والمستردة والليمون فى كأس واحدة . ولكن الروس يفضلونها فرادى . . لا معا!

ولذلك فكثير من الروس لا يستسيغون الويسكى مثلا : لأنه يحتاج منهم إلى أن يشربوه . . قليلا قليلا . . وقد اعتادوا أن يبتلعوه دفعة واحدة!

فالفودكا هى نوع من الحرارة السائلة . . وهى تدفئة ضرورية فى بلاد شديدة البرودة . . ولابد من الدفء وإلا توقف العمل . . ولابد من الحركة وإلا تحجر الناس . . ثم إن الروس ليسوا وحدهم الذين يشربون فى البلاد الباردة فكما أن النار ضرورة فالنار السائلة ضرورة أيضا!

ومازالت الوجوه الروسية التى تدخل من باب الفندق شديدة الاحمرار . . وشديدة التكشير أيضا . ولكن لكى تفهم هذه الملامح عليك أن تقف أمام مروحة يهب هواؤها على وجهك . . ثم انظر بسرعة إلى وجهك فى المرآة .

إنك مكشر لماذا؟ أنت الآن عرفت السبب!

* * *

مانزال فى فندق روسيا فى قلب موسكو .

والروس ينطقون عاصمة بلادهم «موسكفا» ويحذف الواو أيضا . . ونحن نقول : الفضة المسكوفى . . أى الفضة الواردة من موسكو . . وهى عاصمة الاتحاد السوفييتى وعاصمة جمهورية روسيا . . وفيها مجلس السوفييت الأعلى ومجلس الوزراء . ومساحتها ربع مليون فدان . . وعدد سكانها ستة ملايين . . وهى قد أقيمت على تلال مثل روما . وهى تقع على الخط الذى يمر بمدينة دمشق . . ومن الطابق الواحد والعشرين للفندق ترى عمارات كثيرة جدا . . عالية . . ناطحة سحاب . . إن موسكو تتسع وترتفع أيضا . وبها عمارات للإيجار . . وشقق للتمليك ، وكثير من أحيائها القديمة قد أبيدت وظهرت مكانها عمارات سكنية ولا تزال أعمال البناء فى كل مكان . . ومن المؤكد أن موسكو هى أنظف عاصمة أوروبية .

وموسكو رغم أنها العاصمة السياسية والإدارية فهى أيضا مركز لأهم الصناعات الروسية من الدبوس إلى الصاروخ .

ثم هذه الأرقام : بها نصف مليون طالب ، وبها ٥٥٠ معهدا للأبحاث ، وفى موسكو قصر اسمه «قصر الرواد» للطلبة الموهوبين مساحته ٢٦٠ فدانا ، وبه مسرح يتسع لسبعة آلاف متفرج . . وفى جامعة موسكو وحدها ٢٥ ألف طالب فى ١٤ كلية وفى هذه الجامعة ٤٥ ألف غرفة . ، وإذا قرر إنسان أن يمر فى هذه الغرف واحدة واحدة ، لأى سبب جنونى ، فسوف يقطع ١٥٠ كيلو متر على قدميه .

ومن النافذة نرى مقر الكرملين . . أو قصور الكرملين . . الكرملين معناه القلعة . وقد بناه أمير من أصل إنجليزى . والكنائس الموجودة بناها مهندسون إيطاليون . . وإحدى الكنائس بناها مهندس إيطالى . . وحتى لا يكرر هذه التحفة الفنية جاء الامبراطور إيفان الرهيب وفقأ عينيه .

والميدان الأحمر يحتشد فيه الشعب . . فى المناسبات الكبرى : الأعياد القومية . . عيد الثورة وعيد العمال . . واستقبال رواد الفضاء . . ، وهذا الميدان سمى الميدان الأحمر

لسبب غريب . . ففى اللغة الروسية نجد أن كلمة «كراسنيا» معناها أحمر . . ومعناها جميل أيضا . . فالميدان باللغة الروسية اسمه : الميدان الجميل وفى اللغات الأخرى اسمه الميدان الأحمر . . وعلى القباب العالية توجد النجمة الحمراء . . وهى تتحرك مع الريح .

وفى الكرملين هذا جاء نابليون سنة ١٨١٢ وربط خيوله ، ولم يفعل ذلك إلا لأن موسكو كلها قد أحرقها الروس حتى لا يستولى عليها . فلم يجد إلا هذا المكان تحتمى فيه خيوله .

والذى يرى الاتساع الهائل لروسيا وقسوة الجليد وطول الطرقات والغابات . . ويتذكر ما فعله نابليون وهتلر من أجل الاستيلاء على موسكو يؤمن بأن كلا الرجلين مجنون!

وقد أعجبتنى عبارة قالها الأديب الأمريكى أرثر ميللر عندما زار روسيا هو وزوجته المصورة انجه مورات : إن نابليون وهتلر عندما فكرا فى غزو روسيا يشبهان رجلا راح ينفخ صدره وينفخه آملا أن يطير إلى القمر!

وإذا نظرت إلى صورة هذه المدينة بعد الحرب مباشرة لعرفت كم بذل الشعب من التعب والعرق والحرمان والإصرار على أن تكون لهم مدينة . . وتكون لهم فى كل مكان مدينة . . وأن يكون لهم فى كل مدينة رأى . . وأن يساهموا بالعمل والعلم فى كل مجالات المعرفة والتقدم . . وفى كل مكان بجيوش السلام وانتصار الحياة على الدمار وعلى الفناء .

إن دستويفسكى عندما وصف الشعب الروسى فى إحدى رواياته . . قال : سوف يكون على أيديهم خلاص التعساء فى كل مكان ، كان ينظر إلى المستقبل ولم يتجاوز الحقيقة .

من الكلمات الروسية التى تعلمتها بسرعة . . لأنها تكررت كثيرا وضايقتنى كثيرا كلمة : زاموك . . ومعناها مقفل . . المتاحف مقفلة . . والصحف مقفلة . . ومن الطبيعى أن تكون الكثير من الأماكن «زاموك» لأننا فى إجازات رأس السنة . . وليس فى الإمكان حشد الناس فى مكاتبهم ومصانعهم بمناسبة زيارتى إلى موسكو .

ولكن هذه الكلمة سوف تختفى عندما ننطلق إلى أحضان موسكو وغيرها من المدن الكبرى الباهرة!

* * *

اختارتهم الحياة.. ولكنهم اختاروا الموت!

كانت ليلة رأس السنة . . درجة الحرارة تحت الصفر كما هى العادة . . ولكن هناك حركة على الأرصفة وفى الشوارع . . والإضاءة باهرة . ويقول الذين يعرفون الكثير : إنها غير عادية . . إننا محظوظون .

ومع ذلك فلا مكان يمكن أن نذهب إليه . كل المطاعم محجوزة منذ أيام . . والناس قد انتقلوا إلى بيوت الناس . . ونحن غرباء فليس لنا أحد . . وهذا طبيعى . . وأمامنا ساعات طويلة حتى يجيء منتصف الليل عندما تتعانق العقارب فى كل ساعة وفى كل مكان .

ومع ذلك هناك معارض مفتوحة : الشوارع . . فموسكو هى مدينة الأدباء والفنانين والمفكرين الجالسين على القواعد الحجرية فى أهم شوارعها . . وهذه التماثيل قد أغرقتها الأضواء وجمعت حولها الناس . ومن الغريب أن أكثر هؤلاء الأدباء أعمارهم قصيرة لأسباب شخصية . . وإقامة التماثيل لهم استئنافًا لحياتهم التى انتهت بسرعة . وإحياء لهم فى قلوب الناس .

فهناك تماثيل الثلاثى العظيم : تولستوى وجوركى وتشيخوف . . أما لينين أبو الاتحاد السوفييتى فهو فى كل مكان . . وفى كل متحف ، وكل مكتب ، وكل مصنع وكل شارع وكل مدينة . . ، ومقبرته تحفة وهى مفتوحة ثلاث ساعات يوميا فيما عدا يوم الجمعة - وأمام المقبرة طوابير طويلة جدا على مدار السنة وتحت وفوق الصفر ، وفى داخل المقبرة ترى وجه لينين ويديه على صدره : كدليل جديد على تقدم التحنيط الحديث عند العلماء السوفييت . . ولينين قد توفى سنة ١٩٢٤ . ولكن من يرى وجهه يخيل إليه أنه مات فورا ، ولكنه لم يدفن بعد!

وفى الطابور أمام ضريح لينين من الممكن أن تجد من يقول لك : معك عود كبريت . وبسرعة تخرج الولاعة من جيبك وتشعل له سيجارته . . وينصرف لقد تعب من الوقوف منذ الصباح وسوف يعود غدا . . أو بعد غد . والناس لا يدخنون فى الطابور وقد تسأل : كيف أن هناك أناسا كثيرين يطلبون منك عود كبريت . .

والذين يعرفون يؤكدون لك : أن هذه مسألة عادية جدا . . فالروس لا يشعرون بأى حرج فى أن يطلب منك إنسان سيجارة فهو يرى أن هذا نوع من رفع الكلفة بينك وبينه ، وقد يفعل ذلك سائق سيارة أو طبيب . . فالذى حدث أن سجائره انتهت وأن المحلات قد أقفلت وأن فى استطاعتك أن تفعل ذلك . . قال لى أحد رجال السفارة أن طبيبا زاره لعلاج زوجته . . وبعد أن كشف الطبيب على الزوجة اقترب من الزوج . . معك سيجارة . . فأعطاه طبعا واندهش . . والدهشة تذهب مع دخان السيجارة . . فهذه مسألة عادية تحدث فى أى وقت وفى أى مكان من أى شخص . . إنهم هكذا يعملون الأشياء البسيطة ببساطة . . وليس عليك إلا أن تسأل لتفهم وتذهب دهشتك .

وإذا انصرفت بعد زيارة ضريح لينين ، أو بدون زيارة ، فهناك الشوارع الواسعة النظيفة المضاءة . . وإذا لم تستطع أن تمشى فى الشارع ، فاجلس فى أية سيارة واسمع ما يقال لك عن هذه الصواريخ أى الفنانين والمفكرين والأدباء ، التى أضاءت واشتعلت من أجل الإنسانية . . ثم خمدت لتضىء من جديد للناس بالكلمة والنغمة!

فهذا التمثال لشاعر روسيا بوشكين . . وهو أبو الشعر الروسى أو أبو الأدب الروسى كله . . وهو رجل لم يشأ أن يقلد الأساليب الأدبية السائدة فى عصره ، فقد كانت الموضة فى الأدب - كما هى فى الأزياء الآن - أن يقلد الأدباء باريس . . ولكن بوشكين هذا روسى مائة فى المائة . . وإن كان جده من ناحية الأم من أصل حبشى . . كان عبدا . . أرسلوه هدية إلى بطرس الأكبر . . وعلمه بطرس الأكبر . . وكان بوشكين لا يشعر بدم أجداده .

وبوشكين شاعر عظيم . . وكان يستمد مادته من الناس ، ومن عذاب الناس . . الفلاحين والعمال . . وكان خصومه يسخرون منه بقولهم : فى استطاعة أى عامل أن يجد اسمه وعنوانه فى قصائد بوشكين!

وكان يحب الحياة . . ويستمتع بها بعمق وبعنف . . وكان قصير القامة نحيفا . . ولكنه ملىء بالحيوية وقد وضعت حيويته موضع الاختبار . . عندما أحب فتاة جميلة ، كان القيصر لا يرفع عينه عنها ، وقد حاول القيصر أن ينال من الشاعر العظيم . . فشجع شابا فرنسيا كان قد تبناه السفير الهولندى أن يعاكسها وعاكسها

وحدثها . وكان بينهما الكثير ودارت الشائعات وتعالت الهمسات واختنق الشاعر بالفضيحة . . واتفق الزوج والعاشق على المبارزة . . وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧ تمت المبارزة وانتهت بمقتل الشاعر العظيم بوشكين بعد يومين . . عن ٢٧ عاما .

وكذلك مات شاعرنا المتنبى!

وفى شارع آخر نجد تمثالا للشاعر ارمنتوف . . وهو من أصل اسكتلندى وهو أيضا ضحية الخلافات العائلية . . فالذى يدور فى بيته جعله يكفر بالبيت والأهل والأب والأم ، ويضيق بكل ما يربط إنسانا بإنسان . . كان صغيرا عندما مات بوشكين بكى عليه كأبيه وأمه وأقاربه كلهم . . ونظم قصيدة اسمها «وفاة شاعر» تناقلها الناس سرا . . وأصبح شهيرا فى روسيا كلها . . لأنه صاحب أول منشور شعرى ضد القيصر . . وضد الذين اغتالوا الشاعر بوشكين .

ولخلاف حول فتاة جميلة . . دارت مشادة بينه وبين السفير الفرنسى وطالبه ابن السفير بالمبارزة وجاء يوم المبارزة يوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٤١ ، وأصابه ابن السفير ، فمات الشاعر ارمنتوف عن ٢٧ عاما!

وفى شارع آخر ستجد زحاما حول تمثال . . الأضواء باهرة . . وقد كانت إحدى سيارات التليفزيون تلتقط صورة لفتاة جميلة وقفت أمام تمثال الشاعر والروائى والممثل والثورى والجنون والعبقرية التى اشتهرت فى روسيا باسم مايكوفسكى . وقد ولد فى مدينة اسمها بغدادى فى جمهورية جورجيا .

إنه نموذج للحياة والثورة والقلق والكبت الذى يولد الانفجار فحياته كانت مأساة من الانفجارات الداخلية والخارجية . . وكان أكبر وأقوى وأكثر تقدما من عصره . . وكان قوى الصوت يريد أن تسمعه الأجيال القادمة . . أحب وفشل ، وفشل ولم ينس أنه فشل . وكانت حياته بعد ذلك انتقاما من الفشل ومحاكمة لكل شىء حوله . . وكل إنسان حوله . . إنه أقام محاكمات فى رأسه لكل الناس وكل المبادئ وكل القيم . . وليس عجيبا أنه عندما يمشى فى الشارع أن يتحدث إليه إنسان فيصرخ فيه هو قائلا : لا تقاطعنى إننى أكتب!

ولما سئل مرة أخرى عن هذا المعنى قال : عندما أمشى فى الشارع . . أتخيل مكتبا وأتخيل نفسى جالسا وأننى أكتب!

وعندما كان صغيرا فصل من المدرسة ، وأغلقت المدرسة كلها لأنه ذهب إلى الكنيسة وشجع الأطفال على أن يتغنوا بنشيد الثورة الفرنسية!

عندما أحب ، تقدم للفتاة وسألها : هل تتزوجينني؟ فقالت : متأسفة . أو لم تقل متأسفة ، وإنما هزت رأسها دليلا على الرفض ، فهى لم تقل كلمة ، فهى لم تبذل جهدا فى الرفض ، لم ترفضه بشفتيها وإنما حشدت به رأسها وشعرها وأذنيها وشفتيها وعنقها وكتفيها ، إنها مظاهرة من الرفض لم ينسها مايكوفسكى . ولذلك عاد إلى نفسه يهتف بسقوط كل شىء : تسقط أنت ويسقط فنك . . وحياتك ، ومجتمعك ، وكونك . . يسقط السقوط!

كان أكثر الناس بكاء فى جنازة لينين سنة ١٩٢٤ . . وأعلن أنه فى هذه الجنازة لم يبك فقط عبقرية الرجل الذى مات . . إنما بكى كل شىء . . وبكى نفسه أولا . . وفى إحدى المسرحيات التى قام ببطولتها : حاكم الأشياء . . حاكم المدينة وحاكم القرية . . وأعلن : هذه الأشياء لها آذان . . والناس له عيون . . مزقوها . . حطموها!

وهو فى قمة الشهرة وكل شىء حوله يستدرجه لأن يعيش . . أحس أن الدنيا كلها تعتذر له عما أصابه . . وتبدل ريشها وألوانها لعله يرضى . . انتهز هذه الفرصة ليعتذر للدنيا . . ويعتذر عنها . . وهو يقول : لا أمل فى الخلاص من أى شىء . . أو من أى أحد!

وانتحر مايكوفسكى وعمره ٣٧ عاما!

أما هذا التمثال العملاق فهو لرجل يسمونه شاعر الفلاحين إنه : استينين . . جاء من الريف . . ولم يشأ أن يغمض عينيه عن الريف وهو الغابات والجبال والتلال ، إنه حزين على أن المصانع أكلت القرى . . وأن المزارع سحقت الغابات . . وأن الدخان هو الضباب الطبيعى فى صورة هزلية . . إنه يبكى على ماضى روسيا ويقول : يا حقول القمح ، يا ماضى روسيا المجيد .

إن استينين شديد الحساسية . . شديد اليأس عميق القرف . . لا يعرف كيف يتوافق . . إنه نموذج للزراعة التى لا تستطيع أن تتكيف مع الصناعة . . ولذلك كان ضحية التحول العظيم . . إنه أبرز صورة للعبقرية والجنون . . إنه عنيف . . حاد ساخط . . يحطم الأشياء والأبواب والنوافذ لأسباب تافهة ، ولكنه يراها معقولة .

وعندما جاءت راقصة الباليه الأمريكية ايزادوره دنكان بدعوة من الحكومة السوفييتية لإنشاء مدرسة للرقص ، كانت ملكة الرقص عمرها ٤٤ سنة وعمره ٢٧ عاما ، أحبته من أول نظرة ، لا تعرف كلمة روسية واحدة ، تعلمت عبارة واحدة لتقولها له : إننى أقبل التراب الذى تمشى عليه .

أما هو فرفضها . ضربها . صفعها . لعنها . هرب منها . طاردته ، روضته وتمسكت به وتزوجته . . نقلته من روسيا إلى فرنسا ، إلى أمريكا ، وكان فى القطار والعربات عنيفا ثائرا . يحطم كل ما يقع تحت يديه ، وفى باريس ألقى بالمقاعد من النافذة ، ضرب أصدقاءه ، دخل السجن واستطاعت ايزادوره أن تخرجه من السجن بعد أيام وأدخل مستشفى الأمراض العقلية فى باريس وأخرجته أيضا ، حاول إطلاق الرصاص عليها ، وهربت ، ولكنها عادت إليه وكان يحمل معه حقيبة يد كبيرة . والموت لن يقترب منها ، وفى إحدى المرات نسى الحقيبة وفتحتها فوجدت كل ملابسها وأشيائها الضائعة ، وهربت منه فى مجاهل روسيا وعاد الشاعر الريفى إلى فندق لننجراد ـ الذى نزلت به ـ وقطع شريانا . . وبدمه كتب آخر قصيدة له ثم شنق نفسه ومات فى الثلاثين من عمره!

أما ايزادوره فكانت هى الأخرى صورة مؤلمة أنيقة للتعاسة . . والداها غرقا فى نهر السين ، أما هى فلم تكن تطيق أن ترى الأطفال بعد ذلك وكانت تقول : ألا أستطيع أن أعيش فى عالم به أطفال لهم شعور ذهبية .

وماتت فى حادث سيارة ويقال إنها انتحرت فقد لفت «الإيشارب» الطويل الأحمر الذى كانت تتفاءل به حول العجلة الخلفية للسيارة . . وانطلقت السيارة واختنقت وهى تجلس عند عجلة القيادة . . المهم أنها ماتت بيديها وكانت فى المقدمة!

أما هذا التمثال إذا وقفت أمامه فمن السهل معرفته فهو الموسيقار تشايكوفسكى ، هو الآخر عبقرية عنيفة غريبة . . ومن أسرة غريبة السلوك الاجتماعى ، أحب فتاة ذات أربعة عشر عاما . . راسلها ولم يرها . . وأخيرا تزوجها ، أكثر رواد المسارح يعرف أعماله العظيمة : الفتنة النائمة . . روميو وجولييت . . كسارة البندق . . فرانشيسكا دارمينى . . عذراء اللورين ـ أو جان دارك وهو صاحب الموسيقى الفخمة والتوزيع الاوكسترالى الرائع . . زار أوروبا كلها . . وأصابته الكوليرا فى سنة ١٨٨٣ .

وتماثيل أخرى للروائى العظيم دستويفسكى الذى ترجم د . سامى الدروبى أعماله الكاملة إلى العربية ، والروائى جوجول الذى كتب الرواية الشهيرة «المفتش العام» . . والتى انتقد فيها البيروقراطية الروسية بعنف . . وكان هو أيضا شديد الحساسية قلقا ساخرا . . وكان يقول عن نفسه : إننى أجعل الناس يضحكون على كل ما يستحق الضحك . . وكان يقول ـ ومعه حق ـ أن عالمنا كريه يا سادة!

وتمثال للقصصى والمسرحى تشيخوف الذى توفى عن ٤٤ عاما سنة ١٩٠٤ . وهو كاتب المثقفين .

وتمثال للفنان العظيم جوركى الذى توفى سنة ١٨٣٠ عن ٦٤ عاما(*)

هناك تماثيل أخرى أكثر انتشارا وعمقا . . إنها مئات وألوف الكتب عن هؤلاء العظماء . . وهناك المسارح فى كل مدينة فى الجمهوريات السوفييتية ، ففى موسكو وحدها ثلاثون مسرحا ومائة سينما وخمسون متحفا . . مسرح البولشوى سيحتفل بمرور قرنين على إنشائه بعد خمس سنوات . . وفى موسكو مكتبة كبرى هى مكتبة لينين بها عشرون مليون كتاب فى مائة وستين لغة . . وفى روسيا ملايين الطلبة الصغار والكبار يعرفون هذه الأسماء .

دارت مناقشة بينى وبين سائق السيارة التى خصصها لنا اتحاد الكتاب السوفييت . . قلت له : أنت تشبه راسبوتين .

مع أنه لا يوجد شبه بينهما . . وإنما حاولت أن أضحك معه . . ولكنه قال : لا . . بل أشبه تراس بولبا!

والروسى أو الذين قرءوا قصة جوجول التى اسمها «تراس بولبا» . . يعرفون الفارق بين ما أقول وما يقول هو . . فشخصية تراس بولبا . . رجل ضخم مسلح عنيف . . والسائق فيه هذا الشبه ، مع فارق السلاح . . فقط!

وعندما قلت لسائق آخر ، مداعبا أيضا ، أنت : راسكو لنكوف!

ضحك وهو يقول : نسيت أن أكون مثله وأنا صغير!

والعبارة طبعا غير مفهومة إلا لمن قرأ رواية «الجريمة والعقاب» لدستويفسكى . . فبطل الرواية طالب اسمه راسكولنكوف . . وهو الذى قتل صاحبة البيت وهو يقول : هل هى جريمة أن تقتل سيدة قد استغلت مئات الشبان . . مصت دمهم . . فقتلتهم!

فالسائق قد فاته أن يفعل ذلك وهو شاب!

إلى هذه الدرجة يعرف كل المتعاملين فى روسيا تاريخهم وأدبهم . . ويتذقونه .

قلت للسائق أيضا ـ عن طريق المترجمة : اسأليه ما الذى يقول . . أهى قصة جاسوسية؟

فثار السائق قائلا : لا . . إنها قصة بوليسية . . ثم عاد يقول : الروسى ليس جاسوسا . . إنه مخبر فقط!

ولم تكن هذه التفرقة موضوع مناقشة . . ولا فى ذهنى هذا المعنى ولكن السائق يعرف هذه الفروق الدقيقة بين أن يكون الإنسان جاسوسا وبين أن يكون مخبرا . .!

ولابد أن الرئيس بومبيدو عندما زار سيبريا الجديدة كان يدرك مدى حساسية الروس لمعانى الألفاظ والمعانى عندما قال فى بداية كلمته : وإننى أتذكر كلمة لأديبكم تورجنيف : كل واحد ضرورى لروسيا ، وروسيا ضرورة للجميع .

ثم قال : هذه العبارة تدل على أعمق معانى الوطنية والروح التعاونية بين أبناء الشعوب السوفييتية .

وهناك تماثيل للعمال . . وتماثيل لسفن الفضاء . . أو لرحلات الفضاء ونماذج ، ومئات النماذج للسيارة التى ركبها لينين عندما ذهب إلى لينينجراد . . فكل من أدى عملا يجب أن يبقى .

وبعد ذلك تنفتح لك موسكو .

ففى أطراف موسكو الشاسعة توجد «البانوراما» وهى مبنى دائرى . . لأن فى داخله لوحة دائرية لمعركة دوردينو التى انهزم فيها نابليون وهو يحاول الاستيلاء على موسكو . . فأحرقها الروس أمامه ، بعد أن استدرجوه إليها . . كان قائد الروس هو الجنرال كوتوز ، وفى اللوحة التى طولها ١٥٠ مترا وارتفاعها ١٥ مترا نجد أن نابليون كان يحارب فى الصفوف الأمامية للمعركة . . عند نقطة المواجهة . . وعندما جرح القائد الروسى استبدلوا به قائدا آخر فالمعركة لا تحتمل التأجيل .

الفنان الذى صمم هذه اللوحة الحية البارزة الناطقة المذهلة روسى من أصل فرنسى عاش فى ألمانيا . . وبعد أن أحرقت أعادها مرة أخرى .

أما المتحف الذى يحمل اسم الشاعر بوشكين ، ففى داخله لوحات لكل مدارس الفن . . وخاصة الفن الانطباعى الفرنسى وفيه تماثيل إغريقية ورومانية . . وفيه

جناحى فرعونى . . وبه تحف فى غاية الرقة والجمال . وقد أدهشنى أن أجد امرأة فرعونية تسبح فى النيل . . ويبدو أنها غشيمة مثلى . . ولذلك أتوا لها بصندوق خشبى تتعلق فيه لكى تستطيع تحريك ساقيها ورفع رأسها من تحت الماء .

وأمام متحف بوشكين يوجد حمام سباحة فى الهواء الطلق . . ماء الحمام فى درجة ٤٠ فوق الصفر . . ودرجة حرارة الجو ٢٠ تحت الصفر . . ويخرج المستحم من الماء الساخن إلى الهواء البارد جدا ويقال إن الصحة تجىء من هذا الفارق الهائل بين الدرجتين وخصوصا إذا أتيت بأكداس الجليد ودلكت بها جسمك مباشرة . . إننى أرتجف لمجرد كتابة هذه العبارة!

ورغم خوفى من مجرد النظر إلى المستحمين . . حاولت أن أقترب . . ثم عدلت . . ثم حاولت . . ثم عدلت . . وأخيرا وجدتنى غارقا فى بخار الماء الذى يخرج من حمام السباحة ويتجمد لمجرد مفارقته لسطح الماء . . وأحسست أنها مغامرة مجنونة . . ولا أزال أعتقد ذلك وأعتقد أن سبب إصابتى بالزكام هذه الأيام رغم عودتى من موسكو منذ أسابيع يرجع إلى أننى تذكرت فقط أننى وقفت هناك!

وقد تذكرت قصة قصيرة لأديب روسيا سواجنتسين الذى فاز بجائزة نوبل فى الأدب . . تقول القصة إن النمل كان يمشى على قطعة خشب . . وفجأة امتدت يد وألقت بقطعة الخشب فى الموقد . . وراح النمل يزحف على أطراف الخشبة محاولا الهرب من النار . . حاول . . وحاول . . ولكنه لم يفلح . . وأخيرا وتلقائيا اتجه النمل كله إلى النار!

وفى كل المتاحف والمعارض التى رأيتها فى موسكو وفى المدن الأخرى لم أجد اهتماما بالسريالية أو الرمزية . . أو هذا الغموض الشائع فى أوروبا وأمريكا . . لا فى المعارض ولا على المسارح . . فلا هناك سريالية ولا دادية ولا تكعيبية . . ولا مسرح اللامعقول . . ولا التسجيلى . . ولا المسرح الحى . . ولا مسرح الخبز واللحم . . ولا المسرحيات العارية . . وإنما العقل بداية ونهاية كل شىء . . والطريق الواحد الوحيد المضمون هو : الوضوح . لأنه من المفروض أن يفهمك كل الناس .

ولاشك أن خروتشيف كان روسيا مائة فى المائة عندما ذهب إلى أحد المعارض فى موسكو فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ يرافقه الأدباء والنقاد والفنانون . . واستنكر

المعروضات لأنها غير مفهومة . . ومما قاله عن موسيقى الجاز مثلا : إنها غازات في المعدة!

واتجه إلى الفنانين وقال لهم : أنتم شواذ وتستحقون السجن عشر سنوات .

وعندما نظر إلى إحدى اللوحات السيريالية قال : هذه لوحة رسمت بذيل حمار!

وكانت هذه هى البداية «لنهاية» الغموض والشذوذ .

وشولوخوف أديب روسيا الفائز بجائزة نوبل فى الأدب هو صاحب العبارة التى تقول : النماذج السيئة كالمرض تعدينا . . أبعدوها عن أنوفنا وعيوننا!

وفى شوارع موسكو بعد ذلك صور وتماثيل لبابا نويل . . والروس لا يسمونه كذلك . . ومن المعروف الآن أن الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت أن شخصية بابا نويل هذه خرافة ، لم يكن لها أى وجود تاريخى . . وقد سبق الروس الكنيسة عندما أنكروا معناه . . ولذلك فهم يطلقون على بابانويل اسم : أبو الجليد . . وهو أيضا صديق للأطفال . . يذهب إليهم لأنهم ينتظرونه محملا بالهدايا والأمنيات الطيبة .

وانتهت ليلة رأس السنة بعد أن عيدنا على هؤلاء العظماء الواقفين فى الشتاءوالصيف . . والذين لا يعرفون نهاية أو بداية للعام . . لأنهم فوق الزمن . . خالدون!

عندما وجهت الدعوة.. لم يحضر سوى الموت!

السفر من موسكو إلى لننجراد هو انطلاق ضد التاريخ فالتاريخ بدأ من لننجراد واتجه إلى العواصم الأخرى . . فقد كانت لننجراد هى العاصمة السياسية والثقافية . . ومنها قامت ثورة وراء ثورة . . حتى جاء لينين وأشعل الثورة الكبرى وتحولت موسكو إلى عاصمة للاتحاد السوفييتى .

ولننجراد اسمها بطرسبورج . . بتروجراد . . وبعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤ أخذت اسمه . . وعلقت على صدرها أسمى نياشينه . . وأطلقوا عليها اسم «المدينة البطل» . . لأنها استطاعت أن تقف أمام الألمان ٩٠٠ يوم ليس أمامهم بالضبط . . ولكن بينهم وتحتهم . . فقد حاصروها حتى مات نصف مليون من أبنائها جوعا . . أسقطوا عليها ١٥٠ ألف قنبلة . . وكان من الطبيعى أن تسقط . . ولكنها قاومت . . وكان القائد الألمانى يعلم أنها ساقطة لا محالة ولذلك طبع بطاقات الدعوة لحفلة الانتصار . . ولم يبق إلا أن تكتب أسماء السادة المدعوين . . وبقيت البطاقات فى متحف المدينة التى لم تستسلم .

ومن أجمل ما فى هذه الرحلة إلى لننجراد السفر بالقطار . . ربما كان هذا مزاجا شخصيا . . فأنا أحب القطار وأفضله على الطائرة والباخرة والسيارة . . فالقطار شكله مهيب . . ورأسه مرفوع وصدره شامخ . . ومنظر القطار وهو جالس على الخطين الحديديين يغرينى بالحسد . . فأنا أحسد القطار الذى له هدف واضح . . طريق مرسوم . . معروف . . وفى داخله نار مشتعلة . . ودخان متصاعد . . والناس تجرى إليه ومنه وهو هادئ راسخ فى مكانه . . كأنه يفكر . . ولكنه فى نفس الوقت على يقين من كل ما سوف يفعله بعد ذلك . . فالقطار هو المفكر . . والشريط الحديدى هو الخطة المرسومة المدروسة . . والاثنان يعنيان : النظرية والتطبيق . . ورائع منظر الناس وهم يهتمون . . أو وهم مهمومون . . هذا يجرى . . وهذا يسير . . وهذا يودع . . وذاك يحمل حقائبه . . كأنها رحلة الحياة والموت . . أو كأنها الحياة والموت . . فالحياة والموت يسويان بين الناس . . فكل الناس أحياء وكلهم سوف يموتون . . وكل واحد مهما كانت الدرجة التى يجلس فيها سوف ينزل فى محطة . . والذى يركب الدرجة الأولى والثانية . . والكمسارى والمفتش والسائق . . كلهم ينطلقون بسرعة واحدة .

والقطار قريب من الأرض يلمسها ويزحف عليها ويهرب منها . . وظل ملتصقا بها . . وصفيره الناعم الهزيل المنكمش من شدة البرد . . والأشجار من حولنا قد تغطت بالجليد الأبيض . . نائمة . . أو كأنها لا تريد أن تصحو . . كل شىء أبيض . . صحارى بيضاء . . ومن الغريب أن تجد أطفالا أو رجالا يمشون فى الأرض البيضاء . . كأنهم أيضا يعرفون الطريق . . لابد أنهم يعرفون . . والعجلات تحولت إلى عجلة واحدة تتمسح بالقضبان الحديدية . فلا ضوضاء ولا ارتجاج ولا اهتزاز . . وإنما استمرار دافئ فى جو بارد . . والرؤية غير واضحة لنا . . ولكن للقطار : كل شىء واضح مرسوم معروف . . وكانت الدنيا ليلا . . والغرف دافئة . . وكل واحد قد آوى إلى سريره . . لا يعرف إلا شيئا واحدا : كيف ينام . . هل يخلع ملابسه . . أو لا يخلعها . . أنا شخصيا نمت بملابسى كاملة . . إننى خفت من البرد . . ولاحظت أن بعض الروس قد خلعوا ملابسهم تماما . . وناموا فى الدفء . . وهذا طبيعى ولكنى خفت ، فدرجة الحرارة خارج القطار تحت الصفر بعشرين درجة . . ومن المستحيل أن تتسرب إلى القطار . . ورغم ذلك فقد تمددت بملابسى كاملة . . ولاحظت أن فى العربة سيدات . . ولاحظت عن قرب أن هناك شيئا من الحرج فى عيونهن أو تصرفاتهن .

وسألت ما الذى تفعله فتاة روسية فى قطار ليلى إذا كانت مسافرة وحدها!

وكان الجواب : ما الذى يفعله الرجل؟

وكنت أريد أن أعرف شيئا أوضح . . وعرفت أن الفتاة تستطيع أن تدخل فى كابينة مع أى رجل وينام هو فى سريره وهى فى سريرها . . ولا يدور بينهما إلا كلام . . أى كلام . وبديهى أن يراعى الرجل أبسط آداب اللياقة كأن يخرج وينظر من النافذة إلى لا شىء ويشعل سيجارة حتى تخلع الفتاة ملابسها وتتمدد وتنام ويفعل هو نفس الشىء وينام . . وليس من الضرورى أن يقول لها : تصبحى على خير . . لأن الخير فى أن يسكت ويكون فى حاله .

وعرفت أيضا أن بعض الفتيات يضقن بمشاركة الرجل فى غرفة واحدة . . ويذهبن إلى الكمسارية ويطلبن منها النوم فى غرفة مستقلة . لماذا؟ مسألة مزاج . . ثم من الذى يتحمل شخير رجل لا يعرفه طوال الليل؟! سبب وجيه . .

انتهزت فرصة المناقشة حول ما يجب أن تفعله الفتاة المسافرة وحدها . . وما لا يجب . . وطلبت من الكمسارية : وحياة والدك . . نفسى أشرب كوبا من الشاى . . صحيح أن الليل قد انتصف . . والقطار حار جدا ، ولكنى أخاف من البرد؟

وكأننى لم أفتح فمى ولا قلت شيئا . . فقد قالت الكمسارية : هذا غير ممكن الآن . . لأن الشاى فى الصباح فقط .

وتأملت الكمسارية من جديد . . طبعا شقراء . . وملامحها جميلة . . عيناها أجمل ما فيها . . وصوتها أيضا وإن كنت لا أعرف ما الذى تقوله . . والإرهاق واضح على وجهها . . ولو كنت فى مكانها لقلت نفس الشىء . . هذا الرجل الغلبان الميت فى جلده من شدة البرد رغم أن الناس يقفون بالقمصان من شدة الحر . . وسألت نفسى أليس هذا شيئا غريبا . . وترددت فيما بينى وبين نفسى وقلت : لو كنت مكانها لنظرت بإشفاق إلى أنهم فى روسيا يعلموننا أن الجسم الإنسانى قادر على التكيف ، فكيف أن جسم هذا الرجل لا يشعر إلا بدرجة الحرارة الموجودة فى خارج القطار . . كأنه راكب على السلم وليس جالسا على سرير فى غرفة مكيفة الهواء . . وقد ارتدى ملابسه كاملة . . إن هذا الرجل سلالة بشرية غريبة . . ولابد أن أسأله من أى البلاد هو؟

ولكن لم تقل الكمسارية الشقراء شيئا من ذلك . . وإنما رفضت طلبى بسرعة . . ورأيت فى عيون الناس تأييدا تاما لها . لقد أجرت الكمسارية استفتاء شعبيا موضوعه : هل أصنع له كوبا من الشاى؟ . . وكان الرد سريعا «لامحا» فى وجوه الجميع : دعيه ينفلق .

وجاء النوم وأنقذ الجميع .

وعلى رصيف مدينة لننجراد وجدنا المترجمة الجديدة . . إنها قد اعتذرت لنا فى رقة عن تأخر القطار بعض الوقت . . ولكننا اعتذرنا لها فى نفس الوقت عن أن القطار قد لطعها فى المحطة أكثر من ساعة . . هى اعتذرت لنا بالنيابة عن الحكومة ونحن اعتذرنا لها بالنيابة عن الذوق الإنسانى كله . . وعادت البهجة إلى وجهها . إن هذه المترجمة تتكلم الإنجليزية بطلاقة «على فكرة فى الاتحاد السوفييتى أكثر من ٥٠ ألف مدرس للغة الإنجليزية . . والروس ينطقون الإنجليزية بلهجة أمريكية مائة فى المائة . . ومن الممكن أن نتساءل نحن جميعا كم عدد الذين يدرسون لنا اللغة العبرية فى مصر وفى البلاد العربية؟ وكم عدد الذين يعرفون اللغة العبرية؟ إننا لم نعرف بعد كيف نعرف عدونا؟

وهذه السيدة المترجمة تترجم الأدب الأسبانى إلى الروسية وتترجم من الروسى إلى الأسبانية أيضا .

أما الفندق الذى انتقلت إليه فهو قديم عتيق . . كأنه بيت لأحد أثرياء ما قبل الثورة . . فى الفندق عدد كثير من الأمريكان . . واحد أمريكى همس فى أذنى من أين؟ قلت له : من مصر . . قال : الأسعار هنا غالية . . كيف تواجه هذا الموقف . . قلت : أنا ضيف فقال : أنت أحسن حظا!

ومن أول لحظة تحس أن فى المدينة عددا كبيرا من السياح الأجانب . . نحن على الحافة الحقيقية لأوروبا . . على مدى دقائق من فنلندا . . وساعات من السويد والنرويج وإنجلترا وفرنسا وألمانيا . . وكل أبناء هذه الشعوب موجودون هنا فى لننجراد . . المدينة جميلة . . واسعة . . هادئة . . كأنها مرسومة على الأرض . . هدمت وبنيت من جديد . . الشوارع واسعة كأنها مرسومة على الأرض . . هدمت وبنيت من جديد . . الشوارع واسعة مستقيمة . . وفى أعلى الشوارع أرقام ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٠ . . وهذه الأرقام تقول للسائق لا تزد عن هذه السرعة من الكيلو مترات . . أما مصابيح الشوارع فتضاء إلكترونيا . . إذا جاء الظلام . . أو الضباب . . أو نزل الجليد . . فإنها تضاء من تلقاء نفسها .

أول ما يلفت نظرك أن هذه المدينة مقامة على عدد كبير من الجزر والأنهار والقنوات . . ففيها ٣٦٠ جسرا «أرقام أخرى : ١٨ مسرحا و٥٠ متحفا و٢٦٠٠ مكتبة» .

ومن الممكن أن تجد أناسا يتكلمون لغات أخرى غير الروسية . . وتجد أيضا معالم دولة غربية . . فإلى جوار الفندق يوجد مطعم فخم . . ولكنه شعبى أيضا . . فكل ماهو شعبى يجب أن يكون فخما . . فليس هناك أحسن ولا أعز من الشعب . . المطعم به مضيفات كل واحدة لها زى خاص . . ولها عدد من المناضد تخدمها . . وتجد اسم المضيفة على المنضدة وعلى هذه الورقة : المضيفة التى تقوم بخدمتك اسمها فلانة الفلانية . . ومع ذلك فأنت حر فى دفع البقشيش . . ومن الممكن أن تطلب لحم الغزال . . لابد أنك ستطلبه . . ولكن بعد ذلك لن تجد له ميزة . . إن الغزال لايعجبك إلا إذا أكلته فى إحدى إمارات الخليج مشويا ومتربعا على عرش من الأرز الإيرانى واللوز والبندق والجوز . . إلخ .

وفى داخل الفندق تجد الكثير ممن يتكلمون لغات أجنبية ، فهذه المدينة عالمية . . أو أوروبية غربية . . وإن كانت من بيوتها وغرفها وشوارعها وبلكوناتها وأنهارها خرجت الثورة على التبعية إلى الغرب فقد جاء لينين إلى لننجراد من سويسرا . .

ودخل على عربة مصفحة . . العربة ما تزال فى مكانها ولهذه العربة نماذج فى كل المتاحف السوفييتية وفى مدينة لننجراد تسلل الثوار إلى البارجة «أورورا» . . البارجة ما تزال فى مكانها . . والبارجة هى التى أطلقت أول قذيفة إعلانا بقيام الثورة . . ومن راديو البارجة سمع العالم كله سقوط الحكومة ونجاح الثورة البلشفية .

وفى لننجراد عاش ومات الشاعر بوشكين . . وبيته متحف . . وأمام تمثاله يتكدس الورد وأغصان الشجر . . فكل مواطن روسى يقطف زهرة أو يقطع غصنا ويضعه عند قدمى الشاعر بقصد أن يقول له بشكل عملى : السلام عليكم .

والدهشة لا تنتهى : كيف استطاعت هذه المدينة التى كانت خرابا يبابا فى سنة ١٩٤٥ أن تكون بهذا الجمال وهذا النظام والنظافة . . كيف؟ . . لا شىء إلا بالعمل المنظم وإلا بالإيمان بالحياة وضرورة الانتصار على اليأس وعلى الموت . . ويبدو أن الإيمان بالحياة أهم صفات الروس . . ففى رواية «عنبر السرطان» لأديب روسيا سولجفيتش الذى فاز أخيرا بجائزة نوبل فى الأدب : نجد المريض الذى لا أمل فى شفائه يقول : ولا يهمك . . سوف تكون الحياة أحسن . . ممكن .

وفى قصة لتولستوى عن مريض آخر بنفس المرض . . وهو يعلم أنه لا أمل فى حياته يقول بالحرف الواحد : «من قال إنه لا أمل . . سوف يكون هناك أمل . . فواحد على الألف من الأمل هو أيضا أمل» .

ومن أهم معالم مدينة لننجراد متحفها الكبير الذى يسمونه ـ متحف المتاحف ـ ففى المتحف لوحات وتماثيل من جميع أنحاء العالم ومن كل العصور . . ويضم عددا من القصور . . وقد أنشأته الإمبراطورة كاترين الثانية لنفسها فى القرن الثامن عشر . . فقد اشترت مئات اللوحات وقررت أن تضع هذه اللوحات وحدها . . أو تكون وحدها مع هذه اللوحات ولذلك فهى التى أطلقت عليه اسم «ارميتاج» أى الدير . . ولكن الدير كبر واتسع حتى أصبح أكبر متحف فى العالم . . أو من أكبر متاحف الدنيا ومن أفخمها أيضا .

وذهبنا مع مترجمة جديدة . . وسرنا وراءها . أو على الأضح جرينا وراءها فكانت تدخل القاعة التى تدوخ أى فنان وتمر كالسحابة بسرعة . . وتساءلنا : إننا لا نكاد ننظر إلى اللوحة بل إلى القاعة . . حتى تكون المترجمة قد تزحلقت على الأرض اللامعة ، إلى قاعة أخرى وعصر آخر .

ولكن عرفنا بعد ذلك أن المترجمة لو وقفت أمام كل لوحة نصف دقيقة ولمدة سبع ساعات يوميا لظلت كذلك تسع سنوات لا يتخللها يوم واحد إجازة . . ففى المتحف أكثر من مليونين ونصف مليون لوحة وتمثال .

وعلى المدخل توجد بعض نصائح الإمبراطورة لصديقتها : اخلعى قبعتك . . لا تشربى كثيرا حتى لا تحطمى شيئا . . ابتسمى فإن غضبك يفسد جمال المكان .

ولابد أن تعود بعد هذه الرحلة الثقيلة فى الزمان والمكان إلى الفندق للراحة . . ولكن الراحة ليس لها معنى . . فلا أرجلنا أرهقت ولا أجسامنا . . ولكن فقط لكى نخلع الحذاء الساخن والملابس الثقيلة . . ونرتدى ملابس أخف وحذاء عاديا . . ولا أفعل أى شىء بعد ذلك سوى أن أبقى فى الفندق أنتقل من مطعم إلى كافتيريا . . إلى محل للبيع بالعملات الصعبة . . المحلات مليئة بالسجائر الأمريكية . . الفراء الروسى قليل . . إنهم يصدرونه للخارج . . الكافيار نادر بالعملة الصعبة . . إنهم يصدرونه أيضا . . المرجان والعنبر قليل . . إنهم يصدرونه أيضا . . أو أقبل عليه الناس فلم يبق منه إلا القليل . . لم أتحقق من ذلك .

وفى إحدى الليالى ذهبنا إلى مسرح الباليه ـ شىء آخر هذا الذى يسمونه الباليه . . إن فى روسيا أعظم فرق الباليه . . أحسن راقصات وراقصين . . ولذلك عندما رأيت فرقة كييف فى القاهرة أحسست أننى أتفرج على فرقة البحيرة للفنون الشعبية ـ ففرقة كييف لايمكن مقارنتها بفرق موسكو ولننجراد . . وفى كل مرة كنت أسحب يدى عن التصفيق لفرقة باليه كييف . . لولا أننى تذكرت جملة لأوسكار وايلد يقول فيها : لا تلم العازف على البيانو إنه يبذل أقصى ما يستطيع .

فهم يبذلون أقصى طاقاتهم لكى يمتعوا الناس . . ولذلك يستحقون التصفيق .

وإذا أنت أبديت إعجابك بما حقق الروس وما يحققونه من أعمال فإنهم لا يخفون عنك إنما يريدون أن يفعلوا ما هو أحسن . . ويذكرون لك هذه النكتة : إن أحد العلماء اخترع أكسيرا يعيد الحياة إلى الناس . . وفكر العلماء من الذى يستحق أن يقدموا له هذا الأكسير لكى يعود إلى الحياة . . ثم قرروا أن يعطوا هذا الأكسير للزعيم لينين . . وصحا لينين من الموت وعندما ذهبوا إليه فى غرفته . . لم يجدوه . . وإنما وجدوا ورقة عليها هذه العبارة : قررت أن أعود إلى سويسرا لأفكر فى ثورة جديدة!

حديث البخارى والبخار.. والمآذن والمداخن

كلما شكونا من البرودة قيل لنا : غداً تسافرون إلى الجنوب . . إلى طشقند وبخارى وسمرقند . فهناك ستجدون الشمس ، يا بختكم . . والدفء ، يا سعادتكم . . والفاكهة ، نحسدكم .

ومع هذه الكلمات لمعان فى العين واحمرار فى الوجنتين ، ونشعر بالدفء وإذا شكونا من اللغة قيل لنا ستجدون من يعرف العربية ، أو الذين تعلموا فى الأزهر . . وستجدون نور الدين وقمر الدين وسيف الدين . . ولابد أننا نعرف ذلك فليس من المعقول طبعاً أن يحكم العرب هذه البلاد مئات السنين دون أن ندرى .

ومن المؤكد أننا نعرف أن الإمام البخارى (٨٠٩-٨٦٩) الذى جمع الأحاديث النبوية (٧٣٩٧ حديثاً فى ١٦ عاماً) قد ولد هنا ومات أيضاً . . ونعرف طبعاً الفيلسوف الطبيب ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٦) هو إحدى هداياهم العظيمة إلى الحضارة الإسلامية والإنسانية . . ونعرف أبا بكر الخوارزمى (٩٣٥-٩٩٣) الذى اشتهر بأنه كان يحفظ كل الشعر العربى . . ويقال إنه ذهب لزيارة الصاحب بن عباد . وجاء الخادم ليقول له : إن سيدى لا يقابل إلا من يحفظ عشرة آلاف بيت شعر . فقال الخوارزمى : قل لسيدك من شعر الرجال أو شعر النساء؟ وذهب الخادم يقول لسيده : فكان رد الصاحب بن عباد والله إنه أبو بكر الخوارزمى . . دعه يدخل!

ولابد أن يشعر الإنسان بالدفء الذى معناه أننى لم أعد وحدى مع تاريخ لا أعرفه . ومع لغة لا أدرى منها إلا بعض كلمات الامتنان والترحيب والتوديع . . فقد أقامت هذه البلاد مجدها القديم على حضارتنا . ولا تزال هذه الحضارة باقية بشكل ما : فى الأسماء وفى بعض الكلمات وفى المساجد التى لم نتحمس لرؤيتها فعندنا منها مئات الألوف . وكنت أتمنى ـ طبعاً ـ أن تقع عينى على تلك النسخة النادرة من مصحف عثمان بن عفان الذى نقلوه فى أيام تيمور لنك من مدينة طشقند إلى مدينة سمرقند . ثم نقله الروس معهم إلى مدينة بطرسبورج ـ اسمها لننجراد الآن ـ ١٨٦٩ . وظل المصحف هناك حتى جاءت الثورة الشيوعية فذهب وفد من المسلمين إلى لينين . وطلبوا استعادة المصحف وعاد المصحف إلى متحف طشقند . ويقال إن دم

عثمان مايزال على هذه النسخة . ويقال إن ورق المصحف لا يتحمل اللمس . ولكن استطاع علماء الكيمياء أن يعيدوا للورق حيويته . . وأنه سوف يبقى ألوف السنين . .

ومن الطائرة لا شيء يدل على أننا نتجه إلى الجنوب . . نحن فوق السحاب وفوق السحاب توجد الشمس السوداء التى يصفها رواد الفضاء . والناس حولنا لهم ملامح آسيوية . ولكن هذا لا يدل على شيء فأكثر الاتحاد السوفيتى يقع فى آسيا ولكن هذه الملامح لابد لها الأغلبية البارزة فى جمهورية أوزبكستان (١١ مليون نسمة) . وأهل هذه الجمهورية يتكلمون عدة لغات من بينها الازبكستية .

وبهذه الجمهورية الصغيرة أكثر من مائة قومية . . ولهذه القوميات لغات ولكن هذه القوميات كلها فقد ذابت فى صيغة سياسة واحدة : الاشتراكية ويتحدثون الروسية . وعلى المدى الطويل ـ ولا أحد هنا يستعجل ذلك ـ سوف تذوب القوميات واللغات . هذا لاشك فيه فالروس مثل الأمريكان مشدودون إلى المستقبل وهو الحقيقة المؤكدة عند الجميع . .

ولابد من بعض الأرقام : من بين القوميات الموجودة فى جمهورية أوزبكستان : الأزبك والروس والطاجيك والقوازن والتتار ـ والفتاة التى ترافقنا من أصل تترى واسمها لاريسا بدر الدينوفا صغيرة الحجم لا تبذل أى جهد فى الحركة . فهى خفيفة لا تضيق بما تحمله من ملابس ولا تشكو من المشى أو من التعب أو حيرتنا بين أن نقول لا أو نعم للطعام والشراب ـ أو التركمان وغيرهم .

وهذه الجمهورية تقع على حدود أفغانستان . وكثير من الناس يسألوننى إن كنا من باكستان أو من أفغانستان . ولابد أن يكون سبب ذلك أننا نسرف فى استخدام عبارات : السلام عليكم . . أو كلمات شكراً . . تشكرات . .

المدن الرئيسية هنا عبارة عن واحات فى قلب الصحراء الشاسعة التى مساحتها نصف مليون كيلومتر . وتوصف فى الشعر والأغانى بأنها لؤلؤة الصحراء . . كل مدينة قد اختارت لنفسها هذا الاسم أى أن هذه المدن جميعها حبات لؤلؤ أخضر قد انفرط على بساط أصفر . هذا البساط الأصفر أصفر حار صيفاً (١٥٠ يوماً من العام بلا سحاب) وبارد شتاء . .

وفى المحلات تجد الحلاوة الطحينية . وهذا طبيعى فنحن فى بلاد القطن والبذرة والكسب والطحينة . وهنا يوجد ٧٥ نوعاً من القطن ويصدرون أربعة ملايين طن

سنوياً . والقطن هنا يجمعونه بالآلات . وفى هذه البلاد ملايين من أشجار التوت لأن لديهم ألوف الملايين من ديدان القز . وتصدر ١٩ ألف طن من خيوط الحرير . وهى ثالثة دولة فى العالم بعد الصين واليابان . .

وهنا توجد أحسن أنواع الفراء ـ الذى يصدرونه وذلك لا تجده فى السوق لا بالعملة السهلة ولا بالعملة الصعبة ـ فهنا أغنام الكاركول . . وقد التقطت صورة مع هذه الأغنام . واعترف بأن هذه الأغنام حاولت أن تهرب ولكنى أكرهتها على ذلك . وعوقبت على ذلك بخجلى الشديد . .

فما معنى هذه الصورة لو نشرتها؟! وتكرر شعورى بالخجل مرة أخرى . فقد تذكرت أننى أحتفظ بصورة مع أخت الكلبة لايكا التى عرضها الروس فى جناحهم بالمعرض الدولى سنة ١٩٥٧ فى مدينة بروكسل بعد أن أطلقوا لايكا فى قمر حول الأرض . فمن الممكن ألا تكون أختها أو بنت عمها أو حتى من فصيلتها . . ومزقت الصورتين بعد أن ترك هذا الشعور الخجل العميق فى نفسى . وكلمة «الكاركول» معناها البحيرة السوداء . فهم عندما ينزعون جلد هذه الأغنام يفرشونه على الأرض فى مساحات شاسعة . هذه المساحات تبدو كالبحيرة السوداء المتموجة . . ولكن أهل أوزبكستان استطاعوا أن يولدوا أغناماً وأنواعاً كثيرة : بيضاء وزرقاء وبنية ومنقطة . .

وفى الربيع تصبح الطبيعة هنا وليمة لكل عين . فالفواكه كثيرة ومن الضرورى أن نستسلم للأرقام : يوجد ٦٠٠ نوع من العنب و٢٤٠ نوعاً من التفاح و١٤٠ نوعاً من الخوخ و١٤٠ نوعاً من الكريز و٤٠ نوعاً من التين وتوجد هنا شجرة «العناب» التى كان الفيلسوف ابن سيناء ينصح بتناولها للشفاء من أوجاع ضغط الدم والمعدة . وكان يقول إنها تعطى القوة والشباب . . أما الرمان فقد عرفه الرومان هنا . . وكانوا ينصحون به . . وكان هوميروس أول من نبه الناس إلى ذلك . ومن بعده ابن سينا . . ولأسباب غير معروفة قيل أنه يفتح الشهية الجنسية .

أما البطيخ فهنا مئات الأنواع . . ويقال إن أهل طشقند ـ عاصمة أوزبكستان ـ كانوا يصدرونه إلى بغداد فى علب من الصفيح . وكان البطيخ غالى الثمن . وفى استطاعة أى إنسان أن يشترى جارية جميلة ببطيخة ـ ليس الآن طبعاً! .

انتهت معظم الأرقام . .

ويقول مثل شعبى قديم هنا : صحتى ثروتى . .!

إذن فالناس هنا من أغنى أغنياء العالم ، فكلهم فى صحة جيدة . وإن كان أكثرهم يشكو من أمراض الكلى . . والسبب هو مياه نهرى : أموردرايا وسيرداريا . . ولكن أى إنسان يرتدى الملابس الخفيفة فى هذا البرد ولا يعطس أو لا يصاب بزكام ، فهو من وجهة نظرى فى صحة جيدة . والناس القدامى هنا يرتدون الطاقية ، تشبه طواقى أسوان التى يرتديها الروس ، ويلبسون الجلباب ويلفون حوله الحزام ، وتحت ذلك سروال يشبه سراويل قبضايات الشام أو أولاد بحرى فى الإسكندرية . . والصدر عار رغم البرودة الشديدة . . والنساء يرتدين ملابس مشابهة . . وأزياؤهن الوطنية من الألوان الصارخة ومن الحرير عيبها الوحيد أنها جميعاً من لون واحد ونقشه واحدة . . وكثير من الجيل الجديد يرتدى البدل ، والفتيات يرتدين التاييرات والفساتين الأوروبية . أما الشعر فأسود . . والعيون آسيوية والحاجبان فارسيان أو تركيان . . والشوارب مغولية . . والوجوه ضاحكة . . أو على استعداد لأن تضحك .

إذن هذه طشقند . الشوارع واسعة . العمارات مرتفعة . . والأوناش تعلو وتهبط فى كل مكان . . ولم يعد أى أثر لذلك الزلزال الذى هدم المدينة يوم ٢٦ أبريل سنة ١٩٦٦ . فقد تعاونت كل الجمهوريات الأخرى على بناء طشقند . . جاء الخشب من لننجراد والمسامير من موسكو والعمال من أوكرانيا . وفى ذلك العام سجلت المراصد ٧٠٠ اهتزاز . ولكن الـ ٧٥ ألف أسرة التى شردت ، وجدت لها بيوتاً . وتغطت المساحة التى هدمها الزلزال بالعمارات والمساكن الشعبية (المساحة المهدومة ٢٠ مليون قدم مربع) .

وفى أحد شوارع طشقند يوجد تمثال لأول رائد فضاء : جاجارين هزنى التمثال لأسباب خاصة . فالتمثال يشبه تماماً تلك النقوش التى اكتشفها العلماء فى كهوف صحراء التسيلى فى جنوب ليبيا . . وجه جاجارين وراء الخوذة وقوامه القصير . كأنه هو الذى صوروه من ٢٧ ألف عام فى جنوب ليبيا وبالألوان إن ملامحه ووقفته تشبه ما جاء على لسان أشعياء فى الكتاب المقدس عندما رأى رواد الفضاء لأول مرة عندما هبطوا من السماء بالقرب من بغداد ، ومن ألوف السنين!

وفى طشقند ، كمعظم المدن والعواصم فى الاتحاد السوفيتى ، يوجد مسرح ودار للأوبرا وفرقة للباليه وفرقة للفنون الشعبية ومتحف للينين . فيه كل شىء عن حياة لينين : طفلاً ورجلاً ، حياً وميتاً ، مكافحاً وحاكماً . . صورة ليده وخط يده . . صورة لعربته التى دخل بها لننجراد . . . صورة لجنازته . . وهذه الصور من الممكن أن تضاء وأن تسمع شرحا من خلال جهاز تليفزيونى . . وفى المتحف قاعة سينما رائعة .

ومدينة سمرقند قد احتفلوا بمرور ٢٥٠٠ سنة على إنشائها ، وافتتحوا لهذه المناسبة فندقاً ضخماً ومطاراً عظيماً . وتصادف عندما نزلت فى فندق سمرقند الجديد ، إن كانت هناك مؤتمرات للحزب الشيوعى . وكان معنى ذلك أن يحجز المطعم لأعضاء المؤتمر . أما نحن غير الأعضاء فلنا مكان آخر . . أحسن الطعام والشراب والموسيقى لهم . . أما نحن فعلينا أن نذهب إلى مطعم صغير آخر . . ووجدناه أجمل وألطف فنحن أحرار فى أن ندخل وأن نخرج كما نريد وأن نتكلم أيضاً . ومن المناظر الطريفة أنهم كانوا يعرضون الحلوى أمام الفندق : التورتات والجاتوهات . . هناك تورتة على شكل سفينة القمر السوفييتية لوناخود . . والناس يشترون من أمام الفندق . . فالجو أكثر برودة من أى فريجيدير . والهواء نظيف . ولا داعى لأن يدخل أى إنسان الفندق ما دام كل الذى يريده هو بعض الحلويات . . لا توجد حلويات خاصة ، وإنما يوجد طعام قومى اسمه ببلوف من الأرز واللحم ، لم يعجبنى فاللحمة تحتاج إلى قضم والأرز غارق فى السمن والظلط . . أو لعل الذى اسمه ظلط هو نوع من الأرز المحمر جداً . ربما . . وهناك نوع من الكباب اسمه الشاسكيك . أما الشوربة فهى مقبولة وكلها من البصل والطماطم وتساعد على النوم ـ شكراً لها على ذلك!

الجو دافئ . وفى ذلك الكفاية . أما المساجد هنا فهى لا تهزنى ولكن هذه المساجد لها قصص . فهناك مساجد لها مآذن منفصلة . بعيدة عن المسجد نفسه . واحدة منها قد مالت ، مثل برج بيزا الإيطالى ، وقومها المهندسون ، هناك مسجد له سلالم . والذى يخطئ فى عددها فهو إنسان خاطئ . . أى له خطايا . ومن الذى بلا خطايا؟ وهناك مسجد عليه عبارات للفيلسوف الإغريقى سقراط وباللغة العربية . . يقول سقراط : الدنيا فانية ـ عبارة عادية لا تحتاج إلى أن ننسبها إلى سقراط .

وهناك مسجد دفن فيه تيمورلنك . وقد نصح بألا ينبش أحد قبره . ولما نبش الروس قبره سنة ١٩٤١ اشتعلت الحرب الثانية . ولكن اكتشف العلماء أن تيمورلنك فعلاً كان أعرج ، أو كانت له ساق أقصر من الأخرى ـ مثل مارلين مونرو!

وهناك مسجد فى مدينة بخارى كان الناس يلقون فيه بشكاياتهم إلى صاحب الضريح ، وكان صاحب الضريح يجيب على رسائلهم كتابة ، واكتشفوا بعد ذلك أن رجلاً آخر هو الذى يفعل ذلك!

أما الرجل الذى ضرب الأرض فأخرجت ماء ، فاعتبره الناس من أولياء الله الصالحين . فما أعظم الماء لأناس يعيشون فى الصحراء . وأقاموا عليه مسجداً . وأقاموا بيوتهم حوله ، ولكن الماء لم يعد يخرج من الأرض . . ولكن على مدى أمتار وكيلومترات توجد أكبر محطات توليد المياه والكهرباء فى كل الاتحاد السوفييتى . فالماء يخرج من الأرض ومعه الكهرباء ، وما لا نهاية له من أشجار القطن والفاكهة والأعشاب .

وفى «المدرسة» المشهورة يوجد عدد من الطلبة الذين يدرسون الشريعة الإسلامية . فبعضهم كان يدرس فى القاهرة . وقد حملونى السلام والتحية إلى أساتذة لهم فى الأزهر . وكلية الشريعة ودار العلوم . وعندما أبديت لهم عدم معرفتى بكل هؤلاء الأساتذة اندهشوا جداً كيف لا أعرف الدكتور عبدالسلام والدكتور عبدالحميد . . وكان لابد أن أؤكد معرفتى الشخصية بهم ولو اتسع الوقت لتطوعت بنقل إعجاب هؤلاء الأساتذة بهؤلاء الطلبة المخلصين الذين يسجلون القرآن على أشرطة . بعض هذه الأشرطة نقلوها من إذاعة مكة . وأكثرهم لا يفرق بالضبط بين صوت الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ الحصرى . . ولكنهم جميعاً يستمعون إلى إذاعة صوت العرب . . أما الصور التى على الجدران فى غرفهم الخاصة فهى لجمال عبدالناصر . . وكان حزنهم عليه عميقا!

وأمام المدرسة توجد محلات لبيع الأقمشة والفاكهة ، وطلبت من المترجمة أن تسأل عن : تفاح الأمير . . وسألت : وكانت الدهشة على وجوه الناس تؤكد عدم الفهم . . وعادت المترجمة تسألنى : صحيح ما الذى تقصده بتفاح الأمير؟

فقلت لها : إننى فقط أحاول أن أكون ظريفاً . .

فقالت : ولكنهم لم يفهموا . عندهم نفس الاستعداد . . بشرط أن نتفق على معانى الألفاظ!

معك حق فنحن لم نتفق على معانى الألفاظ ، لا هنا ولا فى أى مكان فى العالم . وإلا ما معنى هذه الكلمات : الحرية . . الواقعية . . الديموقراطية . . الاشتراكية . . العدوان . . السلام . . الحرب . . وألف كلمة أخرى!

وكل الذى أردت أن أقوله هو إن عندهم حكاية عن أحد حمامات السباحة . . وكان الحمام يموج بالفتيات الجميلات العاريات . وكان إذا أراد أن يختار منهن واحدة ألقى عليها تفاحة . . فتأكل التفاحة وتخرج ليأكلها الأمير . . ويبدو أن الأمير قد أخذ معه التفاح والفتيات الجميلات . . وبقى الحمام جافاً!

وضحكت بائعة التفاح عندما شرحت لها النكتة و«الخلفية» التاريخية للأمير . . وضحكت أنا أيضاً : أن بائعة التفاح قد ضحكت لأنها لم تفهم النكتة ممكن!

وليس من المعقول طبعاً أن أربط المرافقة والمترجم ، الاثنين معاً ، فى الراديو ليترجما لى كل الأغانى التى لا تتوقف من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل . أما نشرة الأخبار فقد ترددت فيها كلمات أعرفها ، وأعرف الموضوع طبعاً : الرئيس السادات . . الرئيس بودجورنى . . أسوان فالمناسبة عن احتفالات السد العالى .

أما الأغانى ذات الموسيقى الشرقية الجميلة الشجية فقد سمعت أصواتاً أخرى كثيرة مشابهة لها : الأغانى التركية والفارسية والهندية . إنها ليست غريبة عن أذنى ولا عن قلبى . . وهى أيضاً حزينة . وكل أغانى الحب لا تخلو من الحزن : الحب والشوق إلى المحبوب والخوف على الحب من الزمن والخوف من الزمن على حياتهما معاً ، وعلى الأسرة والمستقبل . . إنها أغنيات شرقية صميمة أى عميقة الحزن والأسى!

وفهمت من الشبان الأدباء الذين قابلتهم أن كل شىء يتغير نحو الأحسن وأكثر شىء أسعدنى أن وجدت بعض كتبى فى أيديهم . وأن واحداً منهم بعد رسالة جامعية عنى - إننى أعلو على الأرض بضعة أمتار من الفرحة - ولم أعرف ما الذى أصنعه فى مثل هذه الحالة سألت إن كان من الممكن تقبيله على وجنتيه كدليل على فرحتى به . . أو بنفسى . فقيل : إنه من الممكن أن أقبله فى وجنتيه وفى شفتيه أيضاً وفعلت!

وفى إحدى الليالى والموسيقى والكلام الحزين الذى لا أعرف معناه أمسكت كتاباً عنوانه «رسائل عن الحب» وباللغة العربية . والمؤلف اسمه عادل طوطوى وهو أديب تترى والكتاب طبعت منه مليون نسخة ثم حوله عبدالرحمن منسكى إلى مسرحية . وحوله الموسيقار جودة فيظى إلى أوبرا .

الكتاب تحفة أدبية رقيقة حزينة ومليئة بالإيمان بالمستقبل . والأمل فى مجتمع أفضل ما دامت الأسرة قائمة على الحب وعلى الأبناء وعلى حب الوطن والكتاب رسائل كتبتها فتاة اسمها عالية إلى حبيبها إسكندر . الفتاة أحبت إسكندر وأنجبت منه فتاة اسمها قدرية . . وولدين آخرين . . وانفصل الزوجان ولكن الزوجة كينبوع ماء عميق . . ولأنه عميق فإنه يندفع إلى أعلى بقوة . . فهى مندفعة دائماً إلى أعلى . . إلى السماء . تقول الفتاة أنا الفتاة اليتيمة التى لم تر السعادة إلا فى الخيال ، ولم تقرأ عنها إلا فى الأساطير ، وكثيراً ما أغرتنى أحلام اليقظة .

وتقول عالية : «إن الحب يضفى على المرء مزيداً من الجمال . . فحينما ولا نفكر إلا فيه ، ذلك أن سعادة الحاضر وإيماننا بغدنا لا تتركان لنا مجالاً لنذكر ما مضى من لحظات . . فالتفكير فى الماضى يبعث على الحزن واليأس . .» .

وعندما تحدثت عن حبها لزوجها ، أو للرجل الذى أصبح بعد ذلك زوجها تقول : إننى أتذكر ما قاله الشاعر عبدالله توقاى الفازانى (١٨٨٦-١٩١٣) .

تكتمت هذا العذاب الذى

يحرق فى مهجتى إذ سرى

تكتمته وأنا حائر .

ترى هل سواى بهذا درى؟!

وتقول عالية : إن الحب يضفى على المرء مزيداً من الجمال . . فحينما دخلت الغرفة ، بعد أن قبلتنى ، بادرت إلى النظر فى المرآة ولأرى وجهى . . وجدت خدين كتفاحتين ، وعينين متألقتين . وقلت لنفسى : إننى حقاً جميلة . . إن كارل ماركس نفسه ، ورغم أعبائه ، كان يجمع الأغانى الشعبية ويهديها إلى زوجته مع هاتين الكلمتين : «هدية لقلبى!» .

وتقول : إننى أصدق ما قاله الكاتب الفرنسى أناتول فرانس «لكى تحب حقيقة ، يجب أن تحب كثيراً . . نعم كثيراً لا كثيرات . . ولا كثيرين؟!» .

وتقول : كنت أظن أول الأمر أن الحب سوف يعطلنى عن درسى ، ولكن الحب الحقيقى مرتبط بحب العمل أيضاً ولذلك كنت أشعر بقوة جديدة كلما رأيتك . . فالمحبة الحقيقية لا تطور الإنسان فقط ، وإنما تطور البلاد أيضاً . .

ومن أعجب ما جاء فى هذه القصة الجميلة أن عالية هذه اتفقت مع زوجها على شىء غريب . اتفقا على أن يكون هناك «دفتر للعائلة» يكتبان فيه متاعبهما اليومية . ثم كيف استطاع كل منهما حلها . وهذا الدفتر هو سجل لماضى هذه الحياة وعليهما أن يتركا ذلك لأبنائهما . فإن كان الذى جاء فى الدفتر معقولاً استحق الاثنان من الأبناء كل تحية وتكريم . . وإن كان ما جاء به سخيفاً ، ففى ذلك ما يضحك الأبناء والأحفاد بعد ذلك . . ولكن الزوج رفض هذه الفكرة . وقال إنها خيالية سخيفة . . ولكن الزوجة أصرت على ذلك . . وكتبت لأبنائها فالمستقبل هو ما يشغلها . والمستقبل هو كيف تكون أسرة وكيف تخرج منه أسرة أفضل . . شعب أفضل .

ولكن الزوج من رأيه أن المستقبل لأبناء المستقبل . أما أبناء الحاضر فعليهم أن ينشغلوا بأن يجعلوا أيامهم أحسن من ماضيهم . . بأن يجعلوا المداخن أكثر والمزارع أوسع والصحة أقوى والتفاهم أعمق . .

وهناك أسطورة روسية تقول إن فلاحاً ذهب يبيع أوزة فى السوق وسبقته الأوزة . واتجهت إلى رجل من المثقفين وسألته : يا سيدى ارحمنى من هذا الرجل . إن أجدادى أنقذوا مدينة روما من الدمار . فقال لها المثقف : أجدادك أنقذوا روما . ولكن ماذا صنعت أنت؟

قالت : إن أجدادى يستحقون الاحترام . . وأنا أيضاً . وقال الرجل : فعلاً أجدادك يستحقون الاحترام . . ولكن ما شأنك أنت . . أنت تستحقين البيع والذبح والأكل بعد ذلك!

ثم هذه النكتة الروسية أيضاً : يقال إن أحد القادة السياسيين جمع حوله الناس وراح يخطب فيهم فقال : فى السنة القادمة سوف يكون لكل مواطن موتوسيكل . . وفى السنة التالية سوف تكون عنده سيارة . . أما فى نهاية الخطة الخمسية الأولى فسوف يكون لكل مواطن طائرة .

ثم جلس الخطيب . وسأله أحد المواطنين : ولكن لماذا طائرة؟

وكان رد الخطيب : لكى يتمكن من شراء التفاح من جمهورية أخرى!

نصيحة : سافر بلا حقائب.. هذا أفضل

عندما ذهب الأديب جوركى لزيارة تولستوى ، اطلق عليه تولستوى عشرات من الأعيرة النارية ، أقصد الأسئلة : ما رأيك فى نفسك . ما رأيك فى زوجتك؟ هل تعتقد أن ابنى موهوب؟ هل أنت راض عن نفسك؟ ما هى آخر قضية تناقشها وسوف تعرضها فى قصة؟

يقول جوركى : وأحسست أن هذا الرجل لا تربطه بى أية علاقة إنسانية . . إننى عينة بشرية فى أحد معا مله وأننى تحت التجربة . . وأنه يفكر أكثر مما يجب . ولعنت فى سرى صناعة الأدب التى تجعل رجلا عبقريا مثل تولستوى بهذه الوحشية .

ويقول جوركى : إننى أتذكر عبارة للفيلسوف الألمانى نيتشه يقول فيها : «إن كل إنسان هو عبد ذليل لأحد المبادئ الأخلاقية . . أما أنا فأقول إن الأديب خادم لمومس . . لا يحترمها ولا يحبها . . وأكثر من ذلك أنه لا يعرفها . . لماذا؟ لأنه من الضرورى أن يقول . . وإذا حاول ألا يقول ، فإنه سوف يقول ذلك مرة أخرى!» .

أى أننى لابد أن أقول . . لابد أن تتحول الدنيا إلى كلمات . . والناس إلى حروف . . وقطرات العرق والدموع إلى نقط وفوق وتحت وبين الحروف .

وأصعب من ذلك أنه لابد لى أن أختار من الذى أقول عنه أو تقول عليه . . أو أقوله . . لقد قابلت الكثيرين . . وأكثرهم لم يترك فى نفسى أثرا عميقا لم يتسع لنا الوقت أو اتسع الوقت ولم يتسع الصدر . أو اتسع الصدر ، واعتذرت اللغة التى لا أعرفها ، أو التى لا يعرفها . . والنية الطيبة لا تصنع أدبا!

ولابد أن أختار . . كيف؟

تقول ملحمة روسية قديمة عن الأمير إيجور إن الساحر العظيم كانت له طريقة فريدة فى اختيار الشخص الذى يغنى أو يتغنى بالتاريخ المجيد للأمير وأسرته ، وكان الساحر يتسلل إلى أحد الأشجار . ومن هذه الشجرة يطلق عشرة من النسور . . وقبل أن تنطلق النسور يطلق أمامها عشرات من طيور البجع . . والبجعة الأولى التى تقع فى مخالب أمهر النسور هى التى يجب أن تغنى . . أى أنه يحكم عليها أن تغنى . ومحكوم عليها مرة أخرى أن تغنى أمجاد أسرة الأمير . . أو بطولات التاريخ الروسى القديم .

ولم أجد أننى فى حاجة إلى سحر ساحر ، ولا إلى براعة النسور . . فطيور البجع هناك . . فى كل مكان أسأل أى إنسان وأنت تعرف حكاية هولاء الناس .

أول واحد . . كان أديبا قادما منذ أيام من فيتنام . . اسمه ماريك من أصل بولندى . . شعره أسود تدلى على قفاه . . إنه ليس أحد الخنافس ولا هو يقصد إلى ذلك ، وهو فى غاية الهدوء ويتكلم الفرنسية ، وتحس أن كلمة «فنان» تنطبق عليه تماما ، هذا إذا كان المقصود من هذه الكلمة أنه إنسان بسيط . . وأن هذه البراءة والطفولة التى على وجهه هى طبيعته ، وليست قناعا أعد لاستقبالنا ، ويبدو أنه أحس أن اللغة الفرنسية تسعفه فى الدلالة على طبيعته أو على مدى محبته لفيتنام . . أو اندماجه فى صراعها ، أو فى الكتابة عن هذا الصراع ، فقد دعانا إلى بيته ، إنه أول روسى يدعونا إلى بيته مع الأسف . . وهو يسكن فى شقة صغيرة من ثلاث غرف صغيرة . الشقة كلها تؤكد أنه أحد السعداء بخراب بيت فيتنام ، فقد جمع من آثارها الشىء الكثير ، من بيوتها ومتاحفها ، ونقل ذلك إلى بيته وعلقه على الجدران مع عظيم الاحترام والامتنان لا أعرف ربما كانت هذه التحف عهدة لديه ، وسوف يعيدها إلى فيتنام بعد إزالة آثار العدوان الأمريكى عليها ، ولكن لم أفهم منه ذلك ، وإنما أنا أجتهد فى تفسير هذا المتحف الصغير الذى فوجئت بوجوده ، إحدى الغرف مكتبه والغرفة الثانية للنوم ، أما الغرفة الثالثة فهى المطبخ ، وهى أبسط وأجمل غرف البيت ، فالمنضدة الصغيرة ، التفتنا حولها أما الجدار الذى وراءنا فقد ازدان بزجاجات الشراب الفارغة من كل الألوان والأحجام والبلاد . أما الطعام الذى أمامنا فيمكن أن يوصف بأنه ترجمات مختلفة لكلمة واحدة هى : الشطة . . ولكى أكون أمينا فإننى لا أقول إنها ترجمات وإنما هناك اقتباس خفيف واقتباس عنيف فالفودكا قد وضع فيها الفلفل . . والجبنة قد وضعت فيها الشطة ، والسمك قد حشاه بالفلفل الأحمر والشطة والبصل والثوم . . والصلصة إن لم تكن من النار الخضراء ، فلابد أنها من الخضراوات النارية . . والبيت دافئ جدا ، وتعالت صيحات الألم : آه . . أف . . النار . . ويبدو أن صديقنا الأديب الروسى قد توقع ذلك ، فأعد لهذه المناسبة زجاجات المياه المعدنية .

وهو روسى أولا وآخرا . . ولذلك يجب أن ترتفع الكئوس فى أيدى الحاضرين ليشربوا فى نخب الصداقة والمحبة والسلام ، وكانت الكئوس ترتفع لتسقط بسرعة . . ولا تلبث أن تتراخى فى الارتفاع ، وعمليات النفخ والصراخ فالكئوس تمشى فى اتجاهين متضادين : النفخ فوق والأكواب تحت!

كان رقيقا هذا الأديب السوفييتى وبلغ من رقته أنه جاء لوداعنا . . أشكره ألف شكر على ذلك . . فقد كان مريضا . . ورغم مرضه الذى احمرت له عيناه وشفتاه ووجنتاه وأنفه أيضا . فقد جاء ليقول لنا : إلى اللقاء وهزنى موقفه هذا . . ولما قلت له ما كان ينبغى أن تكلف نفسك كان هذا التليفون يكفى . . ولكنه قال : آه لو تعلم . . إننى مصاب بأنفلونزا آسيوية!

يا نهار أسود . . أنفلونزا ؟ ألم يجئ إليك تقرير من القاهرة يقول لك أننى من أشد الناس خوفا من الزكام ألم يترجموا لك أننى عندما جئت إلى موسكو منذ خمس سنوات زففت إلى الناس اكتشافا عظيما : أن ميكروب الزكام لا يعيش فى الجو البارد تحت الصفر ، وأن شجاعتى فى الخروج إلى الشارع فى موسكو وبلا جوانتى سببها إيمانى الشديد باستحالة الزكام . . إنها كارثة إذن . . سوف أصاب بالزكام وأظل نائما فى غرفتى كل الأيام الباقية من هذه الدعوة الكريمة لا أعرف ما الذى فعلته عندما سمعت منه ذلك . . ولكن فككت العناق الحار وانطلقت إلى الشارع لكى أقضى على الميكروب فى الجو البارد . . واكتشفت أنه من الممكن أن أقضى على الميكروب بأسلوب آخر . . يكفى أن أموت أنا ، فلا يجد الميكروب ما يعيش عليه ، وبذلك أنجو من الزكام!

ثم عدت من الخارج لأعطيه يدى وأشكره على روحه النبيلة . . وفى ذهنى معنى هو خلاصة مركزة لخيبة الأمل : فقد عرفت الآن أن ميكروب الزكام يعيش وينتعش تحت الصفر ، وهذا الأديب دليل على ذلك .

وتخيلت أننى أخرجت من جيبى ورقة كتبت عليها أسماء بعض الناس . . ثم أخرجت من جيبى عود كبريت وأحرقتها . . وتخيلت أن ساحرا أعطانى نايا ورحت أقلد نيرون سعيدا باحتراق كل هؤلاء الناس الذين دعونى لزيارة روسيا!

ومن العجيب أننى لم أصب بالزكام حتى وضع هذه النقطة فى نهاية هذا السطر .

كان فى نيتى أن أكتب عن فرحتى بلقاء الشاعر الفلسطينى محمود درويش وكيف أمضينا ساعات فى موسكو نتبارى فى اليأس . . ثم توقفت عن هذه المباراة . . لأن التوقف معناه أننى يائس من المباراة فى اليأس .

لقد تفوقت عليه!

* * *

وعلى مدى خمسين كيلو مترا من مدينة لينينجراد ذهبت لزيارة أحد قصور الثقافة . . أو إحدى استراحات الأدباء . . فالأدباء يذهبون إلى هذه الأماكن

«ليفرخوا» أفكارهم . . أما الأديب الذى سافرنا إليه فهو من الإسكيمو . وقد سمعنا قصته على مسمع منه . . فهو من أسرة بدائية ، علم نفسه وساعدته الدولة ، وهو أحد مؤلفى القصة القصيرة المشهورين ، وقد استمعنا إلى إحدى قصصه من إذاعة صوت العرب ، زوجته روسية ، وابنته كانت تجلس معنا وأبوها يسمح لها بأن تشاركه فى شرب النبيذ ، وفجأة تحول الكلام إلى الجنس . . وكان مكشوفا ، وقد رفضت المرافقة لنا أن تترجم النكتة النابية جدا التى قالتها زوجة الأديب . . وهنا تحرج الأب ، ولم تتحرج الأم ، وطلب إلى ابنته أن تخرج لأى سبب ، كأنه فلاح من أرياف القطب الشمالى . . ولم نناقشه فى هذا التصرف . . ولكن فهمنا أنه ككل أب محافظ أو أن هذه الروح المحافظة مسألة مرحلية حتى تكبر البنت ، وتتسلم حصتها من الحياة والحرية كأى إنسان بلغ سن الرشد!

ويبدو أن الأديب لكى يتمكن من الخلق والإبداع محتاج إلى هذه العزلة التامة ، وقد يبقى هنا أياما أو شهورا ، وله حجرة وحمام . . وغيره فى هذا البيت كثيرون . . أما الزوجات والأولاد فيجيئون فى نهاية الأسبوع وبعد ذلك يتركون الأديب ينفرد بنفسه وبفنه . . وهى عزلة عن المجتمع لكى يعود إليه . . أو لكى يعود بصدى المجتمع إلى المجتمع فالفن صوت المجتمع وصداه أيضا!

وتلفتنا نحن بعضنا إلى بعض ودون أن ينطق واحد منا بكلمة تنهدنا معا وقلنا : يا ريت!

ولم نتفق على معنى «ياريت» هذه . . فنحن أمام غرفة دافئة . . وأمام طعام بسيط . . وأمام أب من الإسكيمو . . وفى قصر كبير . . وفى غابة جليدية . . وجو صحى . . وهدوء عميق . . ورجل يكتب . . أما الذى دار فى رأسى فهو : يا ريت أشوف أديبا أكبر!

وخطر لى أن أطلب رؤية الأديب الروسى الكبير شولوخوف مؤلف «نهر الدون الهادئ» والفائز بجائزة نوبل ، وأعلنت عن هذه الأمنية .

ولكى تعرف غرابة هذه الأمنية وشذوذها ، دعنى أنتقل إلى محطة مصر بالقاهرة ، تخيل الآن تلميذا جاء من أقصى الصعيد ، ونزل من القطار وخرج إلى ميدان المحطة وأول شيال رآه سأله : قل لى يا عم هو فين بيت طه حسين؟!

كأننا هذا التلميذ الصغير وكأننا طلبنا شيئا خرافيا . . والحقيقة لم أفهم أين هى الخرافة؟ فنحن لم نطلب رؤية تولستوى الذى مات من ستين سنة . . ولا أظن أن المسافة

بيننا وبين شولوخوف بعيدة إلى هذه الدرجة فلا هو كبير جدا ولا نحن صغار جدا . . ولذلك تعاونا جميعا على دفن هذه الأمنية . . وأجلناها إلى ما بعد وفاة شولوخوف!

* * *

فى طشقند كان المرافق لنا ابناً لأحد رجال الدين المسلمين . . والطاقية التى على رأسه دليل على ذلك . وقد وعدنا برؤية والده فى أقرب فرصة ولا أذكر الآن لماذا لم نتمكن من ذلك . . وكان من نصيبى أن ننام فى غرفة واحدة . . ولم أتصور أنه ظريف ومرح إلى هذه الدرجة .

وفى إحدى الليالى تمددت على سريرى . . وتمدد هو على سريره . وأخرج من جيبه ورقة يقرأ فيها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . . «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله» ، وكان ينطقها بصورة مضحكة . وكنت أصوب له طريقة النطق ، أما المعنى فهو لا يعرفه ولا يعرف من اللغة العربية إلا الكلمات التى بقيت فى اللغة الزبكية .

أما لغته الإنجليزية فهى أقرب إلى الأوامر العسكرية ، فقد أخرج من حقيبته كتابا فى اللغة الإنجليزية ، وفجأة جلس على السرير وقال : القراءة أى سأبدأ فى القراءة وقرأ وصوبت له نطقه .

وبعد أن قرأ اعتدل على السرير ليقول : المعنى ـ أى أرجوك أن تشرح لى المعنى .

وبعد أن شرحت له المعنى تمدد وألقى بالكتاب على الأرض وهو يقول : النوم ـ ثم نام!

أما اسم هذا الشاب الظريف فهو : نور الدين سيف الدين ، ولكنه لايعرف كيف ينطقها وإنما يقول : نور الدين زيف الدين . ولما شرحت له الفرق بين زيف الدين وسيف الدين عدل تماما عن النطق القديم . وأخذ يسألنى عن كثير من الأسماء والكلمات العربية والإسلامية الموجودة فى لغته ، صححت له نطق كثير من هذه الكلمات ـ صححتها لشخص واحد سوف ينساها بعد سفرى .

وسألنى : ماهى بالضبط ملامح العربى؟

فقلت له : بالضبط كملامح السوفييتى .

وقال : ولكن السوفييتى ليست له ملامح واحدة . . لأن السوفييت كلمة سياسية .

فقلت : وكذلك العربى . . فنحن ـ مثلكم ـ خليط من أجناس وألوان أوروبية وآسيوية وإفريقية . من ألوف السنين!

وسألنى : هل تتزوجون أكثر من واحدة؟

قلت : ممكن . . ولكن ليس كثيرا .

– والطلاق ممكن؟

– طبعا .

– وكل الناس يصلون فى المساجد؟

– بعض الناس .

وفجأة جلس على السرير ليقول : القراءة .

فصرخت : النوم!

وأول مصرى يدعونا إلى بيته كان الهادى كامل أنور ـ ابن الفنان الكوميدى المعروف ـ أما خطابات الأب فهى صفحات من أدب الدنيا والدين مليئة بالآيات والأحاديث . . وكلها تدعو الابن إلى التمسك بالعروة الوثقى . . بحبل الله . وأن من جد وجد . . واغسل يديك قبل الأكل وبعده .

وهذا الشاب ليس فى حاجة إلى أن يشرح لك طيبة قلبه وصفاء نفسه وإيمانه بالله ، وتقديسه لوالديه فكل ذلك واضح ، ولا يتعب من أن يقول : إن والدى قد تعب كثيرا ولايزال ، وأنه يستحق التكريم . . وربنا يقدرنى!

وكان من الواجب أن نتناول الغداء عنده واعتذرنا ، ولابد أنه أدرك المعنى فقال : الحمد لله . . مستورة والطعام هنا متوافر . . ولن يكلفنى أى شىء . . وإلى جوارى توجد جمعية استهلاكية ضرورى من الغداء وسوف أطبخ كل شىء بنفسى . . فقد تعلمت من والدتى كل شىء . . وآخر خطاب تلقيته منها كان عن كيفية صناعة «كباب الحلة» .

وكانت فرصة أن نزور بيت مبعوث مصرى يجاهد فى سبيل العلم ، وقد وفقه الله إلى كثير مما يريد ، فهو يتكلم الروسية بطلاقة ، وهو متقدم فى علومه ويلقى التقدير من أساتذته . حتى شريكه فى الغرفة الصغيرة فهو يتركها له معظم الوقت . . أما الغرفة فهى صغيرة جدا . . سرير له على هذا الجانب ، وسرير آخر لزميله الروسى . والمكتب يشغل ربع الغرفة ، والربع الثانى يحتله الدولاب . . وفى الوسط انحشرت منضدة وحولها تزاحمنا . . وعلى موسيقى غناء أم كلثوم انتظرنا . . وواضح جدا أنه هو الذى أعد كل شىء فالأطباق غسلها ولا تزال مبللة . . وقد تعاونا على تجفيفها . . والملاعق أيضا . . وبين الحين والحين يؤكد لنا : حالا . . سوف نتناول غداءنا . . بالهنا والشفا . . إننى أجتهد فى الطبخ . . ولكن سيكون لذيذا إن شاء الله .

وطلب إلينا أن ننهض لكى يتحرك فى الغرفة . . وفتح الدولاب . . وسحب أحد الأدراج . . وأخرج منه صينية بطاطس . . وكان لابد أن نضحك . . ويسحب الدرج الآخر وأخرج كباب الحلة . . والدرج الثالث وأخرج الصلصلة . . ووقف على الكرسى ليسحب طشتا صغيرا به أربع دجاجات محمرة . . والله العظيم ثلاثا لابد أن ننتهى من هذا كله . . وقبل أن يجلس سحب كوما صغيرا من الأرز المسبك من تحت السرير!

وكان الطعام لذيذا شهيا وكثيرا . . وجاء الشاى الأحمر اللون بالنعناع يغطى على التفاح والجاتوه . . وكان من الصعب أمام هذه الأيمان المغلظة وهذه الروح الريفية السمحة . . أن نرفض أى أرز أو بطاطس أو بومبون بعد كل هذا!

* * *

انكسرت اللمبة الموجودة فى أعلى سريرى فى فندق سمرقند الجديد . . وقيل لى فى ذلك الوقت : هل المشرفة على هذا الطابق قد دخلت معك الغرفة . . فقلت : لا . . فقيل لى : إذن هى لا تعرف إن كانت اللمبة مكسورة قبل أو بعد مجيئك . . قلت : نعم .

وجمعنا الزجاج المكسور وألقيناه فى البلكونة . . ولم يتسع وقتى لكى أفكر مرة أخرى فيما حدث ، فقد كان من الأكرم أن أخبرها بذلك ، حتى لا يدفع ثمن اللمبة إنسان آخر لا ذنب له ، وإن اعتذرت عن ذلك من كل قلبى!

وفى مدينة طشقند تجمعنا فى إحدى الغرف وشربنا الشاى . . ونقلنا الأكواب من غرفة إلى غرفة أخرى . . وقبل منتصف الليل عاد كل منا إلى غرفته ، وعندما دخلت الفراش لأنام نهضت لأعرف من الذى يدق الباب ، وكان المترجم وفى يده الأكواب التى نقلتها من غرفتى . . وقبل أن أستوضحه قال ضرورى أن تعود هذه الأكواب إلى غرفته حتى لا تضايقك المشرفة على هذا الطابق!

وجاء النوم يحول بينى وبين التفكير فى هذا التصرف ولكنى عرفت المعنى بعد ذلك وفى آخر يوم فى موسكو . . فقد خرجت من الفندق فى ساعة مبكرة وجاء من يحمل الحقائب . . ودخلت سيدة ونظرت فى كل محتويات الغرفة ، البطاطين والملايات والأكواب والبراد والصينية والشماعات . . وجهاز التليفزيون . وقالت : هذا التليفون قد سقط منك على الأرض؟ فقلت لا . . لا أظن ذلك . .!

وخرجت . . وعرفت أنه من الضرورى أن يجىء من «يتمم» على محتويات الغرفة قبل سفر أى نزيل . . وإلا فلن توقع بإمضائها على تصريح الخروج بالحقائب من الفندق!

وقبل أن أذهب إلى مطار موسكو عائدا إلى القاهرة ، فمن المناسب جدا أن أنقل كلمات للرحالة الأندلسى ابن جبير الذى زار مصر فى نهاية القرن الثانى عشر ، يقول ابن جبير عندما رأى رجال الشرطة والأمن يفتشون المسافرين إلى الأراضى الحجازية عبر النيل ، يقول ابن جبير : ومن اشنع ما شاهدناه خروج شرذمة من أعوان الزكاة فى يد كل منهم «مسلة» طويلة . . كانوا يصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها . . فلا يتركون «عكما» أى غرارة إلا ويتخللونها بالمسلة الملعونة مخافة أن يكون فى تلك الغرارة التى لا تحوى سوى الزاد ، شىء أخفيناه عليهم من بضاعة أو مال . . وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث ، وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف عن شىء يرجى ستره» .

أما نحن فى مطار موسكو ذهابا وإيابا فلم تنفتح لنا حقيبة .

ولكن عندما عدنا إلى مطار موسكو كنا فى حاجة إلى ابن جبير . . فقد كان يودعنا أحد كبار اتحاد الكتاب السوفييت . . لقد جاء إلينا فى الفندق . وانتظرنا ، ورافقنا . . وأمام الميزان ارتفعت الحقائب . . أما أنا فقد أشار الموظف المسئول إلى ضرورة أن أدفع ١٢٠ روبلا . أى روبلين مقابل كل كيلو زيادة فى الوزن . . مائة وعشرون روبلا فى المطار؟ يا خبر . . أين هذه الزيادة فى الوزن : حقيبتان ظننت بالحداقة أننى سوف أستغفل موظفى المطار وأحملهما معى فى الطائرة . . ولا داعى لمعرفة وزنهما . . والحقيبتان فيهما كتب ـ نعم كتب اشتريتها بفلوسى . عن روسيا وعن الحياة الأدبية والفكرية ـ أى والله أنا حر طبعا ـ وكان فى استطاعتى ألا أفعل ذلك .

ولكن لابد من وزن الحقيبتين . . ولابد من وزن كل ما يحمله المسافر . . وليس من حق المسافر أن يقرر إن كانت هذه الحقائب سيضعها فوق رأسه ، أو إلى جواره . . وإنما موظف الميزان هو الذى يقرر ذلك . . أما إذا لم أستطع أن أدفع المبلغ ، ففى الإمكان ترك هذه الحقائب فى المطار ، على أن تصلنى فيما بعد ، أما العجز عن الدفع فمعناه : تكون معى فلوس روسية ، أو فلوس صعبة أغيرها فى المطار . . أو يتعذر وجود مصرى واحد أقترض منه على أمل أن أدفع له فى القاهرة . . أو يدفع له أحد المبعوثين فى موسكو . . وأدفع أنا لأهله فى القاهرة . . وأبعث الحقائب إلى القاهرة ، وأبقى أنا فى موسكو .

وتطلعنا إلى مندوب اتحاد الكتاب السوفييت . . وكان سعيدا جدا وسارعنا إلى ترجمة هذه السعادة . . بأنه لا خوف علينا فسوف يحل هو هذا الإشكال . . إيه يعنى مائة روبل من أجل أديب غلبان ضيف على الاتحاد السوفييتى . . ثم إن هذه ليست عقبة أمام كاتب سوفييتى كبير . . ووقفت أمام الميزان ، ووقف الناس وراءنا ينتظرون ، وتساءلنا : ما الذى ننتظره؟

وكان مندوب اتحاد الكتاب أسرعنا إلى الجواب : ادفعوا وسوف ينتهى كل شىء ويتحرك الطابور .

ودفعت وتحرك طابور من اللعنات فى داخلى .

وفى الطائرة أدركت أن الحق ليس معى . . فالقانون هو القانون . . والأصول هى الأصول . . وتساءلت إن كنا فى مصر نعامل الأدباء السوفييت بنفس الطريقة . . فقيل لنا : لا . . فقلت : إذن أنتهز هذه الفرصة لأحيى فى الأدباء السوفييت حرصهم ، فى كل الظروف ، على تطبيق القانون . .!

هذه النكتة ليست لها علاقة مباشرة بما حدث فى مطار موسكو :

يقول الكاتب الأمريكى آرثر ميللر إنه سمع هذه النكتة من السيدة جاليا زوجة الشاعر الروسى يفتشنكو . . تقول جاليا : إن زوجها يعتقد أحيانا أنه مشهور جدا . . وأن هذه الشهرة تبرر الكثير من تصرفاته التى لا تعجبها . . فهو إذا ذهب إلى المطار يندهش إذا أحد سأله عن اسمه أو عن جواز سفره . . وفى إحدى المرات كان يقود سيارته . . فكسر الإشارة وانطلقت صفارة عسكرى المرور . . واستوقفه وطلب منه الرخصة . . وهنا نظر الشاعر إلى زوجته وقال : سوف ترين ما الذى يفعله العسكرى عندما يعرف من أنا .

وفعلا سأله العسكرى : أنت يفتشنكو؟ فقال الشاعر سعيدا : أنا . .

وعادل العسكرى يقول له : كيف تكون يفتشنكو وترتكب مثل هذه الغلطة؟

وقال الشعر : آسف . . كنت أتحدث إلى زوجتى ، ولم ألتفت إلى الإشارة .

وعاد العسكرى يقول : هذا لا يليق بواحد مثلك . . له أخ يعمل مديرا للمرور فى موسكو!

فقد كان هناك مدير للمرور له نفس الاسم ، وإن لم يكن قريبا للشاعر . . وانهارت الزوجة من الضحك ـ وكسر الشاعر إشارة أخرى ولم يتوقف !

حقوقها كثيرة.. وأنوثتها قليلة

استدرنا جميعا لنرى فتاة ترقص وهى مخمورة جدا وكانت تنهار على صدر سيدة أخرى . . وكان دور هذه السيدة هو أن تعطل قانون الجاذبية فلا تقع على الأرض .

أما الفتاة نفسها فكانت حريصة على أن ترفع ثوبها إلى أعلى . . وارتفاع الثوب إلى أعلى معناه أن الفتاة تخرج لسانها لقانون الجاذبية الأرضية وكذاب من يقول منا نحن الستة الجالسين ، إن كان يشغلنا أى شىء غير العبث بجاذبية الأرض .

وكان كل واحد يخجل من طبيعته ومن نزعاته الغريزية . . دارت مناقشة بيننا . . واحد قال : إنها مسكينة . . فهى زوجة . . وزوجها غير موجود . . ومن الطبيعى أن تبسط نفسها . . ولم يتقدم أحد ليرقص معها فاختارت حماتها . . تصوروا فضيحتها . .!

وقال آخر : ولكن منظر فتاة وهى ترقص مع فتاة أخرى يضايقنى . . وقلنا جميعا فى نفس واحد : وما الذى تقترح؟

وقال ثالث : الغريب أن أحدا لا يمنعها من الرقص بهذه الصورة .

ولا تسئ إلى أحد . . بل إنها أدخلت السعادة على بعض المتفرجين المصريين الذين يتناولون عشاءهم فى مطعم ارمنى اسمه ارارات فى قلب موسكو .

ومعنى ذلك أن من حق أى إنسان أن ينبسط على النحو الذى يعجبه لأن ضررا لم يقع بأحد أو على أحد وكان هذا الرأى مبررا لأن ننسد ونسكت . . وسكتنا .

ودارت العيون إلى مشهيات أخرى ، كل السيقان مليانة قوية ، المشى السريع هو السبب . . وفى هذه البلاد من لم يمش يتجمد . . والفساتين كلها يئست من النزول إلى ما دون الركبة ، وإن كانت هناك محاولات . . فقد رأيت أكثر من واحدة أطالت ثنية الديل فنزل إلى أقل من خط الميدى . ولكن لم أر فستانا طويلا فى أى مكان . . وربما لأننا لم نزر زوجات الكوادر السياسية . . فكل اللاتى رأيتهن من النساء العاديات العاملات الشقيات بالعمل والتعب .

وعند الخروج من المطعم تطالعنا هذه السيدات يكتسحن الجليد . . وإذا اتسع وقتك فإنك سوف تفكر فى «أمر» المرأة الروسية . . وليس فى أمرها بالضبط ، فهناك ملايين من الرجال والنساء وقد شغلهم هذا الأمر ، ولكن نفكر فقط فى هذا الذى تفعله ، إنها تقطع الجليد ، وتنقله وليس غريبا أن تسمع من يقول حولك : هذا هو العمل . . بنات كالقمر . وأجمل من القمر . . انظروا ماذا يفعلن . . يا عينى علينا وعلى ستاتنا . . لا فى لون القمر ولا فى جماله . . ولا يؤدين عملا . . والتى لا تؤدى عملا لا يعجبها الحال ولا يكفيها المال . .!

ومن يقول أيضا : إنها طلبت المساواة دعوها تشرب . . المساواة المثلجة . . إنها عدالة السماء أن يجىء اليوم الذى تطرد فيه حواء من الجنة الدافئة إلى جهنم الجليد . . اتركوها . . فلن تموت «الأرقام تقول إنه لم يحدث أن ماتت واحدة فى الشارع بسبب اكتساحها للجليد» . .!

ولكن المرأة لا تحس أنها تفعل شيئا غريبا ، ولا الرجال . . إنها مواطنة تمارس إحدى مواد الدستور السوفييتى : المساواة التامة بين الرجال والنساء . . من الشارع إلى منطقة انعدام الوزن حول الأرض . . ومع ذلك فلا توجد فى روسيا نساء ممتازات ، وإنما نساء مجتهدات . . فلا توجد إلا وزيرة واحدة . . حتى عملها إدارى فقط . . إنها وزير الثقافة!

والوظيفة الوحيدة التى لم تشغلها المرأة السوفييتية ، ولا المرأة فى أى مكان ، هى أن تكون قاضية!

ولكن ٩٠٪ من المهن الطبية ومهن التدريس تشغلها المرأة ، حتى يمكن أن يقال إن الطفل السوفييتى تربيه سيدة وتعالجه سيدة . . أما ما تبقى من شئون التربية والعلاج فتتركه هاتان لواحدة ثالثة هى الزوجة . . أو الزوجات!

وعلى الرغم من هذا الصمت الرهيب الذى تراه على ملامح السيدات الروسيات فإنه صمت ظاهرى . . فإذا اقتربت منها ، وكانت عندك بضع كلمات فسألتها عن شىء . . هنا فقط تجد عددا من الألوان الجميلة فى عينيها وعلى وجنتيها . . ولا داعى لأن تطيل النظر إلى شفتيها . . لأنك سوف تصطدم بهذه الأسنان . . الذهبية والفضية التى تضايقك . . وتضايقها هى أيضا . . وسوف تجد أن اللغة الروسية

غنائية . . وسوف تجد أن الروس ، والروسيات فيهم شقاوة واضحة . . فى إمكانك أن تقول : حيوية . . ولكن الذين يعرفون أكثر يقولون إنها حيوية واعدة .

فى إحدى الجمعيات الاستهلاكية وقفت فى الطابور . . تعبت من الوقوف خرجت من الصف . . وأشرت إلى من يقف ورائى وأمامى إلى مكانى بينهما ، تمشيت بضع دقائق أتفرج فى الجمعية وعندما عدت كان الطابور قد اختفى حاولت أن اختار أى مكان وأقف فيه ، ووقفت وتعالت أصوات غير مفهومة لى بالتفصيل . . ولكن واضح أنها أصوات احتجاج على هذه الفوضى ـ احتجاج على تصرفى هذا وأشرت بيدى أننى لا أفهم ما يقلن . . ولكن واحدة أشارت بيدها أن أخرج . . وبهذه الحركة لم تعد أمامى أية حجة فى عدم الفهم ، وعندما قررت الخروج من الطابور أشارت سيدة أخرى أن آخذ مكانها . . ووقفت ودفعت . . ونظرت إلى السيدة التى احتجت وكنت أريد أن أقول لها : لو نظرت إلى وجهك الآن وهو عليه ألوان الكسوف والاعتذار والتحفز ، ما غضبت أبدا . . لابد أن أحدا قد أخبرها بذلك فى العشرين سنة الماضية ، فهى ما تزال جميلة وفيها «الحيوية» الروسية!

وفى إحدى المكتبات اشتريت عددا من الكتب . . من فلوسى والله العظيم وكلها عن روسيا والأدب الروسى وغالية الثمن . . وأشارت البائعة إلى أن أدخل بين رفوف الكتب وأختار ما يعجبنى ودخلت ودفعت . . وأخطأت الفتاة فى الحساب ثم ذهبت أدفع . . وعادت الفتاة تقول لى أن هناك خطأ فى الحساب . . ونظرت إلى الآلة الحاسبة الخشبية . . وهى عبارة عن حبات من الكرات الخشبية تحركها يمينا وشمالا . . إنها آلة صينية . . وظهر الخجل على وجه الفتاة فقلت لها : ما دمتم تستخدمون الحساب الصينى ، فلابد من الغلط .

ولم تضحك للنكتة خصوصا أننى تلاعبت بكلمة «حساب» ، فعدت أشرح لها النكتة لأكتبها بعد ذلك ، فلم تضحك ، وسألتها لماذا لم تضحكى لهذه النكتة التى ضحكت لها المرافقة لنا عندما رويتها لها . . فأشارت إلى أن ضرسها مسوس . . ولكن سوف تضحك لها فيما بعد . .!

ولم أتمكن من أن استنتج إن كان ذلك عيبا فى صناعة الإنسان . . أو أن هذا عذر جاهز حتى لا تضحك لنكتة قد تكون سياسية ، وخصوصا أنها لا تعرف من أى

البلاد أنا . . وربما تصورت أننى من أمريكا مثلا . . وأنها لا تحب أن يكون ضحكها هذا دليلا على المسافة البعيدة بين موسكو وبكين ، لم أفهم على كل حال!

بقى أن أتحدث عن نوع آخر من النساء الروسيات . . كان ذلك فى طشقند وأحسست بدوخة شديدة . . أما تشخيصى أنا لهذه الدوخة فهو أننى لم أنم جيدا فى الليلة السابقة ، فقد كان الجو باردا جدا ، والتدفئة ليست جيدة فى الفندق ونسيت أن أطلب مزيدا من البطاطين وعندما أصابنى الصداع ابتلعت قرصين ، ويبدو أن القرصين منومان . . ثم نهضت وارتديت ملابسى وشربت المزيد من القهوة والشاى أغالب النوم ، فهذه الدوخة بسبب الإرهاق والمقاومة العنيفة للمادة المنومة ، انتهى تشخيصى المتواضع ، وذهبت إلى الطبيبة . . وكتبت الاسم والعنوان والسن واسم الأم والأب وطلبت منى أن أصف ما يوجعنى . . وقاست الضغط والنبض ، ووضعت مقياس الحرارة تحت إبطى . . وسألتنى عن أمراضى وعن متاعبى ، وانتهزت هذه الفرصة لأعرف بالضبط ما الذى سوف تعمله ، وقلت : آه . . هنا . . وأشرت إلى جنبى الأيسر . . وآه هنا وأشرت إلى الجانب الأيمن . . وطلبت منى أن أخرج لسانى وأخرجته . . وأن أفتح عينى . . وفتحتها . . وأن أقول آه وقلتها . . وأن أتمدد وتمددت . . ورأيت الحيرة فى وجه الطبيبة!

وكما هى عادة الأطباء لم يظهر عليها أى تأثر لحالتى ولا رثاء لشخصى وهذا طبيعى ، فليس من الممكن أن يكون الطبيب رقيقا إلى هذه الدرجة .

وسألتها : الحالة ميئوس منها يا دكتورة؟

فقالت : سأعطيك الدواء .

وسألت : لكن هذه الأوجاع .

وهزت رأسها : نعم .

وفتحت زجاجة وأعطتنى ثلاثة أقراص لأتناولها قبل العشاء وقبل النوم .

وبمنتهى الرقة نظرت إلى مريض آخر . . وانصرفت . . وانتهزت هذه الفرصة لأعتذر لها ، فلم أكن مريضا وإنما أردت أن أعرف كيف يعالجون المرضى فى روسيا ولكنها حرمتنى من هذه الفرصة ، وفى الليل نمت ، وفى الصباح ذهبت إليها لأشكرها . . وتقبلت الشكر بنفس الاهتمام الذى استمعت فيه إلى آهاتى بالأمس!

فما هى هذه المرأة الروسية . .؟

إن المرأة مقياس حضارة المجتمع فإذا كانت مساوية للرجل فالمجتمع متحضر وإذا كانت دون الرجل ، فالمجتمع أقل تحضرا . . ومن المؤكد أن المرأة هنا تتعلم وتعمل مثل الرجل والفرص واحدة . . وقدراتها الطبيعية هى التى تدفعها إلى أعلى جوار الرجل . . أو إلى أعلى وتظل دون الرجل أيضا .

والمرأة الروسية خليط من الرجل والأنثى . . إنها قطعت الطريق الصعب ، حتى أصبحت إلى جوار الرجل ومعه وضده ، وهى الآن تريد أن تعود إلى أنوثتها!

لقد قرأت عبارة قالها الناقد زادنوف عن الشاعرة اخماتوفا ، قرأ لها بيتين معناهما :

«أقسم بملائكة السماء ، أقسم بكل تماثيل الكنائس ، أقسم بلياليناالحمراء النشوانة . .» ـ قال زادنوف : إن هذه الشاعرة اخماتوفا سيدة مجنونة فى رقة ، سيدة حائرة بين السرير والكنيسة ، نصف راهبة ونصف غانية بل هى راهبة وغانية معا . . بل إنها حتى عندما تريد أن تكون غانية فإنها تصلى من أجل ذلك . . بل إنها تصلى فى الحالتين . .!

إن هذا الناقد السليط العميق لم يقصد الشاعرة الكبيرة وحدها . . إنه يتحدث عن كل النساء وكل الرجال . . وقد أحسسنا بهذه المعانى ونحن نتفرج على الفتاة المخمورة . . لقد غطينا أجسام الذئاب بمسوح الرهبان!

* * *

وبعد الثورة السوفييتية سنة ١٩١٧ حدث انحلال عام . لقد جاءت الثورة تهز أسس المجتمع ، وتساقط الكثير من القواعد ، وتمزقت الروابط ، وتصور الناس أن الثورة هى على كل شىء : الطيب والسيئ . . وظهرت هناك عبارة الحريات العاطفية ، أو الحريات الجنسية ، وتفككت العلاقات العائلية ، وأصبحت كلمة الشيوعية مرادفة للشيوعية الجنسية ، وظلت الحال كذلك أكثر من عشر سنوات وكانت المرأة السوفييتية تعرف أنها أكبر عددا ، وأن المجتمع يقف على ذراعيها فقد كان عدد النساء فى تعداد ١٨٩٧ : امرأة مقابل مائة رجل . . وفى سنة ١٩٢٦ كان : ١٠٧ نساء فى مقابل مائة رجل . . وفى ١٩٣٩ كان ١٠٨ نساء فى مواجهة مائة رجل . . أما فى سنة ١٩٥٩ فقد بلغ عدد سكان الاتحاد السوفييتى ٢٠٨ ملايين نسمة من

بينها ٩٤ مليون رجل و١١٤ مليون امرأة . . ولو عاش العالم ربع قرن آخر بلا حرب فإن عدد الرجال سيصبح مساويا لعدد النساء . . وربما زاد عليه . . وفى هذه الحالة يرتفع سعر المرأة وتهبط قيمة الرجل . . كما هو الحال فى استراليا!

وكان من الطبيعى أن تمسك الثورة مكاسبها . . وأن تحمى مجتمعها وأن تربط بين الناس . . وتربط الناس ، ولذلك رأينا فى الأعمال الأدبية تراجعها أو رغبة فى التراجع . . هذا الانفلات من قيود الأسرة ، التى هى أساس المجتمع والحضارة ، ففى رواية اسمها «ميلاد الإنسان» للأديب بلتياك ظهرت ١٩٣٥ ـ نجد البطلة التى شعرت بالحمل تكتب مذكراتها فتقول : «لم أفكر فى أن يكون لى ولد ولم أتصور أننى سوف أضيع وقتى فى انتظاره والإحساس به ، كل ذلك بعيد عن خيالى لقد أجهضت نفسى قبل ذلك . وفى كل مرة ألزم الفراش ثلاثة أيام . . وبعدها تعود الحياة . . ولكن هذه المرة لا أظن أننى سأفعل ذلك . . إن مجرد كلمة : ماما . . تهز الدنيا كلها أمامى . .» .

وهذا يدل على أن المرأة تريد أن تكون أما . مهما كلفها ذلك وتريد أن يكون لها ابن ترعاه وتربيه . وأن تنام وتصحو على نغمة موسيقية واحدة خالدة هى : ماما .

ولكن فى العشرينات كانت الأسرة السوفييتية ما تزال تعانى من مشكلة «الحب الحر» . . أى الحر من قيود الزواج أو المجتمع ، فالمرأة قد تعذبت طويلا . . وجاءت الثورة وأطلقتها . . وفتحت لها الأبواب . . ولذلك فالمرأة لا تريد أن تضيع وقتها .

وفى رواية اسمها «الأسمنت» ظهرت سنة ١٩٢٥ للأديب جلادكوف نجد أن البطل يعود إلى بيته بعد الحرب الأهلية ، وكان يعلم أن زوجته كانت ضمن قوات الجيش الأحمر . . وحاربت وقاومت . وانتهت الحرب ولكن علاقة الزوجة بجنود الجيش الأحمر لم تنته . . وقد أنجبت هذه الزوجة طفلا . . أودعته أحد الملاجئ ومات الطفل . . عاد الزوج إلى البيت ليجد هذه الورقة فى انتظاره . . مكتوبا فيها : قررت أن تكون لى حياة خاصة . . شكرا وإلى غير لقاء . .!

ولكن هذه الصورة تغيرت بعد ذلك . . فى رواية اسمها : «ماريا» صدرت سنة ١٩٤٦ للكاتب ميدنسكى . . نجد أن بطلها يعود من القتال ليجد أن زوجته تعمل مشرفة على إحدى المزارع الجماعية . . وفى البيت يجد صورته معلقة على الحائط . . ويمضيان ليلة سعيدة . . وفى الصباح يذهب كل منهما إلى عمله . . إذن لقد عادت

الأسرة إلى تماسكها ، وكل إنسان إلى موقعه من المجتمع ، لأنه من الضرورى أن يكون له موقع ، وأن يكون الموقع هو العمل ، لأن العمل حياة للفرد وللمجتمع كله .!

وقد أصدرت الثورة الروسية يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٧ أول قانون مدنى للزواج والطلاق . . فقبل الثورة كانت الكنيسة هى التى تتولى الربط والفصل بين الناس . . أو الربط فقط . .!

وبصدور هذا القانون أصبح معروفا عند الناس أن هناك نوعين من الزواج المدنى والعرفى . . أما العرفى فهو مجرد التعايش بين اثنين ولايكون للمرأة أية حقوق قانونية . . أما الزواج المدنى فهو المسجل قانونا ومن حق أى إنسان بعد ذلك أن يتزوج دينيا ، قبل الزواج المدنى وبعده ولكن لابد من التسجيل بل إن هذا القانون قد أسرفوا فى تطبيقه لدرجة أن المواطنين جميعا طولبوا بالتسجيل ، وكان الموقف محرجا لرجل عنده أحفاد . . كيف يذهب ليؤكد أمام المسجل أنه تزوج من زوجته من ثلاثين عاما . وصدر قانون آخر يعتبر كل زواج صادر قبل هذا القانون شرعيا . . أى معترفا به على أساس الأمر الواقع .

وفى حالة الطلاق يكفى أن يذهب أحد الطرفين إلى المحكمة . أما إذا اتفق الاثنان على الطلاق فإنهما يذهبان إلى مكتب التسجيل ويتم الطلاق . . وكان من الضرورى تسجيل الزيجات السابقة فى جواز السفر .

وفى سنة ١٩٢٦ صدر قانون يلغى مهمة المحكمة هذه ، ومكتب التسجيل يقوم بمهمة طلاق أحد الزوجين من الآخر .

* * *

أما الإجهاض فكان القانون يعاقب عليه .

وكان الإجهاض يتم سرا . . وفى كثير من الأحيان يؤدى إلى موت المرأة أو تشويهها ، وفى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ صدر قانون يلغى عقوبة الإجهاض ولكن الإجهاض استمر سرا ، لأن المستشفيات لا تتسع لهذا العدد الكبير ، ولأن المرأة لا تريد أن يعرف أحد ما أصابها .

وفى ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٦ صدر قانون يحرم الإجهاض إلا إذا كان الحمل خطيرا على صحة الأم ، وإلا إذا كان هناك خوف من مرض وراثى - وفى ذلك يلتقى السوفييت مع كثير من الدول المتزمتة دينيا ، وهذا القرار قد اتخذه ستالين .

أما لماذا اتخذ ستالين هذا القرار فله قصة مضحكة ، فقد زاره قبل ذلك وفد من نساء منغوليا ، كانت من بينهن واحدة ترأس مزرعة جماعية قالت لستالين : إن عندى سبعة من الأولاد ، وكان تعليق ستالين : لو كان عندك سبعة آخرون لكان أفضل .

وتلاقت عيون النساء والرجال ، ولم يفهموا المعنى ، ولكن الخبراء عرفوا أن ستالين يريد زيادة فى النسل فأصدروا القرار بمنع الإجهاض!

ولكن هذا القرار ألغى أيضا فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٥ وأبيح الإجهاض فقد ساءت حال كثير من الأمهات ، خصوصا أنهن كن يذهبن إلى «دايات» وكانت الداية تستخدم أساليب بدائية فى إسقاط الجنين ، وأصبح فى استطاعة أية مواطنة أن تذهب إلى أى مستشفى وتضع مولودها دون أن يسألها أحد : كيف ومتى ولماذا ومن هو أبوه؟

ولكن لسبب غير واضح ما يزال الطفل المجهول الأب مشكلة ، فكل طفل لم تشأ الأم أن تسجل اسم والده تجد شهادة ميلاده خالية من هذا الاسم ، وإنما يضعون فى هذه الخانة شرطة مثل هذه ـــــ . ولذلك سيكون هؤلاء الأطفال : أطفالا بشرطة!

وقد تقدم عدد كبير من الأدباء والفنانين يطلبون من الدولة إلغاء هذه الشرطة ، تقدم الأديب ابهزنبورج والموسيقار شاستاكوفتش وغيرهما ، ولكن بقيت الشرطة فى مكانها .

أما الدولة فهى حريصة على أن يكون الأب والأم لكل طفل ، بل إنها تشجع على زيادة النسل ، وتعين الأسرة ذات العدد الكبير . . والأم التى عندها عشرة أطفال تعطيها الدولة لقب : الأم البطل . . أما المساعدة فهى لكل طفل ولمدة ثلاث سنوات . . من السنة السابعة حتى العاشرة . . وأكثر الأمهات اللاتى يفزن بالنياشين والألقاب بسبب كثرة الأطفال فإنهن من الجمهوريات الآسيوية . . أزبكستان مثلا . . ولا ترى الأسرة فى ذلك عيبا ويقولون إن تولستوى نفسه كان عنده أحد عشر ولدا . . والعالم مندليف كان واحدا من أحد عشر أخا .

ولكن المرأة السوفييتية تعمل فى كل مكان .

بعض الرجال قد اعترضوا على أن تعمل فى المناجم ، ولكنها تعمل . . وفى المعرض السوفييتى الذى أقيم فى يناير سنة ١٩٦١ عرض الفنان تروخاتوف لوحة كبيرة لفتاتين تحملان فوانيس عمال المناجم .

صحيح أن هناك قوانين تمنع المرأة الحامل من أن تحمل الأثقال أو من العمل ليلا ، ولكنها تعمل .

* * *

أما إذا كانت المرأة قد وضعت طفلا فبعد ثلاثة أشهر بالضبط يجب أن تعطى طفلها لإحدى دور الحضانة . . أما إذا كانت تعمل ليلا ، فتتركه ينام هناك أيضا ، وفى سن مبكرة يتعلم الطفل الروسى ، ما يتعلمه بقية أطفال العالم فى سنوات ، إنه بعد سنة يستطيع أن يجلس على «القصرية» . . وبعد ستة أشهر أخرى يستطيع أن يتناول طعامه وحده .

وبعد ساعات من ولادة الطفل يذهب الأب ليراه ، ثم لا يرى زوجته إلا بعد أسبوع خوفا على الطفل من العدوى ، وكثيرا ما ارتدى الآباء ملابس الأطباء ليتمكنوا من رؤية الزوجة والطفل . . فإذا ضبط الأب ، عاقبوه .

* * *

أما وظيفة القضاء فعندما تشكلت المحكمة السوفييتية فى أبريل سنة ١٩٥٢ كان أعضاؤها اثنى عشر عضوا . . من بينهم سيدة واحدة ، ولهذه المحكمة ٤٥ مستشارا من بينهم اثنتا عشرة سيدة . . أربع منهن مسلمات!

وأصبح يوم ٨ مارس عيدا للمرأة . . صحيح ليس عيدا بالمعنى المعروف وإنما مسموح لها فقط أن تنصرف من عملها قبل الموعد بساعتين!

ومادام المجتمع السوفييتى مفتوحا على العالم ، أو العالم مفتوحا على روسيا . . فالرجال يرون ويقارنون والمرأة أيضا . . ولابد أن تلبس وأن تراعى ـ الموضة أن تضع الأحمر والأبيض . لم أجد سيدة واحدة قد رسمت عينها! ولابد أن تهتم أيضا بتصفيف شعرها . . وفى موسكو محلات لمشاهدة عرض الأزياء . . وعلى كل واحدة أن تختار الموديل الذى يعجبها . . إن المرأة تريد أن تكون أنثى . . أن تكون مرغوبة . . مطلوبة . . مثيرة . . أن تكون أكثر نعومة . . فليس من الطبيعى أن تكون لها خشونة الرجل . . وهى تعلم أن الرجال يفضلونها ناعمة .

وقد رفضت سيدة أن تخرج إلى الشارع وفى فمها سيجارة . . إن هذه السيجارة تفقدها أنوثتها!

وفى رواية اسمها «غصن الزيتون» ظهرت سنة ١٩٦٥ للكاتب برزينوف تقول فيها البطلة : أريد أن أصنع أكلة لذيذة .

ويقول أبوها فى فزع : تعودين إلى المطبخ؟

- أتمنى .

- وعملك وأبحاثك؟

- لاتهمنى إلى هذه الدرجة .

وفى رواية أخرى اسمها «العقدة» ظهرت قبل ذلك سنة ١٩٥٩ للكاتب فاسيلفسكى . البطلة اسمها تاتيانا تعمل طيارة . تعبت من هذه المهنة فقالت : ليس من الضرورى أن يظل الإنسان وحيدا طوال عمره . . يمشى وحده يستند إلى قدمه . . لا أحد إلى جواره . . وليس من الطبيعى أن تظل المرأة تعمل طوال حياتها ، إلا إذا كانت تريد أن تعتمد على نفسها . . ولكن من الضرورى أن يكون لها أطفال . . أن يكون لها بيت . . أن تكون هى لهذا البيت وأن تجعل أطفالها يشعرون أن لهم أما .

أما إذا عاكست فتاة فى الشارع ، ولم تجد اللغة هى المانع الطبيعى ففى العواصم عدد من بنات الشوارع . . وهذا موجود فى كل عواصم الدنيا . . ولكن هذا العدد ليس كبيرا فكل النساء يعملن ، ثم إن هناك مشكلة السكن . . لا توجد شقق خاصة . . ولا أماكن تصلح لاستقبال الزبائن . . فالسكن أزمة ومشكلة رغم العمارات الهائلة التى تنهض فى كل مكان .

ولذلك من الطبيعى أن تنفجر من هذا الموقف النكتة السوفييتية المعروفة ، يقال إن الروس عندما أطلقوا أول قمر صناعى بداخله جاجارين . تطلع الروس إلى السماء . . واستطاع بعض الناس أن يروه بالعين المجردة فكانوا يقولون : ما أسعده . . إنه يسكن وحده!

فى السماء كواكب يسكنها الإنسان الأخضر

الإيمان بالمستقبل دين . والدين أفيون الشعوب ، شرقا وغربا .

وليست كلمات : الخطة والمشروع والخطة الخمسية الأولى والثانية ومشروع العشر سنوات ، إلا كلمات دينية ، وهذه الكلمات قائمة على : أن الإنسان أصبح قادرا على أن يرى أبعد من اليوم والغد . . وأنه أصبح يضمن بصورة علمية ما سوف يحدث أو يضمن بصورة مضمونة ما سيقع غدا وبعد غد . . ولم يعد الواقع أن تحسب حاضرك وإنما أن تحسب مستقبلك أيضا . ودراسة المستقبل هى استدعاء السنوات القادمة وإصدار الأوامر إليها بأن تكون على النحو الذى نريد . . أو الذى نحلم به .

ولينين أبو السوفييت قد طلب إلى شعبه أن يحلموا ، وقال : من الضرورى أن تحلموا . بل يجب أن تحلموا ، فالذى يبدأ عملا ثم لا يتخيل نهايته ، أو نهاياته المختلفة ، فلن يحقق شيئا كبيرا فاحلموا!

ومعظم الاختراعات والاكتشافات الكبرى حققها أناس حالمون ، أن الرجل الذى اخترع الصواريخ السوفييتية فى نهاية القرن الماضى كان من أكبر الحالمين لقد تخيل الحياة على القمر . وأدرك أن الحياة على القمر غير ممكنة ، وإنما الحياة سوف تكون تحت سطح القمر . . وكان ذلك مجرد حلم . والعلم الحديث يؤكد بأن هذا ما سوف يحدث .(1)

* * *

وقد أصدر السوفييت كتابا عن المستقبل اسمه «العالم سنة ٢٠١٧» أى العالم عندما يحتفل السوفييت بمرور مائة عام على الثورة السوفييتية وقد لمس الكتاب كل ما يخطر على بال المواطن السوفييتى والمواطن العالمى : حياته فى بيته ومع أهله والشوارع والمدن . . حتى طريقة الكتابة ، وكيف أن الإنسان فى المستقبل لن يجد نفسه فى حاجة إلى أن يكتب وإنما أن يملى . . وهذا ما كان يحلم به تولستوى العظيم الذى كان يطلب من الكاتب أن يكون سهل العبارة . وكان يشطب كثيرا جدا . ولو عرف هذه الآلة التى يضعها الإنسان فى جيبه لأبدع للإنسانية الكثير ولاستراح ذلك العبقرى

(١) راجع كتابى «الذين هبطوا من السماء» .

دستويفسكى الذى أملى أعماله الكبرى على زوجته المريضة فأرهقها وضاعفت من ويلاتها الجسيمة أيضا . وكذلك الرحلات إلى الفضاء الخارجى .

حتى الحب فى المستقبل . هل سيكون هناك حب؟ كيف يكون؟ هل من الممكن أن يعيش الإنسان بلا حب؟ كل أنواع الحب . . وما أهمية الحب فى حياة الناس فى القرن الواحد والعشرين وبعد ذلك؟ هل سيكون هناك هذا النوع من الحب الذى عرفته العصور الوسطى؟ هل سيكون ذلك الحب العذرى الذى عرفه العرب .

هذا الكتاب يؤكد لنا ما نعرفه : وهو أن الحب علاقة معقدة سرية سحرية عجيبة . وليس من السهل أن نعيش من غيره . الإنسان لم يستطع ولن يستطيع .

يقول لوناشرسكى الروسى : إذا تخلصت الإنسانية من متاعب العمل ومن ذل العبودية ، فسوف تصبح قادرة على أن تخلق من الحب والجنس علاقات رائعة سعيدة ، وسوف تجعل من الاثنين متعة لم تعرفها الأجيال ، ولا كانت تحلم بها .

أى أن الحب سوف يكون مأدبة ضخمة تضم كل أنواع الهمس الهندى والهيام العربى والعشق الإغريقى ، والفروسية الأوروبية ، واحترام الحرية الفردية .

ويقول الكتاب أيضا : إن الحب يحقق للإنسان اليوم أعظم لذة وسعادة إذا ما قورن بالعواطف الأخرى ، ومن الطبيعى أن نمجد الحب ، ولكن إذا ظهرت فى الحياة أشياء أخرى تبعث على البهجة فمن المؤكد أن وهج الحب سوف يخبو قليلا ، وأما لماذا نمجد الحب ونقدسه فهناك سببان : الأول هو الحب نفسه . . والثانى هو هذا التعب والملل والقرف الذى يعانيه الإنسان فى حياته اليومية ، والحب هو نوع من التعويض اللاشعورى لفقدان السعادة فى أشياء أخرى كبيرة .

ولاشك فى أن دور الحب فى حياة الإنسان سوف يكون قويا كما كان دائما ، على الرغم من أن الحب يحتوى على شىء من التناقض ، فالذى يحب يقبل الذل ويقبل الامتلاك ويقبل الاحتكار ، بل يقبل العبودية . . ثم إن الحب نفسه يبدد الطاقة الإنسانية ، على حساب كثير من الالتزامات الأخرى الحيوية ، إننى ما أزال أنقل عن الكتاب .

والحب لن يمشى فى خط مستقيم لأن العلاقات الإنسانية ليست سهلة ولا هى تمشى فى خط مستقيم أيضا . . ولن يكون الحب نايا ومزمارا وراعيا للغنم فقد انتهى عصر الرعاة فى العالم .

وسوف يكون هناك هذا الفارق بين الجنسين فى الحب وفى العلاقات الجنسية أيضا ، وسنجد أن الحب عند المرأة من الممكن أن يظهر بوضوح بعد الزواج أو بعد

ميلاد الطفل الأول ، فالحب عند الفتاة عادة حب عذرى ، وعند الرجل حب واقعى ، وستبلغ المرأة أوج رغبتها فى سن متأخرة ، عندما تبدأ هذه الرغبة فى الضمور عند الرجل ولكن مهما تقدمت سن الرجل ، ومهما ضعفت قدرته فسيظل عاشقا دائما .

وسوف تتزايد المتاعب بسبب هذه الفوارق بين الجنسين ، ولكن الناس سيتعلمون كيف يخففون اضطرابهم ، وبمرور الوقت سوف يتحسن الجسم الإنسانى ولكن هذا الوقت ليس عاما ولا قرنا وإنما عشرات القرون .

سؤال عن الشخص الثالث فى حياة الزوجين : هل سيكون هناك شخص ثالث فى حياة الزوجين؟ أو بعبارة أخرى هل سيكون هذا الثلاثى التقليدى موجودا؟ . . أى الزوجان والعشيق أو العشيقة؟ يقول انجلز : إن الخيانة كالموت لا علاج لها! ويقول الكاتب : إن هناك آخرين لهم رأى آخر .

ومن المؤكد أن الحب والكراهية والوفاء والخيانة ، عواطف لم يناقشها الإنسان تماما ، ولكن غيرت بعض مفهوماتها ، كما تغيرت أشياء كثيرة فقد كان الإنسان يتصور أن الأرض مركز الكون ، وهو الآن يعلم أن الأرض ليست مركزا لهذا الكون ، وكان يعتقد أن أشعة الشمس مستقيمة وهو يعلم أن أشعة الشمس موجات ، والموجات يستحيل أن تكون مستقيمة .

وكذلك الزواج لم يعد بالإكراه : ولا الطلاق أيضا ، وكثير من الأشياء الثابتة الجامدة ، لم تعد كذلك ، وسوف تنظر الأجيال القادمة إلى الحب بسهولة وبلا خوف ، وسوف يدرس الأطفال فى مدارسهم كل العلاقات الجنسية بلا خوف . وسوف يكون الحب نفسه بلا خوف من الحمل .

هل ستكون هناك أسرة قائمة على حب واحد . . أى على زوجة واحدة؟ لقد كانت الأسرة المتماسكة من أهم عوامل تطور الإنسان ولكن ربما ظهرت فى المستقبل أشكال أخرى للأسرة . وربا ظهرت علاقات متعددة وإن كان الحب بطبعه يميل إلى الدوران حول واحدة فقط ، وسيبقى الحب صعبا معقدا ، ولكن سيكون الإنسان الذى يحب هو الإنسان حقا .

* * *

ومادام عصر الإنسان سيطول فى المستقبل ، فإن حبه سيطول أيضا ، والمواطن الروسى قد تدرب على أن يقرأ كف المستقبل ، وأن ينظر إليه بوضوح ويقين . . إنه

يشبه المحامى الأمريكى التليفزيونى بيرى ماسون الذى ينهى كل حلقة بقوله : «والآن سيداتى وسادتى هذا هو الرجل الأعرج الذى قتل الفتاة الجميلة وهى تستحم ليلة السبت فى الساعة السابعة وأربع دقائق تماما!

ولكن ستبقى بعض المشاكل الأخرى بلا حل سريع . . لصعوبتها . . ولأن العلم الحديث لن يبلغ نهايته بعد مائة سنة أو بعد ألف . . مثلا : ما قول علماء الفضاء فى مشكلة «الناس الصغار الخضر»؟

هؤلاء «الناس» الذين يعيشون فى كواكب أخرى بعيدة عنا ولا ندرى عنهم أى شىء ، ولكن العلم الحديث لا يستبعد ، بل يرى من المؤكد ، أن هناك كائنات أخرى أعقل وأذكى فى أماكن أخرى من الكون الشاسع .

إن العلماء مختلفون : هل نتصل بهم أو لا نتصل؟ أى أن الخلاف ليس على وجودهم ، ولكن على الاتصال بهم ، وهذا التردد سببه الخوف على الحضارة الإنسانية .

وحتى لا يتحول كلامى إلى سحاب غامض فى ليلة مظلمة فإنى أعود إلى الكتاب وأنقل حرفيا هذا الحوار التاريخى الخطير الذى دار بين مراسل إحدى الصحف الإيطالية وبين العالم البريطانى الكبير أنتونى هويش ، ثم ما الذى قاله العالم السوفييتى ستاف نان عضو أكاديمية العلوم .

سؤال : نحن نعرف أنك أستاذ جادى ، ولست حالما أو خياليا روائيا فلماذا ما تزال تتحدث عن «الناس الخضر الصغار» أو هؤلاء الأقزام ذوى اللون الأخضر؟

جواب : لا تنس أننا بشر أيضا من حقنا أن نحلم ، وأن نتمنى وأن نفكر فقد استمعت إلى إشارات ترد إلينا من الفضاء الخارجى ، وأطلقت على هذه الإشارات اسم : إشارات الناس الصغار الخضر اللون . والحقيقة أن هذه الإشارات تجىء إلينا من مصدر واحد بعيد جدا . ولها ذبذبة واحدة لم تتغير . . وهى بالتقريب ثابتة ، أو بالضبط ١,٩٣٧٧ ونحن لا نعتقد أنها ظاهرة طبيعية ، وإنما يجب أن نتصور أنه حيث تصدر هذه الموجات فهناك من يصححها باستمرار ولابد أنه قد ادخل فى اعتباره حركة الأجسام السماوية التى تصدر عنها هذه الموجات ، وعندما سجلت هذه الإشارات شعرت بالفزع ، نعم بالفزع ، ولذلك قررت أن أجمع كل هذه البيانات والتسجيلات وأحرقها فورا . وظللت فى حالة من الرعب أسبوعا لا أعرف كيف أفكر ولم أستطع أن أنام ، أما مساعدتى الآنسة بل فقد اكتشفت مصدرا سماويا آخر لهذه الموجات ، يشبه تماما مصدر إشارات الناس الخضر ثم اهتدينا إلى مصدر ثالث . . وشعرنا بالارتياح .

سؤال : تقول شعرت بالارتياح ، ولكن لماذا؟

جواب : لسبب بسيط هو أنه فى استطاعتنا أن نقول : إننا أمام ظاهرة مجهولة تحتاج إلى تفسير .

سؤال : سمعتك تقول إنك خفت وأن فزعا أصابك ، فما الذى أفزعك وأخافك؟ هل هناك شىء اسمه الخوف فى العلم؟

جواب : سيدى العزيز ، إننى أخاف دائما من المجهول ، إننى أخاف من هؤلاء الناس الصغار الخضر ، ولا أزال أخاف من أهل الأرض الذين يريدون الاتصال بهم ، وأخاف عليهم أيضا .

سؤال : هل معنى ذلك أنه لو كانت هناك حضارة أخرى بعيدة تريد الاتصال بنا ، وأرسلت هذه الإشارات فإنك تخاف أن ترد عليها؟

جواب : هذه مشكلة خطيرة جدا ، وحل هذه المشكلة ليس من اختصاص علماء الفلك ، وإنما من اختصاص الصحفيين والساسة ، عليهم أن يتناقشوا فيما بينهم ، هل نرد على الحضارة الأخرى أو لا نرد؟ هل نتصل بهم أو نخفى رؤوسنا بين أيدينا . . ويجب أن ندرك بوضوح أن أرضنا فى هذا الكون ، ليست سوى ذرة رمل على شاطئ هائل ، وأن هناك ملايين الرمال حولنا ، وإذا نحن افترضنا أن هناك حضارات أكثر تقدما ، ولا نعرف عنها شيئا ، فمن الحماقة أن نبعث لها بأية إشارات ، دون أن نعرف كيف يكون رد الفعل عندهم! بل من الجنون الأكيد أن نكشف لهم عن أنفسنا ، أن نلفت عيونهم أو آذانهم إلينا . . ليس من الحكمة أن نكشف أنفسنا لكائنات أخرى لا نعرف عنها إلا أنها أقوى وأذكى وأكثر تطورا!

سؤال : ولكن الكثير من زملائك علماء الفلك يفعلون العكس . إنهم يحاولون أن يقنعونا دائما بأن التقدم العلمى ضرورى . ومرغوب فيه ، وأن التقدم العلمى هو وحده الذى يحقق الرخاء للإنسان . . وأن حرصهم على التقدم هو الذى يدفعهم إلى البحث عن مصادر جديدة للمعرفة .

جواب : اسمع يا سيدى : إن الفلاح فى فيتنام قد عرف الآن شيئا جديدا . . عرف أن هناك دولة أقوى وأكبر وأكثر تطورا تساعده بلا تردد فماذا كانت النتيجة؟ من الأفضل لنا يا سيدى ألا نكشف أنفسنا لهذه الحضارة الهائلة المخيفة!

سؤال : هل أفهم من هذا أن علماء الفلك الذين تعجلوا فأرسلوا إشارات إلى الفضاء الخارجى ، لم يدركوا حقيقة هذا الخطر!

جواب : من المؤكد أنهم أخطأوا ، لأن هذه المشكلة يجب أن تناقش دوليا وبعد ذلك يجب أن نوقع العقوبة على كل من يخالف الاتفاق الدولى على عدم الاتصال . . كأن نطرده من ميدان العلم والعلماء .

سؤال : ولكنى أستطيع أن أقول إن هناك عددا من العلماء يفعلون ما يحلو لهم ، دون أن يكترثوا كثيرا لهذه التحذيرات . . بلا أن لهم وجهات نظر أخرى . . ولكن أريد أن أسألك هل هناك أى أساس علمى للاعتقاد بأن نجوما فى هذا الكون تسكنها كائنات أخرى أكثر تحضرا؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن هذه النجوم . ولكن من المؤكد بل من المقطوع به علميا ، أن هناك كواكب أخرى بعيدة ، تعيش عليها كائنات أكثر عقلا وذكاء ، بل أقول أكثر من ذلك : إن نظرية الاحتمالات سمحت لنا بأن نأمل أن يتصلوا بنا ، أو نتصل نحن بهم ، أن نعثر عليهم ، أو يعثروا هم علينا!

سؤال : سيدى الأستاذ هل تعتقد أن هذه الإشارات التى سجلتها أنت عبارة عن رسائل موجهة لنا ، وأننا لم نهتد إلى معناها؟

جواب : هذا مؤكد . ونحن الآن ندرس مجال هذه الإشارات التى تلقيناها ، لعلنا نعثر على طريقة لتفسيرها ، ولا نهاية لما يدخره لنا المستقبل من المفاجآت!

انتهى أخطر حوار مع أكبر علماء الفلك فى القرن العشرين ولا يزال أصحاب الإشارات الغريبة ، مصدر الدهشة والخوف لكل علماء الفلك والفضاء .

وأعود مرة أخرى إلى كتاب «العالم سنة ٢٠١٧» وأنقل مناقشة الأستاذ جوستاف نان عضو أكاديمية العلوم السوفييتية ، إنه يبدأ مناقشة الأستاذ هويش بأن يقول إننا لا نعرف بالضبط إن كانت الإشارات من مصدر مادى أو إنسانى ، أى مصدر شىء ما أو كائن ما ، ويضرب لذلك مثلا أنه حدث منذ سنوات أن التقطت أجهزة استقبال الأرض صوتا من بعيد . . وبعد ذلك اكتشف العلماء أن مصدر الصوت ليس إلا نوعا من الأجسام الفلكية الهائلة المتناثرة .

ويقول البروفسور نان : أما فى حالة «الناس الخضر» فلا يمكن أن يكون المصدر شيئا ، نظرا لأن الموجة قصيرة ولأنها منتظمة ، ولذلك فمن المؤكد علميا أن لها مصدرا عاقلا حاسبا عظيما .

والسؤال الخطير هو : هل نرد على هذه الإشارات أو لا نرد؟

أى أنه لا خلاف على وجود كائنات أعقل ، ولكن هناك خوفا من الاتصال بها ، أو اتصالها بنا ، وأمام هذه المشكلة لابد من أن يكون هناك عدة احتمالات جعلتهم يبعثون بهذه الإشارات .

ربما كان سبب ذلك أنهم «يفهموننا ويهتمون بنا» ، وأنهم يريدون أن يحذرونا من أخطائنا القاتلة : تلوث جو الأرض وتسمم مياه الأنهار وخراب هذا الكون ، ربما كان ذلك ، ولكننا نحن نفهم أكثر من أى أحد ، أن عالمنا مسموم وأننا نعيش فى قنبلة زمنية ، ونعلم أننا لم نستفد من أخطائنا ، ويبدو أننا نفضل الحياة بهذه الأخطاء والصعوبات ، وأن الورد من غير شوك ، كما يقول المثل ، ليس وردا ، إن الأرنب لكى ينمو ويقوى يجب أن يطارده الذئب ، ثم إن العلم إذا أصبح سهلا جاهزا ، فقد يؤدى ذلك إلى عدم اهتمامنا بالعلم نفسه .

وهناك احتمال آخر : أن يكون أهل هذه الحضارة البعيدة «يفهموننا ولكن لا يهتمون بنا» ، ربما كان ردهم على إشاراتنا لصالحنا ولكن الأمر لا يهمهم أو أننا لا نهمهم ، هذا ممكن ، وربما كان ذلك مهينا لنا وسبب ذلك أنهم سبقونا بألوف السنين ، وأنهم ينظرون إلينا بنفس نظرتنا إلى النمل ، الذى نصفه أحيانا بأن له عقلا أو غريزة تنظيمية ، وعلينا أن نتساءل : ما الذى يمكن أن نعمله للنمل مثلا ، وما الذى يمكن أن نحذره منه!

وهناك احتمال ثالث أن يكون أهل هذه الحضارة البعيدة «يهتمون بنا ولكن لا يفهموننا» . . ربما كان اهتمامهم بنا لأسباب تتعلق بظروف التغذية عندهم . . أوالبحث عن موارد أخرى للطعام . ولكنهم «يفهموننا ولا يعرفون كيف» .

ما الاحتمال الرابع فهو أنهم «لا يهتمون بنا ولا يفهموننا . . يقول البروفسور نان : ولكن يجب استبعاد هذا الاحتمال . لأنهم بالفعل يطلقون إشارات قصيرة منتظمة ، أما هذه الاحتمالات : فأولها مأمون وثانيها : مهين ومأمون وثالثها : خطير ومحير .

يقول أيضا البروفسور نان : قد يظن القارئ أننى أتردد أو أعارض فى الاتصال بهؤلاء الناس الخضر ، بالعكس ، بل أرى من الضرورى الاتصال بهم والاتصال يساوى ما نبذله من جهد ، فزيادة المعرفة هى وحدها التى تمكننا من القضاء على الملل والهوان والخوف ، وإذا كانت لدى أية حضارة أخرى وسائلها العلمية للاهتداء إلينا فليس فى إمكان أن نهرب منها ، ولكن ليس هذا هو المهم فالإنسان حريص دائما على توسيع مجال اتصاله ، لأن هذا هو الذى يدفعنا إلى التطور فهذه

الاتصالات ضرورية ومطلوبة بقدر ما تثير الفكر وبقدر ما يكون الذين نتصل بهم أكثر اختلافا . . فليكن لونهم أخضر حقيقة!

وإذا نحن أفلحنا فى الاتصال بكائنات أخرى كونية ـ ومن المؤكد أنها أكثر عقلا ـ ففى وسعنا أن نفهم وضعنا فى هذا الكون ، ومكاننا من السلم الكونى ، فإذا ما تغير هذا السلم أو هذا المجال . فلابد أن يكون لكل شىء معنى آخر جديد مختلف . وسوف تصبح الأشياء «الأكيدة المؤكدة» فى حياتنا والتى تفسر حياتنا وتاريخنا ، عبثا وهراء فى المجال الكونى . . والعكس بالعكس ربما كانت هذه هى الفائدة الأولى من مثل هذه المناقشة أو الحوار . . ومن الناحية النظرية فمن الممكن أن نقول إن سلم التطور لا نهاية لدرجاته وإذا نحن تصورنا أن التطور الإنسانى قد بلغ نهايته ، فنحن نغالط أنفسنا ونخدعها ، وكل ما نفعله هو أن نحمى أنفسنا ، وهذا بمقاييسنا العادية معقول ومنطقى ، والديناصور ذلك الحيوان المنقرض ، كان هو أيضا يحمى نفسه ولو نجح الديناصور فى ذلك ، ما كان هناك إنسان حى الآن ، ولو ظل الديناصور وحده على الأرض يقضى على كل حياة أخرى لكان نوعا من التعفن والجمود فى الطبيعة ، والطبيعة لا تمثل شيئا مثل الجمود والتعفن .

ويختتم الأستاذ نان مناقشته بقوله : أنا من الذين يؤمنون بأن الهرب من المعرفة والعلم ، لا يؤدى بنا إلى شىء ، ولو قررت الكائنات الأخرى الأعقل الاتصال بنا حتى إذا لم نشأ ذلك ، فليس فى استطاعتنا أن نتوارى منها ، وفى إمكاننا أن نتعلم منها الكثير من الأشياء الهامة والضرورية لنا ، ومن يدرى ربما قالوا لنا : إن الإنسانية لها مستقبل طويل أمامها ، وأن الزمن المخصص لنا فى تاريخ هذه الأرض لم ينته بعد ، وأننا ما نزال ناقصين وبعيدين تماما عن استنفاذ كل إمكانياتنا التى ولدتها تطوراتنا الاجتماعية ، وفى استطاعة الإنسان أن يتأكد من أشياء أخرى : مثلا أن يتم التفاهم بيننا وبين هذه الكائنات الأخرى بينما هذا التفاهم لم يتحقق بيننا نحن سكان الأرض حول المشاكل الصغيرة والكبيرة ، الاجتماعية والعنصرية ، ولكن على الرغم من هذا كله فإن شعوب العالم تتزايد وحدتها وسلامها وتفاهمها ، حتى إذا ما واجهنا حضارة سماوية أخرى ، جعلتنا نفهم وضعنا الحقيقى ، فسيؤدى ذلك ولاشك إلى أن يتأكد لدينا هذا المعنى : إن كل الناس أخوة . . وأن تجربة الاتصال بهم تساوى ما بذلنا فى سبيلها من تعب وسهر؟

وقد تقول مالنا ومشاكل القرن العشرين ، ومعك حق فما أكثر مشاكلنا الآن ، ولكن هذه أيضا مشاكلنا الآن ، ثم إن كل سبعة من كل عشرة من سكان الأرض

سوف يعيشون حتى أوائل القرن الواحد والعشرين . . فأبناء القرن العشرين هم أغلبية بيننا ! ومن العدل أن نشاركهم مشاكلهم ، كما أننا أغرقناهم بمشاكلنا .

ولن يكون المستقبل هكذا مخيفا كئيبا . . لن تكون الحياة كلها هما وغما وتطلعا إلى السماء مصدر الكائنات الأخرى الخطيرة المخيفة .

وإنما من الممكن ، ومن الضرورى أن نواجه الأرض والسماء بالابتسام بالمرح ، بالضحك ، فمن الطبيعى .

وهذا هو الفصل الأخير من الكتاب وفى الكتاب عينات من نكت المستقبل أيضا!

وإذا كان الضحك يقتل ، فإنه يداوى أيضا ـ كما يقول الكتاب ـ وقد بحث الكثيرون من الفلاسفة ظاهرة حيوية وضرورية دائما!

«والضحك يدل على السمو المعنوى فأنت عندما تضحك على شيء ما ، فمعنى ذلك أن تقول لنفسك : لايمكن أن أرتكب مثل هذه الحماقة . . والمرح يقرب بين الناس ويجعلهم أكثر تفاؤلا . . ثم إن الضحك يبعد عنك الطبيب . . هذه نصيحة .

فليس من السهل أن يتغير الإنسان كإنسان ، فى عام أو ألف . . ولذلك سيبقى الإنسان يحب ويكره ويخاف ويحلم ويضحك فى النهاية .

ثم هذه النكتة : يقال إن أحد العلماء اخترع عقارا ينقل الإنسان من الحاضر إلى المستقبل ، وفى المستقبل يرى كل ما يتمناه ، وقد أعطى هذا العقار لأحد سائقى التاكسى وألتف حوله العلماء يسألونه بعد أن تركوه ساعة : ماذا رأيت؟

ولكن الرجل لا يرد .

ركعوا عند قدميه : لا تنس خطورة المهمة التى تقوم بها . . نريد أن نعرف والشعب السوفييتى كله يريد أن يعرف كيف رأيت المستقبل ، إن جارك قد أعطيناه العقار فرأى نفسه حاكما للمريخ . . وأن هذا الجار قد أعطيناه العقار فرأى نفسه رئيسا لسلاح الطيران فى كوكب الزهرة . . فماذا رأيت؟

ولكن الرجل لا يرد . . وأخيرا قال :

لقد وجدت نفسى وزيرا!

وهلل العلماء ، راحوا يعانقونه وهم يطلبون المزيد : ثم ماذا رأيت . .

فقال : أسوأ ما فى هذه الدنيا . . لقد رأيت زوجتى ما تزال تفتش فى جيوبى . .!

اليمن.. ذلك المجهول

فى البحر.. أغرقت مخاوفى

أنا مسافر إلى اليمن . . ولذلك فأنا فى غاية السعادة .

يكفى أن أشعر أننى على سفر ، أو فى طريقى إلى السفر ، لأكون سعيدا . . أننى فى الليلة السابقة على سفرى إلى الإسكندرية لا أنام ، وأظل طوال الليل اتقلب على فراشى كأننى موج البحر . . أو كأننى جنين يتحرك فى بطن أمه ، يريد أن يخرج إلى النور .

فالسفر هو النور . . هو البلاد الجديدة . . يكفى أن تجد ناسا غير الناس . . وهواء غير الهواء . . يكفى أن تضيع فى مجتمع لا تعرفه ولا يعرفك . . يكفى أن تجد نفسك وحدك . . فى غرفة وحدك . . «تتشقلب» . . تقف على رأسك . . تمشى عاريا . . إذا رن جرس التليفون لا ترد عليه . . وإذا استمر فى الرنين ، ترفع السماعة وتقول لعاملة التليفون فى الفندق : «وحياتك أنا غير موجود . . مش عاوز أبقى موجود . . مش من حقى أن أنكر نفسى . .؟ مش من حقى أن أقطع صلتى بالعالم . .؟!» .

وبهزة من كتفيك ينقطع رنين التليفون ، وترفع رجلك وتضغط على الجرس . . بدلا من أن تضغط عليه بيديك . . أنت حر . . أنت وحدك وحين يجىء الجرسون فى الفندق ، فإنه لا يعرف كيف ضغطت على الجرس . . وتطلب منه ألا يجىء بعد ذلك . . أنت حر . . أنت وحدك . . وهذه الحرية التى ظهرت فجأة ، سببها أنك سافرت من مكان تعيش فيه ، إلى مكان لا تعمل فيه .

إن فرحتى بالسفر إلى اليمن مثل فرحتى بالسفر لأول مرة خارج مصر وكان ذلك منذ ١٥ عاما .

لايمكن أن أصف لك المشاعر الغريبة التى اجتاحت حياتى كلها قبل أيام السفر . . لقد سافرت بالطائرة إلى أوروبا . . وكانت أول مرة أسافر فيها خارج القاهرة ، لم أكن قد رأيت الإسكندرية لم أكن قد رأيت دمياط مع أننى من المنصورة ، لم أكن قد ذهبت إلى أبعد من الجيزة .

ومرة واحدة . . أجدنى فى طائرة . . الطائرة محروقة قديمة . . كانت تعمل فى نقل الحيوانات من الحبشة إلى السودان . . أرضية الطائرة وسقفها مملوءان بالثقوب . . معظم المسافرين كانوا يجلسون على الأرض . . وإذا فكروا فى الجلوس على مقاعد ، فالمقاعد مربوطة بحبال . . هذه الحبال كانت تستخدم فى ربط أرجل الأبقار والجواميس . . وكان يجلس إلى جوارى ثلاثة من الدكاترة . . وكنت سعيدا بجلوسهم إلى جوارى . . فى مقدمتهم الدكتور فيليب المنقبادى كبير أطباء شركة شل ، أما سبب فرحتى بالدكاترة فستعرفها بعد لحظات!

وهبطت بنا هذه الطائرة فى أثينا ، ثم فى روما ، وباريس ، ولندن .

و«تخبطت» كل هذه الصور الغريبة الرائعة المثيرة فى رأسى ، لدرجة أننى حينما عدت إلى مصر كنت أتخيل أن برج إيفل موجود فى لندن ، ومجلس العموم البريطانى موجود فى أثينا ، والجندول فى باريس .

ولكن هذه «اللخبطة» كانت مثل أكلة دسمة جدا فيها كل شىء تحبه . . ثم ملأت به فمك ومعدتك مرة واحدة . . إنها أكلة توجع البطن ، ولكنه وجع لذيذ!

وأول مرة سافرت بالباخرة كانت فرحتى لايمكن وصفها ، وكنت أيامها محررا فى جريدة «الأهرام» ونشرنا فى الأهرام خبرا عن سفرنا . . وقرأه الناس ولم يضحكوا كما ضحكنا ، لقد كان الخبر يقول :

«يسافر اليوم إلى أوروبا على «ظهر» الباخرة : الأساتذة حسين بيكار ، وعبدالسلام الشريف ، وأسعد مظهر ، وصلاح طاهر ، وكمال الملاخ ، والأخوان وانالى وأنا ، فى رحلة تستغرق شهرا» .

ولكن حينما قرأنا الخبر ضحكنا ، لأننا بالفعل مسافرون على «ظهر» الباخرة . . فلم نسافر فى الدرجة الثالثة أو الأولى . . وإنما على «الظهر» . هناك تحت خيمة وضعنا حقائبنا وتمددنا على الأرض المصنوعة من الحديد . . وتحتنا توجد «أشولة» . . وفوقنا السماء . . وبين كل اثنين نائمين ، توجد حقيبة كبيرة . . وفى ساعة مبكرة فى الصباح ، يجىء البحارة بالجرادل وخراطيم المياه ليغسلوا ظهر السفينة . . وفى هذه الحالة لابد أن تنهض بسرعة وتلم «العزال» لتفسح الطريق أمام المقشات .

والبحارة يصحون فى الساعة الخامسة صباحا ، قبل أن تصحو الشمس ، فهم يغسلون ظهر الباخرة حتى لا تتسخ أشعة الشمس ، وهى تتمشى عليها .

ونحن عادة فى الباخرة نظل ساهرين فى طبل وزمر ورقص حتى الفجر ، وبعد لحظات يجىء البحارة يوقظون هؤلاء النائمين بأجراس غريبة : عبارة عن زعيق وصريخ وتهديد بالماء .

يعنى لم نكن ننام ، ولم نكن نشكو من قلة النوم ، ولا من التعب! وكيف يشكو من التعب ، أى إنسان على سفر!

إن فرحتى بالسفر تجعلنى أفكر من جديد فى نظرية التطور التى تقول بأن الإنسان أصله طائر أو سمكة ، فالسمكة حياتها فى الماء ، وتموت فى الماء أيضا . . وأنا أموت فى الماء وفى الهواء . . يكفى أن أرى لأحلم أنى أستحم وأغوص وأعوم وأموت . . وتخيل قبرى من الأسفنج أو أتخيله عبارة عن قوقعة . . أموت فيها كما تموت حبات اللؤلؤ . . وأظل عائما فى الماء . . قبرى عائم فى الماء . . تماما مثل قبر الكلبة «لايكا» الذى ظل طائرا فى الهواء حول الكرة الأرضية .

ولم يكن من آمالى أن أكون بحارا ولا طيارا . . ولكن كان من آمالى أن أكون طبيبا . . وهذه أمنية كل طفل صغير . . كل طفل يخاف من الدواء ومن الحقن . . ويرى المرض فى بيته يأكل والده ، ويهد حيل أمه ، ويخطف أقاربه . . وكانت من آمال والدى أن أكون من رجال الدين . . ومن آمال أمى أن أكون مهندسا زراعيا .

فكل أحلام الأطفال أن يكونوا أطباء . . أى قادرين على قهر المرض ، وطرد الموت ، لا يتناولون الدواء المر ولا يصرخون من الحقن . . والأطفال الصغار يتصورون أن الطبيب لا يمرض ولا يموت . . وكان الكاتب الإنجليزى «برنارد شو» يرى أن الدكاترة جميعا جزارون . . وأنهم يذبحون المرضى بالجهل وابتزاز أموالهم . . وأن الطبيب ليس إلا خفيرا للمقابر . . وهذه المقابر هى أجسام الناس!

ولكن لايزال عندى هذا الخوف من المرضى ومن الإصابة بالمرض . . فأنا أستطيع أن أكون مقياسا لكل أمراض الشتاء . . كالزكام والسعال . . وأنا أصاب بها عادة قبل بدء الشتاء . . ولا تتركنى هذه الأمراض إلا فى أوائل الصيف .

وأى إنسان يعطس أمامى ، يعلم أننى سأتناول «الأسبرين» بعد لحظات . وأى واحد يسعل ، سيجدنى قد سبقته إلى «الأجزاخانة» لأخذ حقنة «بنسلين» ، ومع أننى أخاف من الحقن وأتوجع منها كأى طفل ، فإن خوفى من المرض هو الذى يدفعنى إلى تعذيب نفسى .

وأنا حائر فى صداقتى للأطباء . . هل هى صداقة فعلا أو هى خوف من المرض .

وكل أصدقائى من الأطباء يشكون من مخاوفى . . فلا أكاد أصاب بأى ارتفاع فى درجة الحرارة . . حتى أدور عليهم واحدا واحدا ، وأسألهم عن كل الأمراض التى تصيب أى إنسان ترتفع درجة حرارته ، وقد تعلمت حقيقة بسيطة جدا وهى أن ارتفاع درجة الحرارة ليس معناه أى مرض . . أو معناه الإصابة بأى مرض . . فارتفاع درجة الحرارة هو المقاومة الشعبية فى داخل الجسم لهذا الدخيل الأجنبى : الميكروب!

والحقن والأدوية ليست إلا ذخيرة نلقى بها فى المعركة ، لمقاومة ملايين الميكروبات . . ملايين المتسللين إلى أجسامنا!

ولما كنت فى الهند أرسلت برقية إلى صديق فى جاكرتا ، بأننى فى طريقى إليه ، وانتظرنى فى المطار وفوجئ بأننى مسافر إلى أستراليا ، وقال منزعجا :

- أنت ايه . . مازهقتش من السفر؟

- لا . .

- مش تعبان .

- أيوه . . لكن ايه يعنى؟

- والجيوب الأنفية؟

- والجيوب الأنفية . . الآن أحسن .

- قصدى الفلوس اللى فى الجيوب .

- ولا يهمك . . فاستراليا كلها صحة . . الهواء نفسه غذاء . . الهواء لحم وفاكهة ونوم هنىء!

ولا أعرف ما الذى حدث لى . . لقد نزلت فى مدينة «سيدنى» باستراليا ، وأنا أشكو من التهاب الجيوب الأنفية . . وأصابنى الفزع وخشيت أن تكون هذه بداية أمراض لا أول لها ولا آخر . . وأنه لابد أن تكون هذه الأمراض قد تسللت إلى جسمى فى الهند . . ولم تظهر إلا بعد أن تغير جو الهند الحار ، إلى جو استراليا البارد . . وخشيت أن تكون هذه الأمراض هى طلائع الأمراض المتوطنة فى آسيا كلها .

وبدلا من أن أذهب إلى الفندق . . ذهبت إلى المستشفى وبدلا من أن أشكو الجيوب الأنفية ، شكوت من كل الأمراض التى أعرف أنها موجودة فى الهند .

ودار هذا الحوار بينى وبين أطباء المستشفى :

– عندك ايه؟

– كل حاجة .

– زى ايه؟

– كل الأمراض . . فأنا كنت فى الهند والتبت ، وسيلان ، وأندونيسيا . . وتعذبت ، ومرضت ، وجعت ، وعرفت الأرق ، والنوم واقفا والنوم جالسا . . وطوال الليل هربان من الناموس ومن الثعابين . . وأعصابى مفيش . . فيه انقلاب عسكرى فى داخل جسمى . . إن مصارينى قامت بمظاهرة وحملت معدتى على الأكتاف . . وارتفعت بالمعدة إلى مستوى الرأس . . ومعدتى الآن فى مكان عقلى . . وكل أعضائى معطلة عن العمل . . وأنا أريد إرجاع الحياة إلى ما كانت عليه قبل الحكم المعوى . . أريد أن يعود العقل إلى عرشه فوق كتفى . . إلحقونى يا ناس يا هوه .

طبعا قالوا إننى مجنون .

وبعد ليلة هادئة قمت من النوم وأنا لا أصدق أننى على قيد الحياة . . وفتحوا لى الأبواب وطلبوا منى أن أبحث لى عن لوكاندة أخرى غير المستشفى!

ومنذ أيام ذهبت إلى الدكتور . . وأعطيته ذراعى اليمنى للتطعيم ضد الجدرى . . وذراعى اليسرى لحقنى ضد الكوليرا وضد التيفود وضد الحمى الصفراء . . ووقفت مرعوبا . . وبعد لحظات ارتفعت درجة حرارتى . . وأحسست بدوخة شديدة وصداع . . وسألت :

– ما الذى أفعله؟

– فى ايه؟

– إذا مرضت .

– مش فاهم .

– إذا ارتفعت درجة حرارتى وظهرت دمامل فى ذراعى .

– خذ قرص أسبرين .

– بس كده .

- وإذا حصل أكثر من كده .

- لا . . مش حيصل .

- لابد أن يحصل . . أنا عارف نفسى . . أرجوك قل لى أعمل ايه .

- عليك بالأسبرين .

وأحسست أننى سخيف جدا ، وأن مخاوفى «عيالى» وأن الوقاية من المرض متعبة كالمرض نفسه . . تماما كالذى يحمل شمسية ثقيلة جدا للوقاية من ضربة الشمس . . الشمسية ثقيلة ، ولكن ضربة الشمس تشبه سقوط قرص الشمس كله فوق دماغك وجسمك . . ولكن الشمسية أهون من الشمس .

وبدأت أبحث عن أدوية الوقاية من كل الأمراض التى يمكن أن يصاب بها أى إنسان فى أى مكان ، فى العالم حبوب وسوائل ، وحقن ومراهم وشاش وقطن . . وكل يوم أرتب علب الأدوية ترتيبا معينا .

فالعلب التى على اليمين خاصة بالمعدة والمصارين ، والتى على اليسار خاصة بالكبد ، والتى فى الوسط خاصة بالصداع والصدر وكل الجهاز التنفسى . . أما التى فى الكيس من النايلون فهى أدوية للاستعمال من الظاهر ، كالمراهم والمطهرات .

ومفروض أن تبقى هذه الشنطة كما هى لا تتحرك لايمينا ولا شمالا حتى لا أخطئ فى استعمالها .

وأمسكت ورقة وكتبت أسماء هذه الأدوية وطرق استعمالها ، والكميات ، والظروف ، وقبل وبعد وأثناء الأكل ، ثم نوع الأكل ، وبدأت أذاكر هذه الأدوية .

ولكى أتحقق من معلوماتى سألت أصدقائى من الدكاترة ، وكانت الكارثة!

فلا يوجد طبيب واحد يتفق مع طبيب آخر فى الرأى ، ولا فى العلاج ، ولا فى التشخيص ، وكل واحد له نظريته وعنده دليل على صحتها .

ووجدت أن الحل الوحيد للخروج من أزمة فلاسفة الطب ، هو أن «الخبط» الشنطة ، فأى دواء يقع فى يدى هو علاج لأى مرض لا أعرفه ، وأى لخبطة هى علاج ، وهذه اللخبطة لها نظرية عند طبيب معين .

والنتيجة هى أن العلاج الوحيد لكل الأمراض هو أن تكشف على نفسك وأن تشخص لنفسك المرض ، وأن تعالج نفسك بنفسك .

وعـرفت من كـلام الدكـاترة أيضـا : أن المريض إذا أحس بأن الأطبـاء كلهم لا يفهمون فى الطب وأنه لم يعد يثق فيهم ، وأنه يثق فى نفسه ، فهذه أيضا أعراض مرض خطير . . هذا المرض يسمونه : الوسوسة .

ودكاترة آخرون يسمونه : نزعات انتحارية .

وينصح الدكاترة بعضهم البعض بأنهم إذا صادفوا مريضا بهذا الشكل فالعلاج الوحيد هو ألا يسألوا عنه ، وأن يتركوه لمرضه الذى لا علاج له .

ولخبطت الشنطة . . ولكنى اكتشفت أن بعض هذه الأدوية مفيد وبعضها الآخر سام . . وأنه قاتل .

وعلى ظهر الباخرة «مصر» رحت أقلب فى الشنطة عن الورقة التى كتبت فيها أسماء هذه الأدوية وفوائدها . . لم أجد الورقة . . لقد نسيتها فى البيت . . مع أننى نقلت منها ثلاث نسخ . . ووضعت نسخة مع الأدوية ونسخة فى جيب البنطلون . . ونسخة فى جيب الجاكتة!

ونزعت كل هذه الملابس التى كنت أرتديها وأنا آخذ الحقن فى مبنى البلدية .

وحينما أخذت صندوق الدواء ، أو هذه الأجزخانة الصغيرة ، كنت قد ألصقت هذه الورقة على الصندوق ، ولم أكن أتصور أن الصمغ سيذوب من حرارة الجو ، وذاب الصمغ ، وطارت الورقة . . تماما كما تنقطع الحبال التى تشد زورقا إلى الشاطئ فيجرفه التيار .

وكان الصمغ هو الأصابع الخفية التى تشدنى إلى الصحة . . الأصابع التى تمسك «الروشتة» . . أما الآن فما فائدة الدواء الذى لا أعرف طريقة استعماله .

والآن أجلس أمـام صندوق أدوية ، وأنا خـائف من هذه الأدوية ، خـائف أن أستعملها ، وخائف ألا أستعملها .

ووضعت الأجزخانة الصغيرة فى ركن .

وفكرت فى أن ألقيها فى الماء . . لقد خجلت . . لقد شعرت أن هذه الأجزخانة ليست إلا وثيقة سخافة ، ودليل اتهام ضد أفكار صغيرة ، فأنا خائف من المرض . . أى مرض بعد أن أخذت عددا من الحقن تكفى لوقاية جبل .

ثم أى مرض هذا الذى يخيفنى ويهز القلم فى يدى . . وأنا ذاهب إلى اليمن حيث سبقنى عشرات الألوف من أبناء وطنى ، ناموا على الصخر . . وشربوا المطر ،

وصحوا على النار من أجل الدفاع عن حرية الشعوب ، وحقها فى أن تتحرر من الخوف ، ومن الفقر ، ومن الجهل ، ومن المرض؟

وأدركت أن خوفى من المرض هو خوف قائم على الجهل ، والجاهل خائف لأنه لا يعرف . . ولأن خوفى من مرض تاريخى . . مرتبط أنا مع المرض وتاريخ أهلى وأخوتى وأسرتى فقد كان فيها الكثيرون من المرضى والخائفين من المرض ولكن هذا الخوف التاريخى يجب أن يتغير . . فالتاريخ نفسه يتغير . . يتبدل . . ويصبح ظلامه نورا . . ويأسه أملا ، والمحكومون فيه حاكمين ، والمقيدون فيه أحرارا .

إننى ذاهب إلى أرض التاريخ . . وهذه فرصة عظيمة لأنسى مخاوفى ولأحطمها على صخرة الشجعان وأرض التضحية . . فإذا كان المرض يعدى فإن الصحة تعدى أيضا . . لقد انتقلت إلى جسمى ونفسى عدوى الشجاعة فى مواجهة العدوان ، وعدوى التضحية فى مواجهة الواجب .

ومع الصندوق ، رميته فى البحر ، أغرقت مخاوفى!

والله نذبحه

الكتب الكثيرة التى قرأتها عن اليمن ، والأيام القليلة التى أمضيتها فى اليمن ، لم تمكنى من معرفة جبال اليمن ووديانها ومدنها وآثارها وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم ومشاكلهم . ولماذا وقف بهم التاريخ منذ عشرين قرنا؟ ولماذا اندثرت الحضارة اليمنية؟ ولماذا أقفرت الأرض الخضراء؟ وأين ذهبت الجنات التى تحدث عنها القرآن الكريم ، والكتاب المقدس؟ وأين الصناعات ، وأسواق الأحجار الكريمة؟ وأين السدود والبحيرات ، وأين هؤلاء العباقرة؟

إن نصف الكتب التى قرأتها من تأليف جماعة من المغامرين الأوروبيين الذين دخلوا اليمن وهم فى حالة من الرعب والفزع ، وأكثرهم لم يكمل الطريق إلى المدن ، فقد خاف من الجبال ومن العيون التى تنظر إليه من وراء الصخور ومن فتحات الكهوف ، وأكثر هؤلاء المغامرين يتحدثون عن أشياء يندهشون لها ، ولا تدهشنى ، فهم يتكلمون عن الفقر والعرى والأقدام الحافية والصدور العارية ، والعيون الزائغة ، وعن الجهل والإيمان بالخرافات . . وكلها حالات عرفناها منذ وقت ليس ببعيد .

أما الكتب العربية فهى ناقصة أيضا . . فلا توجد خريطة مضبوطة لليمن ، ولا توجد إحصائيات . . فلا أحد يعرف كم عدد سكان اليمن ، ولا أحد يعرف ثروتها ، ولا كم طنا من البن تصدر كل عام ، ولا كم رأسا من الغنم ، ولا كم طنا من الملح ، ولا ميزانية الدولة ولا الضرائب ، ولا توجد باليمن طرق مرصوفة ، ولا طرق يسهل المشى فيها بالقدمين . . ولا يوجد أمان لأحد ، فكل الشعب يحمل السلاح ، ولا فرق بين رجل البوليس ورجل الجيش .

لقد نجح الأئمة واحدا وراء واحد فى ١٢ قرنا من الزمان ، أن يجعلوا بلادهم لغزا لا يفهمه أحد فى اليمن ، ولا خارج اليمن ، لقد أغلقوا حدودها ، وأغلقوا البيوت على أهلها . . بالفزع و«القات» والخرافات وأصبحت اليمن كبلاد التبت . . بعد أن كانت اليمن لؤلؤة الجزيرة العربية فقد كان فيها ٨٠ سدا لحجز المياه وتوزيعها على ملايين الأفدنة المزروعة بالفواكه . . ومن بين هذه السدود سد مأرب . . ولقد رأيت مكان السد . . وأعتقد أن مدينة مأرب كانت عملا هندسيا رائعا .

وقد عرفت اليمن حكم الملكات ، وربما كان اليمن من أول البلاد التى حكمتها النساء ، أن «بلقيس» كانت سيدة جميلة ذكية ، وقد روى القرآن على لسانها أنها قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ . . فقد كانت تستشير رجالها ، مع أنها أعقل منهم ، وعلى لسانها قال القرآن أيضا : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وعرفت اليمن ملكة أخرى بعد الإسلام ، وكانت فى غاية الحكمة ، هى السيدة أروى بنت أحمد .

والمؤرخ الهمذانى يحدثنا عن ناطحات السحاب فى اليمن . . وكيف أن المهندس اليمنى أقام عمارات من عشرين دورا ، وكل دور ارتفاعه عشرون قامة ، وكيف أن هذه العمارات لم تكن خاصة بالملوك والأمراء وإنما كانت لأغنياء الشعب . . وكان ذلك من ألوف السنين أيضا!

ولم تكن اليمن فى عزلة عن العالم . . فقد سافرت بلقيس إلى الملك سليمان ، وعادت تحمل أول ملوك اليهود . . وفى أيام المسيح سافر ثلاثة من أمراء اليمن لمقابلة المسيح والإيمان به . . وفى أيام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ دانت بلاد اليمن وأسلمت بلا قتال . . وقال فيهم النبى : «**أتاكم أهل اليمن، وهم أرق أفئدة والين قلوبا**» . . وقال الرسول ـ ﷺ ـ أيضا : «**الإيمان يمانى، والحكمة يمانية**» .

وكان جيش عمرو بن العاص ، الذى دخل به مصر من أهل اليمن وجيش معاوية الذى دخل به الشام ، وجيش عبدالرحمن الداخل ، الذى فتح به المغرب . . وجيوش عربية أخرى ، كلها من اليمن ، وكل القبائل العربية الموجودة فى محافظات الصعيد والبحيرة والشرقية والإسكندرية من أبناء اليمن ، وأسماء عائلات جهينة ، وعلام ، وعامر ، وعبس ، وخولان وعبيد وسالم وبنى مر ، كلها من القبائل اليمنية .

والا أحد يعرف بالضبط ما الذى فعله الأئمة ليقبروا هذا المجد اليمنى . . أى سلاح مسموم استخدموه؟ أى أساليب جهنمية أطاحت بالشعب اليمنى منذ اليوم الأول لدخول الإمام الأول عليهم ، وهو الهادى لدين الله يحيى بن الحسين!

حتى البن ، الذى اشتهرت به اليمن . . لا أحد يدرى لماذا انقرض من اليمن؟ إن كل أشجار البُن التى فى العالم من اليمن ، فأول شجرة بُنّ انتقلت من اليمن إلى أندونيسيا حملها موظف هولندى بشركة الهند الشرقية ونقلها بعد ذلك إلى هولندا ، ومنها إلى البرازيل ، إن أشجار البنّ فى اليمن تختفى لتحل محلها أشجار كريهة اسمها أشجار

«القات» . . الذى هو قوت الشعب اليمنى ، فهم يمتصونه فى أفواههم ، و«القات» يمتص حيويتهم وأعمارهم ، ويفتح أعينهم حتى لا يروا شيئا وقد وجد العلماء أن «القات» يحتوى على مادة «الكافيين» المنبهة ، ومادة «المورفين» المنومة ، فهو يصيب من يتعاطاه بنوع من اليقظة النائمة . أو نوع من التنبيه البلدى ، أو بشىء يمكن تسميته بإغماء اليقظة ، وبذكاء شرير ، وفهم إجرامى ، شجع الأئمة أبناء الشعب على إدمان «القات» . . فهم يضمغونه ، ولا يأكلون ، وهم يدمنونه ولا يفيقون ، وهم يستحلبونه ست ساعات كل يوم!

واستطاع الأئمة الخبثاء أن «يلخبطوا» عقول الشعب بالإمامة المقدسة فالإمام لا يخطىء . . وهو معصوم لأنه يرى بنور الله ، والويل لمن خالف الإمام ، أو أن فكر فى مخالفة الإمام ، ومن تعاليم الأئمة أن من أنكر على الإمام بقلبه فهو فاسق ، وبلسانه فهو كافر ، وبيده فهو محارب الله!

ولم يكتف الأئمة بذلك ، بل أشعلوا النار بين القبائل ، وابتكروا أسلوبا همجيا اسمه : الخطاط ، أو التخطيط ، فالإمام يأمر إحدى القبائل بالخطاط ، أو بالتخطيط ، على قبيلة أخرى ، ومعنى ذلك أنه يحق لهذه القبيلة أن تستولى على كل ما تملكه القبيلة الأخرى ، وتستحل نساءها وثرواتها ، وتقتل منهم من تريد بأمر الإمام ، أو أمر الله . . وبذلك تظل النار مشتعلة بين القبائل فى الجبال . . حتى فى أيام الأتراك ظلت نار الثأر والحقد والطمع تأكل القبائل . . ولم يحدث فى تاريخ اليمن كله أن توقفت الحرب بين القبائل . وكثيرا ما أعلنت القبائل انفصالها عن الإمام واختارت كل واحدة منها إماما حتى بلغ عددهم ١٧ إماما فى وقت واحد ، فالإمامة ليست موروثة ، كما يفعل الشيعة فى العراق أو فى إيران . . وإنما هى فى اليمن بالاختيار . . ويشترط أن يكون الإمام مقاتلا!

حتى الذين هاجروا من اليمنيين إلى أمريكا . . ظلوا متمسكين بهذه الخرافات التى أشاعها الأئمة . . ومعنى ذلك أنها كانت عميقة فى قلوب أبناء اليمن ، وقد حدث أن الكاتب اللبنانى ، أمين الريحانى ، قابل أحد اليمنيين فى أمريكا وسأله :

- ما الذى تفعله إذا دخل أجنبى بلدك؟
- والله نذبحه!
- وإذا قتل أحد الإمام؟
- والله نذبحه!

وقدر لأمير الريحانى أن يذهب لمشاهدة هذه البلاد التى أطلق عليها اسم «بلاد والله نذبحه» . . وقام برحلته المشهورة منذ نحو خمسين عاما .

وبالرغم من أننى عشت أياما فى اليمن ، وتنقلت من الحديدة ـ ذلك الميناء الحار المليء بالتراب والرطوبة ـ إلى صنعاء العاصمة العالية المعتدلة الجو ، ومنها إلى مأرب ، ثم إلى المدينة الناعسة . . تعز ، والتى أحاطتها الجبال الخضراء ، وغمرتها العطور والورد والياسمين حتى وجوه النساء ملونة باللون الأصفر ، الذى هو نوع من «الكريم النباتى» لصيانة البشرة ، والأزياء كلها هنا ملونة زاهية . . للرجال والنساء وبالرغم من أننى استمعت إلى كثير من رجال وشباب اليمن ، فإننى أريد أن أعرف أكثر ، وأن أستمع أكثر وأكثر ، فلابد أن هذه الملايين التى تمشى هادئة ساكنة ، لا تلتفت إليك ، وقد حمل كل منهم حزاما تحته خنجر ، فوقه بندقية تحتها عشرات الرصاصات . . وفوقها عمامة ملفوفة . . ألوف الناس . . ملايين الرجال . . يمشون ببطء شديد كأنهم خرجوا فورا من كتاب قديم أو كأنهم فى طريقهم إلى أحد «الاستوديوهات» ليشتركوا فى فيلم ضخم عن اليمن القديمة .

وكثير من الشباب اليمنيين يعترفون بصراحة وصدق فى ندواتهم الأدبية بأنهم لم يدخلوا المدرسة . . وأن قصائدهم إذا جاءت ركيكة فلأنهم لم يدرسوا أوزان الشعر . . ولكن كل الشبان والرجال الذين تحدثت إليهم أذكياء يحسنون الفهم ويحسنون التعبير ، ويتابعون نشاط الأدباء فى مصر وفى العالم العربى .

وقد رأيت الحديدة . . رأيت المستشفى الذى انطلق فيه الرصاص على الإمام أحمد . . ورأيت القصر الذى كان يعيش فيه . . ورأيت الميناء الذى أنشأه الروس ، وأقاموا حوله بالمئات . . ورأيت الطريق الذى رصفته الصين . . ورأيت المطار الذى شيده جنودنا . . وفى صنعاء رأيت القصر الذى هاجمه السلال بالدبابات وهرب منه البدر .

وقابلنا الزعيم السلال ، وكان يتحدث إلينا حانى الرأس ، كأنه يقدر العبء الثقيل والمسئولية الخطيرة . . مسئولية تطوير شعب من أوله لآخره . . وتحويله من الحياة القبلية إلى الحياة الزراعية ، ومن حمل البندقية إلى حمل الفأس ، ومن زراعة «القات» إلى زراعة القوت ، ومن قطع الطريق إلى رصف الطريق ، ومن العزلة الخائفة البدائية ، إلى الاتصال بالعالم الخارجى .

لقد حاولت الدول الأوروبية أن تنفذ إلى أعماق اليمن . . إلى أراضيها البكر ، ووديانها العذراء . . فأرسلت جواسيسها من المغامرين . . وحاولت أن تعقد اتفاقيات تجارية مع الإمام . . ولكن الإمام صدها وردها .

حاولت أمريكا أن تنقب عن «اليورانيوم» وفشلت . . حاولت ألمانيا أن تجد البترول وفشلت . . حاولت أن تبحث عن الفحم . . وطردها الإمام . . وتركت له فى قصر الروضة

«الأسانسير» الوحيد فى اليمن ، وهذا الأسانسير يرتفع وينخفض بأيدى الناس ، فقد رفض الإمام أن يشترى له «موتورا» لأنه غالى الثمن ، ووضع المبلغ المخصص لشرائه تحت البساط . . وحاولت إيطاليا أن تجعل اليمن إمتدادا لأرتريا ، التى تقع على الجانب الغربى من البحر الأحمر . . وفشلت . . وحاولت اليابان أن توسع صناعة الملح وأصابها اليأس .

ولابد أن هذه الدول ستحاول من جديد المساهمة فى زراعة الأرض ونبش التربة ، فاليمن تحتاج إلى رأس المال ، وتحتاج إلى الخبرة . . وتحتاج قبل هذا كله إلى الاستقرار والطمأنينة والنظام ، وهذه هى المهمة الإنسانية الخطيرة التى حملها شعبنا دفاعا عن شعب اليمن وثورته ومكاسبه . . وإن كل هذه الصعوبات التى لا يتصورها العقل ، هى التى جعلت آمالنا خيالية فى اليمن . . بل معجزة من معجزات الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى القرن العشرين .

إن تجربة اليمن صعبة وشاقة ، وهذا ما يشرفنا ، ويرفع مكانتنا فى تاريخ الأمة العربية ، وفى تاريخ العالم . . وليس من المنتظر أن تنهض أمة نامت عشرين قرنا ، مرة واحدة . . تنهض وقد أمسكت غصن الزيتون ورسمت على وجهها ابتسامة القناعة ، ونشرت ذراعيها بالحب والصداقة .

إن أحدا لا يستطيع أن يخلق شعبا . . إن الشعب هو الذى يجدد نفسه .

إن الأساطير اليونانية فقط هى التى تحدثنا عن «زيوس» كبير الآلهة الذى أخرج «منيرفا» من جبهته . . كاملة التكوين ، رائعة الجمال فى لحظة واحدة!

فهو كبير الآلهة ، والقصة كلها خرافية!

وأنا أذكر أن صديقى المرحوم الزبيرى أصدر كتابا بعنوان «مأساة واق الواق» . . وفى الصفحات الأولى من الكتاب راح يعاتبنى على أننى لم أذهب لرؤية أهل «واق الواق» ويقصد بهم أهل اليمن ، الذين التفوا حول الإمام وراحوا يتناقشون فى البيضة والكتكوت .

وقابلنى الزبيرى فى اليمن وهو يقول : أهلا بك فى أرض لن تكون «واق الواق» مرة أخرى .

وأنا واثق من أن الشعب اليمنى سينهض ويقف ويتقدم ، ولن يتعب من السير فى هذا الطريق الطويل الوعر الذى خلقه بتاريخه وعقده وعقائده .

قال أحد اليمنيين : لابد أن ننزع أشجار «القات» من الأرض .

قلت له : بل من أفواه الناس .

فقال : ومن أفواه الناس طبعا .

وشعرت بشىء من الحرج أن أقول ذلك لأحد . . فهذه بلادهم وهم يعرفونها أكثر . . وما أنا إلا عابر سبيل . . وماهى إلا أيام حتى تكون اليمن صفحة من ذكرياتى!

سيف الإسلام فلان فى حديقة الحيوان

كانت الباخرة الفرنسية «الماريشال جوفر» تقترب من ميناء مرسيليا . . وكنا قد تعبنا من أمواج البحر . . وتعبنا من صفارات الإنذار والاستعداد للغرق . . ومن التجارب على الغرق واستخدام الزوارق وأطواق النجاة . . وفى كل مرة تنطلق فيها الصفارة أرى عددا من الراهبات بملابسهن السوداء يصلين لله ، أن ينقذ الباخرة من الغرق . . مع أن الباخرة لم تغرق بعد ومع أنها تجارب . . أن البحر هادئ جدا ، والسفينة كبيرة ولا تهزها الأمواج إلا بصعوبة . . وتملكنى الخوف الشديد ، وأضربت عن الطعام ، واكتفيت بالشاى والليمون ، وقررت أن أنام جالسا على مقعدى حتى أصل إلى فرنسا . . وكان سريرى ، مع الأسف ، فى الدرجة الرابعة . وكانت هذه الدرجة فى أعماق السفينة . . وأعماق السفينة تقع تحت سطح البحر . . وكنت أشعر بالاختناق من رائحة العرق والحرارة . . ورائحة الأطعمة المحفوظة ، والتى لا أزال أكرهها حتى الآن «كنت قد نسيت رائحتها إلى أن تذكرت هذه الرائحة وأنا جالس أمام علبة السردين فى مدينة صنعاء باليمن ، وكان يقاسمنى إياها يوسف السباعى ، ونجيب محفوظ ، وصالح جودت ، ومحمود إسماعيل ، والدكتور علام» .

وأتيت ببطانية وفى مقدمة السفينة جلست أواجه العواصف بجسم هزيل ومعدة خاوية ، وانتظار نافد لطلوع الشمس . . وطال الليل . . ولا أعرف إن كنت قد نمت أو لم أنم . . ولكن حين الفجر تقدم شاب فى ملابس زرقاء . . واضح جدا أنه يعمل فى أعماق السفينة وعلى ملابسه شحم وعلى وجهه أيضا . . سألنى : أمريض أنت؟

قالها باللغة العربية . . فاندهشت . . ولكن دهشتى تلاشت مع لهفتى وأنا أقول له :

نعم . . ولم أتمكن من سؤاله : من أنت ، وتشاغلت بأوجاعى وجمعت البطانية ووضعت يدى على بطنى . . ولا أعرف ما الذى يوجعنى بالضبط ، ولكنى موجوع . . أو كأنى الوجع نفسه .

وبعد لحظات جاء الشاب نفسه وفى يده كوب من اللبن الأسود القاتم المحروق . . وطلب منى أن أشرب هذا الكوب فورا ، وشكرته وأنا أسأله : الأخ من أى البلاد العربية؟

فقال : من اليمن .

ولم ألاحظ أنه نطق كلمة «اليمن» باعتزاز شديد إلا بعد أن تذكرت هذه الواقعة وحينما قال كلمة «اليمن» لم يدر فى ذهنى شىء ، ولم تدر فى رأسى أية صورة ، ولا أعرف أى شىء يذكرنى باليمن وإنما رنت «اليمن» فى أذنى ، وتلاشى وجهه من عينى ، ولم أفكر فى هذا الشاب الطيب النحيف بعد ذلك .

ولكن ظل طيلة الساعات التى قضيتها فى الباخرة إلى أن وصلت إلى مرسيليا يحدثنى عن مصر .

ولاحظت بعد ذلك أننى اكتفيت بهذه الحفلة التى أقامها الشاب اليمنى لتكريم مصر والإذاعة العربية ، ولم أنس أن أسأله عن اسمه وعن حاله وعن اليمن . . ولكن يبدو من كلامه أن الحال سيئ جدا فى اليمن . . ولكن هذه الحالة السيئة أيضا لم تشغلنى عن أوجاعى ، ولا عن خوفى من المرض .

واختفى الشاب اليمنى فى أعماق الباخرة . . وكان هذا أول عهدى بأبناء اليمن منذ ١٢ عاما .

وكل ما تبقى فى ذاكرتى أن أبناء اليمن نحفاء ، وأنهم فى أشد الحزن على حالها السيئ ، وانشغلت بفرنسا وباريس عن كل أحداث الباخرة وعن كل الذين قابلتهم من عرب وغيرهم!

ولكن حدث شىء آخر فى باريس جعلنى أتحدث عن اليمن وأنا أعترف أن كلامى عن اليمن لم تكن له دلالة ولم يكن له أى أثر فى نفسى بعد ذلك .

ففى أحد المطاعم فى حى «الباريس» فى باريس قابلت عددا من الشبان الجزائريين والمغربيين وتحدثنا فى أمور كثيرة ، كلها مرحة وخفيفة ومن الغريب أن شابا واحدا كان جادا وكان جامدا طوال الوقت ، واتجه بحديثه إلىّ وهو يقول ، وكأنه يعاتبنى : الأخ من مصر؟

فقلت له : نعم . . وأنت؟

فأجاب : من اليمن السعيد .

قلت : اه . لقد قابلت يمنيا آخر فى الباخرة ، فهل أنتم كثيرون هنا؟

فأجاب : بضع عشرات . . ولكن فى إيطاليا وفى أمريكا عدد كبير جدا .

وسألته : ماذا تعمل؟

فأجاب : فى أحد المصانع .

وأصبح واضحا من كلامه أنه لا يريد أن يكمل حديثه معى ، أو أنه غير راغب فى الكلام بصفة عامة ، وهذا ما ظننته أنا . . ولكن خاب ظنى حينما سألنى : هل ذهبت إلى اليمن؟

فقلت له : أبدا!

وسألنى : ولا عندك رغبة؟

قلت له : ليس الآن .

قال : متى؟

قلت : لا أعرف . . ولكن لابد أن يجىء اليوم الذى أسافر فيه إلى اليمن . . أو إلى أى بلد آخر .

ورغبت أنا فى إنهاء الكلام عن اليمن . . ولكن كان يبدو أنه يريد أن يستمر فى الكلام عن اليمن .

حاولت أن أغير مجرى الحديث ، وأن أنشغل بالكلام مع بقية الأخوة العرب . . وفعلت . وتناقشنا فى الأدب والفن ، وفى أشياء كثيرة لا علاقة لها بالأدب والفن . . وإنما فى أسعار الطماطم وفى لحم الخيل الذى أكلناه . . ولم نستطعمه . . وبعد ذلك ، عاد الشاب اليمنى يستأنف كلامه وكأنه لم يقطع حديثه . . فقال بعبارة قاطعة باردة : ماذا تعرف عن اليمن؟

والحقيقة أننى لم أكن أعرف شيئا له قيمة عن اليمن . . لم أكن أعرف واحدا على مائة مما يعرفه عن مصر وأدباء مصر وشعراء مصر ، ومعارك الأدباء ، وعن رجال السياسة فى العالم العربى كله .

وسألنى : هل تحب أن تقرأ شيئا عن اليمن؟

وقلت له : يا ريت .

وسألنى : وأنت ماذا تعمل؟

والحقيقة أننى خجلت أن أقول له أننى أعمل صحفيا ، وأننى مدرس الفلسفة بالجامعة . . وقلت له : أنا مهندس مناجم!

ولم ينقذنى هذا الجواب فانطلق هذا الشاب يقول لى : مهندس مناجم ولا تعرف كنوز اليمن القديمة ، ولا تعرف محاولات الدول الكبرى خلال مئات السنين لكى يدخلوا اليمن ، لينهبوا مناجمها التى لم يمسسها إنسان . . إننى تصورت أنك رجل تشتغل بالفلسفة وأنك غرقان فى الأفكار المجردة وبعيد عن هذا العالم . . أما أنك مهندس ، ومهندس مناجم فاسمح لى بأن أقول لك : هذه فضيحة!

وهى بالفعل فضيحة .

وتلاشى الشعور بالفضيحة ، مع أضواء باريس ، وليالى باريس وظلام باريس ، والشعور الغريب الذى يغمر أى إنسان وهو يزورها للمرة الثانية فى حياته ، وهو مبهور بالمتحف ، والمكتبات ، والمسارح والناس .

وفى كل مرة أتذكر فيها باريس . . لا أتذكر هذا الشاب اليمنى ولا أى شىء قاله . . بل فى كثير من الأحيان كنت أتذكر مضايقاتى مع أصحاب الفنادق ومع سائقى التاكسى ، وخناقاتى فى الأتوبيس ووقاحة الفرنسيين وهم ينظرون إلى كل أجنبى . . وخيبة أملى فى معنى الحرية فى فرنسا . . فى كل مرة أذكر فيها الأشياء التى ضايقتنى لا أذكر على الإطلاق ، هذا الحديث الذى دار بينى وبين الشاب اليمنى . . أو الذى دار حولى ، ولم اشترك فيه .

ولا أعتقد أننى تذكرت اليمن بعد ذلك إلا حينما تنشر الصحف شيئا عن عدن ، وعن المحميات ، أو عن جنوب البحر الأحمر . . أو حين تنشر الصحف صورة لأحد سيوف الإسلام . . أو أحد الأمراء اليمنيين . . ولا أذكر بالضبط ما هى الأسباب التى جعلت الصحف تنشر أخبارهم .

فقد كانت اليمن ، بأخبارها وناسها وكوارثها ، بعيدة عن مجال اهتمامى ، فقد كنت مشغولا بأشياء أخرى من ضمنها الأدب العالمى ، والنقد والفلسفة وعلم النفس وعلم الجمال ، ومشغولا بزيادة معلوماتى فى هذا المجال المتخصص .

إلى أن كان يوم وجدت نفسى فيه مكلفا بالذهاب إلى حديقة الحيوان مع أحد سيوف الإسلام .

ولا أتذكر اسمه الآن . . فقد نادانى الأستاذ محمد صبيح ، نائب رئيس تحرير جريدة «الأساس» فى ذلك الوقت ـ أى فى سنة ١٩٤٧ ـ وطلب منى أن أذهب إلى حديقة الحيوان مع سيف الإسلام فلان . . وكان هذا الأمير هو أول يمنى أراه عن

قرب . . وأتحدث إليه ، وأناقشه ، والحقيقة أنه لم يدر بيننا حديث . . وإنما أنا الذى كنت أتحدث إليه طوال الوقت . . أما هو فلم يكن يتكلم . . ولم يكن يشعرنى بأدنى رغبة فى الاستماع . . وكان لابد أن أملأ هذا الفراغ الهائل الذى بيننا . . أو على الأقل كان لابد أن أقول له ، أنت ستنزل فى المحطة القادمة .

طبعا أركبته الترام . . وظللنا واقفين . . والناس يتفرجون عليه . . كانوا يتفرجون على الخنجر الذى علقه فى حزامه . . أو يتفرجون على العمامة ، أو على العينين المبحلقتين فى لا شىء أو على حذائه أو على جوربه . . أو على أشياء أخرى لا أعرفها بالضبط فى ملابسه .

ونزلنا ودخلنا حديقة الحيوان . . وانطلقت من فمى . . وعلى فترات متباعدة جدا ، هذه العبارات : هذا هو الفيل . . وهذا هو الأسد . . وانظر إلى الثعبان . . آه . . لقد تعثرت فى طوبة وهذا هو الغزال . . ما أجمل النعام . . وهذه مستعمرة القرود . . وعددها هنا بالمئات . . وهذه القردة تبكى على زوجها الذى مات . . وهذا يؤكد أن المرأة أصلها قردة . . أما الرجل فهو من سلالة أخرى . . هاها . . ها . . ها «ولم يضحك سيف الإسلام فلان» .

واقترحت عليه أن نتناول الغداء . . وذهبنا إلى جزيرة الشاى . . وأحسست كأننى أجلس وحدى ووضعت ساقا على ساق . . ثم وضعت ساقى على مقعد مجاور . . وسقط كوب الماء على ملابس سيف الإسلام ، واعتذرت ، ويبدو أنه لم يتضايق . . وإنما راح يلتفت بكل رأسه ، وكل جسمه ، إلى الأوز العائم فى جزيرة الشاى .

وفجأة هتفت : أهلا دكتور . . ازيك يا دكتور حسن .

وكان الدكتور حسن حافظ أحد أطباء الحديقة ، وكان صديقى ، ولا أعرف إن كان لايزال يعمل بالحديقة الآن . . ودعوته إلى الغداء . . ولكنه لم يتحمس فلابد أن وراءه شيئا أهم . . كولادة قردة . . أو ثورة كلب البحر ، أو تمرد السلاحف . . لقد اندهشت جدا حينما عرفت منه أن السلاحف تثور «حتى السلاحف تثور ، يا سمو الأمير فلان» .

وسألت سيف الإسلام إن كان يريد قدحا من القهوة . . ومط شفتيه إلى الإمام . . ولكن لجهلى باللغة اليمنية ، لم أفهم منه إن كان يريده بسكر أو من غير

سكر . . أو كان معنى هذه المطة إلى الأمام ، أنه لا يريد أن يشرب بنا آخر . . إلا إذا كان يمنيا . . وهذا ما لا أستطيعه . . وطلبت فنجانين من القهوة : واحد مضبوط وواحد سادة .

ولعنت الأستاذ محمد صبيح . . وتناقشت مع نفسى : هل من سلطته أن يبعث بى إلى حديقة الحيوان . . إننى أعمل محررا للصفحة الأدبية وأناقش القضايا الفكرية والفلسفية فى مصر وفى العالم . . وليس من اهتماماتى الذهاب إلى حديقة الحيوان ، وبهذه الصورة . . لقد أحسست أن يوما ضاع من عمرى . . فلا أنا قرأت ولا أنا استمعت إلى كلام من سيف الإسلام فلان . . وازددت تعجبا للزملاء الغارقين فى قضايا اليمن ، وصور رجال القبائل ، «بل إننى حينما ذهبت إلى قصر الإمام فى صنعاء وجدت نسخا من الصحف المصرية لم تفتح ، ووجدت فيها مقالات عن الإمام ويبدو أن الإمام لم يشأ أن يقرأ هذه المقالات . . أو أنه قرأ نسخة واحدة وترك النسخ الأخرى مطوية ومقفلة بحزام من ورق» .

وقررت أن أرغم سيف الإسلام على الكلام . . أو أرغمه على أن يستمع إلى رأيى . . فقلت له : الحقيقة أنه مشوار سخيف جدا . . وكان فى استطاعتك أن تجىء هنا لوحدك!

ولم ينطق سيف الإسلام فلان بكلمة!

ثم عدت أقول له : لقد قابلت يمنيين فى فرنسا . . كانوا فى غاية الفصاحة والثقافة .

ولم ينطق أيضاً . . ولم ألمح على وجهه أى معنى من معانى الضيق أو القرف . . أو أنه فهم الغرض المقصود من كلامى .

واقترحت عليه أن يأخذ «تاكسى» . . وأن يعود وحده إلى بيته .

وهز رأسه موافقا . . واندهشت لهذا النطق الملكى السامى . . واستنتجت أنه تعب ، وأنه تضايق من ركوب الترام ، فالترام إهانة لسموه . ولكن لم أكن أستطيع أن أدفع له أجر تاكسى .

وقبل أن نقترب من الباب الرئيسى لحديقة الحيوان . . فوجئت بسيف الإسلام يجرى . . وظننت أنه يريد أن يلحق بالترام . . أو أنه توهم أنه لا يوجد إلا سيارة تاكسى أمام الباب . . أو أنه يريد أن يذهب إلى دورة المياه .

وحاولت أن أمسك سمو سيف الإسلام . . لكى أفهم سبب الجرى المفاجئ وأمسكته من كتفه . . ولكنه انطلق . . وقفز من فوق الأسلاك المحيطة بالأشجار وتشبثت الأسلاك بجلبابه . . ولكنه بسرعة نزع الأسلاك من جلبابه . . ثم هجم على إحدى الأشجار وراح ينزع أوراقها . . ويضع هذه الأوراق فى فمه .

ومن الغريب أننى رأيت لمعة غريبة على وجهه وبريقا خاطفا فى عينيه . . ولا أكون مبالغا إن قلت إنه تبسم وعرفت أن هذه هى شجرة «القات» الوحيدة فى حديقة الحيوان . . وربما فى مصر كلها . . ولاحظت أن سمو الأمير سيف الإسلام قد أفاق من صمته المميت ، فقد اقترب منى وهو يبتسم . . وهو يضحك وهو يتكلم . . نعم يتكلم ويقول : لا مانع من أن نتفرج على الحديقة .

فقلت : لقد تفرجنا عليها أكثر من ساعتين .

فقال : صحيح؟!

قلت وأنا أجرى ناحية الباب ، تماما كما كان يفعل قبل لحظات : إننى ذاهب إلى الطبيب ، عندى مغص .

ومن الغريب أنه سألنى : كيف حدث هذا فجأة؟

ونظرت إلى اللعاب الذى يسيل من بين شفتيه وأنفه ويتدفق على صدره كأنه أصيب بحالة تسمم ، ثم لاحظت أحد رجال البوليس وقلت لرجل البوليس وحياة أبوك يا شاويش . . الراجل اللى هناك عنده كوليرا . . أمسكه!

ولما اقترب منه رجل البوليس هربت إلى خارج حديقة الحيوان!

الرجل الذى جعل الإمام أنا جوزا

ولا أدعى بعد ذلك أننى بدأت أهتم باليمن ، لمجرد أننى رأيت عدداً من اليمنيين فى أوربا ، أو فى القاهرة ، وأننى مضيت نصف يوم مع أحد الأمراء اليمنيين فى حديقة الحيوان . . ولكن حدث أن وجدت كتابا صغيرا عن اليمن ، الكتاب يبلغ نحو ٥٠ صفحة ، وهو يصف رحلة أحد الإيطاليين إلى اليمن وكيف واجهته مصاعب من نوع غريب . فقد طلبوا إليه أن «يقلع» البنطلون لأن ارتداء البنطلون يتنافى مع الدين! وطلبوا إليه أن ينزع القبعة ، لأن القبعة من ملابس الكفار . . ثم لاحظوا أن هذا الرجل الإيطالى لا يتوضأ وإنما يكتفى بغسل وجهه وأحيانا قدميه . . فاعتقد اليمنيون الواقفون على الحدود ، أو فى إحدى نقط الحدود ، أنه كافر أو أنه جاسوس لأحد الكفار . . ولكنهم لاحظوا أن معه ساعة كبيرة . . وإنه بدأ يلعب بها ، وتهامسوا حوله . .

واختفى واحد منهم ، وبعد قليل عاد هذا الرجل وهو يرفع سلاحه فى وجه الخواجه الإيطالى ، ويطلب منه أن يرافقه إلى مكان ما . . ثم خطفوه ووضعوه فى بيت وحبسوه . . ولم يعرف الخواجة سبب هذا التصرف . . وأخيرا سمع خطوات تقترب منه وضوضاء . . وظن أنهم قد أتوا له بأحد رجال الدين ومعه طشت ليعلمه كيف يتوضأ . . ولكنه فوجئ بأنهم أتوا له بجهاز غريب ، وألقوه أمامه على الأرض وطلبوا منه أن يصلحه كما أصلح الساعة التى فى جيبه .

ولم يكن هذا الجهاز الغريب إلا مطحنة بن . . وتمكن الخواجة من إصلاحها بسهولة . . فاعتقدوا أنه ساحر ، وأنه يستعين بالجن ، فبعد أن أصلحها طردوه من اليمن . .

وبعد ذلك سافرت إلى إيطاليا . . وقابلت فى سفارتنا هناك أحد الشبان اليمنيين . . وعرفت فيما بعد أنه مات فى حادث طيارة فى روسيا . . وكان شابا نحيفاً مهذباً وكان شديد الذكاء . . وتناقشنا فى موضوعات كثيرة . . وفوجئت به يسألنى إن كنت قد زرت اليمن . . ولكن فى هذه المرة لم أشأ أن أقول له . . أننى لم أزرها وإنما قلت : فى نيتى أن أزورها وأرى أن من واجب أى عربى ، أن يعرف البلاد

العربية ، وأن يعرف أهلها لأن أهلها هم أهله ، وأننا يجب أن نتحمس لزيارتها ، كما نتحمس لزيارة إيطاليا وألمانيا وكل البلاد الأوروبية .

ويبدو أن هذا الرد . . أو محاولة الرد ، لم تعجبه . .

فعاد يسألنى : هل تذهب إذا وجهت إليك دعوة لا . .

فقلت وقد تصورت أن هذه الدعوة مجاناً ، وفى وقت مناسب من أوقات السنة . . ومن هيئة رسمية ، وأنه سيكون فى رفقتى عدد من الأصدقاء من الأدباء والصحفيين : لا شك سأذهب إلى اليمن .

وعاد يقول : مع الأسف لا أستطيع أن أوجه لك هذه الدعوة ولا أحد يستطيع فى بلاد مقفلة فى وجوهنا وفى وجوه الغرباء أيضا ، وذلك لن يعرفها ولن يعرفنا أحد .

وتذكرت على الفور ما دار بينى وبين شبان يمنيين آخرين . . وأدركت أن هذه طريقة اليمنيين فى الكلام . . أنه يستدرجك إلى الكلام عن بلده فإذا أبديت أية رغبة فى زيارتها حدثك عن صعوبة السفر إليها ، والحياة فيها .

ولكنه مع ذلك أعطانى كتابا صغيرا مطبوعا بصورة رديئة ، وقلبت فى الكتاب الصغير . . ولم يلفت نظرى فيه أى شىء . . لا العناوين ولا الأسماء ولا العمائم التى ملأت صفحاته . . ولكنى تذكرت بعض هذه الأسماء حينما عدت إلى القاهرة .

ومع كثرة أعمالى ومشاغلى ، نسيت هذا الشاب اليمنى ، وزيارة اليمن . . وكل ما له علاقة بالبلاد المقفلة على أهلها وفى وجه العالم كله .

إلى أن كان مؤتمر الأدباء العرب فى دمشق . .

وفوجئ أعضاء الوفود الأدبية برجل يرتدى عمامة وملابس يمنية لا أعرف كيف أصفها . . ولا أدرى إن كانت هى جبة وقفطانا أو هى جلباب واسع وقميص فوق جبة . . أو تحت جبة . . ولكن . . واضح جداً أن هذا الرجل نحيف القوام متوسط القامة لامع العينين وصوته صارخ ، وهو يتحدث فيميل برأسه يمينا وشمالا ، وهى عادة يمنية .

وتحدث الرجل النحيل ، وهو يشير إلى كل الوفود العربية ، لقد تحدثتم جميعا عن كل شىء ولم يتحدث واحد منكم عن اليمن ولا عن شعب اليمن . . ولا أدباء اليمن . . (ثم ضحك) وأن كان اليمن ليس به إلا نوعان من أنواع الأدب : أدب فى مدح الإمام وأدب فى رجاء عفوه ! .

وهنا ضحكت الوفود كلها . .

واندهش الحاضرون كيف أن ممثل حكومة الإمام أحمد يهاجم الإمام بهذه القسوة ويسخر من الأدباء الذين يمدحون الإمام ، ثم يعودون فيقبلون يديه ورجليه .

وعرفت هذا الرجل بعد ذلك . وكانت بيننا صداقة . . فهو رجل لطيف وذكى وفى غاية الوعى . . ويعرف تاريخ بلاده ويتابع حركات الفكر العربى فى كل هذه المنطقة . أما هذا الرجل فهو الشيخ أحمد محمد نعمان ، وهو رجل ساخر حاضر البديهة . . وكان من الصعب على الذين عرفوه بعد ذلك ، أن يتبينوا من كلامه إن كان جداً أو هزلا . . وخصوصا إذا تحدث عن الإمام . . وهو لا يتعب من السخرية من الإمام ومن رجال الإمام ومن حكم الأئمة . .

وعرفت بعد ذلك أنه هارب من الإمام . . وأنه استطاع أن يحصل من الإمام على موافقته بالسفر إلى الأراضى الحجازية ، ومن هناك هرب إلى مصر . . وأرسل إلى ابنه برقية يقول فيها : لقد تم الحج ونحن فى الطريق إلى المدينة المنورة . . وكان يقصد بالمدينة المنورة مصر . . أما ابنه محمد فقد هرب ليلا من مدينة تعز إلى عدن البريطانية . وترك زوجته وأخوته فى تعز . . ولما علم الإمام أصدر أمره بطرد أسرة الشيخ نعمان خارج البلاد . . ولما علم الشيخ نعمان بانعقاد مؤتمر الأدباء ، سافر إلى الشام وطلب بطاقة عضوية فى المؤتمر ممثلا لحكومة اليمن . . ولم ينتبه أحد من المسئولين عن المؤتمر فى دمشق ، إلى أنه ضد الإمام ، وأنه لاجئ سياسى إلا حينما ذهبنا إلى بلودان ، وتحدث مندوبو الدول كل واحد فى الأدب فى بلده . . ووقف الشيخ نعمان يتحدث عن الأدب فى اليمن ، وقال : إن اليمن هى جنة الله فى أرضه . . لقد كان فى اليمن خمسة من القراء قتل الإمام منهم أربعة ، ولم يبق سواى!

وهنا ضحك الحاضرون ، وجاء أحد المسئولين عن المؤتمر وهمس فى إذنه بأنه لا داعى للهجوم على الإمام وإحراج الحكومة السورية . . فوعدهم الشيخ نعمان بالتزام الأدب والكلام عن الإمام فى حدود جدول أعمال المؤتمر . .

ثم عاد يقول : لقد استدعانى الإمام يوما وسألنى : قل لى يا نعمان هل تقرأ لطه حسين؟ فقلت له : أعوذ بالله إنه كافر! ثم طلب منى الإمام أن أعود إلى بيتى ، وكانت الساعة قد تجاوزت نصف الليل وكان الجو باردا . . ولكن الإمام لم ينم . . وعاد يطلبنى من جديد ويقربنى منه ويسألنى : فكيف عرفت أنه كافر وأنت لم تقرأ

له؟ فقلت له : أننى لم أقرأ له ولكن سمعت من مولانا الإمام أنه كافر ، فكيف يقول الإمام أن طه حسين كافر وأقول له أنه مؤمن! وهنا تركه الإمام . . وبعد ساعة استدعاه ليسأله ومتى قلت أنا أن طه حسين كافر . . فأجبت : أن مولاى الإمام لم يقل هذا صراحة ، ولكن رأيت فى عينيه أنه لا يحب طه حسين . . والإمام لا يحب الذين كفروا . . وظللت ساهرا أنتظر السؤال التالى فى حين نام الإمام !

وضج الحاضرون بالضحك . . ثم جاء أحد المسئولين عن المؤتمر يطلب إلى الشيخ نعمان أن يتوقف عن السخرية من الإمام ، وإلا كان مضطرا إلى منعه من الكلام نهائيا وإخراجه من المؤتمر .

وأصبح الشيخ نعمان معروفا بأنه أحد معارضى الإمام ، وأنه رجل شديد السخرية . . وفى كل مرة كان يحاول فيها الكلام أو التعليق ، كانت الوفود كلها تلتفت إليه ، وتنتظر النكتة القادمة وفى كثير من الأحيان كنا نطلب إليه أن يتكلم فى أى موضوع . . فنحن نعرف سير الكلام . . فهو سيبدأ جاداً ويستشهد بالقرآن وبالأحاديث الدينية ، وبشاعر واحد اسمه الزبيرى ، وبعد ذلك يهاجم الإمام ثم يروى عنه المواقف المضحكة ، ثم يتوجه إلى الوفود العربية ، ثم يطلب منها أن تفكر فى حال اليمن . . فى حال الشعب من أوله إلى آخره .

وفى إحدى الليالى المقمرة . . اتفق الأدباء على أن يسهروا فى ضوء القمر حتى الصباح . . وفى قمة مدينة بلودان الجميلة ، وفى إحدى ليالى الصيف سنة ١٩٥٦ جلس شعراء العرب وفى مقدمتهم شاعرنا أحمد رامى وشاعرات من سوريا فى مقدمتهن عزيزة هارون وشاعرة العراق نازك الملائكة ، وأدباء من مصر ممن بينهم يوسف السباعى ، وإحسان عبد القدوس وعبد الحليم عبد الله . . وغيرهم كثيرون ، لا أذكر أسماءهم على التحديد ونهض كل واحد وألقى قصيدة كالقمر ، كنسيم الصيف ، ولذيذة كالأطعمة الموضوعة أمامنا .

وأنشدت عزيزة هارون قصيدة اسمها : محال . . هذا السؤال . .

وشاعرة اسمها رشيقة العمرى أنشدت قصيدة تقول فيها : تفوحين عطرا وشيئا حرام .

ونازك الملائكة أنشدت قصيدة فيها : الأظافر والطين وعيناك والعدم . وجاء دور الشيخ نعمان ، ولا أعرف لماذا جاء دوره ، ولا لماذا ألقى شعرا فى كل مناسبة ، ولماذا يحرص على أن يتكلم فى كل مناسبة مثلما يحرص على العمامة والجبة

والقفطان . . والتفتنا جميعا ننظر ما الذى سيقوله الشيخ نعمان . . ولكن لا أدرى هل أردنا منه تلك الساعة أن يغير أسلوبه ، أو يغير لهجته العامة من السخرية والهجوم على الإمام . . ولكن كل ما أذكره ، أنه لم يكن عند أى إنسان مانع من أن يقول أى كلام ما دام سيضحكنا فى النهاية . . وعلى الإمام بالذات !

واعتدل الشيخ نعمان ، وهو يتلفت إلى الوجوه الهادئة التى حوله وراح يقول : يقول شاعرنا الزبيرى : مشانق علقت فى القضاء .

وأزعجتنا هذه البداية فقلنا له : يا شيخ نعمان . . أيه ده . . أعوذ بالله مشانق ايه والقمر طالع؟

ولكنه عاد يثور فينا ويقول : يا سيدى نحن هكذا فى اليمن . . ولا يكاد القمر يطلع . . حتى تطير له الرءوس من الأجساد . . شوقا إليه . هذه هى سياسة الإمام . . أنتم تندهشون لأنكم لا تعرفون اليمن ! .

ورجوناه أن يغير هذه اللهجة فوعدنا وعاد يقول : مقابر . . مقابر . .

وأسكتناه ولكنه أصر على أن ينشدنا آخر قصيدة الليلة . . وليس فيها كلمة واحدة عن الموت أو المشانق ، ووقف بعد نزع العمامة ، وهذا يدل على أنه قد اتخذ موقفا خطيرا ، وراح يقول :

فللنفوس مريح وللنشاط انجذاب

ويطرد النوم عمن له الجليس كتاب

وسألناه إن كان يقصد الإمام . . فقال : بل هو شىء أسوأ من الإمام . . إنه نبات «القات» الذى يأكله الشعب . . أو الذى يأكل الشعب كله . . أنتم لا تعرفون اليمن . . أنتم لا تعرفون إلا القمر . . أنتم لا تنظرون إلى ما تحت أقدامكم . . إن تحت أقدامكم التراب . . وتحت التراب شعب بأكمله . . شعب اليمن !

وانتهت جلسات مؤتمر الأدباء فى سوريا ، بعد أن أصبح الشيخ نعمان معروفا كنموذج لليمنين السياسيين المطرودين من رحمة الله . . وبعد أن أدت شخصيته الساخرة إلى تغيير شامل لفكرة الأدباء عن أهل اليمن . . فأصبحنا نقول : ولكن هناك يمنيين فى غاية الذكاء . . ويعلمون كل شىء عن العالم العربى ، ولا يعلم عنهم الشعب أى شىء . .

وبظهور الشيخ نعمان فى الشام وبعد ذلك فى مصر . . أصبحت كلما رأيت شابا يمنيا أو عجوزا يمنيا ، توقعت أن أسمع منه شيئا واعيا . . فلابد أن يكون فى اليمن أناس يشبهون الشيخ نعمان . . وبالفعل لاحظت أن اليمنيين الذين قابلتهم بعد الشيخ نعمان وقبله كانوا على جانب كبير من الذكاء . . واليمنيون أذكياء بصفة عامة وعندهم استعداد كبير لأن يتعلموا بسهولة . . هذا ما سمعته أيضا حينما ذهبت إلى اليمن ورأيت نماذج مدهشة لاستعدادهم لتعلم أى شىء وبسهولة وبسرعة أيضا . .

وفى لبنان كنا نجلس حول حمام سباحة فى أحد الفنادق . . والدنيا صيف . . وطبيعى جدا أن تكون هناك فتيات جميلات فى مايوهات «بكينى» وأصغر من «بكينى» ولابد أن يعلق الشيخ نعمان ولو بكلمة على هذا الشىء الغريب العجيب الذى يراه . . ونظر إلى الفتيات وإلى حمام السباحة وهو يقول : هذه المياه طبعا سيرمونها فى البحر . . أنها لا تكفى لتنظيف جسم الإمام . . إنه لا يستحم أبداً . . أنت تعرف أن ملابس المرأة اليمنية الواحدة التى تغطى وجهها وكل جسمها ، تكفى لعمل ألف «مايوه» . . والله العظيم ألف «مايوه» . . بل الطرحة التى تضعها المرأة اليمنية على وجهها . . وهى مكونة من طبقات . . تكفى لعمل «كرافتات» لجميع أعضاء الوفود . . يا سيدى أنتم لا تعرفون اليمن . . أنها أسوأ جداً مما يتصور أى أديب متشائم . انه سيقول : أنه يكره الحياة ويريد أن يموت . . إن هذا الرجل أحسن حالا . . من اليمنيين . . إن أحدا هناك لا يستطيع أن يريد أن يموت . . ولو قتل نفسه من غير الإمام لعاقبه بعد موته ، بأن يمزق جثته ويقتل أباه وأخاه وأولاده لماذا؟ لأنه مات بدون إذن . . إن أهل اليمن عاجزون عن الموت . . هل هناك أسوا من ذلك؟ . .

ولما عدنا إلى القاهرة زارنا الشيخ نعمان ، وقال لى : أنت تتهمنى دائما بأننى أسخر ، ولكنى شعرت بأنك أكثر سخرية منى . . غداً سأحضر لك مفاجأة . . ستعرف إن كان هذا الشخص الذى أتحدث عنه شخصية خرافية أو شخصية حقيقية . . غداً سآتى به هنا . .

وسألته : ماذا تقصد ، هل ستأتى بإمام أحمد ؟

فأجاب وهو يضحك : موعدنا غدا . . أنت لاتعرف أبناء اليمن !

وآخر قفشات الشيخ نعمان أن اليمن عرفت «التأميم» قبل أن نعرفه نحن . .

فالتأميم فى اليمن معناه أن يملك «الإمام» كل شىء . . فتأميم أى شىء معناه أن يؤول إلى الإمام . . وليس إلى الأمة ، كما هو عندنا ! .

مأساة بلاد واق الواق

كنت أعانى من الأرق . . أتقلب فى فراشى . . وأسحب من تحت المخدة كتابا لم أكمله ، وأقلب فى صفحاته ثم أضعه فى مكانه . . وألاحظ أن المخدة توجع رأسى ، فألقى بالكتاب على الأرض . . ثم ألقى بالمخدة ، وأسحب إحدى المجلات ، وأحاول القراءة . . ثم ألقى بنفسى من السرير وأنهض واقفا لأمسك التليفون الذى يرن ويئن فى هذه الساعة المبكرة . .

وأرفع السماعة ويكون المتكلم هو الشيخ نعمان ، ويدور هذا الكلام بيننا : يا أخى . . يا أخى ما هذا الكلام الذى نشرته جريدة «الأخبار»؟

قلت له : لا أعرف ما الذى تقصده !

قال : إن هذا ظلم . . والله هذا ظلم !

قلت : أى ظلم؟ الساعة كام دلوقتى؟

فأجاب : ربما السادسة . . ربما السابعة . . ولكن هذا ظلم فادح . . أنتم اليوم نشرتم أن روسيا أطلقت قمرا وفى داخل القمر كلب . . ونشرتم هذا الكلام بالعناوين الكبيرة . . الحمراء والسوداء . . فى حين أن الإمام أحمد قد أرسل ابنه البدر ، ومعه عشرون حصانا إلى إنجلترا ، فلم تكتبوا عن «البدر» والخيول حرفا واحدا ، مع أنكم نشرتم عن القمر والكلب صفحات وصفحات!!

ورحنا نضحك لهذه القفشة المرة التى تختلط عادة بكلام الشيخ نعمان . . وقد صارحنى بأن اليوم الذى يمضى دون أن يشتم فيه الإمام لا يعتبر من أيام العمر . .

وسألته : أين المفاجأة التى وعدت بها ؟

فأجاب : المفاجأة جاهزة . . وسترى!

ولما عدت إلى مكتبى وجدت رسالة من الشيخ نعمان يقول فيها : إنه سيحضر لمدة خمس دقائق . .

وفوجئت بالشيخ نعمان وقد حضر ، وعرفت أنه كتب هذه الرسالة وهو واقف أمام مكتبى ولم أكد أفرغ من قراءتها حتى دخل بمفاجأة . . لقد وجدته قد حلق

لحيته ، وخفف شاربه ، وارتدى بذلة . . جاكتة وبنطلونا وكرافتة . . وكانت مفاجأة أن ينزع الجبة والقفطان والعمامة والخنجر من حزامه . . وإن كان لايزال يمشى كأنه فعلا يرتدى كل هذه الاشياء الغريبة . .

وعرفت أن سبب ارتدائه البدلة أن الجبة تكلفه الكثير . . أولا إذا ركب الأتوبيس فهو شخصية مضحكة ، وهو لا يطيق أن يضحك هو على كل الناس ويسخر منهم ، ثم يجد نفسه عاجزا عن الدفاع عن نفسه أمام عيون الناس وهم ينظرون إلى الخنجر . . وقد دفعته هذه النظرات الغريبة إلى الهرب من الأتوبيس وركوب التاكسيات وهذا يكلفه الكثير . . وللنكت التى أطلقناها عليه فى مؤتمر الأدباء . . لكل هذه الأسباب عدل عن ارتداء الملابس اليمنية . .

ولم تكن هذه هى المفاجأة . . وإنما المفأجاة أن شخصا آخر كان يرافقه متوسط القامة ممتلئ الجسم يرتدى هو الآخر بذلة وفى يده حقيبة وصوته هامس هادئ . . وعرفت من الشيخ نعمان أن هذا هو الشاعر الزبيرى . .

وكنت قبل ذلك أتصور أن الشاعر الزبيرى شخصية خرافية . . وأن كل القصائد ، التى يرويها نعمان وينسبها للشيخ الزبيرى ، هى من اختراعه هو . .

وذكرت للشيخ نعمان : إننى أكتب الكثير من المقالات وأوقعها بإمضاءات مختلفة . . بإمضاء رجل وفساد . . وأحيانا بإمضاء حيوان أو طائر . . وأنا لا أستبعد أن يكون الزبيرى هو مجرد اسم . . أو إمضاء! . .

ولكنى وجدت إصرارا ولهجة جادة من الشيخ نعمان ومن الزبيرى . . وكانت لهجتهما قاطعة . .

وكان هذا أول لقاء مع القاضى محمود الزبيرى زعيم الأحرار اليمنيين . . أو الأب الروحى للثورة اليمنية . . وقد عرف الشيخ الزبيرى العذاب والهوان فى أيام الإمام . . وهرب إلى باكستان وهناك دخل السجن ، وكان سفيرنا فى باكستان فى ذلك الوقت هو الدكتور عبد الوهاب عزام ، ثم تم الإفراج عن الشيخ الزبيرى . ومنعته مصر فى أيام حكم فاروق أن يدخل إلى بلادنا . . ولكن بعد قيام ثورتنا دخل مصر وأقام فيها . . والزبيرى الآن أحد أعضاء الوزارة اليمنية البارزين . . وهو يحسن الكلام ويحسن التعبير . . وإذا استمعت إليه وهو يتكلم أحسست أنه إنسان رقيق جداً مع أن يعاقبه كالنار ، وأهدافه كالصواريخ . . وإذا قرأت شعره ، وجدت نفسك أمام بركان يغلى . .

ولا شيء فى مظهر الشاعر الزبيرى يدل على أنه رجل ثورى ، أو سياسى . . . . وإنما كل شيء يدل على أنه رجل متحفظ أو يريد أن يكون متحفظا . . أن يكون فى حاله . .

وبعد ذلك أعتدت أن أراهما كثيرا فى مكتبى . . وفى يوم طلبا منى أن يقابلا محمد حسنين هيكل ، وكان فى ذلك الوقت رئيس تحرير (آخر ساعة) . . وأخذ الاثنان يعتبان على حسنين هيكل أنه كتب عن اليمن منذ خمس سنوات فقال : هذه البلاد . .

وقال الشيخ نعمان : تقول عن اليمن هذه البلاد . . كأن هذه البلاد لا قيمة لها . . أو كأنها شيء تافه . . لا . . لا يا أستاذ هيكل . .

ولم يتذكر هيكل متى كتب عن اليمن ، ومتى قال عنها «هذه البلاد» . . ولكن هذين الرجلين يرصدان كل ما يكتبه الصحفيون والأدباء فى كل العالم العربى . .

وقال الشيخ الزبيرى لهيكل : إننا نستنكر النياشين التى أعطاها لنا الملك حسين ، وجئنا إليك لكى تردها إليه . . لأن موقف الملك حسين من الشعب الأردنى ، واضطهاده للأحرار ، لايمكن أن نسكت عليه . .

وخرج الزبيرى ونعمان وأحدهما يهمس فى أذنى قائلا : إننى خجلت أن أذكر لمحمد حسنين هيكل أنه كتب منذ عشر سنوات يصف اليمن بأنها (مجاهل) الجزيرة العربية . . لقد أوجعتنى هذه الكلمة . . وكنت أتصور أنه سيحاول أن يدخل هذه المجاهل ، كما دخل كوريا وإيران . . ولكنه لم يفعل . .

ومن المؤكد أن هيكل لا يذكر متى وصف اليمن بأنها (مجاهل) الجزيرة العربية . . فهى عبارة ضمن موضوع من مئات الموضوعات التى كتبها عن العالم العربى ، وعن ثوراته وبراكينه وزعمائه . . ولكن هذين الرجلين لاينسيان كلمة قالها كاتب بقصد أو بغير قصد .

وأذكر أننى سافرت بعد ذلك إلى ألمانيا . . وفوجئت وأنا فى مدينة همبورج بمكالمة غريبة . . وكان التحدث شخصا لا أعرفه . . ولكنه يعرفنى ويرحب بى ويسألنى عن الجو . . وكيف كانت رحلتى بالطائرة . .

وقبل أن أسأله عن شخصيته قال لى : لقد عرفت أنك موجود هنا فى الفندق من الصحف الألمانية التى صدرت اليوم . . وشعرت بالسعادة من أن مواطنا عربيا قد نشرت له الصحف الألمانية رأيا فى تطور الشعوب العربية . . وأنا أقدم نفسى : محمد عبدالله دارج . . وأبى من اليمن ، وأمى من المجر ، وهى تعرف اللغة العربية . .

ولا أعرف إن كانت هذه الكلمة الأخيرة هى دارج ، أو داريج ، أو دارى ، أو الدارى . .

وفى اليوم التالى زارنى فى الفندق ومعه ثلاثة من الشبان ذوى الملامح الشرقية . . وكانوا جميعا من اليمنيين وهم يعملون فى مناجم الفحم . . وقد أدهشونى جميعا حينما تحدثوا عن اليمن ومشاكل اليمن . . الكلام نفسه الذى أسمعه فى القاهرة . . العبارات نفسها . . كأنهم يقرءون فى كتاب واحد . . أو كأنهم يرددون لحنا واحدا . .

ومن الغريب جداً أن واحدا منهم اقترب منى وعاتبنى على كل ما كتبه عن الشيخ نعمان . وقال :

إن هذا الكلام قد أغضب كل الشبان اليمنيين . . إنهم اتفقوا على أن يبعثوا لى بمقال يحتجون فيه على هذه اللهجة الساخرة التى تناولت بها شخصية الشيخ نعمان . .

ودافعت عن نفسى بأننى لا أسخر منه ، ولكنه هو الذى يسخر من كل الناس . . خصوصا من الإمام . . وكل ما فعلته هو أنى سجلت عبارات الشيخ نعمان . . وعرفت أن المقال الذى كتبته فى «أخبار اليوم» عن الشيخ نعمان قد أرسله أحد الشبان اليمنيين من الخرطوم إلى همبورج!

وحينما عدت إلى القاهرة تلقيت خطاب الاحتجاج الذى كتبه هؤلاء الشبان اليمنيون . . قرأت تاريخ الخطاب فوجدت أنهم كتبوه بعد سفرى من ألمانيا . . ومعنى ذلك أنهم لم يعدلوا عن موقفهم بالرغم من أننى قلت لهم أننى معجب بالشيخ نعمان وبذكائه وروحه المرحة . . وتصورت أن إعجابى هذا سيشفع لى عندهم . . ولكن لم ينفع هذا الإعجاب . . وجاء خطابهم شديد اللهجة . .

وبعد ذلك زاد عدد اليمنيين الذين يحرصون على مقابلتى . . وكأننى أنا الجاهل الوحيد بشئون اليمن ، ورأى هؤلاء الشبان أن واجبهم يحتم عليهم أن يعلمونى ، ما هى اليمن . . أرضها وجبالها وناسها ونباتها . .

وبالرغم من إخلاصهم وصدقهم فإننى بدأت أضيق بالجلوس مع شبان صغار يسألوننى بأشكال مختلفة :

وما الذى تعرفه عن اليمن ؟

وكنت أجيب بأشكال مختلفة ، مرة بأدب ومرة أخرى بقلة أدب . . إننى لا أعرف الكثير عن اليمن ولكنى أعرف الكثير عن بلاد أخرى ، صدرت عنها كتب

وأفلام ولها تاريخ معروف كما أنها تحت الأضواء ويمكن السفر إليها . . والحياة فيها . . ثم إننى ماذا فعلت لكى أستحق كل هذا الاضطهاد من أهل اليمن . . إننى لم أكتب عن اليمن حرفا واحدا . . ولا كان فى نيتى أن أكتب . . ولا هى ضمن مجال اهتمامى . . كما أن هناك عددا كبيرا من الأدباء والصحفيين يستحقون من أبناء اليمن هذه العناية والرعاية والاضطهاد . .

وعرفت أن هذا هو الحب والمودة عند أبناء اليمن . .

فكما أن الواحد منهم حينما يصافحك يمسك يدك بشدة ويضغط عليها . . ولا يتركها مهما تحاول أن «تتفلفص» منه . . فكذلك الحب عندهم ، أن يظل الواحد منهم يطاردك بكل أدب ويشرح لك مشاكل لا تهمك بكل صبر . . ويقرأ لك ويحاسبك حسابا عسيرا فى إعجاب شديد !

وفهمت منه أيضا أن الشبان الذين أرسلوا مقالى من الخرطوم إلى ألمانيا لم يغضبوا منى . . وإنما هم ضغطوا فقط على يدى . . ولم يتركوا يدى برغم محاولاتى اليائسة . . وهذا هو منتهى الحب فى التقاليد اليمنية . . وزارنى القاضى الزبيرى زيارة مفاجئة وهو يقول : هل تعرف بلاد واق الواق . .

فقلت : سمعت عنها . .

سألنى : هل تعرف مكانها ؟

قلت : أظن أنها جزيرة خرافية . . جاءت فى كتاب ألف ليلة وليلة . .

وكان رده : لقد سافرت أنت إلى كل بلاد الدنيا . . ولم تر بلاد «واق الواق» . . إن الذى لم ير هذه البلاد كأنه لم ير الدنيا . .

وسكت قليلا ليضحك ويستأنف كلامه : غداً يصدر كتاب عن «مأساة واق الواق» .

وسألته : من المؤلف ؟

فأجاب : ستعرف غدا . . وعلى كل حال لا تغضب بما جاء فى هذا الكتاب . .

. . ولم أغضب مقدما فقد توقعت من الشاعر الزبيرى ، زعيم أحرار اليمن أن يضغط على يدى ، على الطريقة اليمنية . . ومهما زادت درجة الضغط وتكسرت أصابعى بين يديه أو بين أيديهم فليس معنى هذا إلا الحب العظيم والاحترام الكبير . .!

كارثة: واحد خواجه دخل البلد

وفى ساعة مبكرة ذهبت إلى مكتبى . . ووجدت نسخة من الكتاب الجديد الذى ألفه القاضى الزبيرى وعنوانه «مأساة واق الواق» والزبيرى شاعر اليمن الأوحد . .

والكتاب يتحدث عن مأساة بلاد اليمن التى لا يعرفها أحد ، ولا يريد أن يعرفها . . فمشاكل الناس كثيرة وبلاويهم لا عدد لها . . ولا تنقصهم بلاوى ومصائب اليمن . . وهذا ما يقوله المؤلف الزبيرى . .

ولذلك فبطل هذا الكتاب اسمه «العزى محمود» والكتاب يقول لنا : ذهب العزى محمود إلى جامع الأزهر ووجد العلماء هناك يتناقشون فى كل مشاكل الدنيا . . فى الكونغو ، وفى التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وفى أمريكا . . وفى اللاجئين العرب . . واللاجئين على حدود باكستان ، واللاجئين على حدود الهند . . وفى التليفزيون . . وقد انبهر محمود لهذا العلم الواسع ولذلك لم يستبعد أبدا أنهم يعرفون طبعا بلاد «واق الواق» . . ومن الغريب أنهم لم يعرفوا شيئا عن هذه البلاد وظنوه يضحك . . ورأوا أنها نكتة لطيفة . . وأنهم بالفعل يحتاجون إلى نكتة تخفف منهم هذه المشاكل الثقيلة التى يتناقشون فيها . . ولكن محمود هذا كان حزينا فلم تكن نكتة ، وإنما هى حقيقة . .

وقال لهم محمود : إننى أندهش كيف أن كاتبا ، مثل أنيس منصور ، قد سافر إلى بلاد الدنيا ولم ير هذه البلاد . . كيف أنه فى رحلاته إلى الهند وأمريكا واليابان واستراليا وأوربا لم يصادف بلاد «واق الواق» . .

ولكن علماء الأزهر لم يتصوروا أن هناك بلادا بهذا الاسم الخرافى . . وأن هذه البلاد موجودة فقط فى خيال الأدباء والشعراء . . وأن مكان هذه البلاد هو قصص ألف ليلة وليلة . .

وتناقش الحاضرون فى استحضار الأرواح عن طريق «السلة» . . فإذا حضرت الأرواح الطيبة أو الشريرة فى السلة وراحت السلة تكتب فمن المؤكد أنها سترورى للسادة

الحاضرين أين توجد هذه البلاد . . عن طريق تحضير الأرواح بالسلة . . وراحوا يفكرون فى طريق آخر لمعرفة مكان هذه البلاد التى جاء منها هذا الزبيرى مؤلف الكتاب . .

والكتاب من أوله لآخره حزين جداً ، لأن الناس لا يعرفون عن اليمن وأحزانها شيئا ، ولا عن العذاب والفقر والجهل والقبور التى يعيش فيها أبناء اليمن . .

وأذكر أننى قابلت الشيخ نعمان فى بيت الصديق عبد العزيز حسين الوزير الكويتى . . وقد سألنى لماذا لم أفكر فى السفر إلى اليمن ؟ . .

فقلت له : فكرت . . ولكن لا أعرف كيف أسافر . .

ووعدنى الشيخ نعمان بتدبير الأمر . .

ولأن الشيخ نعمان رجل ساخر ، فهو لا يعنى ما يقوله . . ولا بد أنه يفكر فى شىء آخر لا علاقة له باليمن ولا علاقة له بسفرى !

وبعد هذا الموعد مضت دقائق ثم سألنى : هل تسافر إلى أوروبا؟ . .

قلت : ربما . . أتمنى . .

فقال : إذن فى طريقك إلى أوربا ستجد الإمام مريضا فى إيطاليا ، وهناك فى استطاعتك أن تطلب إليه أن يدعوك لزيارة قصره العظيم !

وعدنا إلى الصمت ، فليس الاقتراح وجيها ، وليست مقابلة الإمام شيئا معقولا . . ولست متحمسا لهذه الفكرة . .

وعاد الشيخ نعمان إلى سخريته الأليمة وهو يقول : هل تعرف أن الإمام أحمد حينما سافر إلى حضرموت رجع وهو حزين جداً . . وأغلق على نفسه القصر . . ثلاثة أشهر . . لم يقابل فيها إنسانا . . هل تعرف لماذا؟ تساءلنا جميعا ، ونحن نتوقع مفاجأة : لماذا ؟

قال : لأنه كان مبهوراً بالحضارة هناك !

ولكنى مع هذا كله فكرت فى أن أسافر إلى اليمن . . وأن أرى هذه البلاد التى زارها عدد كبير من الصحفيين وكتبوا عن الجانب العسكرى فقط منها ، فأكبر أحداث اليمن ثورة السلال تسانده عشرات الألوف من قواتنا الجوية والبرية والبحرية . . ومن الطبيعى جداً أن يهتم كل الذين سافروا إلى اليمن بهذا العمل الإنسانى الكبير ، الذى قامت به جمهوريتنا فى اليمن . .

وبدأت بالفعل أجمع الكتب التى تتحدث عن اليمن . .

وقد ظهرت فى المكتبات كتب كثيرة كلها مترجمة فى القاهرة وفى بيروت ، بل أن اليمنيين أيضا أعادوا نشر كتبهم القديمة عن اليمن . . وأضافوا لها مقدمات تتمشى مع الأحداث التى تجرى فى بلاد اليمن . .

وكل الكتب التى ظهرت مترجمة عن اليمن قد ألفها جماعة من الأجانب من إيطاليين وألمان وسويديين وإنجليز ، وهذه الكتب عبارة عن «مغامرات» على حدود اليمن . .

فالمؤلف الأوربى يحاول أن يدخل بلاد اليمن . . ولكنه لا يعرف الطريق وحتى إذا عرف الطريق إلى مدينة على حدود اليمن . . فلا بد من الحصول على إذن من الإمام شخصيا . . ولا بد أن يسافر أحد العساكر إلى الإمام يسأله أن كان يوافق على دخول هذا الكافر ـ أى الأجنبى ـ إلى بلاد اليمن ـ ومن الممكن أن يقابل الإمام هذا العسكرى . . ومن الممكن جداً أن يرفض مقابلته . . فيظل ملطوعا أمام القصر شهرا أو شهرين . . وفى هذه الحالة يعدل «الكافر» عن فكرة دخول اليمن . . وقد يعود العسكرى ومعه قصاصة صغيرة فى حجم الكف مكتوب عليها بخط الإمام أنه لا يوافق على دخول هذا الكافر . .

أما إذا كان هذا الأجنبى سعيد الحظ ـ وهذا شىء نادر ـ فسيوافق الإمام على دخوله بلاد اليمن . . وفى هذه الحالة سيرافقه بعض الجنود وسيمنعونه من دخول الكثير من الأماكن . . إلا بشروط صعبة . . ودخول اليمن أصعب بكثير جداً من الخروج منها . . لأنه من الممكن أن يرتكب هذا المسافر الغريب بعض الأخطاء دون أن يدرى وفى هذه الحالة سيعاقبه الإمام بالسجن . . أو يطلق عليه بعض رجاله فيعذبونه عذابا لا حد له . .

والإمام يشك عادة فى كل الأجانب لأنه لا يعرف لغتهم . . ولا يفهم بوضوح ماذا يريدون . . وهو يعتقد أن بلاده مليئة بالكنوز ، وأن كل هؤلاء الأجانب لصوص . . وهو أيضا يخاف أن يرى أبناء اليمن شعوبا أخرى فيظنون أن هناك أناسا أرقى منهم أو أحسن منهم فالناس فى اليمن يعتقدون أن بلادهم أجمل وأعظم بلاد الدنيا . .

ولو حدث أن أحد اليمنيين الذين سافروا إلى خارج اليمن تحدث عن بلاد أخرى . . وأنها أجمل من اليمن فإن الإمام يغضب منه . . وقد يأمر بقتله . .

وفى كل مرة يسافر فيها أحد رجال الإمام إلى الخارج . . يناديه الإمام ويسأله هل وجدت بلادا أحسن من بلادنا ؟

فيجيب الرجل : أبدا . .

- هل هناك بلد أكبر من صنعاء ؟

- أبدا . .

- وهل رجالها أشجع من رجالنا !

- أبدا . .

- وهل قابلت الملك هناك ؟

- يصعب مقابلة هؤلاء الملوك . . ليست عندهم السماحة التى عندنا .

- هل أعجبك طعامهم ؟

- لم أذق طعاما ولا ماء . . لقد أخذت طعامى معى إلى مصر وإلى سوريا وإلى لبنان . .

- وهل يتمسكون بالدين مثلنا ؟

- كلهم كفرة لا يصلون ولا يصومون . .

- هل سألوك عنى ؟

- لم يسألنى أحد لأنهم يعرفون كرمك وفضلك وعظمتك وما أديت للإسلام والمسلمين من خدمات جليلة ، ولولاك على العرب لاحتلتهم قوى الطغيان . .

ويشعر الإمام بالسعادة ، فهو أعظم العرب وبلاده أحسن بلاد العرب وفضله على الناس كلهم لا ينكره أحد . . وينتهزها الإمام فرصة ويطلب من الحريم إعداد ماء ليستحم للمرة الثانية . . فى خلال ستة أشهر . . وهذا حادث خطير جدا . . وفى الليل يدعو رجاله ويتناولون «القات» ، ويظل الإمام يطلب إليهم أن يعيدوا ما سمعوه من هذا اليمنى الذى سافر إلى البلاد الأخرى ولم تعجبه . . وأن يرووا له مرة أخرى كيف أنه لم يستطع أن يقابل الملك هناك . .

ومن أهم ما يقال للأوربيين الذين يدخلون اليمن ، هو أن الإمام إذا قابل أحدهم وسأله عن بلاده فعليه أن يقول أنها بلاد متأخرة . . وأن الملك فى بلاده رجل ظالم . . وأنه لا يحب الشعب وأنه لا يمكن أن يقابل أى إنسان إلا إذا مات على بابه . . وحتى إذا مات على بابه فإن الملك يرفض أن يراه بعينه أو يأمر بدفنه . .

وقد حدث أن ذهب أحد الإيطاليين وقابل الإمام يحيى وسأله الإمام : ما رأيك فى معاقبة المجرمين فى بلادنا؟ (وهم فى اليمن يشنقون المجرم ويعلقون رأسه على أبواب المدينة ليراه الناس وليكون درسا لأى إنسان يحاول أن يرتكب جريمة) . .

فما كان من الرجل الإيطالى إلا أن قال له : إننا فى بلادنا نعاقب القاتل بالقتل . .

وهنا يشعر الإمام بسعادة شديدة ويتمايل فى مجلسة . . ويطلب من الرجل الذى يترجم كلام الخواجة الإيطالى أن يعيد هذه العبارة بصوت أعلى حتى يسمعه كل الناس . . ويقوم المترجم ويكرر العبارة نفسها وهو سعيد أيضا لسعادة الإمام . .

ويقول الإمام : ولكن كيف عرف الملك فى بلادكم أننا هنا نعاقب المجرم بالقتل ؟

ويرد الإيطالى الذى علمه اليمنيون ما الذى يجب أن يقوله فى هذه المناسبة فيقول : لا أحد فى الدنيا يجهل عظمتك ولا سياستك الحكيمة . .

وفى هذه الحالة تبلغ سعادة الإمام أقصى درجاتها ، ويطلب إلى هذا الرجل الإيطالى أن يمضغ معه «القات» . . وربما يكون هذا الإيطالى لم يعرف طعم «القات» وأنه «يقرف» من منظر الذين يتعاطون «القات» ويمضغونه ولعابهم يسيل على ملابسهم . . ولا يستطيع طبعا أن يعتذر عن تناول «القات» ، بأى شكل من الأشكال . .

ويمد الإيطالى أو الألمانى يده إلى أوراق «القات» التى تشبه أوراق الملوخية ويضعها فى فمه ويمضغها ويهنئه الإمام – وهذا شرف عظيم – إلى أنه لا داعى لأن يبلعها . . وإنما يبللها فقط بريقه . . ويحتفظ بها فى جانب من الفم . . حتى منتصف الليل . . وأحيانا حتى الصباح . . وقد يقع هذا الإيطالى من الدوخة أو من الإعياء . . وإذا سقط على الأرض فسيكون نكتة يتسلى بها الإمام ورجاله وسيقلبونه على الأرض ويمزقون ملابسه ويعبثون به . . ولن تنتهى دهشتهم لهذا اللون الغريب فى بشرته . . لونه أبيض أحمر . . واليمنيون لونهم أصفر . . أصفر جداً مع قليل من السمرة . .

ومن المؤكد أن هذا الأجنبى سيقوم من نومه سعيدا لأن أحدا لم يضعه فى السجن أو لأن الإمام لم يأمر بطرده من البلاد . .

فالسجون فى كل الدنيا ملعونة . . ألا فى اليمن فإن السجن فى اليمن لا يمكن أن يوصف بأنه ملعون وإنما بأنه «ألعن» من القبر . . وأن القبر بالنسبة للسجن يعتبر فندق «هيلتون»! . . فالسجن اليمنى . . كهف فى الأرض مظلم بلا نوافذ وملىء

بالحشرات من كل لون . . ويتساقط فيه الناس بعضهم فوق بعض . . والسلاسل فى أيديهم وفى أرجلهم . . ومفروض أن يأكل السجين فى السجن ويشرب على حساب أقاربه ، وأن يقوم بكل شىء آخر وهو مقيد وفى المكان نفسه الذى ينام فيه . . ومئات من الناس ماتوا فى السجن بسبب العذاب ، أو لأن الإمام نسيهم . .

وقد دخل كثير من الأوربيين سجون اليمن . . ولم تعرف حكوماتهم عن أمرهم شيئا وحتى إذا عرفت حكوماتهم ذلك . . فإنها لا تعرف كيف تتفاهم مع الأمام . . كيف ندخل هذه البلاد ، واذا دخلتها فكيف تخرج منها . .

وقد حدث فى أيام الإمام يحيى أن تسلل اثنان من الأوربيين المغامرين إلى بلاد اليمن عن طريق عدن . . ومعهما سلاح وآلات تصوير ، وكان فى نيتهما أن يصلا إلى عرش الملكة بلقيس . . وقد استعان هذان الرجلان المغامران بعدد من اليمنيين بعد أن أعطياهم الأموال ووعداهم بأموال أكثر وارتدى واحد منهم ملابس النساء . . وكان يرافقه رجل آخر أطلق لحيته وارتدى ملابس الأعراب وادعى أنه زوج هذه السيدة . . وتمكن الاثنان من الوصول إلى تعز . . وفوجئ الاثنان بأن اليمنيين الذين تولوا حراستهما قد انقلبوا إلى خونة غادرين . . وهذه عادة يمنية معروفة ، ثم ربطوهما بالسلاسل وأرسلوهما إلى الإمام . .

وكان هذان الرجلان من إيطاليا . . وعرفت إيطاليا بذلك . . فأرسل الحاكم الإيطالى من أرتريا يهدد الإمام ، فما كان من الإمام إلا أن أرسل له الرجلان بعد أن فصل رأس كل منهما عن جسده .

ولا أريد أن أقول أن كل هذه الكتب التى صدرت عن اليمن ، لا قيمة لها ولا أن مؤلفيها لم يدخلوا اليمن . . ولم يقابلوا أحدا . . ولم يذكروا الكثير عن هذه البلاد الغريبة عنا . . ولكنى أريد أن أقول أن هذه الكتب قد امتلأت بالملاحظات الدقيقة التى يدركها أى أوربى بسهولة . . فالفارق واضح جدا بين عادات وحياة وأزياء أهل اليمن . . وبين عادات بلاده وتقاليدها وبيوتها وشوارعها والمعاملات فى اليمن وفى أوربا . .

ولكن عيب هذه الكتب أن بها أشياء كثيرة لا تندهش لها . . فالمؤلف الأوربى يندهش للشحوب على وجوه الناس . . ويندهش للعمامة والجبة والقفطان . . ويندهش للأقدام الحافية . . ويندهش لإيمان الناس هناك بالخرافات ، ومن بين هذه الخرافات أن الأمام- أى الملك - شخصية مقدسة ولا يمكن أن تخطىء . . وأن كل

تصرفات الإمام قد نزل به وحى من عند الله . . وكل تصرفاته هى أوامر إلهية . . وأن كل شىء فى يد الإمام . . من أول شجرة «قات» إلى آخر شيخ قبيلة . .

وهذه المناظر لا تدهشنى أنا - ولا تدهش أى واحد منها - فنحن فى بلادنا عرفنا صور الفقر ، وعرفنا المرض والجهل . . ورأينا فلاحينا يمشون حفاة ونصف عراة ومرضى وجائعين . . وهم أيضا كانت تستبد بهم الخرافات . . ولكن وجه مجتمعنا ومعالمه تتغير . . ولا أقول أنها تغيرت تغيرا تاما ولكن من المؤكد أنها ستتغير .

ولكن الشىء الوحيد الذى أجمع عليه كل المؤلفين الأجانب . . وكل المغامرين الأوربيين ، هو أن اليمن بلد منعزل عن الدنيا كلها . . وأن الإمام قد أغلق عليها الأبواب بالقفل والمفتاح . . أما القفل فهو «القات» . . وأما المفتاح فهو الخرافات . . أى الإمام نفسه . .

وفجأة وبصورة مثيرة جدا تقرر أن يسافر وفد من الأدباء إلى اليمن ويضم هذا الوفد : يوسف السباعى ، ونجيب محفوظ ، ومهدى علام ، وصالح جودت ، ومحمود حسن إسماعيل . . ثم أنا . .

فإلى اليمن . .

تعشيت فى قصر الإمام

وقفت اللقمة فى «حلقى» حينما سألنى يوسف السباعى : هل تسافر إلى اليمن؟

ثم ابتلعت هذه اللقمة التى تصادف وجودها أثناء مرور هذا السؤال من فم يوسف السباعى إلى أذنى . ولكنى أثبت شجاعتى . ابتلعتها بشراهة تدل على أن نفسى انفتحت .

بعد لحظات بدأت أشعر بالرعب . . فقد قيل لى أن السفر إلى اليمن سيكون بالطائرات الحربية . وسمعت أن هذه الطائرات لا يتحمل السفر فيها إلا الجنود . فهى خالية من كل وسائل الراحة فهى ليست مكيفة . ثم إنها ترتفع إلى عشرات الألوف من الأقدام ولابد أن نضع على أنوفنا كمامة من الأكسوجين . . وأنا لا أخاف ركوب الطائرة . . فقد ركبتها مئات الساعات . . وقد ركبت طائرة لنقل الجنود . . وكان معى كل الجنود المصريين ببنادقهم ومدافعهم وقنابلهم . . وكانت طائرة فيها كل ألوان العذاب : البرودة الشديدة ، والحرارة الشديدة ، وكنت أتلوى من الوجع فى إحدى سيارات «الجيب» فى داخل الطائرة (راجع رحلتى إلى الكونغو) .

وأنا لا تضايقنى الحرارة مهما ترتفع ، ولكن التى توجعنى هى البرودة . . أى «شوية» هواء من الممكن أن تصيبنى بالزكام والسعال وكل أنواع المرض . .

فلو كانت هذه الطائرة الحربية سترتفع إلى أعلى طبقات الجو من غير أن يكون الجو باردا فأنا لن أعترض على السفر مطلقا . . ولكن الذى سمعته جعلنى أنكمش فى جلدى . .

وتمنيت ومعى كل زملائى من الأدباء أن يكون السفر بالباخرة . فأمامنا ثلاثة أيام فى البحر الأحمر . هى راحة لنا ، ننتظرها ونحلم بها . . راحة نتمدد فيها بلا عمل . . وبلا كتابة . . بلا كلام . . بلا تليفون . وبلا أحد تراه أو يراك . . فقط أن تتمدد وتتراخى وتترك نفسك دون أن تقوم بأى شىء .

وتحققت هذه الأمنية وسافرنا من ميناء الأدبية بالباخرة (مصر) ولكنى لم أنتقل بهذه السهولة من القاهرة إلى السويس . . وإنما ظللت أفكر طوال الليالى السابقة فى

السفر إلى السويس فيما سأعمله إذا مرضت إننى لا أفهم فى الطب ولهذا أبالغ فى مخاوفى من المرض . . ولكن لابد أن أسافر إلى اليمن . .

إن الطبيب الأوربى الذى اسمه «فاوست» باع عشرين سنة من عمره لكى يرى شيئا جديدا . . لقد اتفق «فاوست» مع الشيطان . ذلك الاتفاق المعروف فى الأدب العربى ، أن يعطيه عشرين عاما من عمره بشرط أن يعيش فى عالم جديد . عالم لا يعرفه ، أن يحس بالدنيا . . وبعد انقضاء المدة المحددة جاء الشيطان وقبض على روحه . .

لقد باع «فاوست» عمره من أجل أن يعرف شيئا جديدا . . لقد ظللت أياما قبل هذه الرحلة لا أنام . ظللت أقرأ كل ما كتب عن اليمن . وكل ما جاء فى كتب الأجانب عن اليمن ، وكل ما كتبه المصريون عن تاريخ اليمن .

وأهم من هذا كله - وهى أهمية خاصة بى أنا - قرأت كل ما جاء فى تقارير الصحة العالمية عن اليمن . . ولم تكن هناك تقارير كثيرة عن الحالة فى اليمن . فيبدو أن الإمام- كل إمام - لم يسمح لأحد من الأجانب بالدخول فى هذه البلاد وسؤال أى إنسان عن صحته . .

والسؤال الوحيد الذى يردده الأجانب فى كتبهم سؤال معقول جدا والجواب نكتة جداً - سألوا الإمام أحمد : كم عدد سكان اليمن ؟

فأجاب الإمام ، وهو يهتز ويتلوى فى مقعده ويسيل لعابه وتلمع عيناه ويدفع «عمته» إلى الإمام قليلا : والله عدد سكان اليمن يتراوح بين خمسة ملايين وأربعين مليونا !

وكل المعلومات عن اليمن تشبه هذه النكتة .

ولذلك «تحيرت» فى هذه الأمراض التى يمكن أن أعالج نفسى منها قبل أن أسافر إلى اليمن . . فأخذت حقنا لأمراض لا وجود لها فى قارة آسيا وأفريقيا . . وحاولت أن آخذ حقنا لأمراض كانت موجودة أيام بلقيس ملكة سبأ إحدى ملكات اليمن ، ولكن الأطباء حذرونى من الإسراف فى العلاج فإنه يؤدى إلى نتيجة عكسية . . وحذرونى من أخذ الحقن والتطعيم معا . . ولكنى سألت طبيبا أحترم رأيه ، فقال لى : ولا يهمك !

وسألته : ولا يهمنى إيه! هل تقصد أنه لا داعى أن آخذ أى حقنة إطلاقا . .

فأجاب : لا . . وإنما أقصد لا تخف من الحقن والتطعيم معا . .

بقيت مسألة مهمة . وهى أيضا بالنسبة لى أنا . وهى الأدوية التى سآخذها معى إلى اليمن والتى آخذها معى إلى أى مكان . فأنا لا أعرف بالضبط ما الذى يوجعنى . . ولا ما هى أمراضى ، ولكنى إذا وجدت إنسانا مزكوما . فمن المؤكد أن أصاب بزكام . . وهذه مسألة معروفة لكل الذين لهم صلة بى . . وإذا ظهر أى مرض على أى إنسان له صلة بى فمن المؤكد أن أصاب بأى مرض فى اليوم التالى . . والسبب هو خوفى الشديد . . وأوهامى التى لا أول لها ولا آخر .

ولولا حرارة الغرفة التى كنت أقتسمها مع يوسف السباعى . ولولا أن الهواء خانق . وأن المراوح عاجزة عن تحريكه . كأنها طفل صغير يحاول أن يزحزح الهرم ، لكانت رحلتنا إلى اليمن ممتعة . جداً . . وإن كانت جلساتنا ومناقشاتنا على ظهر الباخرة كانت فرصة نادرة للتعارف . . لأن نتعارف نحن الأدباء . وقد فرقتنا أعمالنا . وضاق وقتنا عن أى لقاء بيننا . . فنحن نتعارف بأن يقرأ بعضنا لبعض ، أو نلتقى عابرين مسلمين أو مودعين . ولم تتح لنا الفرصة لنتقارب ونتفاهم ونتساءل . . ونفكر فى قضايانا السياسية . ورسالتنا الإنسانية الهائلة فى اليمن .

فمعنا فى الباخرة جنود أبطال فى طريقهم إلى أرض المعركة . وعلى أرض المعركة شباب مثلهم فى شجاعتهم وفى إيمانهم . يدافعون عن قضية العروبة كلها . عن حق شعب فى أن يظهر للتاريخ مرة أخرى بعد أن طواه الأئمة فى النسيان .

كل شىء فى تاريخ اليمن بلا حركة . . تماما كالبحر الأحمر لا موجة فيه . . لا موجة واحدة . . كأن البحر مرسوم على الأرض . . إن الباخرة لا تهتز . . إن ساعتى «الأوتوماتيك» حينما تركتها فى حقيبتى توقفت تماما . وهذا يدل على أن الباخرة لا تهتز مطلقا .

وثورة السلال هى الريح الوحيدة التى حركت أمواج الشعب . التى هزت العالم العربى . فلم يكن أحد يتصور أن فى اليمن حياة . أن فى اليمن سخطا كامنا . من الممكن أن يتحول إلى ثورة ضد الخرافة القديمة ضد الإمام . . ولكن شعب اليمن ثار . وساندناه برجالنا . ووقفنا إلى جواره ضد عملاء الإمام وحاولنا القضاء على قوى المتسللين إلى بلاد اليمن لكى يتمكن أهل اليمن من أى يعيشوا الحياة الكريمة . . من حقهم أن يعيشوا فهم بشر . وأرضهم غنية . . وتربتهم خصبة . وكأن لهم تاريخ . . من الممكن أن يكون لهم تاريخ جديد .

وأول أرض يمنية توقفت عندها الباخرة هى ميناء الحديدة . وهم فى اليمن ينطقونها دون تشديد للياء . . ولم تر شيئا واضحا سوى بعض الناس يبيعون الفاكهة . . ولكن الذى عرفته على وجه التأكيد أن أحدا لم يشتر منها شيئا . وجوه الناس وأجسامهم هنا نحيفة ، ولونهم أميل إلى السمرة الشديدة ويقال أنهم من الأحباش ، أو من الحبوش كما يسمونهم فى اليمن ، وهم يرتدون نوعا من الأزياء قريبة إلى (الدوتى) الهندى الذى رأيته فى ولاية «كيرالا» فى أقصى الجنوب من الهند . وهى فى الوقت نفسه شبيهة بالملابس الفرعونية ، فيما عدا الحزام الذى يحرص عليه اليمنيون .

والحزام فى الملابس اليمنية هو عبارة عن رف . يضع فيه وتحته كل ما يحتاج إليه من طعام وسلاح . يضع فيه الخناجر . . وكل الناس يحملون الخناجر . . ولكى أكون دقيقا . إن عددا كبيرا جدا من الناس يحمل الخناجر والرصاص والبنادق . فقد لاحظت أن اليمنيين فى منطقة «تعز» لا يحملون السلاح ولاحظت أن الفقراء جدا لايحملون السلاح أيضا .

. . ثم هم يحملون فى هذا الحزام أو تحته أو بينه وبين الملابس بعض أطعمتهم ، مثل الذرة أو القمح أو الزبيب .

وهذا الخنجر غالى الثمن جدا . وقد يصل إلى مائتين من الجنيهات ، وهى ثروة من الصلب والنحاس والذهب والجلد . . وصناعة الخناجر من الصناعات اليمنية الدقيقة . وكانت اليمن مشهورة فى تاريخ العرب بالسيوف اليمانية .

ومن ميناء الحديدة يبدأ الطريق الطويل الذى رصفه العمال الصينيون وطول الطريق نحو ٣٠٠ كيلو متر . . وهو من أحسن الطرق المرصوفة . فى اليمن . إن لم يكن أحسنها جميعا . وقد حاول الفرنسيون قبل ذلك عمل طريق ، وحاول الأمريكيون أيضا .

ثم قامت القوات المصرية برصف الطرق . وبناء المطارات . ثم ربط البلاد بعضها ببعض بشبكة من الطرق المعبدة أو المرصوفة .

وميناء الحديدة قد حفره الروس وأقاموا له المرسى الذى تقف عنده السفن الكبيرة . . كما أنهم حفروا قناة تحت الماء . ولولا هذه القناة . وهذا الرصيف الذى أقامه الروس ، لوقفت كل السفن فى عر ض البحر الأحمر . كما كانت السفن

المحملة بالتجارة تقف على مسافة ١٥ كيلومتر من الميناء . ثم يتم تفريغها فى سفن صغيرة . والسفن الصغيرة تنقل البضائع إلى ميناء الحديدة ، ومن الميناء إلى داخل البلاد ، وداخل البلاد هذه كلمة واضحة وأقصد بها مجاهل اليمن . فكل شىء فى اليمن مجهول . . لا أحد يعرف لها داخلا ولا خارجا . ولا حدوداً . . ولا عدداً ولا ثروة ولا خريطة . . الخ .

ولقد رأيت معالم الحديدة . رأيت المستشفى الذى أطلق فيه الرصاص على الإمام . المستشفى قديم ولكن يتم فيه علاج المرضى اليمنيين على أيدى أطباء مصريين . . والطبيب فى اليمن . ينظرون إليه على أنه رجل يصنع المعجزات وكلمة طبيب معناها ساحر . . ولا يكاد الناس فى اليمن يسمعون عن رجل طبيب حتى يسافروا إليه من أقصى البلاد .

وفى هذا المستشفى ضرب الإمام أحمد برصاصة استقرت فى أعماقه ولم يمت . ولكنها كانت سببا فى موته . ومنذ هذه الرصاصة التى أصابت أحشاءه والإمام قد أيقن أن هناك شيئا خطرا وراء الوجوه الباهتة التى إذا نظر إليها تطلعت إلى الأرض . لقد أدرك الإمام ، قبل وفاته ، أن الناس ليسوا دائخين كما يتصور وأن «القات» لم يقض عليهم قضاء تاما ، فلا تزال لهم عيون ترى فضائحه وتسكت . ولكنها تسكت أمامه فقط . وحينما تعود إلى أهلها تتكلم . وقد حاول الرصاص أن يتكلم مرة بعد مرة . حتى تحول الرصاص إلى مدافع .

وفى الليل دعانا ، على السلال ، قائد قوات الحديدة . وهو ابن المشير السلال . . إلى مأدبة عشاء فى أحد قصور الإمام .

والقصر يشبه بيوت العمد فى الريف عندنا .

لولا أنك تجد فى داخله حوضا للسباحة . والحوض أمام القاعة الكبرى التى كان يتصدرها الإمام . . والقاعة من الطراز العربى . أو الفارسى وعلى الحائط توجد لوحات بها طواويس إيرانية . وتوجد بها أبسطة عجيبة ثمينة جداً . وحول الإمام كان يجلس وزراؤه ورجال الدين .

ومددت يدى إلى المكتب الذى يضع فيه الإمام أوراقه الخاصة ، ووجدته مليئا بقطع من الورق الصغير . كل ورقة من حجم ورقة «الكوتشينة» .

وورق الكتابة فى اليمن طويل على شكل لفائف .

وأوراق الإمام أو قراراته ويسمونها فى اليمن (التنافيذ) يكتبها الإمام على قطعة ورق صغيرة . . أى نوع من أنواع الورق .

وقد وجدت فى المكتب عددا كبيرا من هذه الأوراق ، ورحت أقلب فيها ولم أفهم شيئا وهى أقرب إلى البلاغات الكيدية أو الشكاوى من بعض الناس ضد بعض الناس . . ولا تزال هذه الشكاوى فى انتظار رأى الإمام وقال الإمام رأيه . . بل أعظم آرائه أنه مات .

ووقفت أمامنا فرقة موسيقية تعزف ألحانا غريبة عن الأذن . وكانت هذه الفرقة الموسيقية على الجانب الآخر من حوض السباحة ، أما قائد الفرقة الموسيقية فكان يتحرك أمامها يروح ويجىء ويشير إلى بقية الأعضاء بأن يتابعوه والموسيقى اليمنية خليط من كل الموسيقات الشرقية التى يذيعها الراديو . . وأزياء العازفين خليط من كل لون . والنغمات يشب بعضها فوق بعض محاولة أن يكون لها لحن .

ولا أعرف بالضبط إن كانت هذه الفرقة قد استحضرت خصيصا لنا . أو أنها هى الفرقة نفسها التى كانت تعزف للإمام .

ووضعت مناضد العشاء حول حمام السباحة . وكانت الأطباق فخمة . . أحسن أنواع الصينى . والملاعق والسكاكين أيضا . «والسفرجى» كان حريصا على وضع الشوك والسكاكين فى المكان الصحيح . وعلى تغيير الأطباق والملاعق فى كل مرة يقدم لنا فيها طعاما جديدا ، ولم أر هذا الرجل يعدل من هذه القاعدة أبدا . مع أن كل شىء يغرى بأن ينسى ذلك !

وكان الطعام مكونا من الدجاج المحمر ومن السلطة . ومن الخبز الأفرنجى ومن كثير من الفواكه المحفوظة فى العلب . وهى كثيرة جداً فى اليمن وهى مصنوعة فى كندا وأستراليا واليابان . وكلها تدخل اليمن عن طريق عدن . .

وهم فى اليمن لا يجيدون صناعة الشاى أو القهوة . . والقهوة يفضلونها من قشور البن على طحن حبات البن نفسه . أما الشاى فقد لاحظت أنهم لا يحسنون صنعه . وأعتقد أننى إلى حد ما خبير فى شرب الشاى . فقد شربته فى أماكنه الحقيقية فى الهند وسيلان وإنجلترا وأستراليا .

أما مدينة الحديدة نفسها . فهى تشبه القرى عندنا فى مصر . . الشوارع مليئة بالتراب والقهاوى كثيرة . «والمحلات» مملوءة بالبضائع . وينقصها النظام . وهم فى اليمن يبيعون كل أنواع السلع .

وقد رأيت فى هذه المحال عدداً كبيراً من فراء «الاستراكان» والثعلب الأصلية . ولكنها موضوعة فى درجات حرارة عالية جداً . فهذه الفراء يجب أن تكون فى أماكن باردة . . وفى القاهرة يضعونها فى ثلاجات تسعة شهور فى السنة .

«والإجزخانات» تتكدس فيها الأدوية من كل بلاد الدنيا . والمصيبة أن هذه «الإجزخانات» ليست بها مراوح ولا تكييف . ولا شك فى أن درجة الحرارة العالية تؤدى إلى فساد الأدوية وخصوصا الأدوية الحساسة . وأذكر أن أحد الزملاء اشترى نوعا من الفيتامينات ولم يكد يفتح العلبة حتى وجدها جميعا سائلة ملتصقة .

وبقية «المحلات» المليئة بالراديوهات الصغيرة والصناعات اليابانية تذهلك عند الظهيرة ، ففى الظهيرة تخمد الحياة فى هذه المدينة . وربما فى معظم مدن اليمن ولا أستطيع أن أقول فى كل مدن اليمن . فأنا لم أر إلا عدداً قليلا منها .

ففى هذه الساعة يتعاطى الناس «القات» فى كل مكان ، وهناك شبه كبير بين ساعة «القات» وساعة إطلاق المدفع فى شهر رمضان .

فقبل انطلاق مدفع الإفطار نجد الناس مسرعين إلى البيت . وعلى وجوههم فرحة باهتة ، فرحة باقتراب تناول الطعام . وهى باهتة لأن الصيام قد أرهقهم .

وكذلك فى هذه الساعة أقصد ساعة الظهر . أو ساعة الصفر . نجد الناس فى الشوارع مسرعين وقد حمل كل منهم حزمة من نبات أخضر يشبه النعناع أو يشبه الملوخية . والحزمة عبارة عن أعواد متوسطة الطول . ولا تزيد على عشرين عودا ثمنها ريال يمنى .

هذه الحزمة هى نبات «القات» . والقات ، أو الجات ، أو القاط ، كلمة حبشية معناها الورق الصغير . . والذى يتعاطى «القات» يقطف الأوراق الصغيرة من هذه الشجرة . ثم يضعها فى فمه ثم فى جانب من فمه . . يمضغها أول الأمر . ثم يكومها على شكل كرة فى جانب من الفم . . وتبقى فى هذا المكان ست ساعات أو عشر ساعات كما يحلو له . ولكنه يظل طول الوقت يمتص طعمها المر وهذه المرارة هى التى تنزل إلى معدته فتلسعها وتجعلها زاهدة فى الطعام ، وإذا نزل فيها الطعام فإنها تعجز عن هضمه .

وعملية وضع «القات» فى الفم . يسمونها فى اليمن عملية التخزين فالذى يتعاطى القات يقول عن نفسه أنه يخزن .

وفى «المحلات» التجارية تجد الناس قد توقفوا عن البيع والشراء لأن هذا وقت التخزين . فكل واحد يبدأ فى التخزين . ومعنى ذلك أنه يكون فى حالة انسجام . وهذا الانسجام يجعله عاجزا عن ممارسة أى عمل ، فهو مفتوح العينين ولكنه لا يراك . وهو فى حالة يقظة غير مركزة .

وأحيانا يتناولون «القات» مع البن أو مع الشيشة . والرجال يبدءون فى إدمان «القات» فى سن صغيرة جداً . . وربما فى الثانية عشرة حتى يموتوا .

ولولا أن (معزة) صغيرة كانت تلعب فى أحد سفوح الجبال ثم أكلت ورقة صغيرة وراحت تقفز من هنا وهناك ، ثم اتجهت إلى صاحبها وراحت تنطحه . ولولا أن صاحب هذه المعزة رجل ذكى . لظل هذا «القات» نباتا لايعرفه أحد فى بلاد الحبشة ، ولما انتقل من الحبشة إلى اليمن .

أما كيف انتقل «القات» من الحبشة إلى اليمن فله قصة أخرى عجيبة .

لا يمكن الكلام عن اليمن . دون الكلام عن «القات» . مع الأسف الشديد . وعلى الرغم من أن القات أصله حبشى . فإن اليمن أصبحت مشهورة به . تماما كالبن الذى أصله يمنى وأصبحت البرازيل مشهورة به .

وقصة البن والقات ، قصة واحدة . وهناك حيوان واحد هو الذى نقل البن والقات من الحبشة إلى اليمن . هذا الحيوان الطيب المسكين المجرم فى الوقت نفسه هو : الماعز!

فقد كانت فى قديم الزمان معزة . معزة ليست لها أية مزايا خاصة . . لها أربع أرجل ولونها أسود وشعرها طويل . . وحينما تحتاج إلى طعام فإنها تمأمئ . معزة كأية معزة فى الدنيا . .

ولا أحد يعرف بالضبط متى «قرفت» هذه «المعزة» من الأعشاب الخشنة الموجودة فى سفوح جبال الحبشة ، ولكن المعزة قرفت . زهقت من الطعام الواحد الذى تجد نفسها كل يوم تأكل منه . ولا تجد غيره . كل شىء ممل . كل شىء كما هو . الجبال والأعشاب والأمطار وصاحب المعزة . إنه هو الآخر . ينام تحت الشجرة وله صوت سخيف . لا هو كنباح الكلب . ولا كعواء الذئب . ولا كنهيق الحمار . . صوت ممل جداً هو أيضاً .

ويقال أن هذه «المعزة» التاريخية حاولت الهرب من صاحبها . فدخلت فى منطقة بها أعشاب ونباتات من نوع غريب . و «شمشمت» فى النبات الغريب ثم

ملأت فمها منه . ولم يضايقها هذا النبات . ثم أكلت ، وبعد لحظات صحا صاحبها من النوم على ثورة بين الماعز . والأغنام . وحاول صاحب المعيز أن يعرف السبب ولكنه لم يهتد إلى شيء ، فوجد أن معزة واحدة . هى سبب هذه «الهيصة» . فهى تقفز من هنا إلى هناك تكاد ترقص على إيقاع موسيقى لايسمعها أحد . . وحاول صاحب المعزة أن يربطها ولكن المعزة لم تستسلم .

ونظر الراعى إلى عين المعزة . فوجد فيها بريقا غريبا . إنها لايمكن أن تكون مصابة بمغص . فهذه الحيوانات حينما تصاب بمغص تتصلب على الأرض وتتوجع ، ويلتف بعضها حول بعض . كما يلتف الناس حول مريض . أو كما يلتف الورثة حول أبيهم . ولا أحد يتمنى له الشفاء . وإنما الكل يريد أن يدفنه حيا ويخلص . . وحاول صاحب «المعزة» أن يفهم شيئا من عيون المعيز ولكن لا شيء يدل على أن هناك أى شبه بين المعيز وبين الورثة .

اذن المعزة ليست مريضة . وإنما هى «مبسوطة شوية» وفتح فم المعزة وأخرج بعض الأعشاب من فمها . واكتشف أنها ليست عشبا . وإنما هى أوراق من نبات غريب . وأمسك ورقة من فم المعزة ، ولاحظ أنها تشبه الأوراق التى علقت بشعرها الطويل . وراح هو يمضغ هذا الورق . ووجد له طعما غريبا . وبشيء من الذكاء .اهتدى هذا الراعى إلى النبات الغريب الذى انتقل بعد ذلك من الحبشة إلى اليمن . ليمضغه اليمنيون فيمتص دمهم وحيويتهم مئات السنين .

إنه نبات يأكل الناس . مع أن الناس هم الذين يمضغونه فى أفواههم وهم الذين يأكلونه ، إن هناك نباتات فى الغابات تأكل الحشرات . ونباتات تأكل الزواحف . هناك شجرة لها ورد . هذا الورد يتفتح ويدخل فيه الذباب والعناكب والنحل والفراش وحينما يشعر النبات بوجود هذه الحشرات فإنه يطبق أوراقه عليها ويخنقها ثم يعتصرها . وهذه العصارة هى رحيق حياة هذه النباتات .

وهناك أشجار تأكل الثعابين والزواحف فلا يكاد الثعبان يقترب من هذه الشجرة حتى تفرز مادة صمغية تمسك الثعبان فلا يقوى على الحركة ويبقى ملتصقا بالشجرة حتى يموت . فإذا مات فإنه يتحلل إلى مواد عفنة . . هذه المواد العفنة تمتصها الشجرة . . وهذه الأشجار تتصيد الحشرات والزواحف ولكن هذه الضحايا لا تختار هذه الأشجار وإنما هى تفاجأ بقبر محفور لها .

ولكن «القات» شيء آخر .

إن الناس يقدمون عليه بكامل وعيهم . يزرعونه ويشترونه بأغلى الأثمان ويحتفظون بلياليه ويبددون أموالهم فى مضغ أوراقه الخضراء .

ويقال أن «المعزة» التى اكتشفت شجرة «القات» . هى نفسها المعزة التى اكتشفت شجرة البن . والشجرتان تزرعان فى مكان واحد . فى تربة واحدة وفى جو واحد . فكلتا الشجرتين فى حاجة إلى حرارة شديدة وإلى أمطار . فى اليمن ينزعون الآن أشجار البن ويضعون بدلا منها شجرة «القات» والسبب فى ذلك أن شجرة البن لا تثمر إلا بعد سنوات أما شجرة «القات» فتثمر بعد شهور . . والناس فى اليمن تركوا البن . وأقبلوا على استهلاك «القات» .

والهولنديون حينما مروا باليمن منذ مئات السنين ، نقلوا شجرة البن إلى هولندا ، ومن هولندا إلى أندونيسيا . ومن أندونيسيا انتقلت مرة أخرى إلى البرازيل . ولم يعد أحد يسمع عن البن اليمنى .

والقات نبات غريب من الناحية الطبية . فقد جاء فى تقرير للدكتور التيجانى الماحى ، مستشار الصحة فى هيئة الصحة العالمية أن نبات «القات» يتضمن مادتين متضادتين . مادة منبهة ومادة مهدئة . . فيه مادة «الكافيين» ومادة «المورفين» . فالذى يتعاطى «القات» يكون فى حالة هدوء منه . أو فى حالة وسط بين الانتباه وعدم الانتباه . هذا لمن فى أول عهده يتناول القات . ولكن بعد أن يدمن القات . فإنه لا يشعر بأى شىء . (انظر ملخص هذا التقرير فيما بعد) .

وحينما كنت فى صنعاء طلبت من أحد الأصدقاء اليمنيين أن يحضر لى بعض أوراق «القات» . وسألنى عن السبب فقلت سآخذها معى إلى القاهرة .

وعاد يسألنى : هل تريد أن تزرع القات فى مصر؟

فقلت . عندى حديقة صغيرة (طبعا هذا غير صحيح) وأنا من هواة جمع النباتات النادرة فى العالم .

وذهب الصديق وأتى لى ببعض بذور شجرة القات .

ونسى أن يأتى بشجرة كاملة لكى أتفرج عليها . ثم عاد يحمل شجرة ثم سألته على الأوراق التى يتناولها المدمنون . وأشار إلى الأوراق الصغيرة فى أعلى الشجرة . ومددت يدى وقطفتها ثم أخذت الأوراق وغسلتها فى ماء مطهر . وعلى مرأى من هذا الصديق بدأت أمضغ أوراق القات .

دعنى أصفها لك . طعمها مائع وفيه مرارة وفيه لسعة خفيفة . وليس لها أى أثر فى اللسان أو الأسنان فى الحال . وقد علمت من أصدقائى فى اليمن أن أثر القات لا يظهر بهذه السرعة ولا بسبب هذه الأوراق القليلة وإنما يجب أن أجلس وآخذ راحتى . وأملأ فمى بأوراق القات وأمضغها وأمتص رحيقها المر ساعة بعد ساعة . وأن أضحك وأن أتكلم فهذا النشاط والضحك كلاهما يساعد على أن يقوم القات بالغرض المطلوب ، أما الغرض المطلوب فهو السرور .

ولكن الذى يرى مجلس القات لا يجد السرور على وجه أحد من الناس ، فكل واحد من الجالسين قد وضع أمامه حزمة من أوراق القات . . وراح يمد يده ويمضغ ، ثم يبصق على الأرض . وأحيانا فى طبق .

والمنظر كما ترى «مقرف» . ومثل هذا المنظر . وعلى نطاق واسع جداً ، موجود فى الهند وباكستان ، فهم يمضغون نوعا من اللبان يسمونه (بان) وهو عبارة عن حبوب وبذور ملفوفة فى ورقة شجر وتباع فى «محلات» السجائر . وأحيانا أمام المطاعم . ويقال أنها تساعد على الهضم ، تماما . كما نعتقد أن «اللبان الدكر» يساعد على الهضم .

ولكن «اللبان» الهندى له بذور حمراء اللون . ولذلك نجد معظم أفواه الناس حمراء اللون وكأنهم ينزفون دما . . ثم يبصقون على الأرض . ولذلك أيضا تجد معظم الشوارع بها بقع من الدم لا نهاية لعددها بل فى الجامعات والوزارات نجد هذه البقع من «اللبان» الأحمر!

وحينما كنت فى الهند جربت «اللبان» . ولاحظت أنه يقوى اللثة ويكسب الأسنان لونا ورديا . هذا بعد غسل الأسنان بالماء عشرين مرة . إنه يشبه فى لونه معجون الأسنان الفرنسى المعروف باسم (امى ديامان) .

وكان لابد أن أذهب إلى مجالس «القات» . ولكن للأسف لم يتسع وقتى ، واكتفيت بأن ذهبت إلى سوق القات فقط . وهى سوق تشبه سوق الخضار . مع فارق واحد . أن هذه السوق . لا تضم إلا خضارا واحدا . والناس يتقدمون إلى حزمة القات ويقلبونها وينظرون إلى عدد الأوراق الموجودة فيها . هل هىَ كثيرة أو قليلة . طازجة أو «بايتة» . ثم يشمون رائحتها . وباعة القات يدللون على هذه النباتات . فواحد يقول لك : أنها من الجنوب . وواحد يقسم لك بأنها من الحبشة . وأن الذى أتى بها تاجر حبشى قرر أن يسافر إلى أمريكا ، ولولا حاجته إلى الفلوس ما باع هذه الكمية بهذا السعر الزهيد!

مددت يدى إلى حزمة «قات» وسألت البائع : ما ثمنها يا أخ؟

فقال كلاما لم أفهمه بوضوح . ولم يفكر البائع فيما إذا كنت جادا أو مجرد واحد يريد أن يعرف . . حاولت أن «أفاصل» معه . . ولكنه لا يقبل الفصال لأن القات سلعة مطلوبة . . وعيب القات أنه كالخبز يجب أن يباع طازجا .

ومددت يدى أقطف ورقة . وأتظاهر بأننى أضعها فى فمى . ولم يسأل عنى البائع ولم يلتفت ناحيتى . فقد كان مشغولا بكمية لا بأس بها من القات موجودة فى جانب من فمه . وتظاهرت بأننى أريد أن أختلس منه حزمة القات . . ولكنه لم يلتفت ولم يسأل عنى . . ويظهر أن السرقة معدومة فى سوق القات .

وقيل لى أيضا أن القات قد انتقل الآن من مجالس الرجال إلى مجالس النساء . وأن هناك عددا من السيدات يتسلين بالقات . كما يتسلين عندنا بلعب الورق، . والنساء معذورات ما دام الرجال لا تربطهم بالنساء أية صلة من أى نوع . خصوصا إذا تجاوز الرجال سن الخامسة والعشرين . - أقول أية صلة !

وهناك أناس كثيرون يمتدحون القات ويؤكدون أنه المسئول عن وجود حياة اجتماعية فى اليمن . فهو الذى يجمع الرجال فى مكان واحد ليتناقشوا فى هدوء ، والذى يتعاطى القات لا يفكر فى ارتكاب الجريمة على عكس شارب الخمر ، الذى يصاب بحالة نفسية تدفعه إلى ارتكاب الجريمة .

ويقولون فى مزايا القات أنه هو الذى جعل الناس مسالمين ، فى حالهم- وهو كلام غريب وعجيب .

فلو كان اجتماع الناس فى مكان واحد دليلا على حياتهم الاجتماعية السليمة . لكان مجتمع السجون والمستشفيات ، حيث يحتشد مئات الألوف ، مجتمعا سليما . . ولكنها مجتمعات مريضة جسميا ونفسيا .

ثم إن الذى يتعاطى «القات» يميل الى الهدوء ، ولا يميل إلى القتل لأنه يقتل نفسه أولا بأول . .

وليس من الضرورى أن يكون القتل هو القضاء فى لحظة واحدة على حياة إنسان . وإنما من الممكن قتل أى إنسان فى سنوات . قتله عضوا عضوا ، قتله عقلا ونفسا وجسما ، ولا أعتقد أن هناك أبشع من قبل الإنسان لنفسه بنفسه ثم عجزه عن إنقاذ نفسه من نفسه .

ولا أفهم الحكمة فى أن يمتدح بعض الأطباء العرب نبات القات وفوائد القات الاجتماعية . لقد استمعت إلى عدد من الشبان اليمنيين ، إنهم يخجلون من الذين يتناولون هذا النبات السام .

وانشغلت بعد ذلك بالتطلع إلى الناس فى الدكاكين والشوارع . فقد رأيت أحد عساكر المرور مقيدا بالحديد . ويمشى فى الشوارع . وظللت أتبعه حتى رأيته يقف فى أحد الميادين ثم يوجه السيارات يمينا وشمالا .

وعرفت أن الذى حدث لعسكرى المرور من الممكن أن يحدث لأى إنسان آخر . فكل إنسان يرتكب خطأ . لابد من أن يعاقب عليه . ومن العقوبة وضع رجليه فى السلاسل . على أن يؤدى عمله فى الوقت نفسه .

فإذا صدر الأمر بعقوبته . فإنه يذهب إلى دكان الحداد . وهناك يضعون السلاسل فى قدميه بعد أن يدق الحداد هذه السلاسل دقا متينا ، وبعد نهاية مدة العقوبة يذهب العسكرى أو أى إنسان آخر . رجلا أو امرأة ، إلى الحداد لفك هذا القيد .

ودخلت مدرسة اسمها مدرسة الرهائن ، وهى فى مدخل قصر الأمير الحسن . على ما أعتقد ، وهذه المدرسة تضم عددا من الأطفال كل طفل من قبيلة ، وشيخ القبيلة يبعث بابنه رهينة . ودليلا على حسن نيته وحسن سلوكه ، وبين الحين والحين . يبعث شيخ القبيلة بابن آخر يحل محل الابن الأول .

وفى هذه المدرسة وجدت تلميذا يمشى والسلاسل فى رجليه ، ومن المناظر المألوفة جدا فى اليمن أن تجد الناس ـ رجالا وأطفالا ـ يمشون وقد وضع الواحد منهم يده فى يد الآخر . فى الشارع أو فى المدرسة .

وفى هذه المدرسة وجدت الأطفال والشبان يمشون اثنين . اثنين . متلاصقين أو ملتصقين . وعرفت من أحد المدرسين أن هذا الطفل المقيد تشاجر مع زملائه ولذلك لابد من توقيع العقاب عليه . أما العقاب فهو وضعه فى السلاسل فى داخل المدرسة .

وفى المدرسة لفت نظرى شىء غريب أيضا . فاللعبة الوحيدة المفضلة عند الأطفال هى لعبة «النشان» . فالأطفال يقفون أمام لوحة . وعلى اللوحة توجد علامات من الكبريت الأسود . ويقف الأطفال كل واحد يمسك بندقية ، والبندقية حينما يضغط ينطلق منها مسمار واذا أصاب المسمار العلامة السوداء فإنها تنفجر .

ولم يحدث أن طفلا واحدا أخطأ فى النيشان . بل لقد رأيت طفلا يصيب هذه العلامات السوداء من مسافة ثلاثة أمتار . علامة . علامة . علامة . فهو يجلس على ركبته وينشن على الكبريت ويصيبه بدقة مذهلة .

وفى هذه السن يتمرن الأطفال على ضرب النار ، فإذا كبروا حملوا السلاح ، ولذلك فاليمنيون بارعون فى ضرب النار .

ومن المفروض أن يكون كل طفل يمنى قادرا على حمل السلاح . فهذه مؤهلات الرجولة . ولذلك يضعون الطلبة الصغار فى فصول مظلمة . وهكذا قالوا لنا ، وقد دخلت أحد هذه الفصول ووجدت التخت فى صفوف بعضها وراء بعض . الصف الأول هو سنة أولى . والصف الثانى هو سنة ثانية . وهكذا . . وكل هذه السنوات تدرس فى وقت واحد وفى غرفة شبه مظلمة . والمدرس يتوجه بكلامه إلى تلامذة السنة الأولى . على مسمع من تلامذة السنوات الثانية والثالثة والرابعة .

وقد حاولت بعينى المجردة وبالنظارة أن أرى الكلمات المكتوبة . على السبورة فلم أتمكن بأى حال من الأحوال .

واقتربت من السبورة ومسحت الكلام المكتوب عليها . . واقتربت أكثر لكى أرى يدى وهى تكتب . . وكتبت هاتين الكلمتين : الإمام البدر .

ونظرت إلى الطلبة لكى أعرف إن كانوا قد رأوا هاتين الكلمتين . وسمعت «صوصوة» . ولم أفهم شيئا مما يقولون . وسألتهم باللغة العربية : هل ترون ما اكتب؟

وترددت «الصوصوة» .

وسألت المدرس : ماذا يقولون؟

فأجاب : إنهم يقولون الله يلعنه .

وسألته : يلعن من؟

فأجاب : الإمام البدر طبعا .

وفى هذه الغرفة المظلمة يدرس التلاميذ الصغار . وليس من المعقول أن تكون هذه الغرفة قد بنيت ولها نوافذ عالية من أجل تقوية عيون الأطفال ولو كانت هناك غرفة مضيئة لذهبوا إليها ، ولكنهم مع ذلك يرون فى هذا الظلام الشديد .

ومن الغريب أن هذه المدرسة ، أقصد مدرسة الرهائن ، بلا حراسة فأبوابها مفتوحة . ومع ذلك فإن واحداً من هؤلاء الأطفال لايهرب .

وقد سألت عن السبب فقيل لى أن هؤلاء الأطفال غرباء . ومن أماكن بعيدة ولا يمكن الوصول إليها بسهولة ثم أن شيوخ القبيلة لا يحاولون أن يخطفوا أطفالهم . فقد وعدوا بأن يكونوا مسالمين . وأن يطيعوا الجمهورية .

ولسبب لا علاقة له بالمدرسة ولا بالأبواب المفتوحة . ولا بالسلاسل الموجودة فى أرجل التلامذة . ولا بالتراب الموجود فى شوارع صنعاء . ولا «باللوريات» التى بها جنودنا يغنون ويرقصون وهم سعداء بالعودة إلى مصر ولا بالشمس الشديدة . ولا بلونها الأسمر . . أقول لسبب آخر بدأت «أهرش» برفق فى يدى . . فأنا أخشى أن أهرش بحق وحقيق . وأخشى من نتائج الهرش . . وبدأت أفكر فى أسباب الهرش . . أننى لم آكل طعاما فيه ملح . . ولا طعاما فيه شطة . . ولم آخذ دشا . إلا فى الباخرة حين سفرى إلى صنعاء .

وعرفت السبب وبدأت أسال عن دكتور .

لقد كان السبب هو عصير الأناناس . وهو علب مقفلة مصنوعة فى بلاد الملايو . .

واتجهت إلى الفندق فورا أبحث عن الدواء الخاص «بالارتكاريا» وعن الدواء الخاص بالهرش . وعن زجاجة الحبوب التى تمنع الحموضة ، وإلى العلب الكثيرة التى حملتها معى من القاهرة لتهدئة الأعصاب . أى الحبوب الخاصة بمنع الوهم .

وفى الفندق ابتلعت بعض الحبوب المهدئة . ولكى أنسى مخاوفى من الأطعمة المحفوظة . ومخاوفى من الهرش والمغص . وكل هذه المتاعب التى جربتها كثيرا خلال رحلات فى بلاد أقسى من اليمن ، كالكونغو مثلا .

هنا عرش الملكة بلقيس

قال لى أحد اليمنيين المثقفين جدا ، أن الصور التى نشرتها الصحف والمجلات المصرية لم يرها فى حياته!

ولم أفهم معنى هذه العبارة . وطلبت إليه أن يوضح ما الذى يقصده فقال لى : أن صور كل المدن اليمنية يراها لأول مرة . . فقد كان ممنوعا على أى إنسان أن يبرح المدينة التى يعيش فيها إلا بإذن من الإمام . . ولم يأذن لى الإمام بالخروج من العاصمة مرة واحدة . . فهربت من اليمن إلى مصر ولم أر كل هذه المدن التى نشرتها الصحف فى مصر . .

وقال أيضا : لقد عشت فى مدينة صنعاء ٣٥ عاما ولم أتركها . . لأننى لكى أخرج منها ، لابد أن أقول للإمام عن الأسباب التى أدت إلى خروجى . ولابد أن أذكر أسماء كل الذين سأقابلهم وما الذى قالوه لى . . ولذلك قررت أن أبقى فى العاصمة من غير أن أرى البلاد الأخرى حرصا على راحتى وسلامة أهلى .

ومن ضمن البلاد التى لم يتمكن من رؤيتها هذا اليمنى ، الذى سافر إلى أوربا وأمريكا ، مدينة مأرب . فهو لم ير هذه المدينة المشهورة . . ولم ير عرش الملكة بلقيس ، ولم ير سد مأرب الشهير . ولذلك كان سعيدا جداً برؤية هذه الصور التى نشرتها الصحف والمجلات فى مصر . .

وقد سافرنا بالطائرة إلى مدينة مأرب وهى مدينة صغيرة جدا وحارة جداً . . بل حارة أكثر مما أتصور . . نار والعة . . وكان لابد أن ندخل بعض الخيام التى نصبتها قواتنا فى الطريق . . وتحت هذه الخيام جلسنا على المقاعد . . وبعضنا استسلم لنوم مفاجئ . . والسبب هو التراب وحرارة الجو .

ولما حاولت الوقوف والتوجه إلى مدينة مأرب ، على ظهر إحدى السيارات المصفحة ، رفض ضباطنا وجنودنا ، قبل أن نشرب الشاى . . وجلسنا ننتظر الشاى .

وجاءت أكواب الشاى . . عبارة عن علب وعن «بطرمانات» ، وعن صفائح صغيرة . . وليس من بينها كوب واحد . . وكانت مفاجأة ظريفة . . ولم يبد واحد منا أية ملحوظة على هذه الأوعية . . وإنما أدركنا الفرق بين حياتنا كمدنيين وحياتهم كجنود مقاتلين . . أو حياتهم فى مصر ، وحياتهم هنا فى اليمن . .

وشربت الشاى وكان لذيذا . . ولا أعتقد أننى أبالغ كثيرا لو قلت أنه ألذ شاى شربته فى حياتى . . لقد شربت الشاى فى الهند ، وفى سيلان وفى أمريكا وفى إنجلترا . . وكلها أماكن مريحة ، وكان فى استطاعتى أن أشرب الشاى فى أى وقت بأى صورة . ولكن الشاى الذى شربته فى خيام جنودنا ، كان فى الوقت المناسب . . كان هو الوحيد الذى شفانى من الصداع . . فالذى صنعه لى كان جنديا مصريا ، يعيش فى ظروف قاسية ، والذى قدمه لى كان ضابطا مصريا ، يعيش فى ظروف قاسية . . ولكن هذه الظروف لم تتمكن من محو الابتسامة الحلوة من الوجوه ، ولا كرمنا المصرى الأصيل . . وشربت الشاى فى «بطرمان» من الزجاج . . نصف «بطرمان» من الزجاج . . فالماء هنا بحساب . . ويساوى وزنه ذهبا .

وروى لنا أحد الجنود حكاية غريبة . .

قال لنا أنه لاحظ أن الخيمة التى ينام فيها يجد فيها كل يوم عددا من الثعابين الميتة ، وكذلك بعض العقارب ، ولم يحدث شىء من هذا فى كل مخيم زملائه من الجنود ولم يفهم حقيقة هذا السر . .

وأخيرا اكتشف الحقيقة . . فهو قبل أن ينام يضع فى الخيمة مادة «د . د . ت» ويملأ جوها بالمبيدات الحشرية . . ثم ينام وتتسلل هذه الحشرات إلى الخيمة فتختنق وتموت . . فى حين أن زملاءه لا يفعلون ذلك . . ولهذا فهذه الحشرات تتسلل إلى الخيمة ، ثم تتسلل منها !

ولسبب غير معروف فإن الثعابين والعقارب لا تلدغ إلا اليمنيين فقط! كما أن ذبابة «تسى تسى» الموجودة فى جنوب أفريقيا لا تلدغ إلا السود فقط . أما البيض فهى لا تقترب منهم . وهذه الذبابة تصيب الناس بمرض النوم . . فإذا لدغتهم ناموا على طول . . حتى يموتوا !

وركبنا إحدى السيارات المصفحة . . وركوب هذه السيارات الحربية ليس شيئا مريحا للناس أمثالنا من المدنيين . . فنحن لا نعرف كيف نتوازن إذا جلسنا ، ولا إذا وقفنا . . والطريق طويل . . وغير مرصوف . . والسيارة المصفحة تطلع وتنزل فوق الجبال وفى الوديان بشىء من العنف ، ولها صوت مخيف . . وفى مقدمتها مدفع . . وعدد من الجنود . . ونحن لا نفهم كيف تعمل هذه السيارة ولا ما الذى يحدث لو هاجمنا عدد من المتسللين . .

أن نجيب محفوظ يقول أنه تمرن على حمل السلاح أيام العدوان . .

ويوسف السباعى أحد كبار ضباط الفرسان . .

والشاعر محمود حسن إسماعيل لم ير بندقية فى حياته ، وأنا أيضا .

ولم يفكر الشاعر صالح جودت ما الذى يمكن أن يعمله ، وإنما كان يرى أن فينا البركة . . وأنه يكفى جدّاً أن نتولى الدفاع عنه وهو يتولى الاحتماء فينا . .

والدكتور مهدى علام ، ترك الأمر لله . .

وسألت بعض الجنود إن كانت هذه المصفحة تكفى لحمايتنا من الرصاص . . فهز رأسه ساخرا : نعم . . ولم أعرف سبب السخرية ، هل هو سخافة السؤال . أو أنها لا تستطيع أن نقاوم الرصاص . . والتزمت الصمت ولم أسأل ! .

وانتقلت بنا المدرعة إلى أحد مراكز قواتنا . .

ودخلنا مركز القيادة . . إنه فى مكان مرتفع ، والهواء ألطف . . وهناك وجدنا عددا كبيرا من قواتنا . .

ورأينا أحد الأفران التى يخبزون فيها «العيش» الفلاحى المصنوع من القمح . . والعيش سخن . . أول رغيف سخن نلمسه . لقد أخذت رغيفا وأكلته بنهم . . ووزعت نصف رغيف آخر لقما على الزملاء . . إنه مصنوع بأيدى أبطالنا . . وقالوا لنا أن بعض الجنود لم يكن يعرف كيف يخبز ، ولكنهم الآن يتفننون فى خبز العيش وفى طهو الطعام . . كل أنواع الخبز واللحوم والخضروات . . وقالوا لنا أنهم سعداء . . وأن الحياة هنا لذيذة والأكل هنا لذيذ . وأن عملهم هنا يرفع مقدارهم فى أعين أنفسهم . .

ورأينا فى داخل مركز القيادة بئرا قديمة جافة عمقها مائة متر . .

أما طريقة اليمنيين فى رفع الماء من البئر فهى غريبة . . فهم يدلون بحبل فى داخل البئر . . ثم يأتون بجمل وهذا الجمل يسحب الحبل من البئر . . ولما كان الحبل طويلا ، فإن الجمل يمشى ما يساوى طول الحبل الذى فى نهايته دلو ماء ، ثم يعود الجمل ليدلى بالحبل من جديد . . ثم يعود فيسحبه . . وهكذا طول النهار . . ولكن هذه البئر لم تعد صالحة . . فقد ردمها التراب . .

ورأينا متحفا صغيرا به عدد من التماثيل الأثرية . . وقد عثروا على هذه التحف مع العرب البدو . . أنهم يبيعونها بأبخس الأسعار ولا يعرفون قيمتها الأثرية . .

وكل هذه التحف مصنوعة من الرخام الشفاف ، ويرجع تاريخ بعضها إلى ألوف السنين .

وعلى ظهر السيارة المصفحة اتجهنا إلى عرش الملكة بلقيس . . وهذا العرش مطمور فى الرمال . ولم يتم بعد رفع الرمال عن قاعة العرش أو غرفة البرلمان التى كانت موجودة أيام بلقيس سبأ .

ومعظم الذين حاولوا التسلل إلى اليمن من الأجانب ، كان هدفهم رؤية آثار دولة سبأ ، وعرش بلقيس . وبلقيس هى أول ملكة حكمت اليمن . وبعدها بمئات السنين ، حكمت اليمن سيدة أخرى اسمها «أروى بنت أحمد» . . وبلقيس يهودية ، أما الملكة «أروى بنت أحمد» فواضح أنها مسلمة . .

وفى الكلام عن بلقيس نعود مرة أخرى إلى حكاية «المعزة» . . فقد تكلمت عن المعزة كثيرا لأن المعزة هى التى أكلت أوراق «القات» وراحت ترقص وتتنطط ، فاكتشف صاحب المعزة أن سر هذه الشقاوة «المعزوية» هو هذا النبات . .

أما الكلام عن المعزة هذه المرة فسببه الملكة بلقيس . .

فيقال أن الملكة بلقيس كانت لها ساقان تشبهان الماعز !

ولذلك دعاها الملك سليمان لزيارته فى القدس ، أقصى شمال شبه الجزيرة العربية .

وبلقيس ملكة غنية . . وعندها ملايين الأفدنة المزروعة . وعندها ذهب وماس وعنبر وزيوت وحرير . .

فلما تلقت بلقيس الدعوة من الملك سليمان سافرت على الفور . . ودخلت مملكة سليمان فى موكب من الفتيات الجميلات والشبان الأقوياء ، وكانت معها خيول تحمل الذهب والماس والحرير والهدايا للملك سليمان وحاشيته .

ويقال إن الملك سليمان أراد أن يعرف إن كانت للملكة بلقيس ساقان مثل سيقان الماعز . فأقام لها بيتا خاصا . . وجعل «أرضية» البيت من الزجاج ، فلما دخلت البيت خيل لها أن فى داخل البيت بحيرة من الماء ، فشمرت فستانها عن ساقيها . . ولم يكن هناك ماء ، وإنما «أرضية» من زجاج . .

واكتشف سليمان أن ساقى بلقيس كساقى أية امرأة . . وأنه ليس صحيحا أن لها ساقى الماعز!

وأحبت بلقيس الملك سليمان ، وأكلت الغيرة قلبها من مئات الجوارى الجميلات اللاتى يعشن فى قصره . .

ويقال إن بلقيس تزوجت سليمان وأنجبت منه أول ملوك اليهود .

ولا يزال ملك الحبشة حتى الآن يسمى : ملك الحبشة ووارث عرش سليمان وبلقيس!

وبلقيس ملكة عاقلة . . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها كانت ملكة ديموقراطية ، أنها كانت لا تتخذ قرارا فى شئون دولتها دون أن تستشير رجالها . كانت سيدة عاقلة .

ويقال إن الملك سليمان هو الذى استعان بالجن فبنوا لها عرشها الموجود فى مدينة مأرب . . وأن الجن هى التى نقلت عرش بلقيس من مأرب إلى القدس فى غمضة عين ، ولم يبق من عرش بلقيس إلا خمسة أعمدة . .

وكانت الأعمدة سبعة قبل ذلك . .

ويقال إن الأمريكى «وندل فيلبس» حينما ذهب إلى اليمن سنة ١٩٤٩ حاول الكشف عن آثار بلقيس فكسر هذين العمودين ثم جمع بعض الآثار والعملات الذهبية وهرب من اليمن !

وفى هذه الأثناء اتهمه راديو موسكو بأنه جاء ليبحث عن اليورانيوم الموجود بكثرة فى اليمن ، وأنه يتظاهر بالبحث عن آثار الملكة بلقيس . .

وقد استمعت فى فندق سميراميس سنة ١٩٥٠ ، إلى المحاضرة التى ألقاها «وندل فيلبس» وهاجم فيها الإمام بأنه استولى على كل التماثيل والعملات الذهبية التى عثر هو عليها . .

ولكن «وندل فيلبس» هذا لم يكن إلا نصابا ، ولا علاقة له بالآثار . . وإنما قد ذهب إلى اليمن لسبب آخر غير ملكة سبأ . فقد ذهب ليبحث عن وجود بترول أو معادن فى اليمن .

وقد تصادف فى الوقت نفسه ، أن قامت بعثة أمريكية بالبحث عن «سفينة نوح» فوق جبل «أرارات» على حدود تركيا .

واتهم راديو موسكو هذه البعثة بالتجسس على روسيا من ناحية ، وبالبحث عن اليورانيوم من ناحية أخرى . .

ومن المؤكد أن عروق اليورانيوم موجودة فى اليمن .

وأنه لا يوجد مكان فى اليمن يخلو من المعادن . . كل أنواع المعادن . . وقد اشتهرت اليمن من مئات السنين بصناعة الحديد والصلب والذهب والفضة . .

ولابد أن المكان الذى يشغله برلمان ملكة بلقيس كانت حوله بحيرة ضخمة . . هذه البحيرة قد صنعها سد مأرب الذى يمنع السيول التى تنزل من الجبال بقوة عنيفة . .

ثم أن مدينة مأرب نفسها لا تزال فوق ربوة عالية والربوة تشرف على بحيرة ، وفى الطرف الآخر يوجد سد مأرب ، وقد كان فى اليمن ثمانون سدّاً آخر . . كلها تتحكم فى مياه السيول . .

وكان سد مأرب هذا يحجز كميات ضخمة من المياه تكفى لزراعة ملايين الأفدنة ، طوال السنة (إنه يشبه خزان أسوان والقناطر الخيرية والسد العالى) .

ولكن هذا السد العظيم قد انهار . . فقد حدث سنة ٧٥٠ ميلادية أن جاء سيل هائل فأطاح بالسد . . وأغرق هذه الأراضى المزروعة . . ومنذ ذلك اليوم ، وهذه الأراضى لم تعد صالحة للزراعة ، فالسيل حينما يجىء يغرقها ، وتظل جافة طوال السنة .

وقد قال لنا بعض جنودنا إنه حدث أن نزل سيل كبير أدى إلى انقلاب إحدى السيارات المصفحة الضخمة الثقيلة ، ومن الغريب أن هذا السيل يجىء مرة واحدة وفجأة . . فتنزل كميات من الأمطار مخيفة . . ثم تصفو السماء وكأن شيئاً لم يحدث . .

وسنة ٥٧٠ ميلادية ، هى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام . وهى السنة نفسها التى هاجم فيها الأحباش الكعبة بقيادة القائد الحبشى الذى اسمه «أبرهة» والقرآن الكريم يقول : «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . . .»[1] .

ملاحظة تاريخية : الذين يفسرون القرآن الكريم يقولون بأن الهجوم على الكعبة كان بقوات حبشية تستعين بالفيلة على هدم الكعبة ، وقد قال لى الأستاذ الدكتور مراد كامل أنه اكتشف أن كلمة «الفيل» هذه ، ليس المقصود بها الفيل المعروف . إنما المقصود بها ـ وهو حجة فى تاريخ الحبشة ولغاتها ـ قائد القوات الحبشية الذى كان اسمه «أفيلا» . . ومعنى ذلك أن أصحاب الفيل هم أصحاب القائد أفيلا . . أى قوات القائد الحبشى أفيلا . .

وأما النقوش التى وجدناها على أعمدة العرش . . أو قاعة العرش فلا تزال واضحة جدا ، كأنها كتبت اليوم ، أو على الأكثر كتبت أمس .

ويقال إن هذه الرمال التى غاصت فيها هذه الأعمدة تغطى مدينة كاملة . . وهذه الأعمدة مطبوعة الآن على طوابع البريد اليمنية الجديدة .

وتحت الشمس المحرقة ، وفوق الرمال اللاسعة ، وأمام الأعمدة الوردية اللون ، ووراء إحدى المصفحات ، وبين عدد من أبطالنا ، وقفنا نلتقط صورة تاريخية . .

وهمست فى أذن أحد أبطالنا : كل اليمن والعة نار بالشكل ده ؟

فأجاب : غدًا فى مدينة تعز ستجد قطعة من سويسرا . .

---

(١) الفيل : ١ .

الوجه مصبوغ والبنطلون ضيق

قبل أن أركب الطائرة إلى مدينة «تعز» اقترب منى أحد الأصدقاء وقال لى إذا كنت تريد شراء أى حاجة ، فاشترها من تعز فهى أحسن وأرخص .

ولم أفهم لماذا هى أحسن ولماذا هى أرخص؟ .

ولكن حينما سافرت إلى «تعز» عرفت السبب ، ووجدت أن تجار «تعز» فى غاية الشطارة . . وأحيانا لا يعرفون المجاملة ، وأكثر من هذا يرون فلوسك ولا يرونك ، وأحيانا لا يريدون أن يروك . . لا أنت ولا فلوسك . ويكفى أن تذهب إلى «محل الـ . . .» لتعرف أى نوع من المعاملة وأى نوع من المجاملة !

وفى الطائرة جلست استعد لرؤية جبال سويسرا ، ولم أناقش الذين رأوا هذه الجبال أن كانوا قد رأوا جبال سويسرا ، بالفعل أو سمعوا عنها .

ومن بعيد بدأت أرى بعض الأشجار الخضراء . . . على سفوح الجبال . . وقالوا لنا إنها أشجار قصيرة . . وقالوا لنا إنها غابات كثيفة ، ولكن الطائرة كانت مرتفعة ولذلك لم أر بوضوح من أول الأمر . . ولكن بعد نصف ساعة رأيت الجبال فعلا قد اكتست باللون الأخضر . . وأحيانا بالأخضر الذى يميل إلى الأزرق . . ورأيت سفوح الجبال على شكل مدرجات ومصاطب ، ورأيت طرقا ضيقة جداً على سفوح الجبال .

ولكن المنظر يختلف عن كل مناطق اليمن . .

وأحسسنا فى الطائرة ببرودة الجو .

وطلبت إلى أحد الجنود المرافقين لنا أن «يسلفنى» البالطو الذى يرتديه لأننى أكاد أموت من البرد ، فملابسى خفيفة ولم أتصور أبدا أن هذه المنطقة ستكون باردة إلى هذه الدرجة ، وكان البالطو ثقيلا خشنا . وشعرت بالدفء الثقيل .

ومن النافذة رأيت المناطق المغطاة باللون الأخضر . . ورأيت مساحات واسعة على مدى البصر .

ولكنها ليست كجبال سويسرا طبعا ، وإن كانت مناطق الجبال فى الدنيا كلها متشابهة لأنها تقع على ارتفاع متقارب من سطح البحر . . فمناطق الجبال فى

شمال جزيرة سيلان ، تشبه منطقة البحيرات فى شمال اسكتلندا . . وتشبه مناطق الجبال فى الهند وأستراليا .

وحينما نزلت الطائرة إلى مطار تعز . . كان الفارق واضحا ، وكأننا انتقلنا إلى بلاد أخرى . . فالناس مختلفون فى ملامحهم وفى أزيائهم . . حتى الحيوانات التى وجدناها ترعى على جانبى الطريق كانت واضحة السمنة ، ومعنى ذلك أن هذه الحيوانات تجد الطعام ثم أن أصحابها لا يرهقونها بالعمل ، وقد اندهشت حينما نظرت الى الماعز والأغنام فى الحديدة وصنعاء . لقد كانت عجفاء بلا لحم ولا شحم ، وإذا كان بها لبن فلا شك أن هذا اللبن ليس فيه دسم على الإطلاق والنتيجة طبعا أن الناس لايجدون فى هذه المناطق اللحم الذى يشبع واللبن الذى يغذى .

فعلى الأعشاب تعيش الأغنام وعلى الأغنام يعيش الناس . . فإذا جاعت الأغنام جاع الناس أيضا .

وكنت فى الحديدة أجد الناس يحملون «الترموس» الذى يملأونه بالماء المثلج ، تماما كما يحمل الناس عندنا الراديو الترانزستور . فالقادرون هم الذين يشربون الماء مثلجا ، لأن الثلج مرتفع الثمن ، وفى مدينة الحديدة مصنع واحد لعمل الثلج . وكلمة «مصنع» ليس لها المعنى نفسه المألوف عندنا ، وإنما استخدمتها لأننى لم أجد غيرها فهذا المصنع يخرج فى اليوم الواحد ١٧ «لوحا» وهذه الألواح يتم إنتاجها بالطرق البدائية البدائية غير الصحية . .

ولا شك أن الإنسان يبدو غنيا جدا ، أو يحاول أن يبدو غنيا ، إذا حمل «الترموس» المليء بالماء المثلج ، فى يد ، و «القات» فى يده الأخرى وعلق الراديو الترانزستور فى صدره إلى جوار الخنجر فى مواجهة البندقية ، وعلى قميص مليء بالرصاص . وكل هذه المناظر لا تجدها فى تعز . . أو لا نجد منها إلا القليل . فهناك أناس يحملون السلاح ، ولكنهم أقلية واضحة ، ومعظم الناس يرتدون الملابس الملونة فى هذه المنطقة : الأحمر والأخضر والأصفر .

وكل مناديل اليد فى اليمن ، بلا استثناء ملونة ، وكلها «حريمى» .

والمرأة اليمنية فى هذه المنطقة ملفتة للنظر ، فهى سافرة الوجه وملامحها دقيقة وحلوة وترتدى البنطلون الضيق وهو يشبه «البلوجينز» ولكن لونه أسود . وهى تصبغ وجهها بمادة صفراء ويقال إن هذه المادة الصفراء هى نوع من «الكريم النباتى» المغذى للبشرة والذى يقى الوجه من الشمس مع أن الشمس هنا معقولة الحرارة .

ويبدو أن هذا اللون الأصفر شائع فى كل اليمن ، فقد رأيت سيدة فى الخمسين من عمرها تجلس فى الشمس وتصبغ وجهها بهذه المادة الصفراء . .

وقيل لى إن النساء يصبغن سيقانهن أيضا بهذا اللون . وفى هذه الحالة لا تكون الصبغة بقصد التغذية للبشرة ولكن للفتنة والإثارة . . فاللون الأصفر يعتبر لونا مثيرا فى اليمن !

والمرأة اليمنية فى هذه المنطقة الزراعية ، أى منطقة تعز ، هى التى تقوم بكل أعمال الرجل ، فهى التى تزرع الأرض ، وهى التى تحرثها وتحلب الماشية ، وتبيع صوفها وجلودها ، أما الرجل فإنه يظل نائما إلى ساعة متأخرة من النهار .

وقد علمت أن نسبة الذين يتعاطون «القات» فى هذه المنطقة قليلون جداً ، والكثيرون لا يحبونه ويخجلون من هذا العار ، عار تعاطى هذه المادة ، التى تسلبه نور حياته .

وربما كان اعتدال الجو فى هذه المنطقة ، وقربها من عدن ، هما اللذان جعلا كل رجال السلك الدبلوماسى يعيشون فيها . .

ولقرب هذه المدينة إلى عدن ، فهى مليئة بالبضائع من كل أركان العالم ، ففيها الأناناس من كندا ، والبلوفرات من أستراليا ، والراديوهات من اليابان ، وفيها الفراء من روسيا . . وفيها الجاكتات الشاموا ، وفيها كل أنواع العطور الباريسية . . وحتى أكون دقيقا فإنك تجد نوعين أو ثلاثة فقط من عطور باريس هى : كريستيان ديور ، وفام ، وشانيل . . أما بقية العطور الأخرى فمن النادر أن تجدها . .

وأكثر السلع رواجا فى هذه المدينة هى مجفف الشعر الكهربى للسيدات ، والساعات المتعددة الأغطية . . والراديو الترانزستور ، والحقائب الجلدية ، هى التى فى المقدمة دائما .

ويبدو التاجر اليمنى ، تاجرا بحق وحقيق ، فهو شاطر ، وهو خفيف الدم أيضا وهو يحب «الفصال» أو اعتاد على الفصال لا أحد يعرف !

ولكن يظهر أنه بطىء وأنه لا يستجيب إلى طلبات زبائنه بسرعة . . فمثلا كل الملابس الداخلية التى يبيعها صغيرة جدا ولا تتناسب مع الأجسام والأحجام غير اليمنية ، ولذلك تجد كل الملابس الداخلية من الحرير أو النايلون مكدسة فى هذه «المحلات» التجارية المليئة بالبضائع ، لا يشتريها أحد !

وفى تعز يوجد أحد البنوك . . والبنك يشغل مكانا متوسط المساحة . ولكن العمل يتم فيه بسرعة ونظام . .

وإذا كانت هناك بعض الإجراءات التى أعطل سير العملة من البنك إلى جيبك . فلأن مدير البنك يحتم عليك أن تشرب شيئا ساخنا أو باردا ، أو الاثنين معا .

وإذا غيرت الفلوس التى معك بعملة يمنية ، فإنهم يضعون هذه العملات فى صينية لأن الريال اليمنى الجديد ، أو الريال اليمنى القديم كبير الحجم ولا يمكنك أن تضعه فى جيبك الكبير أو الصغير ، وهو ثقيل الوزن ، وهو من الفضة الخالصة ، فوزنه يصل إلى ٢٨ قمحة ، ولابد أن تضع كل هذه الريالات على صينية من الخشب ، وتنقلها بشخصك أو بغيرك إلى «المحلات» التجارية . . وفى بعض الأحيان يضعون لك هذه الريالات فى «شوال» . .

ولذلك من النادر أن تجد يمنيا واحدا أو أجنبيا قد وضع أمواله فى جيبه ، خصوصا أنه لم تكن هناك أوراق مالية فى اليمن ، ولا بد أن تصبح لليمن عملات ورقية . .

والأموال يضعها اليمنيون فى بيوتهم تحت الأرض ، فى صفائح أو فى صناديق من الخشب أو فى تجويف من الحجارة ، وليس هذا جريا على سنة الإمام ، ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بالفلوس ، مادامت لا توجد هناك بنوك أو صناديق للتوفير !

وفى مدينة «تعز» تجد نوعا من الحياة والنشاط . .

ففى «تعز» صحف ومجلات محدودة الانتشار ، وقد نشرت هذه الصحف فى صفحاتها الأولى خبر مجيئنا إلى اليمن ، ونشرت أخبار المهرجان الأدبى الذى سيقام فى ساحة الشهداء ، ولابد أن هؤلاء الشهداء هم الذين قتلوا فى ثورات اليمن المتعددة منذ أيام الإمام يحيى ، وفى هذا الميدان الكبير ، وفى إحدى الشرفات جلسنا ، وعلى الأرض وقف الشبان الخطباء ، وفى لغة عربية سليمة فصيحة راحوا يقدموننا ويشيدون بفضل الأدب المصرى على العرب ، وعلى اليمن . .

وتوالى المتحدثون من أبناء اليمن ، وكلهم حريص على أن يفتح لنا قلبه ، ويكشف لنا عن ثقافته وعلمه . . ولفت آذاننا جميعا عامل يمنى . لم يدرس الأدب ولا الشعر ، ولكنه نظم قصيدة طويلة .

وتحدث شاب بمصلحة الاستعلامات ، وكان فصيحا وبليغا ، فتناول قضية اليمن ، وقضية العرب . . ورحب بنا ، ورحب بالمصريين فى شخصنا .

ولمحت شابا يصلح الميكروفون الصارخ ، وكان فى الجانب الأيمن من فمه كرة تحت الجلد . . إنها كرة «القات» الكريهة ، ولكن لم أر أحدا بين الحاضرين سواه .

وفى نهاية المهرجان نزلت أمطار خفيفة من السماء . . فهذا أول مطر على أرض اليمن ، فقد كانت السحب قريبة وكثيفة .

وفى سياراتنا صعدنا إلى أعالى الجبل .

وفى بيت جميل كان معتقلا للإنجليز الذين تسللوا إلى اليمن وقفنا حول مائدة نشرب الشاى ونأكل الفاكهة ، ونتأمل الشمس عند الغروب .

دعنى أرسم هذه اللوحة الجميلة النادرة فى اليمن : فمن بعيد ووراء الجبال ، الزرقاء والشجر ، وتحت السحب السوداء ، والسفوح التى غطتها ظلال الليل ، وصبغتها بلون الدم والذهب . . وراء الأشجار الباسقة بالقرب من الشرفة ، وحولها الصخور السوداء ، والمياه الطبيعية التى تتدفق بغير توقف من الجبل ، ووسط «سيمفونية» من الأصوات الطبيعية بين الأعشاب ، وعلى صوت راديو صغير ، وأم تهدهد طفلها ، وماعز يحلبها رجل وله صوت ، ولها أيضا صوت غريب . . وفى هواء منعش ، وبرودة خفيفة . . وقفنا جميعا نقول كلمة واحدة : سويسرا . . كأنها سويسرا . . بل إن الفاكهة التى تزرعها اليمن ، لا تزرعها سويسرا كالتفاح والبطيخ والبن .

أما البيت الذى كنا ننام فيه فهو فى أعلى الجبل ، والطريق إليه صاعد ويتسع ويضيق . .

ولكن البيت جميل ونظيف ، وفى هذا البيت عرفنا الأطعمة اللذيذة وبكميات وافرة . . وعرفنا الشاى والقهوة . . عرفنا النوم الهادئ لأول مرة . . وأحسست أننى فى بلد آخر غير اليمن . . فى يمن على اتصال بالعالم الخارجى ، عن طريق التجارة والأجانب . . كما أن الجو مسئول عن الحياة والحيوية .

والإنسان والحيوان يعيشان على قاعدة واحدة : أن كل كائن ينعزل يموت ، وكل كائن يتصل بغيره يعيش ، ولذلك تعيش «تعز» وكل مدينة مثل «تعز» ، وتموت مناطق «الجوف» المحصورة بين الجبال التى تعزلها عن اليمن ، وعن الدنيا كلها .

وقد كادت اليمن تموت ، من مئات السنين من العزلة ، ولم تكتب لها الحياة إلا حينما حطمت الأبواب الصفيقة والأغلال الصدئة ورفعت صوتها صارخة وثارت واستجارت . . وانفتحت أبوابها ومدنها ووديانها وجبالها للعالم الخارجى .

وإذا كانت اليمن قد نامت طويلا ، فقد جاء دورها اليوم لتفيق . . وتصحو طويلا . . وينزع الشعب من يديه سموم «القات» ، ومن رأسه خزعبلات الأجيال . . ويلقى بأسلحة الغدر ، ويحمل الفأس ويزرع البن والقمح ويبنى مدارسه ويعالج مرضاه وينقب عن كنوزه ، ويعرف من هو الصديق ومن هو العدو . . ويعمل فى امتنان إلى جوار الذين أثاروا يقظته ، وأضاءوا شمعته . . وصانوا ثورته . .!

القات .. أو السم الأخضر

تقدم الدكتور تيجانى ، أحد مستشارى الهيئة الصحية العالمية بتقرير للأمم المتحدة فى مارس سنة ١٩٦٢ عن «القات» .

والتقرير لاشك مفيد..

على الأقل لأنه أشار إلى عدد من المراجع والكتب التاريخية ، التى يمكن أن يرجع إليها من يريد أن يعرف الكثير عن تاريخ «القات» والعادات الاجتماعية والنفسية والدينية التى رافقت انتشاره فى الحبشة وفى اليمن .

وسأعرض - فيما يلى - إلى هذا التقرير وأترجم عنه بعض الفقرات ذات الدلالة الخاصة ، وسأحاول أن أتابع سير شجيرات «القات» من الحبشة إلى اليمن ثم إلى البقاء فى اليمن .

والأشجار تزداد اخضرارا والشعب يزداد اصفرارا .

هذه مشكلة تعرضت لها الأمم المتحدة ، واتخذت فيها رأيا ، لا قرارا .

* * *

تاريخ «القات» والبن مترابط منذ البداية . .

فكلا النباتين قد زرع فى الحبشة ، فى درجات حرارة واحدة ، وفى مناطق جبلية واحدة . وكثيرا ما زرعوا أشجار البن لحماية أشجار «القات» .

وإن كانوا اليوم ينزعون أشجار البن ، ويزرعون أشجار «القات» لأنها سريعة النمو ، ولأنها أغلى ثمنا . فى حين أن شجرة البن لا تثمر إلا بعد سنوات .

وطريقة تناول «القات» كانت تشبه طريقة تناول البن . .

فقد كان الناس يغلون أوراق «القات» ثم يشربونها بعد ذلك . . ثم عدلوا عن عملية الغليان ، وراحوا يستحلبون أوراق «القات» . .

والشىء نفسه حدث للبن . . فقد كان الناس يستحلبون قشور البن ، وبعد ذلك عدلوا عن أكل القشور إلى غلى حبات البن .

وغلى «القات» كالبن ، هو الذى أطلق عليه المؤرخون العرب والأوربيون «قهوة القات» . . وأحيانا كانوا يسمون «القات» : شاى العرب . .

وكل من كلمة «قهوة» و «قات» مأخوذة من كلمة واحدة حبشية هى : «قهفا» .

وقهفا اسم مدينة صغيرة فى الحبشة اشتهرت بنمو أشجار البن «والقات» معا .

وكلمة «قات» أو قاط ، أو كاط ، يطلقونها أيضا على الأوراق الصغيرة وهى جافة . . ويطلقونها أيضا على «القات» وقد تم غليانه فى الماء . . فالقات هو الورق ، وهو الشراب أيضا! .

ويقول المؤرخ «دريو» إن غلى أوراق «القات» : كان هو الطريقة المتبعة فى المناطق الداخلية من الحبشة ، وقد أطلق هذا المؤرخ التونسى على «القات» المغلى اسم : القهوة القاتية ، وهو يقصد بذلك قهوة القات ، أو القات المغلى .

وهو يرى أنه كان لابد من غلى «القات» ، بدلا من امتصاصه أو مضغه واستحلابه ، فقد كانت القوافل تحمل «القات» مسافات طويلة وفى وهج الشمس ، ومن الطبيعى أن تجف هذه الأوراق الخضراء . ولم يكن هناك مفر من غليها ، ما دام الحصول عليها طازجة ، أمراً مستحيلا .

ويقال إن تجفيف «القات» أو غليه يؤدى إلى تقوية مفعوله .

وربما كانت أول إشارة تاريخية إلى «القات» هى التى جاءت فى كتاب «مسالك الأبصار» لمؤلفه ابن فضل الله العمرى (١٦٠١ - ١٣٤٨م) والذى نشر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٠ . فقد روى المؤلف ما كان بين الملك جبر الدين ملك «أفيات» وبين الملك الحبشى «أمد أصيون» الذى حكم الحبشة فيما بين ١٣١٢ ، ١٣٤٤ . فقد هدد الملك جبر الدين أن يحطم عاصمة الحبشة وأن يجعلها مزرعة «للقات» .

وإشارات أخرى لنبات «القات» فى كتاب «فتوح الحبشة» للمؤلف اليمنى شهاب الدين أحمد بن القادر ، المتوفى فى القرن السادس عشر .

كما أشار نجيب الدين السمرقندى ، المتوفى سنة ١٢٢٠م إلى «القات» فى كتاب له بعنوان «كتاب الأقرباذين» الذى نسخ فى ١٢٣٧ ميلادية (٦٣٥ هجرية) .

وهو فى هذا الكتاب يتحدث عن أثر «القات» فى النفس ، وكيف أنه يعتبر وصفة طبية ضد الكآبة والبلادة ، وأنه يملأ نفسه بهجة وانتعاشا .

وفى هامش هذه المخطوطة وجدنا يدا غريبة قد أضافت فى الهامش هذه الملحوظة : «القات» نبات حبشى يمنى ، ويشتهر باسم قفطا .

وفى كتاب «الإلمام» للمقريزى (١٣٦٤ - ١٤٤٢م) إشارة إلى وجود نوع من النبات فى مدينة «زيلع» بالصومال يأكل الناس أوراقه . وهذا النبات لا يؤتى ثمرة . ولكن عندما يبتلع الناس أوراقه تنتابهم نشوة وخفة وقدرة على التذكر . . وإن كانت تضعف شهيتهم للطعام ورغبتهم الجنسية وتصيبهم بالأرق .

ولاحظ المقريزى أن سكان هذه المناطق مولعون بتعاطى هذا النبات وأكثرهم إدمانا ، أكثرهم ثقافة! .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى زار «ابن بطوطة» كل هذه المناطق وأشار إلى أنه أثناء إقامته فى منطقة «ظفر» و «مقديشيو» لاحظ أن الناس يمضغون أوراق «التنبول» . . وأن الناس جميعا قد أدمنوه . وقال ابن بطوطة : إن من مظاهر الضيافة أن يقدم الناس أوراق «التنبول» بل إن فى قصور الملوك والأمراء يقدمون هذه الأوراق بكل حفاوة واحترام .

وعندما سافر ابن بطوطة إلى الهند ، عاود الكلام عن مضغ «التنبول» .

وواضح أن الرحالة العربى الكبير قد اختلط عليه الأمر بين «القات» وبين نبات «البان» الذى يمضغه الناس فى الهند . وأكبر دليل على ذلك أنه عندما تحدث عن هذا النبات - أى التنبول - قال إنه يحدث البهجة فى النفس وهو بالضبط ما لا يحدثه البان - أو اللبان - وإنما هذا يحدث فقط من جراء تناول أوراق «القات» . ثم إن «البان» لا ينمو فى الحبشة أو فى اليمن ، أو فى كل شرقى أفريقيا ! .

والمؤرخ ، البيرونى الخوارزمى (٩٧٣ - ١٠٤٨م) وهو الذى لا يجاريه أحد فى معرفة بلاد الهند ، تحدث عن «البان» فقال إنه يقوى اللثة ، ويمنع تسوس الأسنان ، ويساعد على الهضم ، ولا يحدث أية رغبة فى النشوة أو المرح .

وقد وقع كثير من المؤرخين فى هذه الغلطة ، عندما كانوا يخلطون بين «القات» الذى يمضغه الناس فى شرقى أفريقيا وبين «البان» الذى يمضغه الناس فى الهند وسيلان .

ومثل هذا الخط يحدث فى مخطوطة نادرة بمكتبة بلدية الإسكندرية ضمن كتاب «مسالك الأبصار» للعمرى . فتحت كلمة «تنبول» نجد أن المؤلف قد أشار إلى هذا النبات المتسلق ، وإلى أنه ينمو فى إمارة عمان ، وأن أوراقه تحدث فى النفس سرورا لا حد له . .

وفى هذه المخطوطة أيضا نبهنا المؤلف إلى أن الناس يتعاطون هذا النبات بعد كل وجبة ، حتى يعتدل مزاجهم ويستريح خاطرهم . .

وكما ذكرنا من قبل أن قصة البن هى نفسها قصة «القات» . . وكل واحدة تلقى ضوءا على الأخرى من حيث التاريخ والاستعمال ، والأثر والعادة النفسية والاجتماعية . .

ولهذا فمن المناسب هنا أن أشير إلى كتاب عبد القادر الجزيرى (١٥٥٥م) «عمدة الصفوة» هو من أحسن الوثائق التى بين أيدينا عن انتشار عادة شرب القهوة : فهو يرجع فضل انتشارها إلى رجل متصوف اسمه : شهاب الدين التربهانى المتوفى ١٤٧٠ ميلادية ، فقد كان من كبار الصوفيين ، ومن أصحاب الكرامات أيضا ، وكان سلطانه على الناس لا حد له ، فقد أدى تعاطيه للقهوة إلى انتشارها بين الناس ، وإلى أن تكون لها مكانة خاصة فى نفوسهم . . مكانة دينية !

ورجل آخر أطلق عليه المؤرخون والناس أيضا أنه شيخ مشايخ القهوة . أو حامى حمى القهوة ، واسمه على بن عمر الشاذلى (١٤٤٢م) وهو من أشهر المتصوفين فى اليمن وقد توفى فى «هرر» بالحبشة .

والشاذلى لم يكن فقط مسئولا عن انتشار القهوة ، وإنما كان مسئولا عن جعلها أكثر شعبية من «القات» .

وأصبح اسم الشاذلى – فى السودان خصوصا – دليلا على القهوة فهم يسمونها قهوة الشاذلى أبو الحسن .

وكما انتشرت القهوة بين المتصوفين ، لما تحدثه فى نفوسهم من صفاء وتنبيه ورغبة فى السهر ، كذلك «القات» . . فهو يحدث هذا السرور . وهذا الصفاء ، والرغبة فى التزام الهدوء ، وكلها حالات يتمناها المتصوفون .

وفى البرازيل قام العلماء ببعض التجارب على النباتات التى يتعاطاها البدائيون فى المناسبات الدينية ، فوجدوا أنها تحدث لهم نوعا من الهلوسة تتفق تماما مع حالاتهم النفسية .

والكاتب الكبير «الدوس هكسلى» فى كتابه «منافذ الحس» أشار إلى نبات المسكالين تعاطاه . ثم وصف حاله بعد ذلك فقال «كنت فى أقصى درجات التأمل» . . وهذه الحالة التى وصفها الكاتب المعاصر . هى ما أحس به الناس قديما وعبروا عنها بأشكال مختلفة .

ولم يكتف مدمنو «القات» بوصف حالهم ، وإنما أخذوا ينسجون القصص الخرافية حول «القات» وكيف أن السماء هى التى رمت بذور هذا النبات ، كمصابيح للهداية بين المؤمنين .

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن اجتماع الناس فى أماكن «القات» والقهوة قد أزعج السلطات الحاكمة فى بعض الأحيان ، فقد رأت السلطات الحاكمة تماسك الناس وإصرارهم على البقاء ساعات طويلة فى مكان واحد مما يؤدى إلى رابطة بين الناس . . رابطة مقفلة لا تعرفها الدولة ولا تستريح إليها . . فقد أشار الكاتب التركى «كاتب شلبى» المتوفى سنة ١٦٥٧ فى كتابه «ميزان الحق» إلى الأثر الخلقى والاجتماعى والسياسى للمقاهى .

وفى كتاب «الكواكب السائرة» الذى صدر سنة ١٦٥٠ م ، وهو عبارة عن معجم بأسماء الأعلام فى ذلك الوقت ، يصف المؤلف كيف كانت الدولة تلقى القبض على مرتادى المقاهى وعلى أصحابها ، وكانت تشهر بهم وتصادر أملاكهم وتحكم عليهم بالإعدام .

والمؤرخ الإنجليزى «لين» ذكر أن الحكومة التركية كانت تلقى القبض على كل الذين يدخنون فى هذه المقاهى . . بل إنها كانت تحكم عليهم بأن يأكلوا أحجار النرجيلة والتبغ المحترق أيضاً !

وأشار الدكتور «كلوت» وهو يقارن بين الأتراك والمصريين ، أو بين الأفيون والحشيش . . فهو يقول إن الأفيون يتفق مع طبيعة الرجل التركى ومع شخصيته . . أما الحشيش . . أما الحشيش فهو يتفق مع العقلية الذكية اللماحة والخيال المنطلق والميل إلى «الرومانسية» عند المصريين ، وخصوصا نزعة التواكل التى ترسبت فى نفوسهم بعد صراعاتهم التاريخية المريرة .

وكل الذين لديهم الاستعداد لتعاطى الحشيش أو الأفيون عندهم فى الوقت نفسه الميل إلى استبدال الاثنين بالقهوة أو الدخان أو الشاى .

وهناك إشارة هامة فى كتاب أصدره أحد علماء الأزهر اسمه الشيخ محمد القناوى سنة ١٨٩٩م . فقد تحدث بالتفصيل عن مضار القهوة والدخان والأفيون وأفاض فى انتشار شرب القهوة فى مصر . . وعلاقتها بكثير من المسائل الدينية .

وأهم من ذلك أسماء الكتب التى يرجع إليها فى هذه الدراسة .

وفى كتاب لمؤلف سورى اسمه نزيه العظم عن «رحلة إلى اليمن السعيد» سنة ١٩٣٦م إشارات متصلة عن مجالس «القات» . وكيف أنه حضرها . وكيف أنه وجد «المتقاتين» إذا صح هذا التعبير ، قد أقفلوا الأبواب والنوافذ على أنفسهم حتى لا يصلهم ضوء أو ضوضاء ، وكيف أنهم سحبوه من يديه وقدموا له أوراق «القات» . وراح يمضغ الأوراق ، ولاحظ أنهم بعد أن يمضغوا «القات» يبصقونه على الأرض . وسواء بلعوه أو مضغوه فالنتيجة هى السرور . . ويذكر المؤلف أنه هو نفسه يستشعر هذا السرور المزعوم .

وذكر أنه فى ظل الحكم العثمانى ، كان قطاع الطرق واللصوص ، لا يقربون القوافل التى تحمل «القات» . . وهذه فضيلة ، لا يجب أن يغفلها اللصوص فى ذلك الوقت !

أما الأب «أنستاس مارى الكرملى» أحد رهبان وعلماء العراق فقد أصدر كتابا بعنوان «بلوغ المرام» سنة ١٩٣٩م ، وفى هذا الكتاب أحصى عدداً كبيرا من أنواع «القات» .

وفى كتاب لمؤلف مجهول صدر سنة ٩٨١ هجرية بعنوان (لاميات ابن الوردى) تحدث المؤلف عن مضار «القات» والخمر والحشيش . وقال إنها من أسوأ ما أصيب به الإنسان ، أو أصاب به الإنسان نفسه ، وراح يعدد أضرار «القات» فبلغت ١٢٠ ضرراً مؤكداً .

وابن حاجر الهيثمى (المتوفى سنة ١٥٦٧ ميلادية) أحد علماء الكلام قد تعرض «القات» وآثاره ، وليس الجديد هو ما وصل إليه من نتائج ، ولكن الجديد هو المنهج الذى لجأ إليه فى البحث ، فقد اعتمد على استقصاء الكثير من القصص ومقارنتها ومناقشتها ، وكتابه اسمه «تحذير الثقات من أكل القفطا والقات» .

يقول المؤلف إنه بحث فى كل المجالات ، فلم يجد كتابا واحدا عن القات ، ولا إشارة عنه فى أى كتاب . . وهو يستنتج من ذلك أن القات لم ينتشر إلا حديثا . . أى فى أيامه هو .

ويقول أيضا إنه استشار بعض الأطباء عن أثر القات فى النفس ، فأخبروه أن للقات نتيجة مؤكدة هى أنه يمتص لون الوجه ويصيب صاحبه بالكآبة وانسداد النفس عن الطعام . . ثم بمرض يمكن أن يسمى بالسيلان البولى!

ومما اكتشفه المؤلف أن القات إذا تناوله الإنسان ومعدته خالية فإنه يصيبه باضطراب شديد . ولذلك يحرص مدمنو القات على أن يأكلوا قبل أن يستحلبوا القات .

ولعل أول دراسة علمية للقات وأثره الفسيولوجى هى التى قام بها اثنان من علماء النبات السويديين وهما : فورسكيل ، وكارسينين ينبو ، فى كتاب لهما صدر بالألمانية سنة ١٧٧٤م بعنوان «وصف الجزيرة العربية» وقد أطلق المؤلفان على القات اسم «القاد» وهما يؤكدان أنه نبات ظهر أول الأمر فى الحبشة ، ثم انتقل بعدها الى اليمن ، وفى الكتاب وصف لطبيعة النبات وشكل أوراقه وسيقانه .

والمؤرخ الإنجليزى السير «ريتشارد برتون» فى كتابه «الخطوات الأولى فى شرق أفريقيا» يؤكد لنا أن أثر القات المغلى أقل قوة من أثر القات المستحلب . . وأن القات المغلى أقل قوة وقدرة على الإنعاش من القات الأخضر .

وربما كان من الطريف أن أذكر هنا أن تلامذة الأزهر فى مصر هم الذين تولوا نقل الدخان والقهوة إلى الشرق الأوسط .

فالدخان نقله إلى أروقة الأزهر التلامذة المغاربة .

والبن نقله إلى أروقة الأزهر الطلبة اليمنيون .

ويقول تقرير آخر للأمم المتحدة (بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٦٢م) :

بينما يتقدم الشرق الأوسط فى خطوات واسعة ليسير فى ركب المدنية الحديثة يحتفظ دائماً بطابعه الخاص ، كأرض خصبة للعادات والتقاليد ، وإن تغير طابع كثير من تلك العادات والتقاليد ، فحلت أجهزة الترانزستور الدقيقة محل «الراوى» وإن احتفظت بنفس الاهتمام والإنصات الذى حظى به الراوى منذ القرن الرابع عشر ، وما زال «الساقى» ينحنى فى أدب جم ، ويقدم أكواب الشراب للزائرين ، وقد استقرت فيها «الكوكاكولا» محل الشربات .

شىء واحد لم يتغير ، وعادة واحدة احتفظ بها وبطابعها وأثرها على العاكفين عليها . . ألا وهى تعاطى «القات» تلك الشجرة التى تمضغ أوراقها وفروعها وتقدم كمشروب لملايين من الناس فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وشرق أفريقيا . . والذى لم يغير من الأثر المخدر الخفيف الذى يتركه القات ، كما لم ينل من أهميته كمحصول زراعى ولم يغير طريقة تناوله ، وإنما الذى تغير هو أهميته .

فالقات اليوم يغطى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ، تنتج عن نقله وبيعه ، عمليات تجارية ضخمة ، وهو الذى يستنفد إنتاجه الأرض والمال والوقت . فقد أثرت زراعة «القات» على إنتاج البن فى اليمن وكان من أهم المحاصيل

الزراعية ، أما اليوم فقد انخفض إنتاج البن من ١٢ ألف طن إلى أربعة أطنان خلال السنوات الخمس عشرة الماضية .

وخبراء الصحة الاجتماعيون ينظرون بعين الشك إلى تلك الآثار المبهمة التى تنشأ عن تعاطى «القات» . والراحة النفسية المؤقتة لا تكفى خاصة وإن كان مصدرها مصطنعا .

هل يجب تحريم «القات» مثلما يحرم الحشيش والأفيون؟ أو بمعنى آخر هل لهذا النبات من الآثار الضارة ما يبرر تدخلا دوليا لمنع زراعته وتداوله واستعماله؟

سؤال وضع بالفعل وناقشته اللجنة الإقليمية للهيئة الصحية العالمية لشرق البحر الأبيض المتوسط .

لقد طردت أشجار البن فى الحبشة نبات «القات» إلى اليمن .

وأشجار «القات» فى اليمن لا تزال تطارد شجرة البن .

وبين الطارد والمطرود وقع الشعب ضحية .

فهل سيجىء ذلك اليوم الذى تطرد فيه أشجار البن فى اليمن ، شجيرات القات؟

طبعا سيجىء!

فقد كان فى اليمن نوعان من القات : الإمام . وشجرة القات . .

واقتلع الشعب شجرة الإمام . . ولم يعد صعبا على الذين فهموا وثاروا أن يدوسوا هذا النبات الذى تعافه الماعز التى اكتشفته !

أيام فى الجزائر البيضاء

شخص مرغوب فيه جداً!

سألونى فى التليفزون: ماهو شعورك بعد زيارة الجزائر؟

وكان جوابى : عندى حب جاهز لهذه البلاد الشقيقة . . وعندى إعجاب عميق بكفاحها . . وبعد أن رأيتها وجلست إلى أبنائها . . وتحدثت إلى زعيمها أحسست أن الذى أعرفه أقل بكثير من الواقع . . وأن معركة التحرير من الاستعمار قد فتحت الباب أمامهم على معارك أخرى أعنف من أجل أن تسترد الجزائر وجهها العربى وروحها الإسلامية . . ولكنه شعب عظيم فى كل الأحوال .

أول جزائرى قابلته كان فى مدينة جاكارتا سنة ١٩٥٩م . . وكان يشرف على مكتب جبهة التحرير الوطنية . وهو شاب نحيف جدّا . وفى غاية المرح ، ولم أستطع فى ذلك الوقت أن أربط بين كل هذه الصفات : المرح والنحافة والتحرير وأندونسيا والجزائر ، ثم إننا كنا نلهو فى ذلك الوقت بلعبة تحضير الأرواح عن طريق السلة .

ولم يدر بيننا كلام جاد فى أية قضية من قضايا العرب ، أو حتى قضايا العالم .

أما هذا الجزائرى الشاب فهو الأخضر الإبراهيمى السفير السابق للجزائر فى مصر وسفيرها الحالى فى لندن . . وهو صديق عزيز .

وبعد ذلك بسنوات رأيته أول سفير لبلاده فى القاهرة . ورأيت بعد ذلك كثيرين من أبناء الجزائر الشقيقة . ولم تكن معلوماتى كثيرة عن الجزائر . بل كنت أقرأ فى الصحف أخباراً عن الجزائر أهز لها رأسى . ولا يتسع الوقت لكى أناقشها مع نفسى أو مع غيرى . فالدنيا همومها كثيرة . والذى أقوله الآن على أنه بديهيات ، وأنه من الطبيعى أن ينشغل الإنسان بهمومه الخاصة عن كل هموم الدنيا . . لا يراه الجزائريون بهذه السهولة . ولا بهذا الوضوح . فمثلاً هم فى الجزائر يعيبون علينا أننا انشغلنا بأنفسنا عن قضايا الجزائر . أو انشغلنا بقضايا بعض البلاد العربية الأخرى عن الجزائر نفسها . والدليل على ذلك ما تنشره الصحف المصرية ، فهى تنشر عن إمارات الخليج عشرات الصفحات ولا تنشر عن الجزائر عشرات السطور . . قال لى «سى» ـ أى السيد

ـ عبدالجبار عبدالقوى مسئول الحزب فى منطقة حاسى مسعود أن الرئيس بومدين عندما زار مصر للتعزية فى وفاة الرئيس جمال عبدالناصر نشرت عنه مجلة «آخر ساعة» ثلاثة سطور بينما نشرت عن رئيس وزراء فرنسا عشرة سطور!!

وقد سألت العاملين فى هذه المجلة إن كان أحد يذكر ذلك . فلم يذكر أحد ذلك إطلاقا ، ولا لاحظ أحد أن المساحة التى خصصت للرئيس بومدين أقل أو أكثر من التى خصصت للرئيس الفرنسى ، وسألنى سى عبدالجبار : كيف ننشر كل هذه المساحات الهائلة للأمير الثرى أنه أكل وزة أو بطة أو صاد غزالا . . ولا ننشر أن الجزائر قد أممت البترول .

وهذا كلام معقول . . لكن سى عبدالجبار لا يعرف أن هناك صفحات إعلانية فى الصحف . . ولكنه يتصور أن كل ما تنشره الصحف مقالات وتحقيقات وليس من بينها إعلان واحد!

وسألنى الشاب الذى رافقنا من الجزائر واسمه سى أحمد بن حلى وقد عاش فى مصر وقتا طويلاً ويعرف الكثيرين هنا : كيف تنشرون مقالاً لمدرس مصرى يسخر من الجزائر ومن شعب الجزائر ، وكنت قد نسيت ذلك ، ولكن يبدو أن الذى كتبه قد أغضب الجزائريين حكومة وشعبا . . وأن بعض المسئولين قد رد عليه وهاجمه .

مع أن الذى كتبه المدرس المصرى لم يكن إلا نوعاً من الدعابة أو السخرية فقط . ولكن هذه السخرية لم يأخذها أحد بهذه الخفة أو هذا المرح ، وإنما نشروها على أنها نقد لاذع من مدرس عاش أكثر من خمس سنوات هو وزوجته فى مدينة وهران ، وتذكرت أن الصديق الأخضر الإبراهيمى سفير الجزائر فى مصر قد غضب من هذا المقال وعاتبنى على ذلك ، ولم أتصور لحظة واحدة أنه غضب ، ولا أنه جاد فيما يقول . والآن فقط عرفت أنه كان جاداً . وأنه ـ ككل الجزائريين ـ شديد الحساسية للنقد!

وأشياء أخرى صغيرة أغضبت الجزائريين . وصدمتهم . فلا أحد يتصور أن يصدر النقد من مصر ، ففى الجزائر نفسها أناس كثيرون ضد العروبة وضد الاتصال بمصر ، وضد الارتباط بالمشرق العربى واللغة العربية والإسلام . ومثل هذا النقد يشجعهم ويشعل النار فى العلاقات الجزائرية العربية الإسلامية . . ففى الجزائر ألوف لا يزالون يترحمون على أيام الاستعمار الفرنسى . . على أيام الارتباط بأوروبا ،

ويندبون حظهم لأنهم أصبحوا أجانب فى الجزائر . . لا يتكلمون إلا الفرنسية ، والدولة كلها تتجه إلى التعريب! . .

ويذكر الجزائريون - همسا - أن بعض المصريين الذين كانوا فى إحدى الرحلات نزلوا من الباخرة فى الجزائر واشتروا أشياء كثيرة بالعملات المصرية . وبعد أيام اكتشف الجزائريون أن العملة المصرية ليست عملة صعبة . . وأحسوا أن هؤلاء المصريين قد ضحكوا عليهم . وكانت صدمة . . وأعلنت السفارة المصرية فى ذلك الوقت استعدادها لسحب العملة المصرية ودفع عملات جزائرية بدلا منها!

هذا التصرف قد صدم الناس فى أعز ما لديهم : فهم ينظرون إلى المشرق العربى على أنه الأقرب إلى الأمانى السامية : اللغة العربية والإسلام . . وإلى مصر على أنها الوطن الأم ، والثورة الأم ، وأن أبناءها عندما يفعلون ذلك فهم يصدمون الناس فى أعز ما لديهم .

وقال لى أحد المسئولين فى وزارة التربية والتعليم أن مدرسًا وقف فى مطار الجزائر يقول : فى سبيل الله هذه السنوات التى أمضيتها فى هذه البلاد!

وقال إن هذه العبارة جاءت على مسمع من عشرات الناس . . وأنه شخصيا قد غضب من هذه العبارة . وقال فى نفسه : لو لم تكن مصريا لقتلتك!

مع أن هذه العبارة لا تدل على أى تجريح لأحد فى الجزائر . ولكن معناها أنه تعب وأن تعبه هذا فى سبيل الله - ولكنها الحساسية الشديدة لأشياء كثيرة وأناس كثيرين - خصوصا إذا كانوا من مصر!

حتى الرئيس بومدين قد ذكر لنا أنه تضايق من عبارات جاءت فى مقالات بعض الكتاب المصريين .

وقال لنا وزير إن عبارات جاءت فى مقال للأستاذ الكبير فكرى أباظة ، قد أطارت النوم من عينه!

وللمصريين هنا قضايا كثيرة - ولكنى أرى أنها ليست مهمة ولا من الضرورى نشرها . وإنما أفضل أن تكون شكواهم من مصر ومن الإدارات المصرية . فهذا أهون وأبسط . وقد اعتدنا على ذلك .

إذن . . .

نحن دعينا إلى زيارة الجزائر لسماع هذا كله ، والبحث عن حل . . لتصفية الجو

بين الدولتين الشقيقتين . وليس بين الدولتين إلا مثل هذه الأشياء الصغيرة التى كبرت حتى أصبحت سدوداً عالية حجبت الرؤية . . فإذا احتجبت الرؤية أصبحت الحقائق أشباحاً . والأشباح حقائق . .

إننا جئنا لنمهد لزيارة الرئيس أنور السادات . . وقد قلت أنا للرئيس بومدين أقدم زملائى الصحفيين : جئنا نفهم ونتفاهم ونصحح ونصحح ـ بفتح الحاء وكسرها .

وإن كان الرئيس بومدين عندما أشار إلى هذه «الخلافات» قال : لا توجد خلافات . .

وإنما نحن متفقون على السياسة العامة . . أو على المبادئ . . ومختلفون فى وسائل تحقيقها . وليس هذا معناه أننا مختلفون . . أو أعداء ويستحيل أن نكون أعداء .

وهذا المعنى كان على لسان كل المسئولين الذين قابلناهم . . وعلى كل المستويات . . ويبدو أن هذا هو الشعور العام . وقد استطاع الرئيس بومدين أن يؤكد لنا هذا المعنى بخفة ومرح وصدق . . ولم يخف عنا شيئاً . . وهذه الصراحة جعلت الدور الذى نقوم به صعباً . لأننا يجب أن نصارح شعبنا بذلك .

فى أقصى جنوب الجزائر سألنى وكيل نيابة جزائرى قد تعلم فى العراق : إن المواطن الجزائرى لا يستطيع أن يفهم أن الحقوق ينالها الإنسان بالسياسة . . أو باللين . . أو بالمداورة . . إن أمامه عدوا . هذا العدو إما أن يقتله أو يقتله . . لا توجد حلول أخرى . . إما أنه قاتل أو قتيل!

وهو يريد أن يقول إن المصريين يجب أن يحاربوا اليهود مباشرة . لا سياسة ، ولا انتظار . . وإذا كانت الجزائر قد مات منها مليون وشوهت الحرب نصف مليون آخر وأدخلت المستشفيات أكثر من مائة ألف ، وعدد الجزائر عشرة ملايين . .

فكيف لا يموت من مصر أربعة ملايين أو خمسة ملايين . . إنها الحرب أو الحياة . . أو لا حياة! .

وهو كلام معقول ، لولا أن هناك وجهات نظر ، واجتهادات سياسية وعسكرية تجعل من الضرورى أن نستعد لكى نحارب وأن نضحى!

ولكن المواطن الجزائرى العادى لا يفهم شيئاً مما قلت ؛ لأن الجزائريين قد حاربوا ثمانى سنوات فى الجبال والكهوف والغابات والبيوت حتى تحقق لهم النصر ، وليست عندنا جبالهم ولا غاباتهم ولا كهوفهم!

إنها وجهات نظر مختلفة لأناس وطنيين حريصين على الحرية والكرامة ويعملون من أجل الغد!

***

ولا أذكر أننى اشتركت فى زيارة رسمية وأحسست أننى شخص مرغوب فيه ، كما شعرت فى الجزائر ، فكل إنسان حريص على أن يؤكد هذا المعنى . . وعلى أن يؤكد أن هذه «هى» الفرصة لكى تعود العلاقات بين الأشقاء أحسن مما كانت . فما أحوجنا إلى صديق فى مواجهة عدو الجميع .

وكانت الطائرة التى نقلتنا إلى الجزائر مارة بطرابلس وتونس الخضراء . هذه الطائرة كارافيل جزائرية . ليست بها مضيفات وإنما مضيفون . . ولم يكن من السهل أن نتساءل لماذا؟ وقيل إن الخطوط الجزائرية الدولية ـ أى بين أوروبا وأفريقيا ـ بها مضيفات . ولكن هذه المسألة لا تهم الآن . . والذى يهم أنهم فى الطائرات يتحدثون اللغة العربية . . وواضح جداً أن هناك مجهوداً كبيراً فى أن تكون اللغة العربية مفهومة وسليمة . أما اللغة الفرنسية فهى فى أحسن حالاتها : نطقا وأداء . .

وفى مطار الجزائر ظهرت العبارات العربية . . وفى قاعة كبار الضيوف استقبلنا رسميّاً . . وجاءت السيارات طراز بيجو (٤ . ٥) . أحسن السيارات الفرنسية . ومعظم السيارات هنا فرنسية . وهذا طبيعى . ولم أستطع أن أعرف بالضبط ما هى ملامح المواطن الجزائرى ، إن هناك رجالاً فى غاية الرشاقة أو النحافة . ورجالا قصار القامة . . والوجوه بين سمراء وصفراء وبيضاء . . والعيون ضيقة شديدة البياض والسواد . . والعيون خضراء «والرئيس بومدين له عينان هادئتان شديدتا البياض والسواد . وفيهما قسوة إلا إذا ضحك فهو فى غاية الرقة والصفاء . والسيد عبدالعزيز بوتفليقة أخضر العينين وله ملامح شاب صغير ، إلا إذا ضحك فهو طفل برىء!» .

فقط عندما يتحدث الجزائرى تعرف الفرق بينه وبين بقية العرب . فهو حاد . . والألفاظ تخرج من فمه بشدة وحدة . ويخيل إليك أنه غاضب منك أو غاضب عليك ، ومع أنه ليس كذلك . . ولكن لهجته فى الكلام هى التى تعطى هذا الانطباع المضلل . . وليس عليك إلا أن تعتاد هذه الحدة الرقيقة!

وإذا أغمضت عينيك وأنت فى السيارة ثم فتحتهما فجأة وسألت نفسك : أين نحن الآن؟

لكان جوابك : فى أى بلد أوروبى . . فى جنوب فرنسا أو شمال إيطاليا . . فالشوارع واسعة نظيفة ، والمرور منظم ، لا صوت ، ولا ضوضاء . وإنما الكل ينطلق فى هدوء ، وإشارات المرور على الأرض وعلى جوانب الشارع . ورجال المرور مثل مراوح الهواء يدورون ويحركون ويتحركون . . إن الجو أوروبى . . والشوارع طالعة نازلة . .اللافتات فى كل مكان باللغة العربية والفرنسية . . إن اللغة العربية قد استعادت بوضوح مكانها فوق اللغة الفرنسية . . وفوق الرءوس . فمن أجل العروبة والإسلام قامت ثورة التحرير . . واستردت الجزائر وجهها العربى وروحها العربية . .

***

وبعد ساعات من وجودنا فى الجزائر كان علينا أن نعرف ما هى ومن هى الجزائر؟

إذا كان المقصود بما هى فهى مسافة من الأرض واسعة تصل إلى مليونين ونصف مليون كيلو متر مربع . . وبها أكثر من عشرين مليون فدان صالحة للزراعة ومزروعة . . وبها بترول تكسب منه ملايين الجنيهات . . وبها غاز طبيعى تكسب منه الملايين وعدد سكان الجزائر حوالى العشرة ملايين . . وبها تناقضات تعرفها جيداً . . شمالها يعيش فى نعيم . . وجنوبها يعيش فى الجحيم ، فى الشمال أقام الفرنسيون ١٣٠ عاما . . وجعلوا الشمال مثل فرنسا . . البيوت فخمة . . والشوارع حرير . . والحدائق والميادين والنور والماء والهواء والمصانع والمعامل والمزارع . . كل ذلك فى الشمال . .

أما الجنوب فهو الوجه الشقى التعيس الفقير من الجزائر .

وفى الشمال كانت الحياة للفرنسيين أو للمتفرنسين . . أو للمتجنسين . . أو الذين لا يعرفون العربية ولا يرون أنها ضرورية لأن السيد فرنسى والطريق إلى السيارة فرنسى . . أما اللغة العربية ـ وهى لغة أجنبية بنص القانون ـ فهى لهؤلاء المتخلفين . . أو سكان البلاد الأصليين وأصحاب المصالح الحقيقية .

ولذلك فالثورة الجزائرية كان لابد أن تشعر بالامتنان لأهل الريف والبادية فهم الساخطون الثائرون .

ولذلك كان من الضرورى أن تلتفت الثورة إلى أهل الريف وتقول لهم شكراً .

وجاء الشكر بصورة عملية .

فقد تقرر أن تكون الأرض لأهل الريف . . كل الأراضى الزراعية للفلاحين . . أما أهل المدن فلهم وظائفهم فقط .

وعلى كل مواطن أن يختار بين أن يكون موظفاً وبين أن يكون فلاحاً . والذين اختاروا الوظيفة تبرعوا بالأرض للفلاحين .

وكل يوم تنشر الصحف الجزائرية قائمة شرف بأسماء الذين تبرعوا بأرضهم للفلاحين ، أما إدارة الأرض فهى للفلاحين أيضاً . . يديرونها بمساعدة الدولة ، وهذا ما يسمونه «التسيير الذاتى» .

***

وقد استمعت إلى الرئيس بومدين يتحدث فى التليفزيون إلى عدد من المرشدين الزراعيين . يطلب إليهم أن يذهبوا إلى البادية والريف يعلمون الناس ويجلسون إليهم ، وطلب إليهم أن يأكلوا خبزهم الأسود وأن يمدوا أيديهم إلى «الطعام» ـ والطعام معناه الكسكسى ـ فبغير هذا التعليم والترشيد لن تتقدم الجزائر . بعد أمراض الاستعمار مئات السنين .

وجاء وقت كان كبار موظفى الدولة من الحاصلين على الإعدادية . بل إنهم يروون حكاية أحد مديرى المرور . وكان لا يعرف القراءة والكتابة فإذا عاقب أحداً طلب إليه أن يكتب هو المخالفة لنفسه . . ثم يوقع هو عليها!

وقد لاحظت أن بعض الوزراء الحاليين قد اعتذر عن مقابلتنا ، لأسباب مختلفة . وقيل لنا فيما بعد : إن الوزير مكسوف ، فهو لم يتعلم اللغة العربية!

وبعد ذلك عليك أن تنظر إلى الجزائر . . إلى الذين قاتلوا حتى التحرير . والذين يقاتلون اليوم حتى لا يكون التحرير عقوبة لهم .

إن الجزائر عندما تحررت وقفت أمام شعورين عنيفين :

الزهو بالنصر . . والخجل من أنها ليست عربية .

لذلك تريد أن تستدرك ما فاتها من تعلم اللغة العربية والارتباط بالقضايا العربية ، وإحياء الدين الإسلامى بين الناس . . وفتح الطريق الصاعد إلى كل من يتمسك بعروبته .

وهى فى «التعريب» قد شقت طريقا صعبا . . وأتت بمدرسين من كل البلاد العربية يترجمون كل العلوم النظرية والعملية . . ثم درست التاريخ الجزائرى

والتاريخ العربى والإسلامى للشعب . . وكان التاريخ مادة تدين الشعب الجزائرى . . وتصور العرب فى شكل الوحوش الهمج المتخلفين .

ويكفى أن تذهب إلى إحدى المدارس لترى ماذا يقال للتلاميذ الصغار . . ومن الذى يقول ، لتعرف أن عبئا هائلاً يقع على الشعب . . وأنه قادر على تحمله . .

ولذلك فكل رجل مسئول يدعونا إلى أن نذهب خارج مدينة الجزائر . . إلى الشمال أو الشرق أو الغرب أو الجنوب لنرى ما الذى أضافته الثورة وما الذى تعمله .

وفى الجزائر العاصمة نزلت فى «فيلا» يسمونها بالعربية الدار . . هذه الفيلا كان يملكها أحد المعمرين ـ أى الاستعماريين ـ وهى الآن مخصصة للضيوف . . وفى كل مكان توجد دور أو فلل مخصصة للضيوف ـ وهناك فيلا اسمها «جنان المفتى» كان ينزل بها المفتى . . وينزل بها كبار الزوار والوزراء . . وهى جنة بالفعل . . أو قطعة من الجنة . . ولو أراد أحد الذين رأوا الجنة فى نومه ، أن يصنع جنة صغيرة لنفسه ، لما فعل أحسن من هذه الجنة فيما عدا الحارس ، إنه شديد وقاس ولا يعرف الرحمة . حاولنا أن نمشى على أقدامنا مسافة مائة متر ، ولكنه رفض ، لماذا؟ لأنه لابد أن يستأذن إن كان من الممكن أن ندخل الجنة أو نقف على بابها . . وعلى الرغم من أن الوقوف على باب الجنة قد استغرق بضع دقائق ، فإننى قد اعتبرت ذلك فألا حسنا . . فسوف أقف على باب الجنة بضع دقائق إن شاء الله ـ وإن كنت أشك فى هذا كثيرا!

***

ولا يوجد مكان فى مدينة الجزائر ، وأعتقد فى المدن الأخرى أيضا ، ليست له قصة أو حكاية فقد قاوموا الفرنسيين فى كل مكان . . هنا كانت معركة . . وهنا استشهد فلان . . وهنا هرب فلان واختفى فلان . . فكل مكان حصن أو مخبأ . وفى كل مكان كمين . . إن تاريخ الجزائر مكتوب بالحديد والنار والدم على كل أرض . . ولذلك فأرض الجزائر طهرها الشهداء بأرواحهم وعرقهم ودمهم وصراخاتهم قبل الانتقال إلى العالم الآخر .

وحكايات كثيرة يتكلم بها الناس ، مثلاً المسجد الكبير فى قلب العاصمة اسمه مسجد «كتشاوة» كان مسجداً . . ثم أصبح كنيسة حتى سنة ١٩٦٢ وتحول بعد ذلك إلى مسجد . . وما تزال بالمسجد آثار الكنيسة وبقايا المسجد . . ولكنه الآن

قبلة السياح الذين يرون كيف كان التزمت الاستعمارى ، وكيف كانت الفلسفة الاستعمارية تريد مسح ومسخ الوجه الجزائرى بالذات . أما تونس فقد كانت أحسن حالاً منها . . فيها جامعة عربية ، ومراكش فيها جامعة عربية . . ولكن الجزائر هى التى لم يكن هناك أى أمل فى أن تستعيد وجهها الحقيقى! .

وإلى جوار المسجد يوجد بيت على باشا . . ولهذا البيت قصة . . أو فى هذا البيت قصة . .

إنها قصة أختين طاهرتين عفيفتين أحبتا شاباً واحداً . . ورفض أبوهما أن يزوجه لواحدة منهما . فأضربتا عن الطعام أسبوعين حتى الموت . .

أما الشاب نفسه فمات أيضاً .

ودفن الجميع معا . . ودفن الشاب بينهما ، لقد جمع بينهم الموت والطهر والعفاف وأروع شعور عرفه الإنسان : الحب!

ويقال إن هذه القصة شغلت القرن الخامس عشر فى الجزائر . .

أما الأختان فهما : زهرة ونفيسة . .

وفى حى القصبة ـ خان الخليلى ـ فى مدينة الجزائر يوجد البيت الذى دفن فيه الجميع!

وبالقرب من هذا البيت يوجد بيت آخر كان يختبئ فيه الثوار ، وفى هذا البيت أجرى تصوير فيلم «حرب الجزائر» . . وشوارع هذا الحى صاعدة هابطة ، إنها تعود بنا إلى ما قبل القرن الخامس عشر . . وقد امتلأت هذه الشوارع بالباعة على الجانبين . . وبالأطفال يصعدون ويهبطون وقد حملوا كتبهم . . وحملوا أرغفة الخبز الأبيض الطويلة .

وقد اعتادوا على رؤية السياح الأجانب . . واعتادوا أيضاً على أن يقفوا إذا أشار إليهم أحد . . ودون أن يشير فإنه من السهل أن تجد الأطفال قد وقفوا صفا واحداً وعليك أن تلتقط الصورة . وإذا شاءت الصدف أن تعثر على مرشد سياحى فإنه ينظر إليك من فوق إلى تحت . . فإذا وجدك تتكلم العربية أدرك أنك من بلد شقيق . . وأنك لست فى حاجة إلى أن يبهرك أو يلعن لك فى الاستعمار . فأنت قد لعنت ذلك فى بلدك قبل أن تجىء . . ومعنى هذا أن يتركك تكمل الفرجة وحدك .

***

وعليك أن ترد بسرعة على هـذه الأسئلة أو هذه الأجوبة ـ إذا فهمتها : ـ كيفاش . . أراكوا دايرين . . لاباس . . غاية . . حوستم مليح . . غاية . . بصحتك التحويسة .

ومعنى هذه المفردات : كيفاش . . كيف أى شىء . . كيف أراك . . أى كيف أراك . . لا باس؟ لا باس ـ من غير همزة ـ ومعناها أنك فى حالة جيدة على عكس ما نقول عندنا فى مصر : لا بأس ومعناها نص نص . . أو : يعنى! وكلمة حوس : أى سافر . . التحويسة : أى السفر . . وكلمة غاية . . فى غاية السعادة .

وتجىء هذه الأسئلة متلاحقة بعضها وراء بعض . . حتى لا يدع لك فرصة لكى تجيب . أو لعله أجاب بالنيابة عنك ولكنك لا تدرى .

وأسـهل شـىء يمكن أن تقوله سواء فهمت أو لم تفهم هو أن تقول : لا بأس . . أو تقول الحمد لله .

والحمد لله مريحة جداً ، لأن الله يستحق الحمد على الخير والشر!

ومن النادر أن يجلس إليك أى جزائرى ويحدثك عن كفاحه أو الذى فعله هو أو أبوه أو أخوه . . نادر جداً . . فليست هذه ميزة لأحد من الناس . . فقد اشترك الشعب كله فى القتال وفى التحرير!

وما من جزائرى يلقاك إلا يقول لك : نريد أن نرى هذه المشاعر فى الصحف المصرية وفى الإذاعة والتليفزيون فنحن عرب . .!

ويكون هز الرأس وعدًا بذلك!

***

تناولت العشاء فى مطعم اسمه «سيركل دى بارون» . . وكنت حريصا أثناء العشاء على أن أسأل : وهذا ما اسمه؟!

فيقال : إنه خضار باللحمة .

فأقول : آه هكذا . . كنت أظنه شيئاً آخر باللحمة .

ويقال لى : وأنت فى مصر ماذا تسمونه؟

فأقول : نسميه ملوخية بالبامية!

ويقال لى : ولكن الملوخية لونها أصفر . .

فأقول يبدو أن اللون الأصفر للملوخية كان لونها الرسمى أيام الفراعنة . . ولكن بدخول الرومان والإغريق والعرب والأتراك والفرنسيين أصبح لونها أخضر!

وليس من الصعب أن يعرف من يستمع إلينا نحن الاثنين ، أننا نضحك . ولما قيل لى إن تحت هذه المنضدة التى تأكل عليها قد ذبح مئات الجزائريين . . وتحت هذا السقف توجد غرف التعذيب ، سألت : إن كان هذا يشبه لون الملوخية!

ولم يضحك أحد لهذا السؤال إنما هددنى من يجلس إلى جوارى أن يهبط ويأتى لى ببعض الجماجم . . وصدقته فوراً!

ففى هذا المطعم كان يسكن السفاح الفرنسى الجنرال ماسو . . وكانت متعته أن يشاهد تعذيب الوطنيين من أبناء الجزائر ، أما أساليب التعذيب فرأوا أنه لا داعى لذكرها ونحن نأكل ، وجاء «الطعام» ـ أى الكسكسى ـ وهو فى نظرى وعلى لسانى وفى أنفى سيد الطعام . . فهم يصنعونه هنا بفنية ليس لها نظير . . فهو من الدقيق الذى ينضج على البخار . . وهو خفيف جداً . ويمكن لأى إنسان أن يلتهم منه ثلاثة أطباق دون أن يشكو ألماً فى البطن أو يفكر أحد من المدعوين أن يلتقط له صورة وهو يأكل باعتباره وحشا بشريا . . بل إن صورة صناعة الكسكسى تجدها فى أماكن بارزة من الجزائر . . ففى المطار صورة جميلة جداً لصانع الكسكسى . . وفى أجمل شوارع الجزائر توجد فى الفترينات صور لصانع الكسكسى أيضا . . وسألت جارى : إن كان هذا الطبق هو آخر الأطباق . . ففهمت أنه يقف بالضبط بين الشوربة وبين الخروف المشوى ـ ثم عاد فقال : طبعاً أنت تعرف الفيلسوف أرسطو . . فقلت : طبعاً فقد كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة . . فقال أعرف ، ولكن أريد أن أذكرك بعبارته : أن الفضيلة وسط بين رذيلتين . . فالكرم وسط بين البخل والإسراف . . والشجاعة وسط بين الجبن والتهور . . والكسكسى وسط بين النار السائلة ـ الشوربة ـ وبين اللحم الملتهب . .

وبعد طبقين آخرين من الخضروات أو اللحوم أو أشياء أخرى قالوا لنا : انهضوا . .

وكانت نهضة مباركة من كل الحاضرين واتجهنا إلى خراف واقفة على أرجلها . . الخراف قطع من النار ، ويجب أن تمزق لحمها بيديك وتصرخ . . والصراخ ضرورة لابد منه . لأن الخروف ملتهب ، ولأن اللحم لذيذ . . ولأن إخواننا الجزائريين يمدون

أيديهم فى النار ولا يصرخون . . ولأن واحداً قد ذكر لك ـ لا مؤاخذة ـ بأن كلاب الجنرال ماسو كانت تفعل كذلك فى الوطنيين الجزائريين .

وبعد ذلك ـ أى بعد سيرة ماسو هذه ـ يجىء التمر . . والتمر يقدمونه على أغصانه لذيذا . ويصدرونه أيضاً ملفوفاً فى أكياس النايلون . . ومن مزايا التمر أيضاً أن ما يتبقى معك من الفلوس فى استطاعتك أن تشترى به تمراً فى المطار . . ولابد أن يتبقى منك بعض المال . . ويجب أن تشترى به شيئاً ما ، لأن هذه الدنانير الجزائرية لا تعبر البحر الأبيض . . إنها تفقد وزنها وقيمتها بمجرد ركوبك الطائرة ـ أى طائرة ـ والدينار يساوى فرنكا فرنسيا وعشرة قروش مصرية . . هذا الكلام على الورق فقط . . ولكن إذا سافرت هذه العملات فهى شموع مضيئة فى شمس الفرنك الباهرة!

وأنتهز هذه الفرصة لأشكر الذين كانوا يقدمون لنا الطعام فى الفيلا الجميلة التى كنا نسكن فيها ، وكلهم من موظفى القصر الجمهورى ، وبعضهم قدم الطعام لرؤساء الدول ، وبعضهم يروى لنا كيف كان جمال عبدالناصر يأكل ويشرب وماذا يأكل ويشرب . . ولكن فى نفس الوقت أعتذر لزملائى من رجال الصحافة والإذاعة والتليفزيون عن أشياء صغيرة .

فأنا الذى كنت أطلب الكسكسى كل يوم . . وكانوا يندهشون ولكن أحداً لا يعترض . . كل يوم . . أما سبب ذلك فهو لأنى رئيس وفد الإعلام فقد كانوا يسألوننى : وتحب سيادتك تأكل ماذا؟

فأقول باعتبارى رئيساً للوفد وعلى معرفة تامة بكل رغبات الزملاء ، أرى أن نأكل اليوم مثل الأمس والغد مزيداً من الكسكسى .

ولابد أن الجزائريين يرون فى ذلك نوعاً من التكريم لهم ولا يعترضون ، أما الزملاء المصريون فقد كانوا يفضلون أن يأكلوا الكسكسى بالسكر ، وليس بالشوربة والخضروات واللحم!

وقد ضاق بعضهم بهذا الكسكسى ولكن أحداً لم يرفع صوته . . فنحن ضيوف!

وأعتذر عن شىء آخر . فنحن نجد الجبنة بكل أنواعها فى الصباح .فقد لاحظ الزملاء المصريون أن الجبنة كانت بكميات كبيرة فى اليوم الأول ، تناقصت وتلاشت نهائيّاً . ولم يكن ذلك لأى سبب سوى أنها مداعبة منى . وقد أمرت بأن تختفى الجبنة ، لأن معظم

الموجودين يشكون من الكبد . وأنهم يأكلون الجبنة لأنه ليس من اللائق أن يقدم لهم طعام ويرفضوه . . وقال لى أحد المشرفين على الطعام : نحن نأسف لذلك . لأننا لا نعرف وماذا يريدون . ولكننا نشكرك أعمق الشكر على أنك نبهتنا إلى ذلك!

وتعالت شكوى المصريين من عدم وجود جبنة أو بيض أحيانا . . واختفاء البيض لنفس السبب أيضاً ـ آسف أيها المصريون!

بقى شىء آ خر أنا أعتذر عنه أيضاً . فقد حدث فى اليوم الثانى لمجيئنا أن كانت مائدة الطعام تعد تماما فى السادسة والنصف صباحا على أن نتناول إفطارنا فى السابعة ، وهى ساعة مبكرة لكل خلق الله ، ولم تكن هذه رغبة أى أحد فى الجزائر . وإنما هى مشكلتى اليومية ، فأنا أصحو فى الخامسة والنصف صباحاً ، وأكون قدأخذت الحمام وحلقت لحيتى وعلى استعداد لأن أمارس رياضتى اليومية : القراءة والكتابة . . ولكن مع الأسف لم أجد ما أقرؤه وما أكتبه . . فطلبت أن يجىء السفرجى والطباخ والخدم فى الخامسة والنصف صباحاً .

وكان على بقية أعضاء الوفد أن يحترموا الذين جاءوا لخدمتهم فى هذه الساعات الصغيرة من النهار ، ولم تكن اليقظة فى هذه الساعة المبكرة رغبة أى أحد من الناس . وإنما هى رغبتى وعذابى أيضاً . . وأنا آسف لذلك!

وإذا أنت أعطيت أذنك للدكتور محيى الدين الهلالى المستشار الصحفى للرئيس بومدين فسوف تسمع مئات من القصص والنوادر . فالدكتور الهلالى يعرف الكثير جدّاً . وربما كانت سرعته فى الكلام سببها الضغط الشديد للمعلومات التى تخرج من فمه ولا تدخل فى أذنك بنفس السرعة . . وهو حريص على أن ينقل إلى أذنك ما فى رأسه . . بل إنه حريص على أن يفعل ذلك مع كل الحاضرين ولذلك فهو يتكلم فى كل الاتجاهات فى وقت واحد وفجأة قال لى : وسوف تسافر من الجزائر دون أن ترى شيئاً سوى العاصمة .

قلت : بل أريد أن أرى .

وبعد ذلك بيوم واحد أمر الرئيس بومدين ألا نعود إلى مصر قبل أن نتفرق فى الجزائر وأن نرى المزيد منها . . من جهود الشعب الجزائرى من أجل أن يكون أفضل .

واخترت الولايات الجنوبية . . القبائل . . الواحات . . لأن مدن شمال الجزائر

مثل مدن جنوب فرنسا . . والذى يسافر إليها كأنه قد عبر البحر الأبيض . . وفضلت أن أذهب إلى أطراف الصحراء . . إلى حيث يعيش الناس أصحاب المصالح الحقيقية فى الجزائر . . والذين تتوجه إليهم الثورة الآن بالامتنان على أنهم ضحوا وثاروا فأخرجوا الفرنسيين من هذه البلاد . .

والوقت ضيق والبلاد واسعة . . ولابد من الانتقال بالطائرات الصغيرة . .

وهبطت بنا الطائرة فى مطار «حاسى مسعود» . . أى بير مسعود ، وهى منطقة بها آبار بترول . . وإن كانت قد دخلت التاريخ والجغرافيا على أنها بئر ماء لرجل طيب اسمه مسعود . . والماء والبترول هما مشكلتا الجزائر . البترول موجود ، ولكن الماء ليس موجوداً . فهم كلما حفروا الأرض أخرجت لهم البترول . . وهم يريدون الماء ولذلك ينفقون الكثير جدّاً من أجل أن يحصلوا على الماء من الأرض . . فالذهب الذى يخرجونه من الأرض ينفقونه على الأرض لكى تجود عليهم بالماء . . القادرون يشربون المياه المعدنية . والزجاجة الواحدة بعشرة قروش!

وعلى المطار تعلقت لافتة لتحيتى والترحيب بى بالنيابة عن الحزب «جبهة التحرير الوطنية» ومددت يدى للمسئول عن الحزب ولآخر مسئول عن الأمن ولثالث موفد من قبل الوحدة البترولية الضخمة فى المنطقة .

ومن الملاحظ أن عدد الناس قليل . ولكن حرارة الجو وحرارة الناس واضحة . فهم سعداء بهذا اللقاء . . وسعداء بأن عرضوا علىَّ ما الذى كسبه الشعب من الاستقلال . . أما أنابيب البترول فأعرفها . . ولكن الذى لا أعرفه هو هذه البيوت التى كان يسكنها الفرنسيون ويقيم فيها الآن المواطنون والجزائريون من العمال والمهندسين . إن المناطق السكنية قطعة من الجنة ، الأشجار العالية الوارفة الظلال . . والمساكن ، كل واحد غرفة واحدة كأنها عربة فى قطار صغيرة . الغرفة مضاءة طبعاً ، وبها سرير وبها جهاز تكييف وحمام ومروحة ، ودواليب ، وفيها كل ما يريده ساكن بمفرده طبعاً . فهنا مجتمع الرجال فقط . ولكن كل ما يحتاجه الرجل موجود هنا فى قلب مخيم الصحراء : مطعم جميل وأطعمة لذيذة كافية . وحمام سباحة وملاعب للتنس وقاعة للسينما . . وكذلك مطاعم العمال نظيفة ومنظمة . وهناك محلات لبيع الخضروات والفاكهة والصحف .

***

وقد وجدت الصحف والمجلات المصرية . . إنها تجىء متأخرة طبعاً ، ولكنها تجىء وتنفد . . ولذلك فالناس يعرفون الكثير من الأخبار الفنية والأدبية عن مصر . وقد سئلت عن أم كلثوم ، وعن الشيخ رفعت وعن العقاد وطه حسين . . وعن بناء دار الأوبرا . . وعن المعمورة فى الإسكندرية ، وقلت إن فى شاطئ ميامى بالإسكندرية منطقة اسمها بير مسعود .

وسئلت : إن كانت بئر بترول؟

فقلت : يسمع منكم ربنا . . إنها بئر للماء!

قالوا : يا بختكم . .!

قلت : إنها بئر للماء المالح . . يا بختكم أنتم بمسعود وبير مسعود!

وكان لابد أن نتجه إلى مكان آخر فيه ناس وليس فيه بترول وحسرة شديدة على عدم وجود ماء .

والطريق إلى منطقة اسمها غرداية بالسيارة . . المسافة طولها ٢٧٠ كيلو متر . الطريق صحراوى قطعة من الحرير والسيارة بيجو (٥٠٤) . . والسائق نحيف . جاف . ولكنه اعتاد على هذه المسافات وعلى هذه السيارات والزيارات . ركب السيارة دون أن يضطر إلى أن ينفخ العجلات أو يكشف على الماء . ولا حتى عندما ركب السيارة قرأ الفاتحة على روحه أو ترك وصية لأحد ، كما نفعل نحن إذا قررنا السفر إلى الإسكندرية بالطريق الزراعى أو الصحراوى . . ولكنه ركب السيارة وقلت له وكأننى أنا الذى أقود سيارتى : يا الله . . . توكلنا على الله!

ولم يفهم ! فقلت من المناسب أن نتوكل على الله . . فقال : إننا نفعل ذلك فى كل وقت!

ويبدو أنه يفعل ذلك دون أن يقيم هذه الحفلة التى تدل على الخوف . . كما نفعل نحن عادة!

وعلى جانب الطريق إشارات تنبهنا إلى المنحنيات وإلى مناطق الرمال التى تصل أحياناً إلى خمسة كيلو مترات . . هذه الرمال تزحف على الطريق فإذا جاءت فوقها كل عجلات السيارة دارت وانحرفت ومع السرعة نموت جميعاً . ولذلك فالسائق حريص جدّاً على إطاعة هذه العلامات . . والاحتراس الشديد . ولسبب لا أعرفه

أعتقد أن نظره ضعيف . لأنه لا يقوى على النظر فى الشمس ـ وهذا طبيعى . . ومن الذى يستطيع . إن الطريق مرآة طويلة حادة . والرمال تتحول إلى ملايين من ذرات الزجاج اللامع . وعلى الرغم من أننا جميعاً نرتدى نظارات سوداء ، فإن الضوء يحول السواد إلى بياض ويحول أعيننا إلى ثقوب ضيقة جدّاً فى رءوسنا . . هذا الضيق يجعل أشعة الشمس تدخل كأنها إبرة حادة تصيبنا بالصداع .

قلت للسائق : تعرف هذا الطريق طبعاً . .

قال : مئات المرات . .

قلت : تستطيع أن تقود السيارة وأنت مغمض العين .

فضحك ، وقلت لابد أن هناك شروطا لمن يقود السيارة فى الضوء الباهر هذا . .

لم يفهم . وكنت أريد أن أعرف إن كان نظره قويا . وعدت أقول له : هل من الضرورى أن يكون نظر السائق ستة على ستة . وأجاب بسرعة : طبعاً .

وقلت : وأنت طبعاً .

قال : الحمد لله . .

قلت : إننا نحمد الله على ضعف النظر وعلى قوته . .

قال : الحمد لله .

ولم أفهم إن كان يحمده على أنه ترك له بعض النظر . . أو أعطاه كل النظر . . واستسلمت وتمنيت لو نمت كل الطريق . . بدلاً من هذه اليقظة السخيفة التى لا معنى لها . . فلا أنا سائق ، ولا أنا مستريح إلى السائق . وبسرعة مفاجئة أدهشت الرجل وهو لا يعرف ما يدور فى داخلى سألته : أنت نظرك ستة على ستة؟!

قال : نعم .

قلت : أنام أنا!

ونمت والصحراء حولى . . والطريق حرير . ومن بعيد تلوح بعض الأشجار وبعض الإبل . . والسيارات منطلقة بسرعة . والسائق عينه على الرمال . ولكن ملامحه تؤكد أنه لا يقوى على الرؤية . . ووجدت أن التحقق من قدرته على الرؤية موضوع سخيف . . وأسندت رأسى إلى الباب ونمت . . أو حاولت ذلك!

هذه المناطق الصحراوية هى التى يسمونها الواحات . . وهى بالفعل واحات خضراء فى قلب الصحراء الحمراء أو الصفراء . . والبيوت صغيرة ولونها أبيض . . وبعض البيوت تكسر اللون الأبيض باللون الأزرق .

ووصلنا إلى مدينة اسمها «غرداية» واتجهنا إلى فندق اسمه «ترانس أطلانطيك» وهو اسم غريب . فنحن فى قلب الصحراء . . والفندق اسمه : عبر الأطلنطى أى عبر المحيط ، والصحراء هى هذا المحيط الذى يجرى تحته محيط آخر من البترول والغاز الطبيعى ، وهنا ازددت إعجاباً بالسائق ، فلديه تعليمات ، وهو ينفذ التعليمات ، وهو الذى ينفق علينا وهو الذى يوقع الفواتير . . لقد فعل ذلك مئات المرات . وأعجبنى أكثر أنه جلس معنا يشرب ويأكل ويتحدث . . وبحث لنا وله عن غرفة . . وعثرنا على الغرف . . وهى تشبه الغرف التى نجدها فى الفنادق الاستوائية . . إنها ذكرتنى بفندق كنت قد نزلت به فى مدينة تريفندروم عاصمة ولاية كيرالا بالهند . . الحديقة وسط الفندق . والغرف مفتوحة الأبواب . . والغرف نفسها واسعة ولها نوافذ على وجه الأرض . . وليس من المناسب أن نثير موضوعا لا معنى له وهو : من أين تأتى الروائح الكريهة!

لأن الجواب سوف يكون : لقد كان يسكن هنا قبلك سائح أجنبى وخرج من لحظات!

فهل عندك حلول أخرى لسلوك الأجانب من السويديين والأمريكان والإنجليز!

ولكن رئيس مجلس المدينة كان قد أعد بيتا خاصا . وتمسكنا بالفندق حيث يوجد الناس من كل البلاد . وإن كان لم يدر بيننا وبين أحد حديث . ولكن هنا : ناس . . يروحون ويجيئون وتروح عيوننا وراءهم وأحياناً عيوننا لا تجىء!

وكان من اللائق أن نذهب إلى دار الضيافة . . والدار وسط حدائق شاسعة هائلة . . لابد أن هذا قصر . . وأن صاحب هذا القصر كان أحد المستعمرين واستولت عليه الدولة بعد ذلك .

وفى الليل كانت الطرقات مظلمة والأشجار متراصة متلاصقة . . والصمت دافئ استوائى رهيب . والمصابيح فى كل مكان خافتة وألوانها تشبه عيون رجال الأمن السهرانين . . حمراء مرتجفة . . ولكنها اعتادت أن تكون هناك وألا تضىء لأحد . . فقط تصبح لها فائدة إذا ظهر واحد من اللصوص .!

وكان البيت المعد لنا صغيراً . . البيت مريح . . كل شيء قد أعد لنا قبل ذلك . . وأعد لكبار الزوار . . وعلينا أن ننفرد به . . وقبل أن نأوى إلى الفراش يجب أن نلتقى برئيس مجلس المدينة ، وهو أيضاً يسكن فى بيت واسع شاسع . . الجدران مرتفعة والغرف كبيرة . وهو رجل هادئ رقيق قليل الكلام حتى ظننت أنه هو أيضاً ضيف مثلنا . أما الذين جاءوا لاستقبالنا فهم أكثر حماسا . وأكثرهم فصاحة واحد كان قد تعلم فى العراق . ولذلك فلغته العربية واضحة مبينة . وهو قد جاء وعاش فى مصر . . وتحدثنا فى كل شيء عن مصر . إنهم لم يعطونا فرصة لكى نسأل عن أى شيء فى الجزائر . فهم الذين استغلوا الفرصة وليس نحن . . وسألونا : كيف الحرب ، كيف الاستعداد . . كيف الطلبة! وما هو المسرح؟ والموسيقى والغناء؟!!

وفى ساعة مبكرة طبعاً صحوت . . ورحت أعد أشجار الحديقة . إنها بالليل كانت أروع . ولكنها مع ذلك جميلة واسعة . أما الأبواب العالية التى رأيناها فى الليل لقد كانت لنا ولغيرنا . . ففى هذه الحديقة توجد بيوت أخرى . . وتوجد ماكينة لرفع المياه . . ومركز لرجال الأمن . . أما البيوت فواضح أنها فى الريف فالأسوار عالية . ولا أحد يطل من باب أو من شباك . نحن هنا فى الواحات أو على أطراف الصحارى . والناس هنا من البدو والبربر والأفريقيين أيضاً . وهم خليط من هذا كله . . ولذلك نجد الأسود والأصفر والأبيض . والذين يرتدون الجلاليب والبدل . . والبنطلونات . . وبعض الفتيات اللاتى يعملن فى الفنادق . أو لا يعملن . . والمينى جيب للأجنبيات فقط . . وهن ممنوعات تماما أن يمشين بهذه الملابس القصيرة فى داخل الحوارى . . وبعض الحوارى مكتوب عليها لافتات واضحة . . فالحوارى تشبه أماكن مغلقة . ومن الممكن أن يقع لأية واحدة أى شيء ولا يستطيع أن ينقذها أحد . ولذلك كان من الواجب تحذير الأجنبيات . وهذا التحذير وجيه جداً . ولماذا؟

أولاً : الحوارى طالعة ونازلة . . ومن الممكن لأى واحد يمشى وراء ذات الفستان القصير جداً أن يتابعها إلى الأبد .

ثانياً : يهب الهواء عنيفا عند رؤوس الحوارى ويطيح بكل شيء وبعقول الرجال أيضاً . . إلخ .

والناس يركبون الحمير لينتقلوا بين السوق والبيت . . والحمير قد اعتادت على

تسلق السلالم ، فالمسافات طويلة ، والحوارى مرهقة لأكثر الناس حيوية وربما كانت الحوارى هى المسئولة عن الأناقة والرشاقة عند الرجال ولا أقول النساء فلم أر إلا قليلاً جداً منهن ، وهن لا يمشين وحدهن ، وإنما يمشين مسحوبات ـ الرجال يسحبون النساء . ولسبب غير معروف يمشى الرجل ببطء إذا كان مع زوجته . . وتمشى هى بسرعة إذا كانت وحدها . ولم يحدث أن رأيت رجلاً وامرأة يمشيان بسرعة إلا فى حالة واحدة . كان الرجل تدحرج من فوق السلالم فسقط بعيداً . . فانطلقت المرأة وراءه لا لكى تنقذه ولكن لتسبق الأحداث وترى كيف تكون نهايته . .؟

وسألت أهل الذكر : ولماذا سميت هذه المدينة غرداية ، قيل إنه من مئات السنين تخلفت فتاة عن القافلة ووجدت نفسها وحدها . ودخلت غاراً . وأضاءت فيه مصباحاً . وتساءل الناس : من تكون؟ قيل : إنها داية . . أو ضيا . . ويقال إن أحد الأبطال قال : أتزوجها؟

وذهبوا إليها وقال لها : يا داية . . إن أحد الرجال يريد الزواج منك . . ووافقت داية . . وسميت المنطقة باسم الغار الذى نزلت فيه داية ـ أى غار داية .

ولا تسأل نفسك أو الذين يروون لك القصة : كيف لم يفكر أحد فى إيوائها أو إطعامها ، قبل أن يفكر فى الزواج منها؟

ونذهب لزيارة مكان الغار . . والغار شق فى الحائط . . مرتفع جداً عن الأرض . أما كيف اهتدى الناس إليها وعرفوا هذا الغار ، وأين أتت هى بالزيت أو الشحم لتصنع المصباح ، فلا إجابة عن هذه الأسئلة ، ولا ضرورة لها ؛ لأنها قصة شعبية ذات معنى أخلاقى .

أما الرجل الذى تزوجها فاسمه سى بن مقدوم . . وقد دفنت داية وسى بن مقدوم فى مكانين متجاورين فى مقابر المدينة . . والمقابر ليست لها علامات مميزة غير بقايا القلل أو البلاليص أو الزهريات . . فقط يعلمونها بشىء لتذهب النساء وحدهن ويبكين ثم يعدن . . لأنه ليس من المألوف أن يذهب الرجال والنساء معا . . وبعد الزيارة ينتهى الحزن على الموتى . منتهى العقل . فليست عندهم الأهرامات التى هى أكبر مقابر عرفها وصنعها الإنسان؟

ويقال إن الناس عندما ذهبوا إلى داية يسألونها إن كانت تقبل الزواج من سى بن مقدوم قالت : موافقة . . أو قالت : سهلة . . أى أنها مسألة سهلة .

وأصبحت هذه الموافقة جملة تاريخية . . ولذلك فهناك قرية اسمها : لا لا سهلة؟

و (لالا) معناها السيدة صاحبة الصون والعفاف ، أى أنها سهلت للعريس كل شىء؟ ولا أعرف اسم الشاعر الذى قال :

رأيت غصنا على كثيب شبيه بدر إذا تلالا

فقلت ما الاسم؟ قال.. لولو فقلت: لى لى؟ فقال لا لا.!؟

ومن الكلمات التى سمعتها وأعجبتنى أنهم يقولون عن الشىء إذا أصبح كالشبح : إن الرجال شبحت ـ أى أصبحت كالأشباح؟

ويقولون فى هذه المنطقة أن سيدة فرنسية بعد التحرير سنة ١٩٦٢ طلبت أن تتبنى أحد الأطفال اليتامى وكاد الناس يقتلونها ، كيف أن الفرنسيين يقتلون أباه وأمه . . ثم تجىء فرنسية تعطف على ما تبقى من أسرته وقالوا : لو لم تكونى سيدة . . لو لم تكونى حسنة النية لقتلناك؟

وهناك رأيت سوقا للصناعات الريفية وهى المصنوعات الجلدية والخشبية والخرز والمنسوجات أيضاً ، ولم ألحظ أحدًا يشترى شيئاً سوى السياح الأجانب . . ورحت أدور هنا وهناك فقد رأيت ما هو أجمل وأغلى من ذلك فى العاصمة ، ولم يخفف عنى مشقة الدوران على الفاضى سوى أغنيات عبدالوهاب وعبدالحليم والأغانى الجزائرية البدوية المرحة والشجية أيضاً . .

***

ولكن عيون السياح وكاميرات العالم تتجه إلى مدينة أخرى مجاورة . المدينة اسمها «بنى يزجن» ـ ويقال إن معناها : ابنِ واسكن . . أى ابنِ لك بيتا واسكن فيه . فهذا حق لكل الناس .

المدينة بيوتها متراصة متلاصقة ، وحولها سور عال ، ولها مدخل واحد ، والبيوت لونها أبيض وأزرق . أو بنفسجى ولها برج عال ، ولا أحد يعرف شيئاً عنه ، والمدينة مقفلة تماماً على أهلها . . وممنوع التقاط الصور ، والإعلانات على الحائط تقول ذلك . وممنوع التدخين لأنه حرام . . وممنوع ارتداء الملابس القصيرة منعا باتا ، لأنه عيب أو حرام .

وكل رجال هذه المدينة يعملون بعيداً عنها ، حتى النساء والشيوخ والأطفال . أما النساء

فلا أحد يرى منهن واحدة ، وإذا خرجن فلا أحد يرى منهن شيئاً . وإن كان شكل الأطفال البيض يدل على أن الأب والأم من نفس اللون . . فبعض وجوه الأطفال حلوة .

هذه المدينة مقفلة تماما على أهلها . . تشبه الجمهوريات الصغيرة فى أوروبا مثل : جمهورية سان مارينو فهى أيضاً ذات سور عال وباب واحد . والباب يغلقه الحراس ليلاً . وأذكر أننى نسيت حقيبتى وحاولت أن أبوس أيدى الحراس بعد أن أقفلوا . وأخيراً أعادوا إلىّ حقيبتى دون تقبيل الأيدى؟

وهنا إمارة ليختنشتين على حدود سويسرا وألمانيا . . وأيضا لها أسوار وأبواب ويملكها أحد الأمراء واسم هذه الإمارة ، يلجأ إليه النصابون المتهربون من الضرائب؟

وعلى حدود أسبانيا وفرنسا توجد إمارة «أندورا» التى جعل منها الأديب السويسرى ماكس فريش مسرحية هاجم فيها النازية ، واستحق عليها النياشين من إسرائيل منذ سنوات .

وفى مدينة «بنى يزجن» توجدمحلات تجارية ، ومحلات الخضروات والفاكهة ويوجد كل ما تحتاج إليه المدينة ، وفى قلب المدينة يوجد سوق وعلى جانبيه يجلس شيوخ المدينة ، وكل بيت به عداد نور . وهذا البيت له رقم والعداد أيضاً .

والمدينة تذكرك بقرى النوبة التى يسكنها النساء والأطفال والعواجيز والشيوخ . أما رجالها فيعملون فى الشمال . . ويقال إن تجار هذه المدينة هم الذين يتحكمون فى البيع والشراء فى الجزائر كلها .

ويبدو أن أهل المدينة يعرفون أنهم طراز غريب من البشر ، وأن العالم كله يجىء إليهم للتفرج عليهم . ولذلك فهم «استعراضيون» يقفون وعيونهم على عينيك أو على الكاميرا . . وعندما استوقفنا بعض الرجال لنلتقط لهم صورة ، لم يضيعوا وقتنا فى أن ندلهم على كيف يجلسون أو يقفون ، فقد جلسوا من تلقاء أنفسهم وبعد لحظات بعثوا بواحد منهم يسأل : إن كنا سوف ندعوهم إلى شىء من القهوة أو الشاى؟

شىء من ذلك يحدث فى مصر أيضاً!!

وقد ظهرت مدينة «بنى يزجن» غلافا لكثير من الصحف العالمية . . إنها تستحق ذلك . فليس لها مثيل فى لونها أو شكلها أو نظامها أو القدرة على الحياة فيها . . وحوارى المدينة نازلة طالعة أيضاً .

وكان يرافقنا رجل فى التسعين من عمره ، أشفقنا عليه . . ولكنه كان قادراً على الاستمرار . .!! ولا أدعى أن الفكرة الخبيثة التى طرأت على رأسى قد استنكرتها أو طردتها . . فقد تعجلت وفاة هذا الرجل لنعرف كيف تستقبل هذه المدينة أجنبياً مات . .

وفى استراحة حاسى مسعود عدنا إلى المطاعم المريحة . . وتناولنا العشاء وذهبت إلى السينما . وكانت تعرض فيلم «راسبوتين» . . أقل من نصف الفيلم ، لأنه من الضرورى أن يأوى الناس جميعاً إلى فراشهم فى الساعة الحادية عشرة مساء . إنهم يفطرون فى السابعة ويتغذون فى الثانية عشرة . . ويتعشون فى الثامنة!

وفى الرابعة صباحاً حملتنا الطائرة الكبيرة إلى مطار «الجزائر البيضاء» . . ووجدت الأمطار قد غسلت الشوارع . .

. . مع أطيب تحياتى إلى الأصدقاء فى الجزائر .

* * *

فى هذا الكتاب

٢ - أطيب تحياتى من موسكو

٣ - اليمن.. ذلك المجهول

٤ - أيام فى الجزائر البيضاء..

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستـــاذ

أنيـــس منصـــور

(ا) ترجمة ذاتية:

١ – فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ – عاشوا فى حياتى.
٣ – إلا قليلاً.
٤ – طلع البدر علينا.
٥ – البقية فى حياتى.
٦ – نحن أولاد الغجر.
٧ – من نفسى.
٨ – حتى أنت يا أنا.
٩ – أضواء وضوضاء.
١٠– كل شىء نسبى.
١١– لأول مرة.
١٢– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣– الحائط والدموع.
١٤– وجع فى قلب إسرائيل.
١٥– الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
١٦– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترِى علينا.
١٧– فى السياسة (٣ أجزاء).
١٨– الدين والديناميت.
١٩– لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
٢٠– السيدة الأولى.
٢١– التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣– على رقاب العباد.
٢٤– ديانات أخرى.
٢٥– وكانت الصحة هى الثمن.
٢٦– الغرباء.
٢٧– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨– عزيزى فلان.
٢٩– هى وغيرها.
٣٠– بقايا كل شىء.
٣١– يا من كنت حبيبى.
٣٢– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريدريش ديرنمات:
٣٣– رومولوس العظيم.
٣٤– زيارة السيدة العجوز.
٣٥– زواج السيد مسيسبى.
٣٦– الشهاب.
٣٧– هى وعشاقها.
** للأديب السويسرى ماكس فريش:
٣٨– أمير الأراضى البور.
٣٩– مشعلو النيران.
** للأديب الفرنسى جان جيرودو:
٤٠– من أجل سواد عينيها.
** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:
٤١– بعد السقوط.
** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:
٤٢– فوق الكهف.

** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:
٤٣- الإمبراطور جونس.
** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:
٤٤- تعب كلها الحياة.
** للأديب الفرنسى أداموف:
٤٥- الباب والشباك.
** للأديب الإسبانى أرابال:
٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.
٤٨- من أول نظرة.
٤٩- طريق العذاب.
٥٠- ألوان من الحب.
٥١- شباب.. شباب.
٥٢- مذكرات شاب غاضب.
٥٣- مذكرات شابة غاضبة.
٥٤- جسمك لا يكذب.
٥٥- الذين هاجروا.
٥٦- غرباء فى كل عصر.
٥٧- أظافرها الطويلة.
٥٨- هموم هذا الزمان.
٥٩- زمن الهموم الكبيرة.
٦٠- الحب الذى بيننا.
٦١- عذاب كل يوم.
٦٢- كيمياء الفضيحة.
٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.
٦٥- الذين عادوا إلى السماء.
٦٦- القوى الخفية.
٦٧- أرواح وأشباح.
٦٨- لعنة الفراعنة.
٦٩- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.
٧١- وداعًا أيها الملل.
٧٢- كرسى على الشمال.
٧٣- ساعات بلا عقارب.
٧٤- مع الآخرين.
٧٥- شىء من الفكر.
٧٦- لو كنت أيوب.
٧٧- يعيش.. يعيش.
٧٨- الوجودية.
٧٩- طريق العذاب.
٨٠- وحدى.. مع الآخرين.
٨١- ما لا تعلمون.
٨٢- لحظات مسروقة.
٨٣- كتَاب عن كتب.
٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦- أوراق على شجر.
٨٧- فى تلك السنة.
٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.
٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.
٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.
٩١- فلاسفة وجوديون.
٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.
٩٤- بلاد الله خلق الله.
٩٥- غريب فى بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.

٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٢- مدرسة الحب.
١٠٣- حلمك يا شيخ علام.
١٠٤- مين قتل مين؟
١٠٥- جمعية كل واشكر.
١٠٦- الأحياء المجاورة.
١٠٧- سلطان زمانه.
١٠٨- العبقرى.
١٠٩- كلام لك يا جارة.
١١٠- فوق الركبة.
١١١- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٢- يوم بيوم.
١١٣- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٤- إلا فاطمة.
١١٥- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٦- حقنة بينج.
١١٧- اتنين.. اتنين.
١١٨- عريس فاطمة.
١١٩- من الذى لا يحب فاطمة؟
١٢٠- غاضبون وغاضبات.
١٢١- هى وغيرها.
١٢٢- هى وعشاقها.
١٢٣- العبقرى.
١٢٤- القلب أبدًا يدق.
١٢٥- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٦- ثم ضاع الطريق.
١٢٧- النجوم تولد وتموت.
١٢٨- هناك أمل.
١٢٩- أحب وأكره.
١٣٠- الحيوانات ألطف كثيرًا.
١٣١- مصباح لكل إنسان.
١٣٢- أتمنى لك.
١٣٣- لعل الموت ينسانا.
١٣٤- اقرأ أى شىء.
١٣٥- ولكنى أتأمل.
١٣٦- حتى تعرف نفسك.
١٣٧- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
١٣٨- نحن كذلك !!
١٣٩- اللهم إنى سائح.
١٤٠- كائنات فوق.
١٤١- تعال نفكر معًا.
١٤٢- آه لو رأيت !
١٤٣- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٤- انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٥- هناك فرق.
١٤٦- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثانى.
١٤٧- يا نور النبى.
١٤٨- وأنت ما رأيك.
١٤٩- حضارة الإوز والبقر.
١٥٠- حلمنا الجميل.
١٥١- ضاع الجيل ضاع.
١٥٢- قالوا (الجزءان الأول والثانى).
١٥٣- وآخرتها.
١٥٤- من أول السطر.
١٥٥- أظافرها الطويلة.
١٥٦- القلب لا يمتلئ بالذهب.
١٥٧- تكلم حتى أراك.
١٥٨- الذى خرج ولم يعد.

١٥٩– ليلة فى بطن الحوت.

١٦٠– والله زمان يا حب.

١٦١– أجيال من بعدنا.

١٦٢– قلبك يوجعنى.

(ل) الترجمات القصصية:

١٦٣– رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.

١٦٤– (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.

١٦٥– (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.

١٦٦– (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.

١٦٧– (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.

١٦٨– (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

١٦٩– الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.

١٧٠– الفلسفة الوجودية الفرنسية – لجان جاك رسو.

١٧١– معنى العدم عند هيدجر وسارتر – لجانيت أردمان.

١٧٢– مسرح العبث الفرنسى – لإتيان ماريبو.

١٧٣– الفيلسوف الروسى برديائف – لفيكتور لوزتسيف.

١٧٤– من كيركجورد إلى مارسيل – لأنطوان بابيف.

١٧٥– سيمون دوبوفوار تلميذة رصينة – لفرنسواز روسلان.

١٧٦ – رسائلها إليه – لفرنسواز روسلان.

١٧٧– فاشلون لكن نبلاء – لجان مارى روار.

١٧٨– ما الميتافيزيقا؟ – لمارتن هيدجر.

١٧٩– الوجودية فلسفة إنسانية – لجان بول سارتر.

١٨٠– فلسفة حنا أرنت – تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر – لآدم برجشتاين.

١٨١– كروتشه فيلسوف الحرية – لإيرابيلا دلورنتس.

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع